سيرة ذاتية



سلمان العودة

دون التَّذكر..
فوق النسيان..



طفولة
قلب
سلمان العودة

الطبعة الثانية

1432 هـ - 2011م

ح/ مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٢هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العودة، سلمان فهد عبدالله
طفولة قلب، دون التذكر وفوق النسيان (مذكرات).
/ سلمان فهد عبدالله العودة
الرياض، ١٤٣٢هـ. ٥٨٦ ص؛ ٥x ١٤,٥x ٢١ سم
ردمك: ٩-٨-٩٠٠٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١-العودة، سلمان فهد، ١٣٧٦هـ.
ديوي ٩٢٢,١١٣ ١٤٣٢/٢٧١٧
رقم الإيداع: ١٤٣٢/٢٧١٧
ردمك: ٩-٨-٩٠٠٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الإسلام اليوم
مؤسسة الإسلام اليوم
للنشر والإنتاج
المملكة العربية السعودية الرياض
ص.ب. 28577 الرمز : 11447
هاتف : 012081920
فاكس : 012081902
جوال: 0555866044
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net

التنفيذ الفني



دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108
للتواصل الفني والنشر:
0552174412
wojoooh@hotmail.com
رسوم داخلية: حاتم حسن

يمكنكم التواصل مع الشيخ عبر العناوين التالية
salman@islamtoday.net
www.islamtoday.net/salman
www.youtube.com/drsalmantv
www.islamtoday.net/fb
www.twitter.com/salman_alodah

لماذا.. كيف.. أين؟!

كان غيره يبكي كلما سنحت له الفرصة.. أما هو فكان يَخْتِل الفرص في محطات القطار، وكراسي الانتظار، وغرف الغربة؛ ليكتب.

كان يتوسد منتصف عمره وأكثر، يعود بذاكرته الخمسينية طفلًا يجتر أفراحه، أوقد منارة الفجر في قريته الصغيرة، ثم رحل.

ظل يحمل حقيبة الزمن، وتكبيل الدقائق؛ ليسافرا معا في ذاكرة الكتابة.

ست سنوات وهو يقلب شواهده، يصالح ذاته، يُطعمها الوحدة والجوع والغربة، يُسكنها الممراتِ البعيدةَ.. أقبية الوحشة.. منافي الألم.. أم رحلت.. عصفور مات فجرا.. جموع ألفت صوته وألف حضورها.. الأصدقاء ورائحة خبز الطفولة!

يكتب واقفا.. هذه الوجوه التي ينحتها صرير قلمه تستحق الوقوف!

أما الثقوب السوداء؛ فكان يرممها بقلبه، ويصلي عليها صلاة التسامح.
هل أكتب ؟!
كان يسأل نفسه!
وماذا ستكون الكتابة عند ذاكرة لم يعد الحرف يتسع لها، ولم تعد ذاكرة الآخرين تحتملها..
ربما لصغاره.. الذين ولدوا «هنا»، يوم أن كان هو «هناك»!
وربما كان يجيب عن أسئلتهم، وعن بائع الجرائد الذي أتى في موعده، فلم يجده، كان الغياب أكبر فجيعةً من السؤال.
إذًا.. هو يكتب، ومعاذ، وعبد الله، وغادة، وآسية، ومحمد، ونورة، والبراء، يقترفون مرارة سؤالهم المبكر.. أما عبد الرحمن فكان يبحث عن بقية الإذخر في كفّ أبيه الذي لم يحضر!
ونحن الذين قَلَبْنَا جِرارنا، وجلسنا على حافة أيامه، بقينا مذهولين أمامه!
ست سنوات يصالح ذاكرته، يُبرم صفقاته الغاليةَ معها..
في تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل يومض (جوالي) برسالة:
«...مقال خريف العصافير انتهى».
أعرف وقتها أنه كان في غربته، وأن لندن تُخفي دموعه..لم نكن نعترف بالوقت.. بقدسية الليل..بطرْق الباب..الأهم كان أن يحضر!
ست سنوات يكتب.. وفي ذيل الصفحة.. الرياض/ القصيم/ جدة/ لندن/ دبلن/ القاهرة/ الدوحة/ الرباط/ طرابلس... أخيرا دبي وبقية المدن الظامئة.
ست سنوات لم تطوّقه مساحة محسوبة في (الإسلام اليوم) مجلةً وموقعًا كان يرسم مساحته بانهار ذاكرته، والمساحة تتغير (بليل داناته) المُوجِعة.
هنا نجمع شتاتها.. المقالات المفصولة بالشهر والسنة، تآختَ تحت

«طفولة قلب».. في ثوب يضم أكثر من ثلاثة وسبعين بوحًا، يلم شتاتَ أولاد الربيع والخريف والصيف والشتاء، والكلماتِ التي وُلدت أمام الجدار، وتوهجت «خلفه».. بين أكبرها وأصغرها مساحةٌ تتسع لها قلوبكم!

الناشر



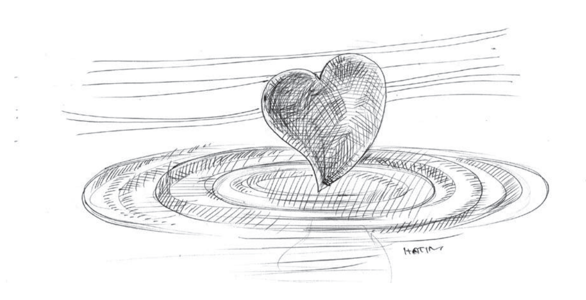
إلى أطفال العالم .. حينما لعبوا
كنت يوماً ما أحدكم

إلى شيوخ العالم .. حينما تعبوا
ربما أكون يوماً ما .. أحدكم

سلمان العودة
٢٥/ ٢/ ١٤٣٢هـ
٢٩/ ١/ ٢٠١١م
الرياض

١

طفولة قلب



خمسة وأربعون عامًا مضت، والمشهد قرية هادئة، وطفل صغير يحمل ثلاث سنوات من عمره. قلبه -أيضًا- صغير مليء بالبراءة والبهجة..

وطـــن النجوم أنا هنـــا	حـــدّق.. أتذكر من أنا؟!
ألمحت في الماضي البعيـــــ	ـــــد فتى غريرًا أرعنا
جذلان يمرح في الحقو	لِ كـــما النسيم مدندنا
يتسلق الأشجـــــار لا	ضـــجرًا يحس ولا ونا
ويعـــود بالأغصان يبريـ	ـها سيوفًا أو قنى
أنا ذلك الولـــد الذي	دنياه كـــانت هـــا هـــنا

صبي يقفز مع الصغار، وأحيانًا يزاحم الكبار، يبحث عن رغبات

وأمنيات تنساب في ينابيع طفولته الطريّة.
أقصى ما يتمنى حلوى يلعقها، أو قطعة بسكويت يتملاها قبل أن يقضمها، أما الكاكاو فلم يكن له وجود في عالمه!
وحب وحنان من تلك الأم الرؤوم.
وهناك الفوز الأعظم؛ حين يرتمي في حضنها الدافئ قبل إخوته؛ ليحتله بالكامل، وينتشي بابتسامة عذبة، حينما تتمتم بأدعية لا يفهمها؛ ولكنه واثق أنها حتماً تدعو له بخير، وتدبر أموره على خير.
في الخامسة انتبه إلى أن هناك رجلًا في الدار يجب أن يحوز على إعجابه ورضاه، ويثبت أمامه رجولته.
وكم كان يعجبه أن يبدو كوالده رجلًا.
هو رجل بسن الخامسة.
غترته الطويلة تصل أطرافها إلى الكعبين، كثوب، ربما يتسلل للدكان؛ حيث الرجال، والحلوى، والحب.
حلم بدأ بأمه، ثم بوالده، ثم به؛ حيث ينمو وينمو، ينمو حلمه، يكبر ويكبر معه تمامًا، كقذف حجر في بحيرة، دوائر تحيط بنقطة السقوط صغيرة، تكبر تباعًا. وربما تحور الحلم، أو تبلور، أو تغير حسب مراحل حياته.
جدران بيتهم الصغير لم تعد حدودًا لذاك الحلم فقط.
نما وخرج إلى الشارع.
ثم الرفاق.
فالحارة.
فالمدرسة.
فالمركز...
اتسع وتشعَّب كشعاع شمس.

عندما قطع جزءًا من مرحلته الابتدائية كان حلمه أن يصبح أحد إخوته طبيبًا، وليس هو، فهو يكره رؤية الدم.

ولماذا طبيب؟!

لأن والدته كانت تعاني من (القيلون) -حسب تعبيرها-؛ حيث الألم الذي يؤلمه.

مَن حوله يثني على لغته، وحفظه، لكن الأفكار كانت عاجزة عن فهم ماهية قدراته.

إيحاء الفكرة اخترق حلمه؛ فشعر بالتميز، وانطلق نحو الأفق؛ ذاك الإحساس المشع يجب أن لا يُهمل، وهو دافع لإلهاب الخيال اليافع تجاه مستقبل تخبئه الأيام الحبلى.

أخذ ينهل من العلم، ويزداد نهمًا للقراءة..

بدأ يظهر، ويكبر.

والأب خير معين.

لم يقف في طريق خطواته، ولم يحاول تحجيم أحلامه إطلاقًا، ما دام يسير في الطريق الصحيح، لم يكن والده متعلمًا بما يكفي، لكن حكمة الأيام والتجارب، كانت مدرسة طالما أخذ منها وعانى مراراتها، ولا زال يذكره: يتلو القرآن من مصحفه الكبير بتحزين وتخشع.

عقله يسابق جسده في النمو؛ لدرجة أنه ربما اغتال لهو الطفولة البريء، إلى جد الرجولة الجريء.

قرأ، وعرف.. اتسعت ثقافته، وكلما نضج، علم أن ثمة هدفًا لم يبلغه بعد..

ذاك الطفل الذي أراد أن يصبح رجلًا موزون الكلمة، عالي الهمة...لم يلزم نفسه بأكبر من طاقتها.

حدَّد أهدافه..

فمن لا يعرف إلى أين يتجه قد تنتهي به خطواته إلى ما لا يجب أن يكون، ولا يستمتع بما وصل إليه.
مؤمن بأن الفشل ليس نهاية المطاف، والخطأ ليس ذريعة للتقوقع.
المهم أن لا تسلب ثقتك.
تشرَّب قانون الحفاظ على التوازن في جميع الأمور.
رسم صورة في ذهنه لمستقبل مشرق بدرجة كافية، صورة تزوده بالأمل في لحظته الحاضرة.
طاقة إيجابية تدفعه ليحقق الحلم، وتشعره بأهليته.
إذًا فليثبت ذاته بجدارة.
النزعة الكمالية لم تكن مطلبه أبدًا؛ لأنه يعلم أن العيش بتلك الطريقة مثقل للكاهل، ومبطئ للخطى، ومضيع للوقت، ويشعره -أيضًا- بأنه سيموت عندما يرتكب خطأ ما.
لذلك بدا له أنه اجتماعي بطبعه شاعر بالانجذاب إلى الآخرين، فليحكم شبكة علاقاته معهم بقدر ما يشعر بانجذابهم نحوه.
كما بدا له أن الكمال بالجماعة لا الفرد، وأفضل اللحظات: تلك التي ينسجم فيها مع الآخرين، ويتعاون معهم، ويكسب ثقتهم، ويتأثر بهم بشكل كافٍ؛ ليحبوه فلا يفرّطوا فيه. كان واضحًا مع نفسه، متقبلًا لها؛ لذلك استخدم معاييره الشخصية، ومعايير المجتمع؛ ليحقق امتيازًا سعى نحوه.
ذلك الطفل الذي يحلم بالحلوى (المصّاصة) مثل التي مع ابن العمدة.. تقدم فتحولت الحلوى إلى ميكرفون؛ يلتقط كلماته ليصبها في آذان مستمعيه.
ينظر إلى ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فيرى أنه في مرحلة الحضانة، لم يعلم أنه سيكون ذلك الصبي في الابتدائية، وفي المتوسطة، لم يعلم أن

ذاك الفتى سيكون فتى النشاط والتوهج في الثانوية، وإن كان يحلم بأن يكون.

والآن ذلك الشاب لم يكن يعلم أنه سيكون كما هو اليوم، وإن كان يتوقع موقعًا مشابهًا، إن حالفه الحظ، وتكللت مساعيه بالنجاح.

وبرغم كل شيء فإنه لا يعلم أين سيكون في مرحلته المقبلة، كل ما يعلمه أنه يرجو أن يأخذ ربُّه بيده إلى طريق الخير.

هو هو ما يزال ذلك الطفل الشاعر بالبراءة في أعماقه، يسعد بصفاء النفس مع الآخرين، ويتتلمذ بطواعية تجاه الدروس العفوية الممتعة التي تزخر بها الحياة من حوله، يتلقنها من الصغار في عفويتهم، ومن الكبار في ميادين تجربتهم، ومن القراءة في حقول المعرفة.

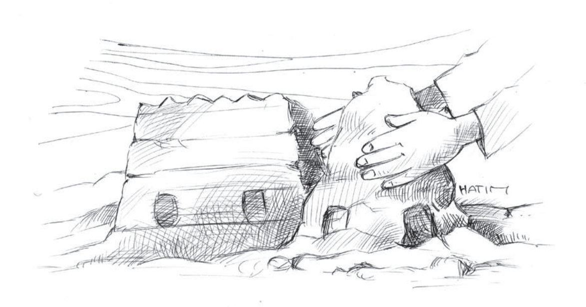
أجمل ما يحس به أنه يعرف جهله؛ فلا يغره إطراء المادحين، ويعرف صدق مقصده؛ فيؤمن أن الله اللطيف سيرعاه، ويمنحه القوة والصبر على عنت الحياة، و تجاوز الأحجار التي يضعها من لا يفرحون بالنجاح.

من تجربته الصغيرة آمن بطفولة القلب، ولم يؤمن بطفولة العقل!

◆◆◆

2

بيتٌ منْ الطِّينْ



تتسلل النفس بعيدًا على قرب، تحاول استعادة تلك الأطلال الساكنة، ويتقافز القلب كأيل صغير، يلجم القلم أمام هديل مشاعر ينفثها ماضٍ جميل.

هنا يد صغيرة تدفع بابًا من الخشب القديم، لتدلف إلى دهليز ضيق، ذي جدران من الطين المعجون بالقش، وفي نهاية الرواق غرفة تمثل (الوجاهة)؛ حيث (القهوة) -كذا تسمى- يجلس فيها الرجال والضيوف، وتوقد فيها النار، وتصطف في زاويتها أباريق الشاي والقهوة.

وإلى جانبها فناء ينتهي بعريش لا زال يذكر أنهم يسمونه (المقدمة)؛ حيث هو واجهة الدار، وهي كلمة تنطق ساكنة الميم وبـ«قاف» تقترب من «الكاف»! وأحيانًا تذهب بعيدًا إلى «الزاي».

وأمامك (القبة) ذات الامتداد المستطيل، وهي تشبه (الصالة) اليوم،

تفتح عليها غرف عديدة، هذه صفّة المخزن، وهذه صفّة النوم.. وما أحلى ذكرياتها، خاصة في الشتاء، إذ ينام الأبوان مع الأطفال فيها؛ طلبًا للدفء، وحيث تمسح الأم عليهم بيدها الحانية تعوذهم، وتترنّم بصوت حلو، ليس يدري أهو قرآن، أم أبيات من الشعر؟!
يكفي أنه صوت الأم، ويكفي أن روحها الطيبة تملأ المكان.

تمنيت لو أفتديك بعمري وأهدي إليك المنى والورود
حضنتك طفلًا يلوذ بصدري حنوت عليك بقلبٍ ودود

وهذه صُفّة (القعوسة) وهو يعرف القعس الذي يراه، وربما تخيله، يحمل متاعًا ضمن قافلة تجارية، لكن لا يدري لماذا خصت الغرفة بهذا الاسم!
وقبالة هذه الغرف سلالم تسمى (الدَّرَج)، طراز قديم اندثر، ثم عاد، يتصل بـ(الروشن) الغرفة العلوية الوحيدة، التي يبدو أنها في نظر الأبوين تحتفظ بعبق الزوجية، وذكريات الأيام الأولى، ولا أدل من حزمة الملابس المعلقة بالوتد؛ حيث كان الطفل يخفي عن أهله بعض أشيائه الأثيرة..
أما السطح فالشتاء يكشف عن أهميته حين تجلس الأسرة الصغيرة في شمسه طلبًا للدفء، وتنظر بوجل إلى السحاب خشية تسرُّب المياه عبر سقف مصنوع من الخشب والجريد!
وخلف الدار فناء آخر غير منتظم الأطوال، يشبه بناءً قديمًا، فرشت أرضه بروث البهائم، وهو متنفس للعب الصبية، وتقاذفهم بهذا الزبل، حتى الباب كانت خلفيته تشبه السبورة يكتب عليها إخوانه الكبار دروسًا وهمية؛ حيث تخيلوا أنفسهم في مدرسة، وسجلوا أسماء الطلاب، وأجروا لهم اختبارات، وكوَّنوا عن كل شخصية منهم انطباعًا

خاصًا، كما لو كان أحد أبناء الجيران، ولا زالت الذاكرة الجمعية تحتفظ بتلك الأسماء والملامح!

إنها صورة تقريبية لمعظم بيوت القرية.

أطلال بائدة.

وأيام خوالٍ.

وأناس راحلون.

ليست مجرد صورة عابرة، بل روابط عاطفية تصل الحاضر بالماضي، تتطور الدنيا، وتنمو الحياة، ومعها معالمنا الجسدية، وعلاقاتنا الاجتماعية.

الماء من تلك السواقي له مذاق خاص، والرمال الممتدة كانت مسرحًا للخيال، ومراحًا للنفس، والقمر الجميل كان يشهد ليالي السحر؛ حيث الصغار والكبار، وأهل القرية أسرة واحدة، وإشراقة الفجر: إضاءة أمل، يدفئ شعاع شمسها برد الحياة.

الزرع؛ حيث هو العمل المثمر لسكان القرية. الخَبّ؛ حيث المكان المنبسط المحاط بتلال الرمل...

النخلات الباسقة تقف في شموخ، وذاك الرجل في أعلى النخلة يخرف التمر والرطب..

كم كان الصبيُّ يحك رأسه، ويتحسس طاقيته الملونة ويتساءل: كيف استطاع الوصول إلى هناك؟!

هل يا ترى كانت الحياة حقًّا بسيطة وعفوية، أو هي حلاوة الذكرى تزين في عيوننا الماضي فنستلذ به؟!

أو كان ذلك القلب البريء قادرًا على تحويل ما يدخل إليه من مشاهد ومواقف إلى بهجة وفرح؟!

كقبضة اليـد قلبي في مســاحته   لكنــه ســاحة كبرى لأحبــابي

يضم دنيا عجيبًا أمرها.. وبها لهوي وحزني وأفراحي وأوصابي

وتبقى العلاقة الإنسانية النبيلة هي الخيط المتين الذي يربط الماضي والحاضر والمستقبل، في سمو وترفُّع، ووصال وفراق.

الأزقة الضيقة المتعرجة تشهد ضجيج الأطفال وصخبهم، ومعابثاتهم الدائمة حتى وقت الظهيرة حين يخلد الكبار إلى القيلولة، والغبار المتصاعد من الأقدام الصغيرة يعبر عن الحياة والحركة.

المسجد قلب نابض للقرية، خاصة وأن (البصر) -اسم قريته- تحتضن المسجد الجامع الوحيد من بين القرى المجاورة، هناك تلقى خطبة مقروءة من ديوان متكامل قديم، وإذا كانت الخطبة الأولى دورية، فإن أختها تعاد أسبوعيًّا، فلا غرابة أن حفظ الكثير من كلماتها ودعواتها، وإن لم يفقه معناها.

المسجد الجامع مزية كبيرة في حمى التنافس القروي، ومصدر فخر في مجالس المنافرة التي تذكرك بالطبيعة العربية؛ حيث لكل قبيلة شاعر، وهذا بعينه كان قائماً، فالشاعر (ابن جربوع) كان لسان أهل القرية في مجريات حياتهم، وشعره العذب الفطري يُردَّد في مجالس النساء ومحافل الرجال، ويحفظه بعض الصبية.

ذات مرة أبصر بدوية تخض (صميلها) وأدرك سحر الشعر على العربي وعلى المرأة خاصة فقال:

ما من صبوحٍ..؟ مصبحٍ عطشانْ ياهل الصميل اللي تخضونه!

قالت له: انتظر قليلًا. فرد على البديهة:

صبوا لنا نشرب، ولو ما زان والزبد غير اليوم تلقونه!

فأسقته حتى روي.

إنه تعبير أخاذ عن الفقر والجوع، وسهولة العلاقة بين الناس، والنكتة الطائرة، وسرعة البديهة.

تلك المقطوعات السريعة كانت تدوينًا للأحداث والأشخاص.. الناس في القرية يهتمون بالتفاصيل ولا ينسونها؛ لمحدودية المكان، وترابط السكان، والفراغ، والسمر يعني أن زواج فلانة، وطلاق أخرى، ووقوع أحد المراهقين في فخ التدخين، وتخلف زميله عن صلاة الفجر، والسفر والقفول ولو إلى (بريدة) التي كانوا يقصدونها بواسطة (البريد) يوميًّا.. هو حدث ذو أهمية، ولا بد أن يتم عرضه في برامج المساء.

وقد يعز على من يسمع تلك الأحاديث أن يسمع أسماء كان اعتاد سماعها، فكلٌّ فرد أو أسرة لها لقب تعير به، حل محل الاسم الأصلي، حتى نسخه فلا يعرف إلا في الوثائق الرسمية، أو في عدّ الإمام الذي يتفقد الجماعة بعد صلاة الفجر يوميًّا.

هذه الألقاب تعبير غير رشيد عن الحميمية والقرب والمعرفة المباشرة.. ربما كانت للتمييز بين من يحملون أسماء عائلية متماثلة.

أما نصيب الصغار -حيث لا تلفزة، ولا أفلام كرتون- فهو قصص السعالي والجن والعفاريت، والقطط السود المسكونة، والأقراص الحامية والصواعق التي تهدد بها الأمهات صبيانها، فهي تنزل من السماء على رأس من يكذب أو يخالف كلام والديه!

أهداف نبيلة، ووسائل مغرقة في الخطأ!

إنه تهديد يرتعد له قلب الطفل حين يتخيل عقله الطفولي أنه مستهدف بهذا الجرم الهائل الحارق، وربما اكتشف مع الوقت ألا حقيقة لهذا؛ فلم يعد يعبأ بالتخويف.

لكن أكثر ما كان يرعبه قصص العجائز اللاتي يأكلن لحوم البشر،

وتلتفّ قبضاتهن المحكمة على الأعناق فجأة، ومن دون مقدمات، والتي كانت تُقال عند النوم، وما يزال يذكر كابوسًا وهو في الصُّفّة لم يعرف إلى الآن أهو يقظة أم منام!

تلك الأيام الغوامض من سني الطفولة هي فترة تأسيس الشخصية، وتحديد اتجاه الطفل نحو ذاته، وثقته بكفاءته، وتحديد حجم التفاعل بينه وبين أفراد أسرته ومجتمعه الصغير.

ثمة نموذج مصغر للآباء في أولئك الأطفال يجتمعون حول التراب المبلول بالماء، ويسمونه (حكا)، لأنهم يشكلونه ويعبثون به أثناء سرد الحكايات، وأيديهم الصغيرة تبني منه بيوتًا وأسوارًا، وترسم لوحات، وتُعبِّد طرقًا ربما لم ترها بعد.

ولكنها مستمدة من المصدر ذاته: الجن والعفاريت والحيوانات المتجنسة التي تتظاهر بأنها قطط أو كلاب وهي على الحقيقة من فصيلة الجن!

يتذكر أسماء بعض هؤلاء الجنيات المخيفات، وأبرز القائمة هي «حِلْكة بنت فِلْكة»!

الألعاب الطفولية البريئة هي متعتهم، فمن (عظيم لاح) وهو عظم يرمونه ليلًا ثم يبحثون عنه.. إلى (أم خطوط) وعندما يتأخرون يسمعون صارخًا:

العبـــــوا ولّا ســـرينـــا غـــابت القمـــرا علينـــا!

تشهد القرية حركة غير عادية، إنها مكينة لها صوت عالٍ متواصل، وطقطقات متناغمة لاستخراج الماء من البئر، وصوتها المسموع في القرية كلها هو دليل على التطور الذي تشهده البلدة.

إنه إيذان بزوال عصر الآبار العادية التي كانوا يستقون منها، ويسبحون فيها، ويسمونها (القلبان).

البصر، والمنسي، والنخلات، والعاقول، والغماس.. مجموعة قرى، أو

خبوب متجاورة متكاملة.
أما (الذخيرة) فمزرعة تسمى قرية، وتتوسط بين مجموع تلك القرى وبين بريدة وتشتهر بقصص العفاريت والجن الذين يضللون المارة، وأحيانًا يسلونهم بأهازيجهم، وربما أوقدوا النيران في أطراف عصيهم كما سمع هو من والده مباشرة.
الجن يكمنون هناك بين أشجار الأثل؛ فيتربصون بالمارة، والحكايات تمنحهم هذه المهمة التي يظهر فيها الكبار شجاعتهم، ويخفي الصغار هلعهم.
وحين تتزوج البنت من قرية أخرى يكون محزنًا للأم أن البنت ستكون بعيدة عنها، وإن كانت الذاكرة تختزن سفر الأزواج بمفردهم سنين طويلة إلى الشام أو أنحاء الجزيرة.
(عبد الله) الجدّ هو صاحب مزرعة في (المنسي)، وتجارة في البصر، وهو يبيع الثياب والطعام للبادية بالآجل نظير زيادة في الثمن، ولأنه تزوج بأكثر من امرأة ظل هو الفرع النشط في ذرية (دخيل)، وبينما كان مستقر ذريته في البصر وما جاورها، كان آخرون في الأحساء، وليس واضحًا ما إذا كان أصلهم هنا -كما يرجِّح كبار السن- أو كان في الأحساء، ثم نزحوا إلى هنا.
وكونهم من (آل دخيل) من (الجبور) من (بني خالد) ليس دليلًا على أنهم من القصيم أو من الأحساء، فالعائلات الخالدية منتشرة هنا وهناك.
دكان القرية يملكه (فهد) الذي عاش مرارة اليتم والعيلة والترحال، حتى استقر به المقام في قريته التي وُلِد فيها، تزوج من أسرة اللحيدان؛ حيث كانت زوجته تعرف بـ(نورة الهول).
هذا أبوه، وتلك أمه.

«رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» [الإسراء: ٢٤].

هذا بيت من الطين

وذاك بيت من الطين

هذا بناه الأب

وذاك بناه الرب

هذا من البشر

وذاك من المدر

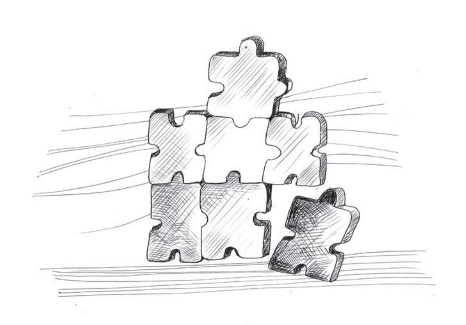
هذا معجون بنفحة من القش

وذاك معجون بنفخة من الروح.



3

طفولة أب



رجل أربعيني يجلس حول النار، يحتسي القهوة العربية، ويتناول تمرات من المكنوز، يفصل بين التمرة والتمرة بعبارات الحمد والشكر والثناء، ويسرح به الخيال بعيدًا عن صبيته الصغار المتحلقين حوله بحبور، قبل أن يعود إليهم محملاً برائحة الذكرى الحزينة لطفولة لم تعش كما عاشوا.

الأبوة مدرسة في الحياة، تصنع الأنموذج والقدوة للصغار، يمد حبله بهم، يبعث فيهم روح النجاح والتفوق؛ إذ هم امتداد العمر بعد الذبول والانطفاء.

تنازع أحمد بن أبي خالد وإبراهيم السندي بين يدي المأمون، قال أحمد:

- أمير المؤمنين أفضل من آبائه قدراً، وأرفع محلاً.

فقال إبراهيم:

- بل أمير المؤمنين دون آبائه، وفوق غيره، وأرفع أهل دهره.

فقال المأمون:

يا أحمد! إن إبراهيم يبنيني وأنت تهدمني، ويبرم حبل مريرتي وأنت تنقضني.

يكبر الأب ويبزغ الشيب في فوديه، فيغلب عليه حب الحديث عن حياته، كأنه ينقل رسالة جيل لجيل جديد، تجربة حياة لحياة أخرى.

كان حكيماً ذاك الذي قال: «إن من الخير ألا يرحل الكبار إلا بعد أن يتعلم الصغار»!

نشأ يتيماً فقد مات أبوه (عبد الله العودة) وهو في سنته الأولى، فسنة واحدة غير كافية لأن يخبر طفل نكد الحياة..

وخلَّف لهم هذا الأب ثروة طيبة، ولكنها لم تكن لتعفيه من المتاعب؛ فالأولاد كثيرون، والحياة صعبة، ولا بد أن يبني الصبي نفسه؛ لأن النظام التربوي يقتضي حينها تعويد الطفل على مواجهة المسؤولية وتحمُّلها، والحفاظ على (قرشه) الأبيض ليومه الأسود.

مات عبد الله، الأب، عام (١٣٣٥هـ -١٩١٧م) تقريبًا، والصبي (فهد) دون الحول، نشأ عند أخواله (الحبيب).

ابن ست سنوات ذهب مع البدو ليرعى غنماً لهم قرب المدينة المنورة، في مثل السن التي يذهب فيها الأطفال إلى المدرسة وهم يحجمون ويبكون!

كان التباين بين جسده وعقله كبيرًا جدًا.

مكث نحو سنة، مثالاً لانتهاك حرمة الطفولة، ولقسوة حرمانٍ لا يفرِّق بين الأعمار، كان يُعاتب على أي خطأ بأن يُرمى على الأرض، ويوطأ جسده، ويعرك وجهه بالتراب الصخري (الحصباء) حتى يدمى، دون أن يجد من يشكو إليه، أو يسمع نشيجه، أو يمسح دمعته، فلا يهتدي إلى

طريق للخلاص؛ يعمل دون مقابل سوى أكله الذي لا يعدو أن يكون سفوفًا من الجراد المطحون يشرب عليه جرعات ماء، ويا للشقاء.. حين يقسو المالك على الأجير والعامل، فهذا الطفل يبيع عمره وجهده ليبتاع لقمة عيشه!

يقول لاوتسو: «لتكن إجابتك ذكية حتى وإن عوملت بغباء».

كان جوابه الذكي هو العمل الذي أقدم عليه؛ حيث انقدحت عزيمة الكبار في عقل صاحب البدن الصغير، وحزم أمره صوب العمل الذي حرمه النوم ليلة البارحة.

الفكرة التي سهرت في هذا العقل الصغير تستجمع قواها للهرب على غير هدى، وحينما حلّ وقت إرسال الغنم للسقي على دفعات -كما يفعل الرعاة، وهو أحدهم- أطلقها الصبي هذه المرة دفعة واحدة، ممتطيًا قدمه الغضة المتخشنة من المشي والحفاء، ملتفًا بـ(عباءته) راكضًا ركضَ الحثيث المجهد لا يلوي على شيء حتى أعيا، وتوقَّف يتلفت ليطمئن ألا أحد يطلبه، ثم واصل سعيه في عرض الصحراء إلى غروب الشمس.

الخوف يرجف بوجدان طفل بريء، ولكن رحمة الله العظيم تحفه وتحوطه.. ها هي خيام بعض البدو تطالعه من بعيد فيسقط في شبه إغماء، قد أجهده السير، وتخالفت رجلاه، وضلَّت به الطريق.

عثرت به امرأة رأت شبحه الصغير، فأخذته وعالجته وأطعمته وهدأت من روعه، واعتذرت عن الفقر الذي لا يدع يدًا باذلة للسخاء قائلةً وهي مأخوذة بحاله: أبشر، والله إن جاء (هَبْطُنا) فسوف تشبع تمرًا؛ لكنها لم تكن سوى محطة ينطلق بعدها صوب بلدة (الفوارة) على مسيرة يومين للماشي السريع..

معاناة أخرى تسبق الوصول إلى خيمة تبين أنها مخدع عروس بدوية،

ظل الصبيّ وفيًّا لذكراها، فما ذكرها على مر العمر إلا افترَّ فمه عن ابتسامة الرضا والحبور، ولهج بالدعاء الصادق، والابن يضحي لها إيمانًا بعظمة الفعل الجميل بحق والده ولو كان يسيرًا!

لقد حضنته بعطف إنساني كبير، وقصت جدايل رأسه، ثم فلته وغسلته بأطيب الطيب (الماء)، وأعطته لحافًا، وأخذت ثوبه تطبخه بالماء تنظيفًا وتعقيمًا، وحين ضوى زوجها ليلًا كان قد صاد أرانب هي عشاؤهم، أكل معهم ونام عندهم أيامًا، واستعاد طعم الحياة والاستقرار، لكن السنة مَحْل، والناس جياع، ولا بد مما ليس منه بد.

كانت المحطة الثالثة -وعلى غير انتظام- هي (الحَجَّازية)، قرية بين المدينة والقصيم، يشخص إليها راكبًا هذه المرة، يجد طعامًا جيدًا، فالغداء من القرع ومرقته، والعشاء صينية من الجريش والسمن، ليتدبر أمر رجوعه إلى بريدة، فالقرى..

وأمام كل ما مر به أجاد توجيه سلوكه وأتقن الفصل بين فئات الناس في التعامل.

ويتقلب الفتى بين الأعمال والأحوال حتى يستقر عند أهل المرأة التي أصبحت أم أولاده (اللحيدان)، فيعمل في الحقول حتى التاسعة عشرة من عمره، ومن هنا عرف (نورة) الصبية التي كانت تفتخر عنده بطبخها وقدرتها المنزلية، وحين تزوجها في الرابعة والعشرين من عمره، كانت هي في السادسة عشرة.

قبل زواجه ذهب إلى (الدرعية) و(عرقة)، وعمل لأربع سنوات مزارعًا وبنَّاءً، يجمع ما أمكنه لترتيب الزواج والحياة الجديدة.

عاد ليتزوج ويملك بيتًا، ويستقر نفسيًّا وعاطفيًّا. كان شهر العسل رحلة للبر لجمع الحشائش والمزيد من العمل والكدح، العشب كان قليلًا، والشاب يتذمر قائلًا: لعل عجاجًا وريحًا تأخذه وتعفينا منه، فترد

العروس الغيرانة: لعل العجة تأخذك أنت إلى قصر (الجوهرة)، وكانت الجوهرة هذه عمةً له أي: سيدة عمله، وصاحبة قصر في الدرعية كثيرًا ما يذكرها ويثني عليها.. وينتهي الموقف بضحكة صافية!

بين الزراعة والتجارة والعمل الدؤوب يجد الرجل طريقه، ويصبح (التاجر) كما يسميه أهل البلدة، ولم لا وهو يملك بيتًا، ولديه (دكان)، وهو من جاء بـ(المكينة) من جدة لاستخراج الماء، بدلًا من الدلو والعمل اليدوي.

هو الكونُ حيٌّ يحبُّ الحَيَاةَ	ويحتقرُ الميْتَ مهمـــــا كَبُرْ
فلا الأُفقُ يَحْضُنُ ميتَ الطُّيورِ	ولا النَّحْلُ يلثِمُ ميْتَ الزَّهَـــــرْ

بعد أمة من الزمن يأتي إلى متجره رجل غريب يسأل عن فتى بصفات مميزة، وحين يظفر به يخبره بأنه ابن ذلك الرجل الذي طالما قسا عليه وحرمه من كل شيء في صباه، فيتهلل وجهه، ويطلق ضحكته المعتادة، ويستعيد القصة بتفاصيلها الدقيقة، ويتفاعل معها كأنها تحدث مرة أخرى، ليقول إنه قد سامحه وتجاوز عنه، وكالعادة ألح عليه أن يصحبه إلى منزله لتناول الغداء والتمر والرز والبطيخ.

دروس في الصبر والتسامح يحتاجها جيل نشأ مرفهًا مترفًا معتادًا ألا يعمل شيئًا، هل كان يعني ذلك عند ما حدثه عن أحد حكماء الصين، الذي يعاقب عدوه بأن يوفر له كل ما يشتهي؛ حتى يجد نفسه بغير تطلع ولا أمل، فيذبل ويقعد ويموت!

الحياة تحدٍّ يستفز كوامن القوة، وبغير هذا التحدي يفقد الإنسان طعم الإنجاز والنجاح والمحاولة.

حين ترى أمامك إنسانًا مكتملًا عليك أن تتذكر أنه لم يتكون فجأة؛ وأن ثمة تفاصيل كثيرة مربكة ومشككة وضعيفة، والناجحون لم

يخرجوا كالفقع (الكمأة) فجأة، بل تدرجوا في معارج النجاح، هذه خلاصة تجربته الطفولية المرة.

فالصعاب تستفز طاقات المرء إذا كانت بالقدر المحتمل، بينما الرفاهية تدمرها..

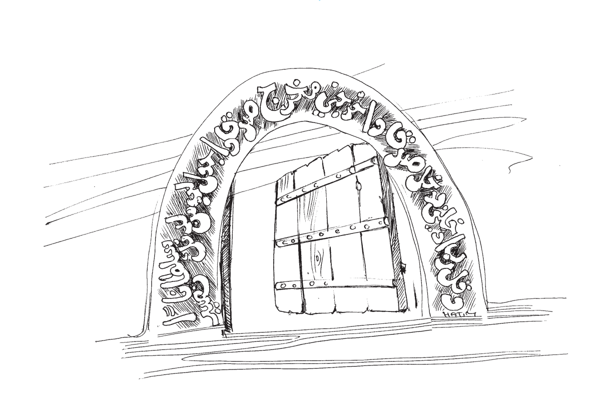
تلك كانت مفاصل من طفولة الأب.. عانت ما عانت من أجل ميلاد الطفولة الأخرى: طفولة القلب.



4

بوابة الحياة

◆



الظلام الدامس يحكم قبضته على القرية الوادعة المسترخية في حضن الرمال، والسماء ملبدة بالغيوم، وزخات المطر تتواصل.. تدفعها الرياح العاتية ذات اليمين وذات الشمال، والأرض ملأى بمناقع السيل، والمنازل في القرية مهددة بالسقوط، بعد أيام من المطر الغزير.

(سنة الغرقة) عنوان مكتوب في الذاكرة، وأحداث منقوشة في القلب. هكذا الناس يسمون سنينهم بأسماء سلبية من عام الفيل إلى (سنة القليب)؛ حيث انهارت الطبقات الرملية في القرية على عشرات الرجال العاملين، وغدت قبورًا لهم!

يخرج الناس إلى (جردة فاطمة) هربًا من السيل، فالمنطقة الخالية من البناء وسط القطين تغدو أمانًا نسبيًا لهم، والشُرُع المنصوبة على ضفاف السيول في قلب القرية السابحة في الماء تؤوي النساء

والصغار، بينما الكبار يتدبرون أمورهم.
وتيرة المخاوف ترتفع، وبيوت القرية الطينية المتواضعة وسط طوفان هادر تبدو أشبه بمربعات كرتونية، ينغمر أسهّا بالماء، وتمطر سقوفها طينًا ووحلاً، وتتساقط أطرافها.. ماذا عسى أن تصنع تلك الشرع المنصوبة في الأماكن العالية أمام انهمار المطر وعصفات الريح؟
ولكنها محاولة الإنسان ليتصبر ويتعبر حتى تنجلي الغمرات!
ثَم موقع على خط الخطر!
من بين تلك النسوة الهاجعات في الليل البارد المخيف برعوده وبروقه، كانت تلك الشابة الثلاثينية المثقلة بالحمل، يحيط بها صبيانها الصغار في ذهول، ومع أمواج المياه من حولها، يعلوها موج الطلق العاتي الذي ضربها هذه الليلة، وجاء معه بالسهاد والألم والأنين المكتوم بين الضلوع، وأثقل جسدها النحيف، الذابل كغصنٍ خريفي..
هدهدت صبيتها الصغار بصبر حتى ناموا.. لكِّن كيف تلد هنا بين الأشرعة المشابهة للعراء؟!
أخذتها ساعة الصفر إلى (قابلة) القرية، بديهي أنها تولدهن بيديها منذ حواء، فمضت إليها بخطى مثقلة، لتتم الولادة في بيت مهدد بالسقوط؛ فهذا أرحم من أن يسمع الرجال زفراتها وأناتها الموجوعة.
كانت تلك ليلة الخامس عشر من شهر جمادى الأولى؛ حيث لا فرصة أمام ضوء القمر للعبور!
مرت الدقائق كأثقل ما تكون، واقترب خروج الطفل من ظلماته الثلاث، دفعة من إيمان، وبقية من صبر، وإسناد معنوي من القابلة، ودعم حسي خفيف، وهبطت أقدام الجنين أولًا قبل رأسه، خلافًا للمعتاد..!
يجب أن نظل واقفين ما ترددت الروح بين جنباتنا، ولن نستطيع ذلك

إن أفلتت أيدينا من حبل الله الذي رعانا في الظلمة والضيق والوحدة! فرحة الأم بالخلاص وسلامة المولود لا يعدلها شيء؛ إنها هبة الحياة من الله الرحيم الكريم.

ما يزال هناك في الشراع صغار هاجعون، يحوم حولهم قلب الأم، وقلبها دليلها، لقد استيقظ (عبد الله) ابن الخامسة، وبدأ يبحث عن أمه، القلب الصغير يبحث عن القلب الكبير، وها هي قد عادت للحظتها بمولود تحمله بين ذراعيها ليستأثر باهتمامها بعض الوقت، لقد أصبح بالنسبة لإخوته الصغار بمثابة دمية، أما بالنسبة للأبوين فهو استمرار للوجود، وسبب جديد للسعادة، وبذرة لاحتضان المستقبل.

أهو (سلمان) كما يقول أبوه، تيمنًا بسلمان الفارسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان الإمام يتلو سيرته وخبره في المسجد؟ أم (سليمان) كما تقوله الأم جريًا على العادة في تسمية المولود باسم جدِّه، فقد كان هذا اسم أبيها؟

أيًّا كان فقد مضت القسمة عادلة، فكانت الشهرة للاسم الأول، وغالب الأوراق الثبوتية للثاني بعض الوقت، حتى اقتضى الأمر توحيدها على مذهب الأب واختياره.

سبقه أخوان، وأختان، ولحقه أخ وأخت.

(منيرة) كبرى الأخوات تزوجت في السادسة عشرة من عمرها، يوم كان هو في الثالثة، وكم عانى وتألم لفراقها.

يذكر أنها أصيبت بمرض في عينها شخصته أمُّه بأنه (أم ذيل)، وعلاجه الكي، والحجبة (الحمية) أربعين يومًا لا تأكل إلا طعامًا خاصًا تصنعه الأم من الحنطة، وحده فقط كان يشاركها ذلك الطعام، ويستمتع بحنانها قبل طعامها الذي تؤثره به، ولم يفته أن يوظف هذه الحادثة المرسومة الراسخة ليدعو على من حرمه من أخته الحبيبة بالزواج

والانتقال إلى قرية أخرى بأن تصيبه (أم ذيل) التي حولتها اللثغة إلى (أم زيل)، وأن يقعد أربعين يومًا في الحجبة، دون أن يدرك من المقصود بهذه الدعوة البريئة!

كان ينتظر عودتها كل يوم، حتى أيقن أنها لن تعود وقتما يشاء، وبدأ يفهم حركة الانتقال تلك عندما لحظ الزيارات الدورية بين الفتاة وأهلها، وشاهد دموع الأم، وسمع قصائدها الوجدانية تشتكي ألم الفراق، وتحن إلى أيام القرب والوصال.

من غيْر شرٍ يا ظبـــــي البيـاحِ   الله يسمّحْ لكْ طريقكْ وممشاكْ!

إنه يرقب مجيئها بحزن وتطلع، وحين يراها يسرع الخطى ليرتمي في حضنها سائلًا:

-كم ستبقى؟!

وإذْ لم يرقه الجواب فالاحتجاج أن يطلق صوتًا أشبه بصفارة الإنذار، أن يبكي ويبكي بأقصى ما يستطيع.

وذات يوم أبصر صديقتها -التي تشبهها في القوام، وتكبرها في السن- على مقربة من الباب؛ فهرول إليها ضاحكًا فرحًا يحيط ساقيها بذراعيه، وهو يظنها أخته، ويهتف بلثغة ظاهرة (جئتِ يا حُمَيِّلَة!).

ست سنوات قضاها في محضنه الأول قبل أن يدخل المدرسة، عند الآخرين كانت حافلة بالعفوية، وعنده كانت حافلة بالإثارة والأحداث الكبار، وكأن المتنبي عناه حين يقول:

وتكبر في عين (الصغير) صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم!

طفولة بريئة، تتعلم بصمت، وتستمتع بالحياة دون تردد؛ الألعاب البريئة الساذجة، والمعابثات الصغيرة المتكررة هي أنسه وأنس لداته،

وحولها تدور تطلعاتهم ومطامحهم.
ذاك الرجل المسن يبيع المفرقعات، فليشتر منه واحدة، لكن كيف وهو لا يطيق أن يفرقعها، ولا أن يسمع صوتها؟!
إذًا فليوكل إلى أحد أصدقائه أن يقوم بالمهمة الأولى، بينما أَوْكَلَ إلى آخر أن يسد أذنيه! لتصبح تلك طرفة ساخرة يتندر بها عليه إخوته كلما تشاجروا، فضلًا عن لثغته الظاهرة بحرف السين التي ربما سالت دموعه لأنّ أحدًا حاكاه وهو ينطقها مثل (الثاء)؛ فاعتبر هذا مساسًا بشخصيته..
أتراه لو كان يدري أن نصف قدرات الإنسان العقلية تتكون في تلك المرحلة المبكرة قبل دخول المدرسة، أكان يتصومع ويتقوقع على كل معين ينهل منه؟
أو كانت تلك الروح ترفرف على جداول المعرفة؟
وتلك المصابيح الخافتة بداخله تتوهج نورا؟
وتلك الهمة المحدودة تنتفض وتربو؟
ما له ولهذا!
أليس التعلم والتكون العقلي يتحقق بمعايشة الحياة الصافية، في أجوائها الهادئة المستقرة؟
أليس من الحكمة أن تنطلق الطفولة على سجيتها تحت سمع الوالدين وبصرهما وتوجيهها؟
أليس الإبداع يبدأ من جرأة الصغار على التفكير والسؤال والتصرف دون أن تدمر قواهم الغضة لغة الأمر والنهي والتحقير والتسفيه؟
إن مدرسة الحياة هي أعظم جامعة يتلقى فيها المنتمون أفضل الدروس، لكن بعد أن يدخلوا الاختبار.
سنة (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م) هي بوابة دخوله تلك الجامعة.

ذلكم الطفل الرضيع دخل الحياة من باب لم يكن يترقبه عنده إلا رجل ينظر من صائر الباب بوجل؛ ليطمئن بالسلامة والعافية على زوجه التي ولدت لتوّها.

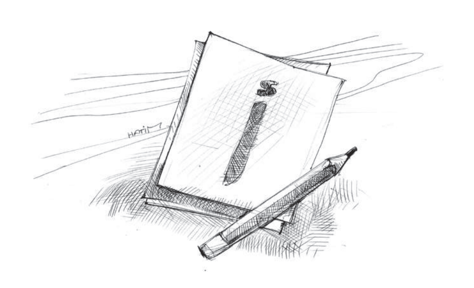
فيا ترى من سينتظره في أبواب الحياة الأخرى؟!

«وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا» [الإسراء: ٨٠].



5

عقل يخطو.. ويعثر



الجو صائف، والرذاذ الخفيف يزيد روعة السحر جمالًا، العينان الصغيرتان لم تستغرقا في النوم هذه الليلة كالمعتاد، والمخيّلة الطفولية تعتصر زوايا النفس، وتحفز ذاكرة حديثة العهد لترسم أمانيها الحلوة، كشاشة عرض معلقة في سقف الصُفّة، وتحاول بخبرتها المحدودة أن تستقرئ أحداث هذا اليوم.

الأذن المصغية باهتمام تعمل كلاقط حساس، تسمع صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر؛ ليصب في عمق النفس إيمانًا متجددًا، يتغلب على الرغبة (الصلاة خير من النوم).

حضور نفسي مكثف في انتظار اليوم الأول في مدرسة القرية، ويدان تتحسسان كيسًا من القماش بات تلك الليلة إلى جوار الصبي في فراشه البسيط.

حان الوقت ليتسلّم مفاتيح الإثارة، وليشاهد بعينيه الأحداث التي ينقلها أخواه عن المدرسة وشخصياتها ونظامها...

اليوم تبدأ مسيرة الصحو المبكر، والدعوات الحانية، وقبلات التوديع..

اليوم سوف يقعد على (كرسي) الدراسة، وسيكون أمامه (ماصة)، يشاركه فيها ثلاثة من نظرائه كما وصف له إخوته، وها هو الثوب الجديد المعد لهذه المناسبة، والطاقية المزركشة التي تضفي على المناسبة بعدًا جديدًا.

هرول إلى باب الغرفة الذي لم يغلق لعطب ألم به، كانت الأم قادمة لإيقاظهم، فاصطدمت بصغيرها متعجبةً من استيقاظه المبكر... كيف لو علمت أنه لم ينم إلا قليلا!

قد لا يدرك الأبوان قدرات طفلهما الجسمية والعقلية والانفعالية؛ حيث يحمل الكثير من الدوافع، والاستعدادات الفطرية للمعرفة.

وقد لا يحسَّان بحركة النمو المتسارعة بانسجام، كذبذبات في متوالية بديعة منتظمة.

هذا الصبي، وهو يغالب أشواقه إلى المدرسة، وينسى -مُوقَّتًا- مخاوفه، يدلف إلى مرحلة الاستقلال الشخصي؛ حيث له ولكل طفل سمة وميزة تنطبع في أذهان الآخرين حول شخصيته.

هذا طفل عبقري.

وهذا مشاغب.

هذا هادئ.

وهذا طفل اسفنجة.

وهذا تواق للمعرفة.

عاد الأب من صلاة الفجر، وتحلّقت الأسرة الصغيرة حول موقد النار، الكبار يشربون القهوة، والصغار يشربون الشاي، ولا شيء يسرق من

الصبي فرحته، ولسان حاله يقول: ليس من الضروري أن تفهم كل شيء؛ حتى تكون قادرًا على استخدام كل شيء!

يمضي الإخوة الثلاثة إلى مدرسة القرية في تآلف ظاهر، وصباح القرية ليس كصباح المدن؛ فنسمات الهواء تحرك عسبان النخيل وأغصان الشجر، والطيور تبث ألحانها الجميلة، وخرير المياه في السواقي يجدد معنى الحياة، عادة القرى الوادعة مع الفجر.

وعند باب المدرسة تلاشت الجرأة، وانكمشت الفرحة، وبدأت مرحلة القلق والتوتر والحذر.

أمسك بيد أخيه الأكبر بحركة تلقائية يحتمي به في التجاء ظاهر، وامتصاص للأمان، وتعزيز للثقة بالنفس، الذي كلما ارتفع ارتفع معه الأداء.

وأحس الأخ الأكبر بمسؤوليته وأخلص في القيام بها...

«افعل كل شيء بصورة لائقة ومنظمة»، «خلّك رجل»..

تلك العبارة كانت أقوى وأقصى مساندة لأخيه الصغير.

تتردد الخطوات، وتتعثر الأرجل في الأرض الرملية المحاطة بالعديد من الحجرات الطينية الصغيرة المنتظمة التي تسمى المدرسة!

إنه عالم جديد... طالما كان يرقبه من الخارج دون أن يتمكن من الولوج إليه، ها هو الآن في طريقه إلى أحد الفصول، وسط حشد غير مألوف من أبناء القرية..

لماذا شعرَ بالخوف، وقد حانت اللحظة الموعودة؟!

كلا إنه ليس خوفًا، بل شعور آخر مختلف لا يملك التعبير عنه.

حاول التواصل مع نفسه بإشارات غير ملموسة، وتذكر أن هذا المكان الذي يحتويه الآن طالما احتواه قلبه وخياله... هنا البداية الثانية لتحصيل الزاد المعرفي والروحي.

أحب المدرسة، وأحب معلميه، كما أحب (مطوّع) القرية التقي الطيب، وإمام مسجدها الجامع (عبد الله الناصر البرادي) الذي صبر على نزق الطفولة، وعلَّمه كما علَّم الأطفال الآخرين قصار السور في المسجد، وكان ينفث عليه، ويتمتم بآيات من القرآن كلما ألمت بالطفل وعكة.

وحين بكى الصبي من ألم شوكة انكسرت في رجله، ورفض الحضور لدى الشيخ للرقية، اكتفى الشيخ بالقراءة على كسرة من الملح، وأمر الأم أن تفرك بها الموضع حتى ينام، وحين استيقظ وجد الشوكة خارج الجلد!

المطوع له ميزة المساكنة، والاتصال العائلي، والتأثير التعبدي، والوزن الاجتماعي، بينما لأساتذة المدرسة ميزة الحداثة والغربة، والنظام التعليمي الذي كان رمز مسايرة الحياة، وكان هو الطريق إلى المدينة.

لا يعكر صفاء علاقته بمحاضن التعليم سوى شوب من قسوة صارت جزءًا من العملية، ضعفت فيها أساليب الإغراء والجذب والتشجيع، وتضخمت ذراع الضرب والتأديب والتأنيب، وأغفلت مسالك التربية بالرفق واللين والرحمة، وساندت تلك القوة نصوص غير موثقة، حتى الصغار صاروا يسمعون «ولا ترفع سوطك عنهم أدبًا» «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت»!

هذه القسوة جزء من التعليم في الأرياف العربية، من الكتاتيب إلى المدارس الرسمية، فالمجالس التعليمية؛ حيث «العصا لمن أطاع أو عصا»!

ها هو يمضي سنته الأولى في مدرسة القرية، متطلعًا -ضمن الأسرة- إلى مغادرة القرية صوب المدينة؛ حيث الحياة -في نظرهم- أجمل وأوسع، وحيث وعود الأب التي تتكررُ، تبرّم الطفل بالتأجيل الذي حال بينه وبين أمنية داعبت أحلامه.. أن يرى نفسه من سكان المدينة،

وأن لا يعود إلى القرية يومًا إلا زائرًا؛ ليسلِّم على صبيانها، ويتجول في أزقتها..

لقد تكامل بناء البيت الطيني الجديد في المدينة، وبدأ التهيؤ النفسي لدى الكبار، والصبر النافد لدى الصغار.

لا يتذكر أن الأسرة زارت المنزل أثناء تشييده، وهو يستغرب هذا، ويجيب بأن المواصلات لم تكن بالميسورة، والمهمة كانت موكولة للأب من بدئها إلى إنجازها.

شهور مضت على السنة الثانية الابتدائية، جرت بعدها النقلة إلى (بريدة)، وتحديدًا (حي الموطأ)، والمنزل الجديد المبني من طابقين، والجيرة الجديدة، ومدرسة (الحويزة) بأساتذتها الفضلاء، الذين صدق عليهم، وعلى من سبقهم قول الشاعر (محمود غنيم):

حنانيكَ إني قد بُليتُ بصبيةٍ	أروحُ وأغدو كلَّ يومٍ عليهمُ
صغارٌ نربيهم بملءِ عقولهم	ونبنيهـمُ.. لكننا نَتَهـدمُ
لأوشكُ أن أرتدَّ طفلا؛ لطولِ ما	أمثِّل دَورَ الطفلِ بين يديهمُ
فصولٌ بدأناها، وسوف نعيدُها	دواليْكَ، واللحنُ المكرَّرُ يُسأمُ
فمن كان يرثي قلبُه لمعذب	فأجدَرُ شخصٍ بالرثاءِ المعلمُ
على كتفيه يبلغُ المجدَ غيرُه	فما هـــو إلا للتّسلّقِ سُلمُ!

فهم كما يحب الجاحظ أن يقول: «معلمو صبيان، تصابوا حتى تعلمنا، وتصاغروا حتى كبرنا، فكبروا في أعيننا»، وهو يحاول معهم تمثيل قول الشافعي: «الحر من راعى وداد لحظة، أو تمسك بمن أفاده لفظة».

تلك الخطى التي مشاها، وكتبت عليه بين البيت والمدرسة، وإن بدت كليلة، يلحقها التعثر والملال، كانت الانبعاث الأول البدائي نحو الفهم والعلم.

وكان هذا القلب، وكان هذا الحب للمنزل الأول، مهما تنقَّل الفؤاد من الهوى.



6

النفود



هذا هو الحي المطل على مدينة بريدة من الغرب، حين دخلوه أول مرة، والذي كان جسرًا إلى أساليب وأدوات جديدة للمعرفة، يظفر بها طفل في الثامنة من عمره، وصار الحي يُعرف بعدُ باسم (حي الهلال)، حين استأجرت جمعية الهلال أحد بيوته.

البيت الطيني الجديد يحضن طفولة هؤلاء الصبية، وشبيبة آخرين إلى ما بعد الزواج والاستقلال.

إنه قصر فخم في نظر ابن القرية، يتكون من طابقين وعريش، يشبه عريش المدرسة التي درس فيها في قريته سنة وبعض أخرى، وتفتح على العريش العديد من الغرفات التي صبغت بالجص والإسمنت لتبدو شيئًا يدعو للفخر والتيه لدى هؤلاء الصغار.

الفناء واسع تشترك معهم في سكناه نخلات تؤكد عمق الارتباط

بالقرية، وهو ميدان فسيح يلعب فيه هؤلاء الصبية بجلد دائري الشكل، تتقاذفه الأيدي أحيانًا، والأرجل أحيانًا أخرى، ويسمونه (الكرة)، وهو يختلف عن النسخة المطورة التي عرفها الصبيان بعدُ... وقد يشاركهم الجيران أو القرابة والبنات بعيدًا عن عين الأب اللطيف المهيب الذي يدري، ويتظاهر بأنه لا يدري.

إنها حيرة الأب الحريص أمام قضية جديدة تطرأ على حياة الأسرة، دون أن يتخذ بشأنها قرارًا حاسماً؛ للتردد بين ما يألفه ويرتاح إليه، وبين ما يحس بأنه قدر من متغيرات الحياة، وضريبة لا بد منها لاختيار المدينة، فهو بحاجة إلى فترة من الأناة والصمت، لتفهم الموقف، وتحديد رؤية واضحة عما يتعين عليه فعله، هذا الأمر تكرر حين شغب الأطفال بحضور إحدى المباريات الكبيرة، ولعلها كانت المرة الأولى والأخيرة.

العلاقة مع الجيران تنمو بسرعة، والشارع يشهد صداقات جديدة، وعلاقات متدفقة، وفريقًا رياضيًّا يتشكل، وينشأ معه صراع على (الرئاسة)؛ حيث تبدو هذه إحدى اللوازم المصاحبة للحياة حتى في أصغر حلقاتها.

هذه هي زعامات الأحياء، صغار عفاريت، يستولون على مشهد الشارع، ويصنعون عنتريات، هي (أباضات) الشام، و (فتوات) مصر كما يحكيها أهل (الحواري).

والمرأة تظل هي الأكثر اندماجًا، والأسرع في التعارف وبناء الروابط.

لم تكن النقلة مقصورة على حركة الحارة فحسب، فها هو الأب ينظم وجوده المالي بافتتاح المتجر الجديد في المركز التجاري لبريدة (الجردة)، ليحقق من خلاله ذاته الفطرية، ويجلب القوت لولده، ويؤمِّن -بإذن ربه- مستقبل أسرته، وإلى ذلك كان يقوم بالمزاد على الفواكه والخضار التي يجلبها الفلاحون من حقولهم.

لم يساور الأب قلق من النجاح، فهو يملك مثابرة جيدة وصبرًا وثقة، وكما يقول اليابانيون: «المثابرة تَفُلُّ الحديد».
الصبية يتبعون أباهم ويندمجون معه في جهده العظيم، يلتزمون بالذهاب إلى الدكان في المساء، ليتعلموا كيف يكون التعامل، ومع أن النفس أحيانًا لا تندفع للذهاب، إلا أنها حين تكون في الميدان يتملكها شعور مفعم بالحماسة والرغبة في التفوق، والأب يوزع المهام بذكاء فطري.
وفي الإجازات يذهبون صباحًا أيضًا في وجبة إضافية للعمل، تتخللها فرص للتفسّح والمتعة.
أولئك المسنون في مشالحهم القديمة، وفرشهم البالية -وهي في غالبها مصنوعة من الخوص، وتسمى (الحصير)- هم قلب الحياة الاقتصادية النابض، ومستودع التجارب والمعارف والحكم.
نزعة استقلال مبكر تحمل الصبي في بعض مساءاته على صناعة (البليلة) وتجهيز الملح والخل وبيعها قرب منزله.
فترة مليئة بالأحداث الصغيرة عند الكبار، الكبيرة عند الصغار، كانت مدرسة حقيقية للتدرب على بناء العلاقة الودّية مع الآخرين من أهل المدينة، ومن الطارئين عليها من الأرياف والبوادي، خاصة وأن صاحب المحل كريم النفس، طيب الخلق، دائم البسمة، حتى حينما يتندّر عليه جيرانه، وكثيرًا ما يشرك في غدائه وعشائه من تخلّفوا عن القفول إلى أهليهم، أو فاتهم (البريد)، ولا غرو أن استطاع أن يستقطب حوله العديد من أهل الأرياف الذين من عادتهم أن يتعاملوا بمجموعهم مع صاحب محل واحد.
وكان قدر من تجارته بالدَّيْن، فلكلِّ قرية دفتر (يومية)، ولكل زبون حساب خاص.
ولعل معظم هذه الديون ظل إلى اليوم حبيس الدفاتر العتيقة، بخط

الصبية، أو بخط الأب الذي كان يكتب حروفًا تعلمها عن كبر، فلا يكاد يفك خطه أحدٌ سواه!

لا زال الصبي يذكر ذلك الرجل الذي اغتنم خلو الدكان من سيده، ودلف بلهجة الحازم الجازم قائلًا بالأمر:

- زن كذا من القهوة، وكذا من الهيل، و... و...

بينما كان يحاول أن يحمل على ظهره كيسًا من الأرز، ثم آخر من السكر، أعطني كرتون شاي، ليملأ مركبته بما يحتاجه منزل مقفر مليء بالعيال، قائلًا بغير انتظار: سجلها على الحساب.

ويركب سيارته، ويمضي تاركًا البائع الصغير والحيرة في عينيه، يقلِّب كفيه، ويخاطب نفسه؛ أي حساب؟!

ومن تكون؟!

أي حرج صنعته لي لو علم أبي بما جرى، وأدرك أنني لم أكن كفؤًا للمسؤولية؟!

لم يكن متشجعًا على الرفض، فالبيع بالدين طريقة دارجة في هذا المحل، وأيضًا فهو ما يزال حزينًا لذلك الرجل الذي عيره وآذاه؛ لأنه رفض أن يبيعه إلا بالنقد.

لم يتدرب جيدًا كيف يقول «لا»، وهي صفة بدت عميقة في تكوينه!

مرّ الموقف بسلام، وفات الأب أن يلحظ غياب بعض السلع دون تفسير على الورق، أو في الدرج الذي تحفظ فيه النقود.

هو بياع، لكنه طفل يقع له أن يختلس -كإخوته- شيئًا زهيدًا يشتري به عصير التوت من (مصلح) أو الحلوى، أو الألعاب، أو بعض كتيبات المغامرات الطفولية التي تعرَّف عليها، ولكن ليس كل مرة تسلم الجرة، فها هو الوالد يضع يده على جيبه ليكتشف الاختلاس، ويعيده إلى محلِّه بلباقة، باعثًا برسالة تربوية عبر الأم، مفادها أنه يتفهم أن المال بقي في

جيب الولد نسيانًا وعفوًا من غير قصد.

إلى جنب الدكان كانت (المكتبة العلمية) التي يديرها الشيخ (عبد الرحمن الجطيلي) وكانت إحدى أهم المغريات التي تحفز الجماعة إلى المتجر؛ حيث يتسللون إليها لواذًا، هربًا من حرارة الجو؛ فقد كان فيها مراوح كهربائية لم تتوفر في الدكان بعد، وكان الشاي يسكب للرواد بين وقت وآخر، إضافة إلى تصفح الجرائد المحلية، والمجلات، وبعض القصص والروايات.

لقد وجد الصبي نفسه بعد زمن ملمًّا بالعديد من أسماء الكتب والمجلات والروايات، ومتصلًا بشخصيات بارزة في عالم الأدب والشعر، بفضل تلك الزيارات المنتظمة للمكتبة.

لقد فتحت النقلة إلى المدينة آفاقًا جديدة، شكلت حياة الصبي، وحددت وجهته، وزودته ببعض التجارب، وطورت لديه بعض الملكات.

صداقات الحي ظلت متصلة معه دون انقطاع، فالشيخ (صالح الشيبان) زميل الدراسة الأولى، والذي قضى في حادث سيارة، كان الفتى الذي يسكن في الحي ذاته؛ حيث الصديقان يتقاسمان السكن والأسرة والحياة، والأمهات، ثم القراءة والدعوة بعدُ، في ودٍّ لم يقطعه الموت.

الجلوس في المتجر كان تدريبًا لطبيعة تأنس بالناس، وتسعد بصحبتهم ومحادثتهم، وتتعاطى معهم على تفاوت السن والثقافة.

المزاد على الخضار بحضور الباعة من مختلف الأعمار علَّمه كيف يخطب ويتحدث دون تهيب أو خوف يتسلل من رؤية الجمهور.

بينما المكتبة العامة نقلته إلى عوالم القراءة التي غدت عشقه الأكبر، ولا غرو أن صار يحمل كتبه الخاصة إلى السوق يقرؤها وقت الفراغ، ويحفظ ما راق له من مقطوعات الشعر العربي، مما لا يزال يحفظه ويردده إلى اليوم.

لقد كان الصبي ثم الفتى يتنقل بين محلين متجاورين، لمنهومين لا

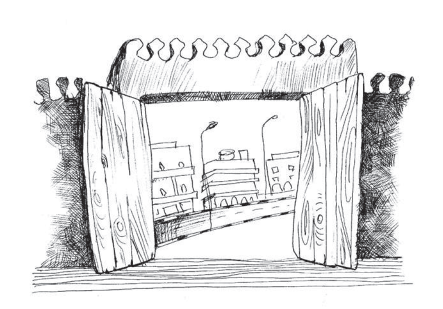
يشبعان، دكان (طالب المال)، ودكان (طالب العلم).

وإن كان آثر حين صار الاختيار إليه الآخرَ على الأول، وصار لا يحسد صاحب المال، ولكنه يغبط طالب العلم.



7

ما بين [الحويزّة] و [الأندلس]



وافدٌ جديد على الصف الثاني بمدرسة (الحويزة) الابتدائية، الواقعة في مبنى مستأجر وسط النخيل، أسفل الوادي في منطقة تسمى: (البوطة)، وتشتهر بأنها زراعية.

لا تختلف كثيرًا عن مدرسته الأولى، سوى أنها أوسع فناءً، وأكثر فصولًا.

وافد جديد مفعم بحيوية، لم تغادر إطاره الجسدي، يلفه الحياء رغمًا عنه حين يجد نفسه في مجموعة جديدة من التلاميذ. إنهم أبناء المدينة، وهو ابن القرية، أو ما يسمونه بـ(الخَبّ)! ويتفهم حين ينتقدون تصرفًا عفويًا كيف يعيرونه بـ«القروي» أو «الخبوبي»!

وما أدراك ما المدينة في قلب هذا الصبي؟!

إن العالم كله والمتعة بحذافيرها تكمن في تلك البقعة من الأرض، ومع

ذلك؛ فهو واثق بقدرته الذاتية، أو ما يسميه الكبار بـ(الحكمة).
فلا بأس أن يظل وحيدًا في فسحته لفترة قصيرة، ولو شعر بعارض من الخوف؛ لأن ذلك مقدمة للاحتكاك الهادئ، والتعارف الرشيد.
أول تعارف كان مع زميله المجاور الذي يتقاسم معه الطاولة ذاتها (م. العايد).
ثم يشده الناجحون فيتحرك قلبه تجاه ذاك الطالب المتفوق (ع. هـ) الذي كان يطمع أن يكون رفيق عمره، ويشعر معه بانسجام شديد، لكن يبدو أنه من طرف واحد، وأن الآخر لا يشعر بالإحساس ذاته، ولقد ظل يسأل عنه حتى بعد الجامعة!
لا زال يذكر صوته الطفولي، وصورته وقسماته حين طلب إليه أستاذ الأناشيد (رزق) أن يتغنى بمقطوعة من المقرر، وقام الطفل بخفّة وحيوية يجوب الفصل، ويترنم بالأبيات بصوته العذب، وصاحبنا يغبطه على هذه الحظوة، وهذه الشجاعة.
احتراف اللباقة، والاحتكاك بجيران الصف والحي جعله يغوص في العلاقات الاجتماعية، ويذوب في تيارها، حتى لم يعد يسمع صوت الحياة وهي تهمس في أذنيه بأن للعلاقات بابًا فابحث عنه.
فعادة الوافدين الجدد ألا يفرقوا بين أبواب البيوت وظهورها.
لقد وجد الباب بفطرته دون كبير عناء، ودخل إلى هناك.
لم يدرك السنة الدراسية من أولها في محضنه الجديد، وظل قدر التأخير يلاحقه في الجامعة التي تحول منها بعد سنة إلى كلية أخرى، وفي الماجستير، وفي الدكتوراة، وفي حقله الدعوي الذي يلائمه.. وأن تصل متأخرًا خير من ألا تصل!
هو مشغوف بالمذاكرة والقراءة، يريد أن يقدم نفسه تلميذًا متفوقًا، ويزداد بصيرة بحاضره، ومن الحاضر يتطلع إلى المستقبل، وقد يحرم

نفسه من بعض مرح الطفولة، ولعب الصغار، مما ولّد عنده طبيعة تنافسية تدفعه للجري وراء تحقيق المزيد، وعدم الاكتفاء بما هو متحقق.

ومن يدري، فقد يكون ذلك التلميذ المتفوق ألهب حماسه للتحدي؟!

وبما أنّ لكل مجهود ثمرته، فها هو يتسلَّم تقديره الشهري، يحمل شهادته بحبور، ويعرضها باغتباط لمن يلاقيه، ولسوء حظه تأثر طرفها تأثرًا غير ملحوظ؛ حيث كان هذا أشبه بكارثة عندما قرأ أسفلها: أن أي كشط أو تغيير في الشهادة يلغيها.

هل سيذهب هذا الهتك الصغير في طرف الشهادة بثمرة جهده الطويل؟!

يا للخسارة!

لم يجرؤ على تقديمها للأستاذ، وتبرم من جوه الداخلي حيال بقائها معه خلافًا للمفترض.

واستمر يحملها معه ما بين المدرسة والبيت كمن يحمل جثمانًا في حقيبته لا يهتدي للخلاص منه.

وفي النهاية قرر أنه لابد مما ليس منه بد، لقد استجمع شجاعته قبل نهاية السنة، وقال لنفسه:

قل الحقيقة دائمًا ثم وَلّ هاربًا..

قدمها للأستاذ بيد مرتعشة، وقلب وَجِل، مع أنه وطّن ذاته على احتمال الصدمة التي ستكون مهولة بالطبع، نظر إليها الأستاذ (بلبل)، ثم حدّق في وجهه، واكتفى بتوبيخ عابر على تأخير الشهادة، ولم تلحظ عينه التأثر في الشهادة، ولا التأثر على وجه الصبي الساذج الذي ظن أن الدنيا ستقف عند ذلك الحدث.

وانصرف الطفل ولسان حاله يقول: هانت!

إن لكل منا منطقة غامضة في شخصيته، عندما يتفحصها يكتشف

بعض خفاياها، ويظل بعضها عصيًّا عليه، فهذا التلميذ يحار في تفسير ما يتفاعل داخل نفسه.

أستاذ العلوم (عبد الحميد) يختاره، ويمدده على الطاولة أمام زملائه، ليجري عليه تجربة عملية للتنفس الصناعي، شعر حينها بحرج شديد، وأحس بأن عيون الصغار تأكله، وصوّر له ارتباكه أن الشفاه تَفْتَرُّ ضاحكة من مأزقه، هل تصبَّب عرقه؟

ربما، لكنه قرر بحزم دفع تلك المشاعر وعدم الاستسلام لسيطرتها، وجدد ثقته بنفسه، وكما يقول الإنجليز: «ابدأ بمساعدة نفسك، ومن ثم يساعدك الله».

كان متميزًا في المواد الدينية، وتلك ثمرة الأيام الخوالي في القرية ومسجدها، وبركة جلسات المنزل حين يقرأ بعد صلاة المغرب على والده شيئًا من الوعظ.

وقد علاه الحبور عندما جاء المدير ليسد غياب أستاذ القرآن، وقرأ لهم سورة الحاقة، وسأل عن مفرداتها مما هو خارج الدرس، فكان يجيب ويحظى بإشادة المدير الذي سأله عن اسمه.. ويا لها من كرامة!

تلميذ الصفوف الأولى أصبح طالبًا في الصف الرابع، وهنا داخله شعور باختلاف المرحلة عن سابقها، لقد انضم إلى كتبه مقرر التجويد، ومقرر الجغرافيا الذي يمتلئ غرابة في عنوانه قبل فحواه، وكأنه لغة مختلفة، وإذا كانت الأرواح جنودًا مجندة، فإنه لم يكتب له الانسجام مع هذا الدرس الذي ظل عصيًّا عليه.

المسابقة المدرسية تخطف اهتمامه، ويشارك في فريق المدرسة مقابل (المدرسة الفيصلية)...

والسؤال الموجَّه لهم عن تسمية أفريقيا بالقارة السوداء؟

كان الأستاذ المرافق (رشيد) المدرس الأنموذج يمسح وجهه وكأنه

يلهمهم الجواب، ولكن المحاولة باءت بالفشل، فالصغار على البراءة لا يفهمون خائنة الأعين.

الإذاعة والنشاط المدرسي فرصة للتدريب وإسماع الآخرين صوتك، فلتحاول.

ها هي قصة مؤثرة لشاب قتل أمه، وسقطت مضرجة في بركة من دمها النازف؛ فيعجم لسانها، ويتكلم قلبها ويقول للولد الذي هَمَّ بالانتحار: ها يا بني لقد قتلت قلبي الأول، فلا تقتل قلبي الثاني.

كان يبكي حين يتخيل الواقعة وهو يردد:

أغرى امرؤ يومًا غلامًا جاهلا	عن أمّه كيما ينال به الوطر
قال: ائتني بفؤاد أمك يا فتى	ولك الجواهر والدراهم والدرر
فأتى فأغرز خنجرًا في قلبها	والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى	فتدحرج القلب المعفّر بالأثر
ناداه قلبُ الأم وهو معفّر:	ولدي! حبيبي! هل أصابك من ضرر؟
واستل خنجره ليطعن قلبه	طعنًا فيبقى عبرة لمن اعتبر
ناداه قلب الأم: كف يدًا ولا	تطعن فؤادي مرتين على الأثر!

ضاعت ورقة المشاركة لدى الأستاذ في الزحام، والأستاذ ينهر الطفل ويطالبه لتقديم ما لديه، فينصرف تعلوه الكآبة، ويلفه الحزن.

وإذا كان للجدران آذان، فإن لها لسانًا ناطقًا في تلك المدرسة؛ حيث يقف الصبي أمام اللوحات الحائطية الجميلة، والصحف المنقوشة بخط أخّاذ وهي تشيد بإنجازات المدرسة، وكأنها صحف اليوم.

ولا يلهيه عن ذلك إلا لحظات للمقصف المدرسي، وجلسة الشاي، ثم صوت الصافرة تنادي الطلاب إلى مقاعدهم.

هو طالب في الصف الخامس يتجول في الحراج، فيجد الكتب التي

تشده وتغريه..

هذا (رياض الصالحين) الذي ماكس حتى اشترى منه نسخة متآكلة، ولكنها سليمة.

وهذا كتاب (الكبائر) المنسوب للإمام الذهبي، والذي شعر برعب حين مطالعته.

وهذا (فقه السنة) في مجلدات صغيرة يباع في (بسطة) على الرصيف فيشتريه، ويود لو أن أحدًا من أساتذته قابله وهو يحمل هذه المجلدات الاثنى عشر بين يديه!

وهذا كتيب (الإسراء والمعراج) المنسوب لابن عباس، وهو نسخة خيالية لا تمت للحقيقة والعلم بصلة، ولكنه قرأه بنهم، وما إن فرغ من قراءته حتى أحس بأنه قد التهم وجبة مسمومة أنّى له أن يتخلص من آثارها؟!

لقد صنعت له وسواسًا في تلك السن المبكرة؛ حيث صورت له ملائكة في السماء نصف أجسادهم من النار، والنصف الآخر من الثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفئ النار، وصَعُبَ على عقله أن يستوعب هذه الصورة الغريبة، كما عزّ على ذاكرته نسيانها، وهو أمام خبر ديني ظنه صادقًا، ولم يخطر في باله أن مثل هذه الكتب تملؤها الروايات المكذوبة التي لا سند لها.

ولا يزال الكثيرون يقرؤون كما قرأ، ويستسلمون للأساطير، وتصنع لهم الوساوس الأبدية دون مرشد أو منقذ..

ظل مشدود الأعصاب حتى امتد الأمر إلى وضوئه وصلاته، وحاول البحث عن مخرج فلجأ للأوراد، واشترى كتابًا لأذكار الصباح والمساء، وصار يقرؤه لساعة أو تزيد، ويستجمع طاقته وإرادته حتى تخلَّص من آثار تلك الوجبة المسمومة.

وصارت تلك الأذكار عادة لا يخلفها تحت أي ظرف، وقد تطول أو تقصر حسب الحال.
وإذا كانت القدوة الحسنة خيرًا من العظة، فلقد اتصل الصبي بأساتذته عاطفيًّا، وأحبهم بوعي، واقترب منهم بشغف، وقبس من معارفهم، ولا زال يذكر مدرس الرياضيات الذي كانوا يعتبرونه رمز التفاني والإخلاص، ويتحملون ضربات (المِسْطعة) في صباح الشتاء على راحاتهم الطرية؛ لأنها ممزوجة بالانتماء لهذا الأستاذ، وتكفي فيه شهادة والد الفتى الذي يقول: «لولا أنه حليق اللحية لكان شيئًا آخر»!
في نهاية الشوط ينجح من السادسة الابتدائية بتفوق، وتبدو عليه علامات الفرح والمفاجأة مما يبعث لدى الأهل تساؤلًا عن السر.
لقد ساعد أحد زملائه المعوزين بمعلومة وقعت في أذن المراقب الذي نهره ووبخه، ومن ثم خشي الفتى أن يكون سجلها عليه وألغى امتحانه.
أكان الخوف خِصّيصة له؟
أم هو شأن الصبية؟
أم هو طبع الإنسان مهما تكن مرحلته العمرية، ليقول هو بعد ذلك: الإنسان خائف بالطبع.
في تلك الإجازة مات زميله (ح. ث) بالزائدة الدودية، وخلف له حزنًا وهمًّا وخوفًا، حتى إنه كان يتساءل عن دوره في الرحيل!
وتداعت إلى ذهنه خيالات المرض تحكيها الأم عن أولاد الجيران والقرابة، وكيف ماتوا؟ وكيف أصيبوا؟
وها هو يرى في منامه الرؤيا بعينها كما أخبرته أمه أنها علامة على قرب الأجل! جرادة تطير من فمه! وهو يتذكر قول الشاعر:
وعمرك طيرٌ من يديك يطير

لكنه كلما أحس بالضيق لجأ إلى الذكر والمناجاة، واستشعر رحمة الله تحوطه وتحميه.

ها هو بعد الرؤيا بعقود يشعر بغرابة الرحلة، وتجاوز حالات عدة ظن أنها الفراق.

وهو لا يزداد إلا استمتاعًا بالحياة، وتطلعًا إلى جمالها!

هكذا ودّع خمس سنوات من عمره في مدرسة كان اسمها (الحويزّة)؛ حيث أخذت الاسم بعفوية من البيئة التي تحيط بها، أو اقتبستها من بعيد!

ثم غادرت مبناها الأول إلى مبنى مسلّح، واختير لها الاسم الجديد (الأندلس)؛ حيث دخلها فيما بعد طالبًا في المراكز الصيفية، أو مستمعًا إلى محاضرات الشيخ الشهير (صالح البليهي).

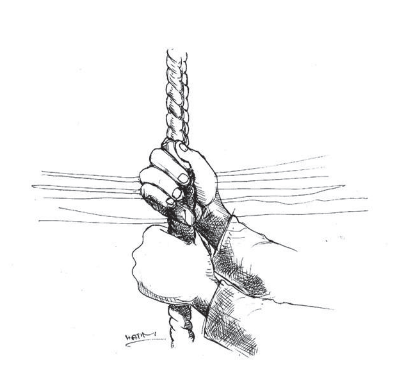
أيًّا كان الاسم تظل ذكريات الطفولة جميلة ببراءتها وصدقها، عذبة بآلامها وهمومها، وكأننا نعوض عن فقدانها باحتضان الصغار، وقراءة الطيبة في عيونهم..

جادك الغيث إذا الغيث همى	يـــا زمـــان الوصـل بالأندلس
لم يــكـن وصـلك إلا حلما	في الكرى أو خلسة المختلس
تبصر الورد غيورًا برمـــــا	يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبًا فهمـــــا	يسرق السمع بأذني فرس
لاعج في أضلعي قد أضرما	فهي نار في هشيم اليبس

◆◆◆

8

التزامٌ مبكّر



أمام المبنى المسلَّح القديم، الذي افتتح عام (١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م)، وقف فتى ودّع اثني عشر عامًا من صباه تمامًا كهذا المبنى، وخلّف وراءه طفولةً مشبعة بنسمات الحياة اللذيذة، لا زالت هبّتها تدبّ في جسده، ولهفة عينيه تسبق خطاه، ها هي الحياة تناديه؛ ليرسم معها دربًا يسلكه في المسير والمصير، في موج مرحلة النضج والمراهقة، وبداية اكتساب مهارات التفكير المجرد «القدرة على التفكير في التفكير»؛ حيث يتمتع الأولاد بوعي انفعالاتهم، ويصبح بإمكانهم تنظيمها بطريقة أفضل، ليس بمنأى عن المثيرات الاجتماعية، وإن كانت العناصر الأساسية للتنشئة الاجتماعية في هذه السن قائمة؛ متمثلة في الأسرة، ومجموعة الزملاء، والأنشطة.

يقدّم الفتى أوراقًا؛ يلتمس بها قبوله في المعهد الذي اكتسب صبغة

دينية، يحدوه ميله الفطري لذلك، ورغبة والده من خلفه تدفعه قُدمًا قُدمًا.

الكثير يجدون أنفسهم يتصرفون كآبائهم؛ لأنهم سبقوا في اكتشاف الحياة؛ حيث يوجد مسوغ خفي وراء قيام الناس بتنفيذ ما يرونه في الكبار، ويحسّون أنه يعجبهم.

على قدميه يقطع بضعة كيلومترات إلى المعهد جيئة وذهابًا قبل أن ينتظم في مجموعة نقل تتزاحم على مقاعد (الوانيت) كأعواد الثقاب.

هذا المعهد الذي ضمَّ نخبة من المعلمين والمربين من مختلف الجنسيات؛ مثل الشيخ صالح البليهي، الذي اختصّ به بعد، وأعجب بلطفه، وطرفته، ودماثة خلقه، وفقهه الفطري، والشيخ صالح السكيتي، والشيخ علي الضالع، والشيخ محمد الراشد.. وآخرين.

ومعهم وقبلهم أساتذة ذوو شهرة لم يأخذ عنهم؛ كالشيخ: عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد القادر شيبة الحمد، والشيخ محمد السبيل، والشيخ محمد المرشد.

كان الأساتذة خليطًا من الشيوخ المتقدمين، ممن تلقوا قدرًا من العلم في حلقات الدرس في المساجد، وتميزوا بالفطرية والبساطة، ولم يتدربوا على الضبط الإداري والتعليمي؛ بيد أنهم يملكون -بعفويتهم وإخلاصهم- قدرة غير عادية على التأثير والتربية، ومن الأساتذة المتخرجين من الكليات، ممن هم أكثر تأهيلًا للتدريس والتربية والمتابعة، و(المتعاقدين) وغالبهم من أرض مصر الطيبة، أمثال الأستاذ (علي إسماعيل)، مدرس علم النفس، الذي كان مثالًا في الخُلق، وإن لم يكونوا جميعًا بالمستوى ذاته.

دخل المعهد قبل أن يدرس فيه، لقد كانت الإجازة فرصة للتعرف على (الشيخ حمد)، الذي أحبه أشد ما يكون الحب، وأصرّ على صحبته

في زيارة إلى الرياض، الأمر الذي لم يرق للوالد، لكن عناد الطفولة بالإضراب عن الذهاب للمتجر والبكاء والتخريب؛ كانت أوراق ضغطٍ أدَّت إلى إذعان الأب، وذهبا مع سيارة أجرة ضمن آخرين، وعلى طول الطريق كان الغناء ينبعث من مسجل السيارة أو المذياع، لا يدري، لكنهما كانا منهمكين في حديث خاص، والشيخ يشرح آثار الانحراف الخلقي على الناس من الناحية البدنية.

ولا زال الفتى يتذكر تلك الصورة التي رسمها، صورة مرضى في مستشفيات معزولة، أجسادهم مهترئة، وقابلة للتفكك، كلما اجترّها أحد بسبب إدمان الجنس...

كانت موعظة مؤثرة، غير مباشرة، وربما شديدة على أسر وبيوت تحفها الطهارة، ويلفها الحياء...

ومع إشراقة أول يوم دراسي تَأمّل صاحبنا مستقبلًا خفي عليه وأقلقه، لولا أن تعلُّم الهدوء أورثه سلاسة مع نفسه، وأكسبه طمأنينة أراحته من البحث عن أولويات المستقبل؛ فالإنسان الذي يعتقد أن الحياة مكان خطير يمتلئ بالتهديدات؛ سيجد عالمًا مليئًا بالخوف، والحزن، والإحباط، والإنسان الذي يؤمن بأن الحياة مليئة بالفرص الهائلة والأعاجيب التي يمكن للمرء الخوض فيها؛ سيجد هذا العالم نفسه مليئًا بتنوع وثراء وإشباع لا حدود له، فكيف ما رأيت الحياة.. كانت لك.

وكونك ولدًا، يعني أن ثمة التزامًا صارمًا بالمسؤولية. فحولك تلتف مجموعة من القواعد التي تحكم سلوكك، وهذا الجسد الذي تحمله أو يحملك إنما تعده لما هو أكبر، وما هبة المعهد التي تساوي (٢٠٠) ريال شهريًا إلا بداية قياس المدارك.

لقد كان أول مورد مالي خاص به، مما أتاح له فرصة الاستقلالية باكرًا بالمتطلبات الذاتية.

ارتقت العلاقات مع أناس، وتشعبت مع آخرين، وربما انقرضت مع آحاد، وكما هو ثابت في الدراسات التجريبية فإنَّ العلاقات بين الأولاد في هذه المرحلة لا تزال تركز على ممارسة الأنشطة الجماعية، وليس على وجودهم معًا.

البداية دائمًا قوية؛ فقد كان مندفعًا لتحقيق أهدافه؛ إذ كان يشعر بهمّ التأثير على الطلاب، ونقلهم إلى عالمه، وحَفْزِ أصدقائه على القراءة، مخاطبًا نفسه بالإحساس المبكر بالمسؤولية تجاههم، يعيرهم بعض الكتب التي يقتنيها في الصندوق الذي سمّاه (دولابًا) لأول وهلة، ثم بدا له أن يسميه (المكتبة!)، ويراقب بانتظام وغبطة اصطفاف الكتب على رفوفه وتزايدها! وقد وضع عليها ختمًا بالاسم والرقم والتاريخ، أو يعرِّف الأصدقاء بالمكتبة التجارية الناشئة -النهضة-؛ حيث الشيخ حمد، وحيث تباع الكتب الإسلامية، مستضيئين بحكمة تشعل دواخلهم، لربما كان مفهومها آنذاك:

«بإمكان مجموعة من أصحاب الفكر والمبادئ أن يغيروا العالم».

تبهجه الحياة حين يتصورها أفضل مما هي عليه، قبل أن يخوض غمارها، ويعي تكاليفها دون أن يسأمها.

كل كتاب جديد يظهر في حياته، كان يقترب منه كصديق حي، ويحلم أنه يجد نفسه يومًا جنبًا إلى جنب مع مؤلفه!

يتعارف الشباب في ذلك الموقع الناشئ في (شارع الخبيب)؛ قلب بريدة النابض، وتقتطع اللقاءات الحميمة هناك جزءًا كبيرًا من وقتهم، عقل مفتوح، ونفس متوثبة ما هي محصلته؟

الفتى عاشق الكتاب، يشارك في الإذاعة في سنته الأولى في المعهد، وينتقي ويقدم، يتحدث عبر (مكبر الصوت)، نقطة انطلاقه، الغرفة الصغيرة خصّصت لـ(هيئة الإذاعة)، كما نطق بها أول مرة، وكأنه

يتقمص دور مذيع في الـ(BBC)!
من تلك الغرفة يطيب لأحد الفتيان أن يطلق صفيرًا أثناء الإذاعة، فيسمعه الطلبة في الفناء، والأساتذة في غرفة جلوسهم، ولأنه المسؤول عن الإذاعة تتجه الأنظار إليه، فيوبخه الأستاذ، غير مراعٍ لصغر سنه وجسمه، بالنظر إلى الآخرين، مصدر التشويش، والذينَ عيروه فيما بعد (بهيئة الإذاعة البريطانية)! وحقًا ما يقوله علماء النفس، إن هذه السن نمو مستمر، وشعور، ووصف جلي للانفعالات الأكثر تعقيدًا؛ مثل المهانة التي يشعر بها، والمسالمة التي انتقل إليها، والفخر الذي ناله، عندما اعتذر لأستاذه بأسلوب مدروس، ووضح له أنه يمقت المشاغبة التي حدثت، وكان يردد حديث «أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ» حتى يحفظه؛ ليخاطب به أستاذه الموقر.

أحب مكارمَ الأخلاق جَهْدِي	وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سِباب الناس حِلما	وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هابَ الرجالَ تهيبوه	ومن حقر الرجالَ فلن يُهابا

إن القدرة على تنظيم الانفعالات وضبطها هي علامة على النضج، وتشمل ملاحظة الانفعالات الإيجابية والسلبية، والتفكير في كيفية التعبير عنها بطريقة سليمة. تلك الغرفة الإذاعية الصغيرة، التي يتندر عليها الفتيان: (يا سلام هنا لندن)؛ كان يبصر فيها تحقق أحد أهدافه الصغيرة التي تملأ عليه عالمه، فالطلبة الذين يفترشون الفناء الواسع يسمعون صوته وهو يعبر عن معنى أخلاقي جميل!
وهنالك مجلة المعهد السنوية؛ حيث كانت ميدانًا للسباق بين المتنافسين، وكم داخله فرح غامر حين قرأ اسمه في إحدى صفحاتها، ناشرة له قصيدة عن: (الهجرة)، ثم في العام الآخر (خماسيات).

ولا ينسى جمعية (التوعية)، التي بدأت بنشاط، وحددت لكل سنة شيخًا ينثر على طلابه ما يحتويه عقله من أدب ومعرفة، كان هو أحد المنتسبين إليها أكثر من عام، وإن شعر أحيانًا بضعف كفاءة الأستاذ المخصص، وتمنى غيره؛ لكن شعوره العميق بالانتماء الروحي لهذا اللون من النشاط جعله يتجاوز هذه الحالة الخاصة.

ربما كان ثمة تيارات فكرية إسلامية حركية وراء هذا النشاط، لقد كان يشهد، -دون أن يدري- ميلاد حركات إسلامية، وأخرى يسارية.

والحق أن مآلات الأمور انتهت إلى غير ما كان يظن، وأنّى لسن كهذه أن تبصر ما خلف الكواليس بفؤادها الصغير.

لقد كان يسمع حديثًا مكررًا عن المدرسة الثانوية، وأن الأمر فيها مختلف، وأن التيار الناصري يسيطر على طلابها.

الزمان وحده وضّح له الصورة فيما بعد، لقد كانوا يؤكدون أن الاتجاه الفكري لا يسهل الرجوع عنه، وليس كالمراهقة السلوكية؛ بيد أن واقع الحال أكد غير هذا، ولم يعد يرى أحدًا ممن كان يعدّهم (خصومًا) متشبثًا بما كان يُنمى إليه.

الفضل يعود لهذه الجمعية في إحكام العلاقة مع الطلاب، وفئة من الأساتذة الأفاضل، لم تكن مملة أو جامدة، كانت تحتوي على طلعات بريَّة، وجلسات منزلية، وتدارس علمي، واحتفالات مدرسية، وها هو يتفرس قسمات الأستاذ (محمد) صاحب الكاريزما الغربية، وينظر إلى وجهه وشعر لحيته باغتباط!

لم يقدر والده قدر الإحراج الذي حدث له، حين سلمه رسالة بريدية جاءت على عنوان المتجر ووجدها مفتوحة.. كيف يسلمها للأستاذ؟ أين الأمانة؟ ولم يجد بدًا من تغيير المظروف وكتابة الاسم بخطه من جديد ولصقه ليتسلمه الأستاذ ويَفُضَّه أمامه بسلام!

قرؤوا في الجمعية كتاب (المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام) للشيخ محمد محمود الصواف، القادم من العراق، على إثر اضطهاد حركة الإخوان المسلمين، ولا يزال يذكر أن الشيخ الصواف نفسه زار المعهد العلمي، وجُمِع له الطلاب في الفناء، وتحدث بحماس، ذكّره بما قرأه على لسان الشيخ علي الطنطاوي عن بلاغة الصواف، وحماسته في خطابه.

والفتيان بعدُ يتحدثون عما قال وما جرى، محاولين سباق الزمن، والنمو فوق مستوى أعمارهم، ليتكلموا في الأسرار والملحوظات والتقييم، ولا يزال يذكر حوارًا بين عدد من الأساتذة حول قدرة الطلاب على (تقييم) مدرسيهم، وكان يعجب من شكِّهم في ذلك!

صغير يطلب الكبرا	وشيخٌ ودّ لو صغرا
وخالٍ يشتهي عملا	وذو عمل به ضجرا
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقرا
ويشقى المرء منهزما	ولا يرتاح منتصرا
ويبغى المجد في لهف	فإن يظفر به فترا

أكان العقاد أبلغ حين يتحدث عن حاله بالأمس؟ أم عن حاله اليوم؟ أم عنهما معًا؟!

◆◆◆

9

الـجـمشة



عندما تغرب الشمس، أو تكاد، ويبقى شعاعها الأصفر على رؤوس الأبنية والنخيل، يبصر تلك المباني التي تشبه رؤوس القطط، والتي امتزج فيها الطين بحفنات من القش ليشد قوامها اللدن، وربما كان البناء من اللَّبِن المغطى بطبقة من الطين.

هنا يقف صبي في نشوة، وهو يرى سهم الحضارة يخترق المدينة الشهباء، ويشاهد بناءً إسمنتياً معبراً عن الحداثة على ناصية شارع الخبيب، الذي يضرب بطن المدينة ليقسمها إلى نصفين، وهو في ذات الوقت خط وهمي، وكأنه جدار برلين، ولكنه يؤمن بالعلاقات الحتمية بين عالمين.

عالم أهل البلد وتجاره وعلاقاته وأسواقه القديمة فوق الوادي إلى الغرب من الشارع، وفيها أسواق التمر والإبل التي وصفها الرحالون

بأنها أكبر سوق في العالم، وفيها المتجر الذي كان والده يلقنه فيه دروس الحياة والعمل.

وعالم النزلاء الجدد من الطارئين على البلد من الفلبين والهند وبلاد العرب المشتغلين بالمطاعم والمبيعات الشبابية والحلاقة والملابس، وهم في الضفة الشرقية أسفل الوادي.

الأسوار التي نبنيها أو نتخيلها ونحن صغار يتعين علينا أن نجتازها أو نهدمها حين نكبر!

مرة واحدة أو مرتين أخذ بيده أخوه الذي يكبره بسنتين، ليمنحه جرأة التسلل إلى مطعم أدنى شارع الخبيب، ليجلس قبالة جهاز جديد يسمى (التلفزيون)، وهو يحس بالوجل الشديد وتأنيب الضمير حين يضع عينه على شاشة تعرض مباراة لكرة القدم، ويتذكر انطباع والده لو رآهم على تلك الحال! كان يحس بالاقتراف!

(مكتبة النهضة) استثناء وحيد، كانت في الخبيب، نقطة ثقافية في جو مغاير، لم يكن يجد حرجاً في التردد عليها، طاولتها المتواضعة، المكسوة بالخرقة الخضراء كانت تشده بعنوانات الكتب المصفوفة فوقها.

ازدحام السيارات من أهم الملامح الحضارية التي ينتظرها لمدينته، يتمنى أن يتوقّف طويلاً عندما يهمّ بقطع الشارع إلى الضفة الأخرى حيث لا رصيف!

يريد أن يرى أرتالاً مصطفة من هذه السيارات القديمة من فصيلة الوانيت والداتسون، فالغني هنا هو من يحلم بامتلاك سيارة مهما يكن نوعها أو عمرها!

يعجبه حين ينحدر ذاهباً إلى معهده أن يرى عارضة خضراء وأخرى حمراء، والجندي في داخل الكبينة يقوم بتحريكها لتنظيم حركة المرور.

في هذا الموضع الفريد يتعلم أن الطريق الذي يسعك يجب أن يسع

الآخرين، وأن تنظيم الحياة لا يعني توقفها، بل يعني محاذرة الصدام ما أمكن!

كِسَرُ الطين تسمى (الجمش)، ولحرصه على جمع المفردات العامية والغريبة فهو يلتقط المعنى حين يسمع من شيخ أنه لا يغادر هذه الجمشة إلا إلى قبره، وآخر يعلل سرعة قفوله منًّ السفر بأنه الحنين إلى الجمشة، وثالث يفتخر بكثرة الشخصيات المعتبرة من التجار والإداريين والعلماء الذين خرجوا من الجمشة!

إنه اسم « الدلع » يطلقه واهِوُن أضناهم الشوق، أو مقيمون يصرون على الوفاء!

بريدة مادة لأول محاولة شعرية في ثلاثة أبيات طفولية، تعبيراً عن حب فطري للسكن والوطن، والانتماء للأرض والناس، كما تنتمي الشجرة الصغيرة إلى حقلها ومائها وهوائها.

الشيخ (عبد العزيز المبارك)، والد الدكتور(راشد المبارك) زار حائل أيام (محمد بن عبد الله بن رشيد) ومر على بريدة، وقال فيها ثلاثة أبيات بالافتتاحية ذاتها، وعلى ذات الوزن:

بريدة دار تُذكر النازح الوطن	وقد يتمنى أن فيها له سكن
مشرفة، واعلم فمن شرفت به	يقينًا هم الإخوان عند ذوي الفطن
يقولون: هل أبصرت من حسنٍ بها ؟	فقلت: وهل أبصرت فيها سوى حسن!

الشعر حمّال أوجه!

متعلقون بالجمشة يقولون: إن كل ما فيها حسن، وآخرون يزعمون بأنه لم يجد فيها ما يعجبه سوى أميرها (حسن المهنا)!

(حسن المهنا) أحدث حركة عمرانية ووسع شوارع المدينة نتيجة وعيه الحضاري النابع من رحلاته المتعددة ضمن (العقيلات) -وهم الرحّالة

النازحون طلباً للرزق إلى مصر والشام والهند وليبيا والخليج–، وبسبب اهتمامه بالتجارة والعمران.

أما (الإخوان) فاسم للمحبين وطلبة العلم المتحلقين حول شيوخ آل سليم، وخاصة الشيخ (محمد بن عبد الله آل سليم)، وابنه عمر، وهم شيء آخر غير الإخوان البدو وغير (الإخوان المسلمين) في مصر والعالم الإسلامي، جماعة يدينون بالولاء لحكومة مركزية في الرياض، وهذه إحدى المفاصل التي مكنت للبلد، ومكنت لهم في البلد، وأعطت انضباطاً لا يستطيعه أهل الهِجَر الذين هم حديثو عهد بالاستقرار والأمن والضبط المدني.

وامتد الاسم لمجموعة عاصرها صاحبنا تحتسب على المنكرات، معتمدة على حضورها الاجتماعي، واتصالها بالشيخ (صالح الخريصي)، وهو من تلاميذ السليم، وضمن هذه المجموعة أفراد لا يقرون المدارس النظامية، ولا الأعمال الحكومية الوظيفية.

الشيخ الخريصي نفسه يعمل في وظيفة؛ فهو رئيس المحاكم، وكذلك أولاده تعلموا في المدارس الحكومية، وهو سمح كريم النفس.

القرب الجغرافي، وصحبة الأب، سمحا للفتى ذي السبعة عشر عاماً بحضور مجالس الخريصي، وزيارته في المحكمة والمسجد والبيت في العديد من المناسبات.

(فهد العبيد) ضمن الدائرة، ولكن في جيب مختلف نوعاً ما، صوت وعظي يؤثر على شريحة من الناس، وهو قادر بعاطفته وأمثلته الساخرة على إقناع رجل غير متعلم، الحديث مسكون برفض الآراء الجديدة والمنتجات الجديدة، فكروية الأرض ودورانها والوصول إلى القمر، والمذياع والمسجل فضلاً عن التلفاز والكرة، وملابس النساء الجديدة؛ الخاص منها تحديدًا، هي أمثلة تتكرر وتوضع موضع السخرية والتندر

دون أن يحتاج الأمر إلى توسع في الاستدلال.
زاره الفتى وجلس إليه لمرة واحدة في وضع شبه قسري لم يملك معه (الأخ فهد) -كما يحب أن يُدعى- منعه من دخول منزله والحديث معه في شتى الشؤون، بما فيها استنكاره للمكرات (الكاسيت) وأنها بدعة محدثة.
(محمد المطوع) يملك كاريزما في نسكه وزهده وعبادته وإزرائه على نفسه، الفتى كان يذهب قصداً في صلاة المغرب ليستمع لقراءته التي لا يجد فيها ما تعلمه من تفصيل التجويد، ولكن يجد فيها الخشوع والدموع ومعالجة القلوب القاسية، ولذا فالرجل كاف عاف والناس منه في خير.
أصدقاؤه يحدثونه أنه كان يخلو بنفسه في قبو المسجد المظلم ويوبخ نفسه بصوت مرتفع، ويشير إلى وجهه براحة الكف كما يفعل الصبيان أو المغضبون على جهة الاحتقار للذات وتوبيخها!
رجل يؤمن بالحياة الآخرة كأنه يعيشها.
لا يذكر تحديداً متى أو كيف تعرّف إلى الداعية الشاب (عبد العزيز العقل)، شده في مجلسه الوعظي صوته الخاشع وهو يتلو آيات يختارها، وخاصة آخر سورة هود، قصة فرعون والتعقيب عليها، والصدق يمهد له الطريق إلى القلوب بعد الآذان، وغدا الصبي يتابع مواعيده وينتقل معه من مسجد إلى مسجد، وهو لا يختار إلا المساجد الكبيرة والشهيرة لكثرة الجمهور.
حين سمعه في الجامع الكبير تحمس، وتمنى أن يقودهم في نهاية المجلس إلى الضفة الأخرى من الخبيب ليصرخ بالغافلين!
هي المرة الأولى التي تسلل إليه شعور كهذا، وليس يدري لماذا ظل يتذكر ذلك الخاطر العابر؟!

والده المحب للصالحين لم يحزم أمره صوب (الإخوان)، فثم مسالك وآراء لا يحتملها، ومحاولة أحدهم صرف الفتى عن الدراسة لا تلقى ترحيباً من الوالدين، وإن تحدث عن التصوير وخطورته، طبعه الميال للتجارة والمنحاز للحياة والسعة يجعله معجباً ببعض أثار العقيلات وإنجازهم، وقصصهم مع الجن واليهود وقطاع الطرق، ومغامراتهم الجريئة، وهو إذ يقص ذلك على فتيانه لا يفتأ يردد:

«الشام شامك إلى منّ الفقر ضامك»

«الهند هندك لا قلّ ما عندك»

مدينة تعايُش لأكثر من تيار فقهي وعلمي، وتداخل بين هذه التيارات، ثمّ علماء وفقهاء كانت مرجعيتهم لحنابلة الشام وكانوا يدرّسون في الحرمين الشريفين من أيام عهد الأشراف، ويسافرون مع «العقيلات» للشام والعراق، ويحضرون المخطوطات والكتب المطبوعة على الحجر من الأمصار، بيد أن التلاميذ والأتباع يغلب عليهم التصعيد وتكريس العداوة، ونقل الكلام وحمله على غير وجهه، والاستنجاد بالشيخ فيما يشبه حالة الخطر!

المدينة التي يمتهن أهلها الزراعة والتجارة استقطبت عائلات من أنحاء شتى، من حائل إلى سدير والوشم إلى الرياض (خاصة بعد سقوط الدرعية) والحجاز والجنوب، واستقرت بها أسر عديدة من مصر والشام، وارتبطت مع السكان الأصليين بالمصاهرة والحب.

كما استعارت العديد من أسماء الأحياء والقرى من العراق وسواها، (واسط) و(بيرحاء) و(الحويزة) بعض مسمياتها.

استقبلت التعليم العام، وافتتحت المدارس النظامية هي وجارتها عنيزة عام (١٣٥٦هـ) قبل أن تفتح في الرياض بعشر سنوات.

(عبد الله بن إبراهيم بن سليم)، و(علي المطلق)، ابتعثا من بريدة لتولي

افتتاح مدارس التعليم في الرياض!
خمسون ما بين قاض ومعلم، وبترشيح من الشيخ عمر بن سليم، أرسلوا إلى جنوب المملكة، وعاشوا واستقروا هناك، وتداخلوا مع جيرانهم بالمصاهرة والحب.
ابن الجمشة السفير (فوزان السابق) أقنع رجالات القصيم المقيمين بمصر بالعودة إلى ديارهم على حساب الدولة.
(أولاد علي) هكذا يحبون أن ينتخوا، المشتغلون بالتجارة، والمحاربون إذا لزم الأمر، والذين تتعاقد معهم دولة الخلافة لحماية الحجيج وسكة الحديد وحماية أماكن في العراق من عصابات منفلتة من دول الجوار.
رجال الصحراء الذين بنوا في (الكرخ) في مدينة بغداد، ما كان يسمى (صوب عقيل)، وبنوا الكثير من منطقة الزقازيق و(إمبابة) في القاهرة، و(سوق الشيوخ) في البصرة.. الرجال الذين خاضوا المخاوف بجسارة وصنعوا من شبابهم أثرياء وقادة، وتعلموا من السفر والغربة والخوف، وتكيفوا مع المتغيرات، وأقاموا علاقات سياسية مع الأطياف المتنوعة.
والده المبهور بالعقيلات كأبطال، كان يردد قصة المعترضين على مدارس البنات، الذين سافروا بصحبة الشيخ الخريصي لمقابلة الملك، وتبليغ صوتهم المحتج على هذه الخطوة الجريئة.
الموقف كان غريباً في سياق متعايش محتك بالجار وبالبعيد، مستوعب للطارئ والمهاجر.
المعترضون فئة قليلة محيطة بالشيخ، التحمت مع شريحة أكبر من الرياض حيث أقاموا مخيماً خارج البلد.
غالبية الناس تفاعلت إيجابياً مع التعليم، بل لم يبدُ لها جديداً، فالرحالة كانوا يصفون المدينة بكثرة (الكتاتيب) للبنين والبنات، منذ عام (١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م)، حيث كان فيها خمس مدارس بنات، فالبنت

تخرج من بيتها لتتعلم الدين والخياطة والحساب وبعض المعارف الضرورية، ومثل ذلك كان في عنيزة.

شخصيات معتبرة ومقربة من رئيس القضاء الشيخ (عبد الله بن حميد) كانت تواجه تيار الرفض وتسعى لتكريس التعليم، منهم الشيخ (علي الحصين)، الذي قضى في حادث سيارة في الرياض، ليصنع الذين لا يرعون حرمة لحي ولا ميت شائعة أن هذه عقوبة لمن يدعون إلى الشر!

ابن حميد صاحب عقل نير، ورؤية مستقبلية لا تتجاهل عثرات الواقع وبعض التصعيد الفقهي المتكئ على السياسة!

لديه مواكبة للمتغيرات، وعنده راديو يستمع إليه سراً لمتابعة الأخبار، ويبدو وكأنه يصنع قيادات شبابية مستنيرة بهدوء.

الفتى الذي أصبح شاباً تنقل في العديد من (قهاوي) رجالات الصحراء واستمع إلى أحاديث المعمرين عن ذكرياتهم في فلسطين والشام والعراق ومصر والهند، ومصاولاتهم مع قطاع الطرق، ونظامهم الحياتي الذي كانوا يدربون عليه فتياناً فوق العاشرة يصحبونهم خارج الجزيرة لطلب المعاش وهم يرددون في أحاديثهم:

- نجد تلد ولا تغذي!

استمع إلى (حمد العقيل) سائق آل سليم، وإلى (سليمان الجربوع) وهو من رجال العقيلات الصادقين المعمرين.

تبدو الأحوال مع الوحدة السياسية، والنفط المتفجر مختلفة بعض الشيء، لم يعد ثم حاجة للسفر والترحال، وعدد من المقيمين في مصر والسودان والشام عادوا إلى ديارهم ليسهموا في تطوير البلد، ويضعوا خبراتهم موضع التنفيذ، وتبع هذا ترجيح مدرسة تأخذ بخيارات فقهية وعقدية أكثر صرامة، وتعدّ ما هو خارج الحدود بلاد كفر، والسفر إليها لا يجوز؛ لأنه سفر لبلاد الكفار، ويجري في حالات هجر للقادم

من تلك البلاد ثلاثة أيام حتى يتطهر من أوضار ذلك السفر!
ظروف التكوين والتأسيس كانت سبباً رئيساً في هذا الترجيح.
أحد أصدقائه كان يظن أن واقع البلد موصول الحبل بالحياة النبوية دون وسيط ولا انقطاع تاريخي قبل أن يكتشف أن ما يراه هو مزيج تراكمي من مؤثرات وعوامل تتداخل فيها السياسة بالاقتصاد وبالمعرفة؛ لتنتج صورة اجتماعية قابلة للتشكل والتحول كلما طرأت عوامل جديدة.
تظل طبيعة البلد تجنح إلى التعايش والاستيعاب، وتبدو محطة انطلاق لكثيرين من أبنائها البررة الأوفياء، وآخرين يمرون بالجمشة ليصنعوا أنفسهم ثم ينطلقون صوب العمل الإداري أو الثراء أو المعارضة أو العلم أو الفكر والثقافة، وحتى الإلحاد، فالقصيمي مر من هنا وإن كان من أصول صعيدية.
طبيعة العيش مع التجارة لا يسمح بديمومة الإغلاق، والانفتاح التعليمي يأتي معه بأعداد كبيرة من الأساتذة من مصر وسوريا وفلسطين ويفضي إلى التأثير المتبادل، ونشوء المدارس والتيارات السياسية والدعوية والفكرية، والبلد في قلب الصراع، أياً كان.
الحراك تعبير عن فاعلية إيجابية في المدينة، وانتصار للتنوع الإنساني، وهو تعبير هنا عن الانتماء المتدين المستعد لمزيد من الوعي والنضج والاستيعاب.
المدينة تكبر وتتسع عمرانياً، ويكبر قلبها المشفق الذي عبرت عنه يوماً قصيدة (الخلوج):

برورٍ بنا ما مثلها يكرم الضنا	وصول بنا لكن نسينا وْصالها
تلقى علينا الجوخْ والشالْ فوقنا	وهي عاريْه تبكي ولا احدٍ بكى لها

ويكبر عقلها لفهم الواقع والتعاطي معه بجدارة.

الفتى وهو يستمتع بمغامرات (عقيل) وأسفارهم، سمح لنفسه بتوسيع دائرة علاقاته داخل منطقته، ثم خارجها؛ رغبة في التواصل وتكوين الروابط الاجتماعية.

وثّق الروابط مع شباب من عنيزة، وكانت حالة تثاقف وحوار وصداقة في ذات الوقت، وشهدت منطقة (الحصاة) المتوسطة بين المدينتين عشرات اللقاءات، كان يشارك في بعضها الشيخ (عبد الله الجلالي).

مشى أبعد من ذلك إلى الرس، وأحكم علاقاته بواسطة الأستاذ (عبد العزيز البليهي) والأستاذ (محمد العبدة) مع نخبة شبيبة صالحة، إلى آخرين استقبلهم وهم قادمون للدراسة في معهد إعداد المعلمين، وعاش معهم في سكن العزوبية أياماً من أحلى أيام العمر.

صديقه الظريف الذي يتندر عليه بأنه عندما تعرّف عليهم واندمج في جوهم، ذهب إلى الفريق الرياضي، حيث كان يقوم بدور الحارس، وهم ينتظرونه في مباراة حاسمة، ورمى ملابس الرياضة عليهم وهو يقول:

-خذوا ملابسكم.. لقد أسلمت!

(المذنب) تبدو ذات ولاءٍ لمدينته، فلا مشكلة في الاتصال، والشيخ عبد الكريم الجار الله بدماثته وتواضعه يقود المشهد، والعلاقات تتسع وتشمل أجيالاً من الشباب، ورحلات منتظمة، وحجًا وعمرة، وصلات مع فتية من مصر كان يعدهم نقلة غير عادية، ستجد الأثر يمتد لـ (مرسى مطروح)، وليس المذنب فحسب!

وجد ابتساماتهم العريضة تعبر عن فرحتهم بخبر سبقه إليهم عن فوزه بمسابقة الشعر التي نظمتها رعاية الشباب، وهم يرددون بإعجاب:

تحيةً يا فتى الإسلام والعربِ ... في غمرة الهمِّ واللأواء والنَّصَبِ
تحيةً وفلــولُ القـــــوم لاهثةٌ ... وواثبُ الحق رغم الخرق لم يثِبِ

عيون الجواء تتميز بالطيبة والسماحة، وشبابها يأتي للدراسة في الثانوية العامة وفي المعهد العلمي فيكون التعارف والتآلف والإخاء والذكريات الجميلة، والفتى يبدي استعداده حتى أيام الامتحانات ليترك كتبه ويُقدّم دروساً خصوصية فيما يحسن، اللغة العربية والمواد الشرعية، وأن يتعلم منهم حروف الإنجليزية، وحتى هذا التعلم يبدو وكأنه استدراج لتمتين الصداقة من خلال استلام الإحسان من أيديهم!

كتم إحساساً بالخيبة لما عرض على فتى يقترب منه صورةً لمعذبين نشرت في مجلة المجتمع، فقابلها بضحكة وعدّها ضرباً من العبث!

قرر أن يتعدى حدود الجمشة إلى جيرانها الأقربين؛ في البكيرية، والبدائع، ورياض الخبراء، والشماسية، والأسياح، ثمّ صداقات وتاريخ جميل، وأصحاب حجزوا مقاعدهم في قلبه مهما نأوا، وظل يقابل الوجه الغريب المألوف فيبتسم له ثم يتذكر أنهم (كشتوا) يوماً تحت ظل الأثل، وأن كؤوس الشاي والقهوة العربية أُديرت عليهم، وأن نكتة لطيفة حفظت ذلك اللقاء!

موقف يبدو شيئاً عادياً، أو عابراً، أما حين يكون ذكرى فهو إحساس مكثف بالحنين، ومشاعر تهفو للانطلاق، وملامح تطل من بعيد، ويبدو في تضاعيفها الإخاء الإنساني الذي يألف الزمان والمكان والصور.

من الصعب أن ينسى رجلاً متفانياً منكراً لذاته مخلصاً دؤوباً مثل أبي أسامة، يحتويهم في بيته، ويقود بهم مركبته، ويخدمهم، ويعلمهم ويتعلم معهم، كانوا يسمون الأستاذ حمود اللاحم (عصا موسى).

وجوه غضة بهاء الشباب، وأرواح سامية.. التقت على الأوراد والصلوات الطوال، والتفكر في الملكوت وقت الهدآت والأسحار، وتعلمت تدبير العيش كما تعلمت حقوق الإخاء، وحفظته في الحضور والغياب!

تعلم مبكراً فنون الإدارة والتفويض والشراكة، الميدان يشجع على ظهور قدرات قيادية فاعلة شعرت بأهميتها وأتقنت دورها، يحيى البراهيم ومحمد أبا الخيل، كانا ثنائياً رائعاً لفترة دامت لسنين، عبرت خلالها وجوه استعصت على النسيان، تقتله بتفاصيلها الجميلة، وسهراتها العذبة، وهزلها الجاد، وجدها الهازل، واندماجها الصادق وشبابها المتوقد، وضحكاتها التي لا يزال خياله يستحضرها ويضفي عليها الحياة من جديد!

لو كان يدري أن الأيام ستحول بينهم، وأن الفريق المتآلف سيتفرق إلى غير لقاء.. أتراه كان يسمح لنفسه بذلك الاندفاع الوجداني العميق ؟

أواه يا راحل الأحباب من كبدي	لم يبق منها على شجوي سوى الوصبِ
أبكي عليكم وهذا منتهى عجبي	والقلبُ من ذكركم في نشوة الطربِ
أحن شوقاً إلى أيامنا وَمَضَتْ	قد أقْوَتِ الدارُ من أصحابي النُّجُبِ

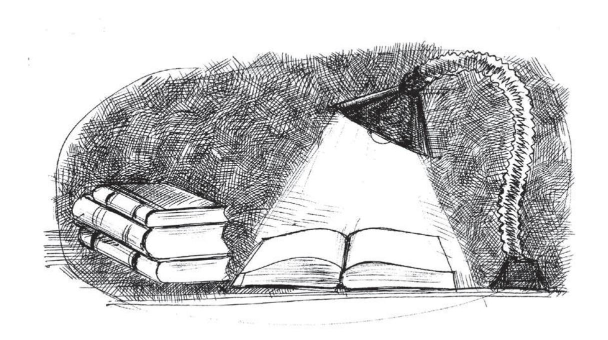
ليس يأسى على تلك الأيام الحلوة، لقد بنت في نفسه الكثير، وأسهمت في إحكام تجربته، وصنعت له ذكرى طيبة، وأبقت له الحنين الدائم إلى وجوه افتقدها..

أبقت له من كل ألفٍ واحداً يُعدّ بألف!



١٥

في البدء كانت القراءة



الجميع مختلفون في الطريقة التي يفهمون بها العالم من حولهم، وتستخدم الأفهام للتواصل مع الآخرين، وارتجاع الماضي، والإبحار في عوالمه العجيبة، والكتاب مفتاح الزمن بأبعاده الثلاثة.

هو أحد الفتيان الذين عشقوا الكتاب، والتحموا معه، وعثروا على المتعة بمصاحبته، فلعب دورًا رئيسًا في تشكيل شخصيته، وحاول أن يقتبس منه الآليات الدافعة للطموح، والتي تتضمن الشغف، والإيمان، والاستراتيجية كوسيلة لتنظيم الموارد، ووضوح القيم، وتفعيل الطاقة، والقدرة على الارتباط، وتكوين علاقات مختلفة، وإجادة فن الاتصال.

فالجهد المنظّم عائده مُضاعف، ونتيجته مثمرة.

وبالاطلاع تؤسس معارف، وتنمى ثقافة، والفرص المواتية تولِّد الحظوظ..

يتذكر جيدًا ذلك الصباح حين أبصر طائفة من الكتب الجديدة الجذابة.. ولسان حاله يقول:

فما هو إلا أن أراهَا فُجَاءةً ... فأبهت، لا عرف لدي ولا نكرُ!

عنوانات أخّاذة، واسم شهير: الشيخ علي الطنطاوي.. فيقرأ منها (رجال من التاريخ)؛ حيث الحماس والقدوة. (قصص من التاريخ)؛ حيث اللغة الآسرة والأسلوب القصصي، لقد هزَّت وجدانه بقوة، كما أضحكته (صور وخواطر)، وأغراه (هتاف المجد)، و(في سبيل الإصلاح) حين سمع بأنها على قائمة الكتب الممنوعة، وكل ممنوع مرغوب، ومنها علم بأن الطنطاوي يقول الشعر نادرًا، فها هو يخاطب الملك سعود في زيارته لباكستان فيقول:

أسعود! باكستان أكبر دولة ... ولأنت أكبر سيد وعميد!

ويجد الطنطاوي يصف المنفلوطي بأنه (شيخ الكاتبين)، فيقرأ كتب الأخير، ولا غرابة؛ فـ(النظرات) مقرر لمادة المطالعة في المعهد، ولكنه يعزف عنه؛ لأنه مقرر، ويقبل على (العبرات)، ويسكب العبرات على قصة الحب المؤثرة (تحت ظلال الزيزفون) في حالة من المشاركة الوجدانية.

ويتغنى بما نظمه المنفلوطي:

ليت فرجيني أطاعت بولسًا... الخ.

ويتعرف على مصطفى صادق الرافعي، فيقرأ (وحي القلم) الذي كانت مجلداته الثلاثة تزيّن رفوف مكتبته، ثم (تحت راية القرآن) الذي كان وهج المعركة باديًا في سطوره، ويستعصي عليه (أوراق الورد)، و(المساكين) فقد أحس بأنها قطع من الصخر فلم يُسِغْها، وحاول أن

يحفظ سطورًا، ثم تجاوزها مستثقلًا متبرمًا.

ثم هو يصحو يومًا على مجموعة مختلفة، فهنا (مذكرات الدعوة والداعية) الذي هو يوميات خفيفة وصادقة للشيخ حسن البنا، ثم (رسائل الإمام الشهيد حسن البنا).. أوراق داعبتها أنامله، وأبحر فيها عقله، واتقدت عاطفته.

بعد شهور يتسلَّم مجموعة كتب (توزع مجانًا): (نافذة على الجحيم)، (لماذا أعدم سيد قطب وإخوانه؟)، (وثيقة سرية تفضح مخطط الناصرية).

لقد قرأها بِنَهَم، وأحسَّ بأنه تناول طعامًا مرًّا، صدمه من الأعماق، وخدش هذا الإحساس الطفولي المرهف، وغدت الخيالات المؤلمة لصور المعذبين أحافير في ذاكرته، بما فيها من معاني القسوة، وإهدار الكرامة الإنسانية.

وحين اشترى كتاب (البوابة السوداء)، وجد المزيد من الرعب، والدماء.. بوابات كأنها سراديب الشيطان في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب.

هذا الشعور حفّزه على حفظ الأسماء، والصور، والقصص، والأشعار فـ(رسالة في ليلة التنفيذ) لهاشم الرفاعي لا تزال منقوشة في ذاكرته، وثمة قصيدة أخرى مطلعها:

فاض القريض بخاطري فدعوني ... أفضي لكم بفجائعي وشجوني!

حفظها، ثم علم بعدُ أنها من نظم د. يوسف القرضاوي.

مجموعة جديدة من طباعة (الدار السعودية للنشر والتوزيع).. هي مجموع ما كتبه الأستاذ سيد قطب، شغف بها وقرأها عن آخرها، وحفظ بعض مقاطعها، وكانت النهاية الأليمة لهذا الرجل الكبير وأضرابه، ملحمة تحكي ما كتبه في ظلاله عن أصحاب الأخدود،

ولقد دهش صاحبنا حين جاء سؤال التعبير في السنة النهائية -وهو يعتمد من رئاسة المعاهد في الرياض- تعليقًا على كلمة سيد الشهيرة «إن كلماتنا وأفكارنا تظل جثثًا هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها وغذيناها بالدماء انتفضت حيَّة، وعاشت بين الأحياء»!!

ومثله محمد قطب وآمنة وحميدة، وقد رآهم مجتمعين في كتاب (الأطياف الأربعة).

قرأ كل ما كتبوه عدا المؤلفات القديمة التي نفدت طبعاتها، وحتى هذه حاول الحصول عليها، وظفر بكتاب (طفل من القرية) الذي كان أشبه بمذكرات لطفولة سيد، ولفت نظره أن إهداءه كان لعميد الأدب العربي طه حسين:

«إنها يا سيدي أيام كأيامك.. في بعضها من أيامك مشابه، وسائرها عنها في اختلاف..»!

يقول أحد الحكماء: «إن أفضل جندي هو الذي لا يقاتل، والمقاتل المتمكن هو الذي ينجح بلا عنف، وأعظم فاتح يكسب دون حرب، وأنجح مدير يقود دون إصدار الأوامر، إن هذا ما يسمى ذكاء عدم الهجوم، وما يطلق عليه: سيادة الرجال».

أبو الحسن الندوي رجل هندي عربي الأرومة من سلالة الحسن رضي الله عنه. قرأ له كل ما انتهى إلى يده من مؤلفاته، وأعجب ببيانه وعاطفته.

كما أعجب بأبي الأعلى المودودي، وقرأ العديد من كتبه، بيد أنه أحس بثقلها وكثافتها.

وقرأ للعقاد في عبقرياته، وإسلامياته، على شعور بالجفاء؛ أحسه نتيجة الحراك الفكري السائد حينذاك، وثمرة للجفوة مع حواريه السابق سيد قطب.

ويبقى أن أي شيء يوسع نطاق القدرات الذاتية، ويبين للإنسان أنه يستطيع أن يفعل مالم يكن يظنه ممكنًا، شيء عظيم القيمة.

لقد ضم إلى كتبه المقروءة مصدرًا آخر للمعرفة، إنها المجلات الإسلامية التي كان يقرؤها من الغلاف إلى الغلاف؛ (الوعي الإسلامي) الكويتية، و(الشهاب) اللبنانية، و(المجتمع) و(البلاغ)، و(الدعوة) السعودية يوم أن كانت جريدة، ثم مجلة (المنهل)، ومجلة (العربي) الكويتية التي كان يقرؤها سرًّا عن أهله وأصدقائه؛ فقد كانت تضع في صدرها (فتاة الغلاف)!

يعثر في طريقه بأكوام من النفاية يلقي عليها نظرة فيجدها أعدادًا قديمة من مجلة العربي فيلتقطها بفرح، وهو يقدر أن الذي رمى بها إلى هذا الموضع غضب أبٍ أو غيرة أم تكتشف هذه المطبوعات المهربة في غرفة ابنهما!

البيت يشهد حركة نشطة لشراء الكتب، والجدية تدب في أوصال العلاقة الحميمة التي بدأت في المتوسطة، وامتدت إلى الثانوية، ما بين سن الثالثة عشرة، حتى الثامنة عشرة، وعندما يصل الأولاد إلى هذه المرحلة؛ يميل آباؤهم إلى اعتبارهم رجالًا صغارًا. ومن نواحٍ متعددة هم كذلك؛ حيث إن نمو قشرة المخ الأمامية (المسؤولة عن الإدراك السامي) تقترب من الاكتمال في هذه السن، وهو جزء ضروري في المخ للتطوير والمزج بين المشاعر، والأفكار، والتحليل، والاستنتاج. اقتراب شديد للنضج واكتمال السمات الخاصة بالحالة المزاجية والنفسية، والتي هي أصدق تعبير عن الشخصية.

«اقرأ» كانت النداء الأول..ولكنها النداء الدائم أيضًا، المتصل، المتواصل، السائر إلى المنتهى.

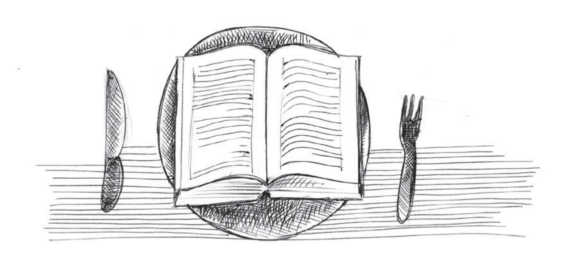
وهو إذ وجد نفسه في الكتاب، فقد وجد الكتاب في نفسه، وصار يعد

نفسه كتابًا مفتوحًا يصححه ويجدده، وهو يعلم أن لكل كتاب أجلًا، كما أن لكل أجل كتابًا.



11

في ضيافة الخليل!



ليس على طريق النجاح إشارات تحدد السرعة القصوى، وليس ثمة مستحيل طالما صدق العزم، وتم التوكُّل.

بيد أن طريق الفشل هو الآخر لا يتطلب أكثر من خور الإرادة، وفقدان التخطيط.

هنا صبي أطلق شراعه ليبحر في عالم الشعر حينما يكون البحر متقاربًا، أو طويلًا، أو بسيطًا، لا حينما يكون أبيض أو متوسطًا أو أحمر أو ميتا! ويحاول الغوص في أعماقه، قراءة وتذوقًا، ثم يترقى ترديدًا وحفظًا، وينتهي به المطاف نظمًا.

وهو لا يستطيع أن يقول: إنه شاعر متميز، بل شعره وسط، كما وصف النقاد شعر ابن حزم، أو شعر الفقهاء، أو دونه بقليل.

والشعر صعب وطويل سُلَّمُه، كما قيل.

في الحياة فرص كثيرة، منها الذاكرة الغضة المتوقدة في سن الطفولة والشباب، ومن الفرص أن يوفق الفتى لمن يشجعه على توظيفها فيما ينفع.

خلال سنوات المعهد العلمي الست كانت القراءة الأدبية شوقه ومتعته وإبحاره، تتفرع وتتوحد، وتحيطه بخيارات كثيرة، فالفائدة والمتعة والمعرفة بعض فيضها.

والشعر يحاكي وجدانه، ويلهب عاطفته، لقد كان يراه واحةً يستظل بفيئها، ويجني أطايب ثمرها، فيقرؤه، ويتغنى به، ويحفظه، ويردده في سفره وسمره، ويستذكره بين الفينة والفينة كلما استطعمه الأصدقاء، أو استحلاه الأهل، فهو رفيقه في صخب الاجتماع، وهدآت الوحدة.

تعرف على الشعر القديم، وحفظ الكثير منه.

قرأ الشعر الجاهلي والإسلامي، وحفظ للمشاهير من أعيان قصائدهم، فالمعلقات، وشعر حسان، والمتنبي، وشعراء الأندلس، وعيون الشعر المختارة في (الأصمعيات)، و(المفضليات)، و(اليتيمة)، وقصيدة ابن زريق، والجرجاني، ومالك بن الريب.

طالع المجموعات الشعرية، راقيها وضعيفها، من (ديوان الحماسة)، إلى (جواهر الأدب)، وما بين ذلك كـ(مختارات من أدب العرب) لأبي الحسن الندوي.

وتعرف على الشعر الحديث والمعاصر، وقرأ لأعلامه أيًّا كانت مشاربهم وأغراضهم.

محمود غنيم، ومحمود حسن إسماعيل، وهاشم الرفاعي... من مصر، ولقد أغراه بهم وبأمثالهم الروح الإسلامية الحية، فلا غرو أن حفظ عشرات القصائد لهم، وزين بها حديثه ودرسه، وحفظ أبياتًا للرافعي ولم يعجبه نَفَسُه:

يا شبــاب العــالم المحمــدي		ينقص الكون شباب مهتدي
فــأروه دينكـــــم ليقتــدي		دين عقـــــل وضمير ويــدِ

عمر أبو ريشة، وشفيق جبري، وعصام العطار... من الشام، يتغنى بالقصائد الطوال، والملاحم من شعرهم، فقصيدة أبي ريشة:

أمتي هـــل لك بـين الأمــمِ		منبرٌ للسيــف أو للقلـــمِ؟

سارت مسير الشمس، وحاكاها مئات الشعراء، ولعل صاحب هذه الحروف أحد من تقمصوا روحها حين يقول:

سبح الحـــق بتيــار الـــدمِ		واشتوى باللــهب المضطــرمِ..
زمزمٌ فينا ولـكن.. أين مَن		يُقنــع الدنيا بجدوى زمــزمِ؟!

وهو لا يذيع سرًا إن قال إنه قرأ لنزار قباني في دواوينه، وأُسرَ بشعره الجاد وحفظه ووظفه، من مثل شعر النكبة، وبعض التجليات الوطنية:

نثرتُ فوق ثراك الطيبِ الهُدُبَا		فيا دمشقُ لماذا نبدأ العتبا؟
حبيبتي أنت.. فاستلقي كأغنيةٍ		على ذراعي، ولا تستوضحي السببا!
أنت النساء جميعًا، ما من امرأة		أحببتُ بعدك.. إلا خلتُها كذبا

وليد الأعظمي، ومعروف الرصافي والجواهري، وأحمد الصافي النجفي، وبدر شاكر السياب من العراق.
أتقن حروف السياب في معاناته مع المرض، وتذوقها كأحسن ما يكون الشعر.
وحفظ الكثير وترحم عليه، وأحس إلحاحًا داخليًا يؤكد صدق توبته وقربه من الله إبان رحيله المحزن.

وتمنى أن يرى (غيلان) الذي عرفه من قول أبيه:

إقبال يا زوجتي الحبيبة

كوني لغيلان رضًا وطيبة

كوني له أبًا وأمًا وارحمي نحيبه!

الدموع التي سكبها وهو يقرؤه صنعت حالة من الوجد والحنو لا يعرف كنهها.. يردد معه:

لك الحمد مهما استطالَ البلاءُ

ومهما استبدَّ الألمْ

لك الحمدُ إن الرزايا عطاء

وإن المصيباتِ بعضُ الكَرَمْ

ألم تعطني أنت هذا الصباح

وأعطيتني أنتَ هذا السحر؟

فهل تشكر الأرض قطْرَ المطر

وتجزع إن لم يَجُدْها الغمام؟!

محمد إقبال قامة فكرية وأدبية سامقة، ولقد وجده وأحبه في (شكوى)، و(جواب شكوى) قرأ ترجمتها للعربية للأستاذ الصاوي شعلان، وحفظ مئات الأبيات منها، وعلى ضفافها قرأ (روائع إقبال) لأبي الحسن الندوي، وهو ترجمة نثرية لشاعر الهند العظيم، ولعله أكثر شاعر يستشهد بشعره في أحاديثه الأولى.

ومن كتاب (منهج الفن الإسلامي) لمحمد قطب تعرف على عمر بهاء الدين الأميري، وقرأ دواوينه، وحفظ له قصائد.

قرأ لكثيرين من شعراء المملكة واليمن، وحفظ ما راق له من ذلك.

في تلك السن يكون الإعجاب بعاطفة القصيدة، قبل بنائها الفني، فلا غرابة أن يحفظ ليوسف العظم، أو وليد الأعظمي، أو قصيدة لشاعر مغمور لتوقد عاطفتها.

من جميل ما يتذكره للسنوسي:

لي وإنْ كنتُ كقطرِ الطَّلِّ صَافي	قصفةُ الرعدِ وإعصارُ السوافي
أتحاشى الشَّر جهدي فإذا ما	لجَّ في عسفي تحداه اعتسافي!
خــلقٌ وَرَّثَنِيــهِ أحمد	فجرى ملءَ دِمائي وشِغافي
لم يغيره علـى طولِ المدى	بطشُ جبارٍ ولا كيدُ ضعافِ

ولمحمد الشبل:

يا عيدُ أنت على المــــدى	إشـــــراقة النفس العليلـــة
وسعــــادة القلـــب الـــذي	لم يلـــق في الدنيـــا سبيلَـه!
لكنها الأيــــام.. تســــــــ	ـلب منك فرحتـــك الأصيلـــة
لكنــــها الأيــــام تخفـــي	منك بسمتـــك الجميــــلة
وتُحيـل صفــــوَ العيـــــــــ	ـــش فيك إلى أمانٍ مستحيلة!

ولا غرو أن تجد في فوضى ذاكرته قصائدَ ومقطوعاتٍ لمشاهير شعراء العربية كشوقي وحافظ، إلى البردُّوني والشابي، وإلى جوارها قصائد صادفها منشورة في جريدة أو مجلة أوَ ديوان لأحد الشعراء الناشئين، أو المدرسين الذين تنشر لهم الصحف وقتها دون تدقيق، من النظم أو شعر المناسبات.

لقد أحس بأن الشعر شلال يتدفق من ينابيع روحه، وتتهادى تفعيلاته على شفتيه، بين إبداع المعاني وجمال الصور.

سلام على أيام الصبا، حين كانت تلك القصائد كغزلان جميلة، سريعة الإلف، بعيدة النفار، طيعة مواتية، قانعة بالقليل من الجهد، راضية بالقليل من الوقت!

آه.. لا يزال يذكر العديد من القصائد لشاعر فلسطيني أعجب بصياغته وديباجته وغموضه الرمزي من خلال ما كان ينشر له في مجلة (الشهاب)، د. عبد الرحمن بارود، كان يحتفظ بقصائده في مجموع خاص، ويخزن بعضها في الذاكرة، ويأسف أن يكون مصير هذا المجموع الأثير إلى نفسه الضياع (في ظروف خاصة!)، ويعجب أنه حين التقى الشاعر نفسه بعد سنين طويلة فوجئ بأن الشاعر قد نسي بعض بناته، وأن ديوانه الأصل ضاع هو الآخر منه (في ظروف خاصة!)، وبقي ما استعصى على الضياع من عصارة الذاكرة.

بودادي لديك.. هوِّنْ عليك الأمـ	ـر لابد من زوال المصابِ
سوف يصفو لك الزمان وتأ	تيك ظعونُ الأحبة الغُيَّابِ
وليالي الأحزان ترحل؛ فالأحـ	ـزان مثل المسافر الجوَّابِ!

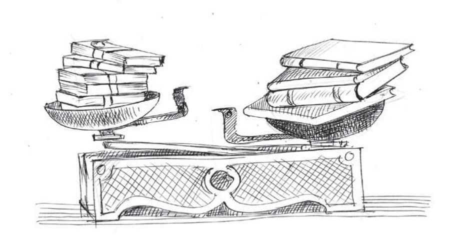
يعلن ذات مساء أنه سيجمع ديوان الشاعر (بارود) وفاءً لذكراه، فيفاجأ صبيحة اليوم التالي بنسخة من شعره مطبوعة بعناية العديد من الأساتذة الفضلاء!

ويظل الشعر حادي الركب فهو كالحزن، وأما الإنسان فهو المسافر الجوّاب.

◆◆◆

12

المقول والمنقول



هل الشعر ديوان العرب كما يقول ابن عباس؟ أم هو ديوان الحياة الإنسانية كلها؟

قد يكون العرب أكثر تذوقًا للشعر وبحوره، وما من عربي إلا وقال الشعر، قل أو كثر، حتى البيت أو البيتين، كما يقول ابن أبي دؤاد.

صاحبنا عربي أحسَّ بالموهبة في داخله، وسمع عزيفَها يناجي روحه، بيد أنه غير راض عن أدائه.

فهو يراه حينًا نفثات عابرة لا تطول، وحينًا آخر تدوينًا لأحداث ومناسبات، ويجد في شعوره المكنون فوق ما يجد في بوحه.

يقرأ القصيدة من عيون الشعر لبعض الفحول؛ فتنطبع في ذاكرته، وسرعان ما تتمخض معاناته عن قصيدة تحاكيها في الوزن والقافية، وإن اختلفت عنها في المضمون.

بدأ المحاولة بمعابثات طفولية، وأهازيج شعبية، فمرة حين سافر والده للحج وجد نفسه مع إخوانه في المنزل والدّكان، محتاجًا لأبي الجيران... وأخرى حين همّ بالدراسة في المدارس العامة المتوسطة إلى جانب المعهد العلمي...

أول ما يحفظه مما كتب مقطوعة ذات إطار عاطفي متصل بهموم أمته، مكتوبة بلغة سهلة:

أنترك أرضًا بالتدين خصبة ... إلى موطن فيه الفضيلة تُنتحر
وأصواتنا تترى تهدد خصمنا ... كرعدٍ يخيف القلبَ.. لكنْ بلا مَطَرْ
ونزعم أنا نبتغي الحق دائما ... ونمشي وراء الحق لا نرهب الخطرْ
ولو أبصرت أبصارنا كل ظلمة ... لشعت بنور الحق للحق تنتصر
ولكن أليس الواقع المر شاهدًا ... على أننا كالبَهْمِ ترعى بلا حذر!!
وإنا لقوم عزنا ورشادنا ... بطاعتنا لله نقتدمُ البشر
ونمشي أمام الخلق كلهم كما ... مشت قبلنا الأجداد في زمن غبر
فلم يملكوا الصاروخ أو مدفعية ... تمزق ما تأتي عليه ولا تذر
ولكنهم حازوا العقيدة وحدها ... بها مزقوا من ناوَأَ الدين أو كفر

وهو إذ يقرؤها يدرك الإشكال في (تُنتحر) بضم التاء أو فتحها.. أو في تكرار كلمة (الحق)، أو في انتقال الأبيات من غرض إلى آخر، بيد أنه يقرؤها ضمن إطارها الزمني لفتى في الثالثة عشرة.

لعل هذه المحاولات هي الخطوة الأولى لرحلة الألف ميل، تلك التي بدأها ولم يكملها!

لا ينسى أن أعظم حافز له أن يستمع إليه المتذوقون للشعر من الطلاب الذين سبقوه إلى (الكلّية) في الرياض، وهو يراهم في عداد أشياخه، وينتمي إليهم ويعتزّ بهم، ويتراسل معهم بالقافية الشاعرة، ولعل هذا

التراسل صادف حالة عاطفية خاصة غير مقروءة في الكلمات، لكنها مستبطنة في الوجدان.
تحرك قلبه بارتباط عاطفي مع أحد زملائه الذين صادفهم في طريقه، وأحبه أشد ما يكون الحب، وأثّر ذلك على الصديق تأثيرًا سلوكيًّا إيجابيًّا؛ نقله من تيهٍ وضياع إلى جو المعرفة والقراءة والجد والمشاركة، وصلاة الليل في رمضان، والشعر أحيانًا هو الرسول بينهما.
جمع العديدَ من المقطوعات الشعرية التي يصحّ أن يطلق عليها أنها (من شدو الطفولة) كما أحب إخوانه الإلكترونيون أن يسموها.
من ضرورات التربية أن يحمل الفتى قدرًا من الإحساس بالأهمية والبحث عن دور من داخل ذاته، والتوظيف الحسن لذلك هو أفضل حل لنزق المراهق، عوضًا عن الانفلات المتجرد من الضبط، أو التدثر بثوب أوسع بكثير من جسده الغضّ البضّ.
إن قتل الطموح الساذج عند الصغار هو تدمير لمستقبلهم، ولعلهم صغار قوم كبار آخرين.
شدو البدايات المشوبة بالنقص المخجل، مدرج الفشل والإحباط، ما لم يكن صاحبه صبورًا متجلدًا مستحضرًا للقول السائر: «من لم يكن له بداية محرقة، فليس له نهاية مشرقة».
ولعله من الصواب أنّ: بداية مضحكة خير من نهاية مهلكة!
الذاكرة الغضّة تمتصّ النص بسرعة، وتحتفظ به فترةً طويلةً، هكذا هو حين كان يلتهم الكثير من القصائد، وحين يستذكرها بعد سنوات يجدها وفيّة حفيّة... على حين ألفى نفسه وقد أمعن في مشواره الشاق يجهد في صناعة الروابط لما يروق له من النصوص حتى يوثقها في ذاكرته التي صار يدرك بأنها تدخل تحت تصنيف (Short Memory) الذاكرة القصيرة، وهو تعبير صادق؛ إذ تلتهم الأشياء بسرعة وتتخلص منها

بسرعة أيضًا ولا يبقى منها إلا أثرها النفسي والثقافي.

حين يقرأ الشعر كان يتغنى به بالطريقة النجدية، ويبدو أن كل أحد يعجبه صوته، ويعتقد أنه (مزمار الحي) الذي لا يطرب!

عندما يتغنّى بالأبيات يشاركه وجدانه ويندمج في جو عاطفي أخّاذ، ويهتز فؤادُه، وربما طفرت دمعة يداريها ويواريها حياءً وخجلًا، وكيف لا ينفعل مع قصيدة تحكي لوعة سجين يُساق إلى ساحة الإعدام ويخاطب أباه:

هذا الكتاب إليك من زنزانةٍ	مقرورةٍ صَخْرِيَّةِ الجدرانِ
لم تبقَ إلا ليلةٌ أحيا بها	وأحسُّ أن ظَلامها أكفاني
ستمر يا أبتاه.. لست أشكُّ في	هذا.. وتحمِلُ بعدها جثماني

ويجهش حين يستحضر إحساسه تجاه والدةٍ يدرك حجم هلعها عليه، وهو يردد:

وإذا سمعت نشيج أمي في الدجى	تبكى شبابًا ضاع في الريعانِ
وتكتم الحسرات في أعماقها	ألمًا تواريه عن الجيـرانِ
فاطلب إليها الصفح عنى.. إنني	لا أبتغى منها سوى الغفرانِ

أو حين يتلو على لِداته وهم في السفر شعرًا منقوعا في الحزن لمبدع من أرض الشام يخاطب أمه:

ما زال طيفُكِ في دنيايَ يتبعني	أنّى سَريتُ وقلبي يجحدُ النعما
حتى وقعت أسيرَ البغي فانصرفت	عني القلوبُ سوى قلبٍ يسيل دما
أصحو عليه وأغفو وهو يلثمني	قلب ضعيف ويغزو الصحو والحلما
ويدخل السجن منسلًا فيدهشني	إذ يستبيحُ من الطغيانِ شرَّ حِمى

فإن رآني على خير بَكى فرحًا وإن رآني على سُوء بكى ألما!
فلتغفري لي ذنبي يا معذبتي أو حاكميني وكوني الخصمَ والحَكَما!!

أو يسمع أنّات مريض، طريح الفراش، في رمقه الأخير، ينفث نجواه لأبيه و أمه وزوجه وصبيته وأهيل حيّه:

أفدي بنفسي أمًّا لا يفارقها هم وتنهارُ حزنًا حين أنهارُ
فكيف تسكن بعد اليوم من شجنٍ يا لوعة الثكل، ما في الدار دَيَّارُ!
وزوجة منحتني كل ما ملكت من صادق الود تَحنانٌ وإيثارُ
عشنا زمانا هنيئًا من تواصلنا فكم يؤرق بعد العز إدبارُ
بالله يا صبيتي لا تهلكوا جزعًا على أبيكم.. طريق الموت أقدارُ
تركتكم في حمى الرحمن يكلؤكم من يحمه الله لا توبقه أوزار!

قصيدة ظفر بها في مجلة (حضارة الإسلام) وتوقف عند الحروف الأولى المدونة قبلها:

قصيدة للدكتور مصطفى السباعي قالها قبل أن يموت بدقائق، بعد أن صارحه الأطباء باليأس من شفائه!

وكما فعل مع معارضته لميمية عمر أبو ريشة يتأثر بلغة جديدة يعثر عليها في شعر البارود فيحاكيه.

يقرأ (انتفاضة الحياة):

سمائي ملأى بالغيوم الثقالِ والأرضُ ظمأى للنَّدى والرجالِ
متى أرى كُـــــلَّ عُبودِيَّتِي يسحقها الماردُ.. تحتَ النِّعالِ؟

أَجُرُّ رِجْلَيَّ جَديبَ الرُّؤى بين القبورِ السودِ.. بينَ الرِّمالِ
مُشَرَّدًا أتلــو سُطورَ البلى صارخةً ملءَ الدروبِ الطِّوالِ
أوَدُّ لو أنسى عويلَ الأسى في قريتي العَذراءِ خلفَ التِّلالِ
المومِساتُ المُرْهِقاتُ الدُّجى المُحْرِقاتُ اللَّيل في الانحلال
يَرْشُقْنَ بالــدَّمِّ مَحاريبَنـــــــا يا لك مِنْ ربع ذبيح.. ويا لي!

فيأخذ قافيتها الفخمة، ويأخذ من أختها الأخرى وزنها الشعري، «ويُغير» على بعض مضامينها.. فيقول معبرًا عن كآبة عرضت له بهجر حبيبه الأثير (ع) والذي يبدو أنه فقده إلى الأبد بعد حب جارف:

إيه يا قلبُ يا مناطَ الهموم السـ ـود يا مرتعَ الحكايا الثقالِ!
حسبُك اللهُ من أنار لك الدر بَ وأحيا منك الرسومَ البوالي!
حسبُك اللهُ إن عتا فيك ريحُ الشـ ـوق أو حوَّمت عليك الليالي

يقرأ لشعراء محدثين (شعر التفعيلة)، فيجده سائغًا، ويعده تجديدًا في عالم الشعر، فيحفظ قصيدة (الكوليرا) لنازك الملائكة، وأخرى للسيّاب، ويفاجأ بشعر رقيق عذب لرجل أبعد ما يكون عن الرقة والعذوبة، إنه (شكري مصطفى)؛ زعيم جماعة التكفير والهجرة، يهاتف صبيته في يوم عيد وهو سجين، ويعزيهم عن الحلوى وفقدان الأب، ثم يسترسل:

من قبل الطوفان اسمعني...
يا عبد الله
واخرج من أرضك واتبعني
في أرض فلاة
أرض في قلبي لم يُعبَدْ فيها الشيطانْ
أرضٌ في فكري أحمله

في كل مكانْ
فاحمل أزوادك واتبعني
يا عبد الله
يكفينا زادًا في الدنيا هذا القرآنْ...
في أرض الهجرة يا صحبي
طهر وسلام
وفرار من سخف الدنيا
ومن الآثام
وحكومة عدل وأمان
صدقني في الأَرض الواسعة أمان!

يرتاب في لغة (اسمعنى) و (اتبعني)؛ فهذه لغة الأنبياء، أو لغة أهل الخبرة، أما أن تكون لكل من له نحلة أو مذهب، فهو الإعجاب بالنفس والاغترار!

يكتب قصيدة تفعيلة، ويعرضها على أستاذٍ جديد في المعهد؛ الدكتور عبد الله الحامد، فيجد تشجيعًا وينشرها في صحيفة حائطية، هي مما لم يكتب له البقاء؛ لأنه لا روح فيها!

إنه مدين -بغير تردّد- لتلك الفترة الذهبية التي أحسن استثمارها في الحفظ والمحاولة، وأحسن استثمارها في القراءة التي نسي الكثير من تفصيلاتها، ولكن بقى تراكمها الذهني واللغوي والنفسي راسخا يحس به كلما أراد!

كان يحلم أن يرى نفسه شاعرًا يخطف إعجاب الجمهور، بيد أن التردد والارتباك الذي يغشاه كلما همّ بالإلقاء، أو حاول..، يفسد متعة الحلم.

تمكن من إلقاء مجموعة من القصائد في الاحتفالات المدرسية بعد أن

كان أقصى ما يستطيعه أن يهمس بها قرب والدته التي تسمع وتردّد:
بسم الله عليك!
من الناس من يحتفظ بتراث الطفولة؛ كتبًا ودفاتر مدرسية، مذكرات وذكريات وألعابًا، أما هو فقد احتفظ في مخزن الذاكرة ببعض الزاد الذي كان محتاجًا إليه، وضيّع الكثيرَ منه.
لا يزال يتأسف على الدفتر الكبير الحافل بمئات القصائد الجميلة المختارة التي كان يجمعها من الصحف والمجلات، ويتأنق في حفظها، ويتحفظها، والذي سلمه لأحد أصدقائه، ولا يدرى إلا الله إلى أين انتهى به المطاف، وربما تخيله في كومة نفايات، أو ضمن طعام لشاهٍ عند رجل لا يدري قيمته لدى صاحبه!
كان يردد ما يقوله له أشياخه:

ليس بعلم ما حوى القِمَطْرُ ما العلم إلا ما حواه الصَّدْرُ

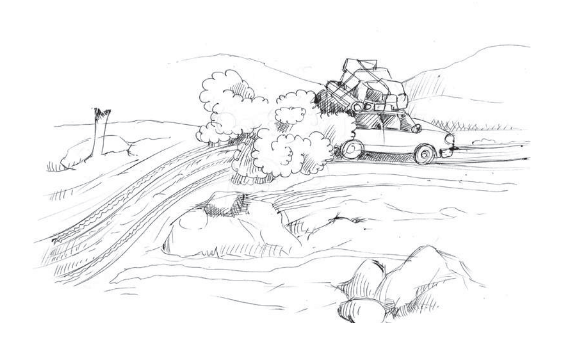
وتعلّم أيضًا أن يحتفظ بأشيائه الثمينة لنفسه، دون أن يعني ذلك اهتزاز الثقة بالآخرين.
أصبح إلقاء الشعر من قوله أو من منقوله يمثل حالة استرخاء وارتياح من عناء الدروس والمحاضرات ذات المحتوى الفقهي أو الفكري، وصار يجنح إليه لولا ما قرره الشافعي من أن الشعر بالعلماء يزري!
وما بين «بسم الله عليك» التي كانت تردّدها أمه المشفقة، و«لا فُضّ فوك» التي ردّدها بعض أساتذته؛ أدرك صاحبنا أن الثناء والإطراء ليس يؤخذ دائمًا بمصداقية، بل قد يكون ثناء المحب الذي لا يرى إلا الحسن، أو تلطّف المجامل الذي لا يعدم أن يجد ما يثني عليه، فلا يأخذ مأخذ الجد كل ما يُقال عنه مدحًا أو ذمًا!
بيد أن المرء الحصيف ذاته يدرك مواطن النجاح أو الإخفاق في سيرته

ومسيرته، ومتى ما تذرّع بالصبر والدأب، وانطلقت سفينة النفس في بحر الحياة، مصحوبةً بالإصرار والعزم؛ فهي واصلة لا محالة إلى الميناء الذي يريد، ولنقل: «إن شاء الله» تحقيقًا لا تعليقًا!



١٣

الطريق إلى مكة



حركة الأيام تتسارع، هذه سنة (١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م) كالشمس في أفقها الغربي ورمضان هذا العام يودّع الكون، والناس تتهيأ لحج البيت العتيق، والقلوب الحية سبقت أصحابها إلى هناك، الصبي الذي مضى على بلوغه سنتان يدّخر لنفسه مقعدًا في سيارة (البيجو)؛ حيث سيؤدي الحج للمرة الأولى، وهو الآن في السنة الثانية المتوسطة.

تنطلق السيارة المستأجرة بسائقها في طريق طويل، يزيد امتداده على الألف كيلو متر من بريدة إلى مكة، يستقلها ما يزيد على اثني عشر حالمًا، كلهم يحلم برؤية البيت؛ حيث يشعرون به يناديهم، متخيّلين أنفسهم بملابس الإحرام، وسط ضجيج الملبين عند الكعبة، أو في منى أو على عرصات عرفة، أو في بطن مزدلفة.

كان ذلك هو اليوم الثالث من ذي الحجة، ورئيس المجموعة الشيخ عبد

العزيز البليهي، الذي يستكمل تجهيزاته واستعداداته بحماسه المعهود، ويكب كما العابد المتبتل على إنجاز العمل وتذليل العقبات.
صاحبنا منذ صباه يتعشّق الشخصية الحية المسؤولة، ويكره الإهمال واللامبالاة، ويحاول أن يكون كذلك، ويردد: «يا حلو الطرير.. ولو في حلقي»!
استقل الركب سيارتهم، وهم يطلقون نكات عن هذا النوع من السيارات الذي يسمونه (النعش المتنقل)، لكثرة ما يسمعون من حوادثه وضحاياه.
أنغام صوت طفولي لمنشد عراقي عذب الإيقاع ترنّ في مسمعه حتى اللحظة من مسجل السيارة:

يا راحلين إلى منـــى بقيادِ	هيجتمو يوم الرحيل فؤادي!
سرتم وسار دليلكم يا وحشتي!	الشوق أقلقني وصوت الحادي
ويلوح لي ما بين زمزم والصفا	عند المقام سمعت صوت منادي
من نال من عرفات نظرة ساعةٍ	نال السرور ونال كل مراد
فإذا وصلتم سالمين فبلغوا	مني السلام إلى النبيِّ الهادي
صلى عليك الله يا عَلَمَ الهدى	ما سار ركب أو ترنم حادي

العدد كبير، والسيارة أصبحت كعلبة سردين، في الخلف متسع للفرش المطويّة، والأواني، والماء والغاز، والكتب، والخيمة، وما فاض فهو في المراتب الأمامية وتحت الأقدام.
أدركهم المساء في (مدينة الرس)، وهي نقطة في الطريق؛ حيث مقر سكن شيخهم، فهو مدرس في المعهد العلمي. باتوا في منـزله، تعرّفوا على عددٍ من زملائه الطيبين من مدرسي المعهد؛ محمد العبده، جلال السوداني، مصطفى السيد.. وآخرين.

البرد كان شديدًا، وحين استيقظوا لصلاة الفجر وجدوا (أبا إبراهيم) قد سبقهم، وسخّن الماء على المدفأة التي تعمل بالكيروسين للوضوء، والتي يسمونها (الكولة)!

أجواء مفعمة بالرضا والسعادة والانسجام، مليئة بالتطلع والاكتشاف والأحلام، كلهم يشعرون -وبدرجات متفاوتة- أنهم يصنعون مستقبلهم بمهارة وكفاءة وطمأنينة. كانت أيامًا جميلة؛ لأنها جميلة فعلًا، ولأنه لا يبقى إلا الذكريات الجميلة، أما الحزينة فتبقى ملهمة حين ترحل!

دفء المنزل؛ حيث باتوا، ودفء الماء المسخّن، ليس شيئًا يسهل الحصول عليه دائمًا، فعبر طريق مظلم محفوف بالمخاطر، والحيوانات السائبة، والحوادث المروّعة، يحتويهم ليل شتاء قاسٍ ربما اضطرهم للبحث عن مأوى ينامون فيه آخر الليل، وحين تكسرت رقابهم من النعاس فلا يجدون إلا المسجد الطيني المقام في طرف القرية، وبحركة خفيفة سريعة -كما الشباب دائمًا- تجد الفرش منثورة داخل المسجد، حتى موقع الإمام والمؤذن، وعندما يدخل المؤذن لنداء الصبح يفاجَأ بهذا المنظر الذي لا يستطيعون تصور إحساسه تجاهه، لكنه -بكل حال- لن يكون الاغتباط.

بعضهم ثقيل النوم يصعب إيقاظه إلا بالصياح والسَّحب والجرجرة، وتتفاقم المشكلة حين يحتاج أحدهم إلى الاغتسال في الأرض العراء، وبالماء البارد، في جو صقيع، ولا تطيب نفسه أن يتيمم، فيحدثه أصحابه أن الأمر واسع، «... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...»[الحج: من الآية ٧٨]، ويورد عليه بعضهم، وهم يتهامسون بعيدًا عن أذن الكبار، قوله تعالى: «...وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...» [البقرة: من الآية ١٩٥].

وقصة الرجل الذي أفتاه بعض الصحابة بالاغتسال فمات، فقال النبي

-صلى الله عليه وسلم-: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟! فإنما شفاء العيّ السؤال».
وأمام إصراره وإصرارهم عليه يجمعون حطبًا، ويوقدون النار، ويقيمون له مربعًا صغيرًا يشبه دورة المياه، ويغتسل.
لم يكن وقت الرحلة يذهب عبثًا، فالجو ذو روحانية عالية، والانسجام يفعل فعله، والإحساس بالمسؤولية لدى مراهق يفجّر قدراته، فحتى في أوقات الراحة والإخلاد للنوم، ثمة حوارات تجري، ومساجلات شعرية، وقصائد يتبارون فيها أيّهم أكثر حفظًا، بينما آخرون يكتفون بالاستماع والإعجاب.
أما البرنامج فهو حافل، فقيام آخر الليل، ثم الصلاة، فقراءة القرآن جماعيًّا مع تلقين التجويد، وتفسير الكلمات، والوقوف عند دلالات بعض الآي، إلى الإفطار، إلى فترة حرة للاستحمام والوضوء والتهيّؤ، إلى جلسة أولى للقراءة في كتاب، ثم فسحة قصيرة، بعدها جلسة ثانية، ثم صلاة الظهر، فالذهاب لجلب الماء من المواقع المخصصة في منى، ثم الغداء، فالنوم، فجلسة أخرى بعد العصر، وجلسة بعد المغرب، وجلسة بعد العشاء..
الوقت كان مشحونًا إلى حد أنهم يسأمون ويتململون، ويفرحون حين يحدث أمر طارئ يعفيهم من رتابة الجلسات، بيد أن إحساسهم بالنمو والترقي، وروح التطلع والرغبة، وشعور المنافسة، وعلاقة الحب أضفت على الجو قدرًا من القبول والتفهم.
ما الأمر الطارئ الذي يمكن أن يحدث؟!
ضيف يقتحم بدون سابق إنذار، أو مشكلة تتعلق بموقف السيارة التي ركنت إلى جوار الخيمة، أو مجموعة أخرى من الأصدقاء يتم التعرّف عليهم والتواصل معهم وزيارتهم، أو حرارة مرتفعة تضرب أحد أفراد

المجموعة؛ حيث يشعر البقية بذات الإحساس، وتراودهم مخاوف من تفاقم المشكلة، وماذا لو مات لا قدّر الله، والخيال الطفولي يغذي مثل هذه الاحتمالات.

أما الكتب، فهي مجموعة متنوعة من المؤلفات القديمة (كرياض الصالحين)، وكتب ابن تيمية، وابن القيم، ومناسك الحج والعمرة مثل: (التحقيق والإيضاح لمناسك الحج والعمرة والزيارة) للشيخ عبد العزيز بن باز، و(المنهج لمريد العمرة والحج) للشيخ ابن عثيمين، وكتاب (المناسك) للشيخ ابن جاسر، وعن طريق هذا الكتاب تعرّف على صاحبه، وسمع عنه لأول مرة.

وكتاب (حجة النبي صلى الله عليه وسلم) للألباني.

ومجموعة من الكتب الثقافية الحديثة، (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، والذي ردّده صاحبنا حتى حفظ بعض مقاطعه، وكتاب (إلى الإسلام من جديد)، وكتب الندوي غنية بالروح والعاطفة الإيمانية.

محمد قطب، وأخوه سيد كانا حاضرَيْن عبر: (هل نحن مسلمون؟)، (معركة التقاليد) (جاهلية القرن العشرين)، (في ظلال القرآن).

أذهان تتفتح، وعقول صغيرة تتهيأ للميدان، وشباب في بداية التكوين يفتح عينيه على نموذج حيّ من الاتصال العالمي عبر هذه التشكيلة الهائلة من الحجاجِ، ولعلها المرة الأولى التي يحتكّ فيها بمجموعات خارج إطاره المحليِّ.

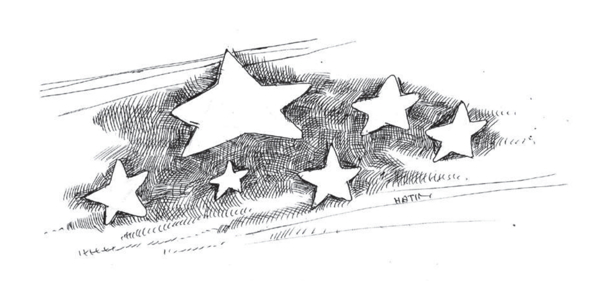
الطريق إلى الحج.. والحج إلى الطريق.. معنيان متصلان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

جزى الله الطـــــريقَ إليك خيرًا   وإن ترك المطـــــايا كالمزاد

◆◆◆

14

الرفاق..



حين تكتب لصديقك رسالة حب، يبدو الحدث عاديًا، وهذا ما حدث له حين أرسل لأستاذه (عبد العزيز البليهي) الذي غادر إلى مكة لرئاسة الأوقاف، كان مسرورًا لترقيته، يحس أن الأوقاف صارت جزءًا منه، أو هو صار جزءًا منها، ولا يستطيع أن يكتم حزنه للفراق، إنه يكره لحظة فراق الرفاق، فأقسى لحظاته هي لحظة الوداع عقب مخيم أو سفرة، أو حتى لقاء يومي.

طفل المتوسطة زار شيخه ذات مساء، ورأى صغيره (إبراهيم) الذي كان يعبر بعفوية طفولية عن حبه لربه، ثم أرسل إليه بعد شهور خطاب شوق وحب، ونسي هذا الخطاب أو دفنه في ذاكرته.

ولم يدر حين كتبه أنه هو نفسه الذي سيقوم بفضه وقراءته بعد عشر سنين، ذهب الخطاب إلى مكة، ووُضِع في درج الشيخ، ثم أصاب

الشيخ مرض عضال أقعده عن العمل، وعاد أدراجه إلى حيث بدأ إلى القصيم، إلى بريدة، إلى مزارع أهله في حي (التغيرة)؛ حيث قضى أيامه الأخيرة صابرًا لا تفارقه الابتسامة والطرفة رغم آلامه الشديدة، كان يضحك ويقول: الجني سيطرد بإذن الله!

نبش زملاؤه في العمل أدراجه، ووجدوا الخطاب فأعادوا إرساله إلى صاحبه.

لقد كتبه وهو طالب، وضمنه النكتة المتعلقة بإبراهيم والحب الإلهي، وأبى الله إلا أن يكون هو الذي يفتحه بعد أن صار أستاذًا في المعهد ذاته!

رجل دمث الأخلاق، سريع الابتسامة، جاد في العمل، كريم سمح، وعن طريقه اتصل صاحبنا بالشريط الإسلامي، فقد استمع إلى مشاهير المقارئ المصرية كالشيخ محمد رفعت صاحب الصوت العميق المسيطر، حين يقرأ مقاطع متفرقة من سورة يونس، أو النحل أو الإسراء أو طه أو الحديد أو الرحمن، أو قصار السور من تسجيلات قديمة، ولكن متميزة. والشيخ محمود خليل الحصري، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد، والشيخ محمد محمود الطبلاوي، والشيخ محمد سعيد نور صاحب النبرة الخاشعة المؤثرة.

وكان الأستاذ عبد العزيز على صلة بمصر؛ حيث درس الماجستير، ثم الدكتوراه في الأدب العربي في جامعة الأزهر، وكانت أطروحته عن التيار الإسلامي في الشعر السعودي.

مالي إذا ما زارني طيفُه	أمسحُ من أجفاني الدامعاتْ
غاب ولن يرجعَ يا ليتني	شاركْتُه بعضَ أماني الحياةْ
أشعرُ بالوحشة من بعده	جسمي وحيدٌ وشؤوني شتاتْ
وعندما تفجؤني لمحةٌ	لطيْفِه أهمّ بالالتفاتْ..!

كُتب لصاحبنا أن يزور أهله من بعد في الرياض، ثم أن يصلي على إبراهيم الابن الأكبر الذي قضى في حادث سيارة.
هكذا هي منح الحياة. سعيد من يلتمس سببًا ليقدم الشكر للآخرين الذين آزروه في مرحلة من حياته، وساعدوه على تحقيق ذاته.
من بين الفتية الذين عرفهم بوساطة الشيخ، وصحبهم في غير ما رحلة أو مبيت أو مخيم، الفتى (راشد) الذي كان رفيق الحج، وكان مشحونًا بمشاعر فيّاضة، ولا يزال يذكر المشهد المتعلق به، يوم عرفة، والحجيج في الموقف تتعالى الأصوات من كل جانب، والجو يزداد سخونة وإيمانًا، والقلوب تجتمع على مناجاة ربها واستغفاره، وهي تقدم بين يديه اعترافًا بالذنب، وطلبًا للمغفرة، ووعدًا بالتصحيح، والذاكرة تحشد المزيد من الذكريات المؤلمة، والأخطاء العصيّة على النسيان، وتختلط أصوات الداعين بأصوات القرّاء، والشيخ عبد العزيز يتلو سورة الزمر «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» [الزمر: ٦٤]. ويستحضر صورة المشهد العالمي، والصراع الفكري المحتدم، بين الإسلاميين والشيوعيين واليساريين.. فيردّد الآية ويغير نهاياتها: أيها البعثيّون.. أيها الشيوعيّون.. أيها الملحدون.. وتظل طلاقة النص القرآني «الجاهلون» أوسع مدى، وأعمق دلالة.
ويأخذ الجو الروحاني المشحون بزمام (راشد)؛ فينهمك في نوبة شديدة من البكاء، ويفقد السيطرة على نفسه، والجماعة حوله يهدّئونه ويذكّرونه برحمة الله حتى سكن.
من زملاء الحج والسفر والدعوة الشيخ صالح الشيبان، والشيخ عبد الله العريني، يذكرهما فيدعو بالرحمة، كلاهما رحل في حادث سيارة مفجع.
وطالما تساءل: كلما نطق بدعاء الرحمة على أصفياء صحبهم في مطلع

شبابه؛ هل تراه وصل إلى مرحلة أصبح فيها يتلفت حوله، فيرى جمعًا من أقرانه قد غادروا.. أم ليس بعد؟! ثم يسلّي نفسه بأن هؤلاء ماتوا في حوادث عارضة، وهم في أحلى أيام شبابهم!

أترانا استثناءً من هذه الحوادث إذًا؟!

توالت بعدُ رحلات الحج، التي صار لا يتركها قط، إلا إذا حيل بينه وبينها.

على الرغم من التيسيرات فالمشقة قرينة الحج، والحصول على مكان بمنى يُعدّ إحدى المعضلات التي لا تتم دون عراك وجدل اضطراري، وتوفير الخدمات الضرورية التي لا غنى عنها أمر لا يتيسر لكل أحد، والذهاب إلى عرفة، والانصراف منها مغامرة يستغرق الحديث عن تفصيلاتها كثيرًا من الوقت، ولن تدرك حجم النجاح الذي تحقق لك حتى تسمع معاناة الآخرين وأزماتهم.

أصبح ينصح بعدم الإكثار من الحج؛ مراعاة لمقاصد الشريعة في التخفيف على المكلفين، وحفظ حياة الناس، وتحقيق معنى العبادة وروحها واستشعار الإخاء الجماعي.. إلا لمن يتحقق بذهابه مصلحة عامة لفئة من الناس.

على مدى حجاته الكثيرة، صحب المئات من الأصدقاء، والتقى الآلاف.. يتذكرهم جيدًا..

منهم من لا يزال على علاقة دائمة ومباشرة معه، وهو يألف هذا النوع، ويحب الإبقاء على الصداقات؛ فهي رمز من رموز الإنسانية والوفاء، وليس يحسن بالمرء أن يبدّل صداقاته كما يبدّل ملابسه.

ومنهم في الطرف الآخر من لم يبق منه إلا صورة ضبابية، وذكرى طيفٍ ينتاب الخاطر كلما حانت مناسبة.

وهذا وذاك قليل.

جلّهم لا يزال يحتفظ بنوع تواصل وحنين وارتباط وجداني، بيد أن اللقاء يخضع للمصادفة.. يرى أحدهم فتحشد الذاكرة ملفات مطوّلة عن أخباره وذكرياته وشخصيته وخصائصه، ويتحّرك القلب، ويتقافز فرحًا، يواريه ويداريه، ويسلم ويصافح ويقول:
«وللناس فيما يعشقون مذاهب».

الذكرياتُ على الزحامِ تدافَعَتْ	فكأنّهن لــديه ســربُ حرائرِ
فلأيِّها تومي براحــةِ تائبٍ	ولأيِّها ترنو بمقلةِ غـــافرِ
غامرْت في طرق الحياة، ولم تزلْ	طرقُ الحياةِ حوافزًا لـــمُغَامرِ

جميل أن تتعلم من دروس الحياة ألاّ تحتفظ إلا بالذكريات الجميلة مع الآخرين، وأن تتعلم العفوية، والسذاجة إن شئت، في التعامل مع الوجوه الجديدة، دون أن تكون عرضة للاستغفال أو الخداع الذي يوقعك في مهاوي الطريق.



١٥

عتبات الشريعة



ست سنوات انقضت في المعهد العلمي بقسميه، كانت من أجمل أيامه، ولعله يحب الإفصاح بأن أيامه كلها جميلة؛ تعلّم خلالها العديد من أساليب الدعوة والاتصال، وتربّى على برامج تعبدية وروحية، وتزوّد بقراءات مناسبة لمثله، وكرّس بعض المواهب، كالإلقاء والشعر وطرائق التفكير.

وبعض ما أنجزه في تلك الفترة المتقدمة؛ يظن أنه يعجز الآن عن مجاراته.

حين ذاك.. لم يكن راغبًا في الانتقال إلى (الرياض) لدراسة الشريعة أو اللغة، لأسباب عدة: ارتباطه بكثير من الشباب، فقد كان منهمكًا معهم في بناء دعوي وعلمي، يظن معه أنهم لا يتحمّلون فقده. فيما بعدُ علم أن كثيرًا من ساكني القبور كانوا يظنون أن الحياة لا تسير بدونهم

على ما يرام، وأن أناسًا يظهرون التواضع بينما ينظرون في أعطافهم نظر الإعجاب معتقدين أنهم رسل العناية السماوية!

من أبرز الأسباب أيضًا قربه من والدته التي أمضّها الألم، وأضنتها الشكوى، وزاد من معاناتها العلاج الشعبي الذي كانت تتعاطاه بغير تدقيق، حتى مسحوق الحديد!

ووفدت عليها (جارة جديدة) شاركتها زوجها، محدثةً عاصفة عائلية ما لبثت أن هدأت، لتتحول تلك الوافدة الجديدة إلى صديقة عزيزة للأسرة كلها، وصارت الأم تعاملها كإحدى بناتها.

بنى والده غرفة علوية تسمّى (الروشن) ممنيًا فتيانه أن تكون (مكتبة) خاصة لهم، تحولت بعد اكتمالها -بقدرة قادر- إلى غرفة خاصة لعروسه الجديدة!

لقد كان يذهب بأمّه إلى المستشفى، وخصوصًا الطبيبة التي كانت تسميها (الأُمانية)، لأنها من ألمانيا، وتصفها بأنها (شاطرة) فتبثّها شكواها بلغة محلية، تعرف بعضًا، وتعجز عن بعض، يزيد من الثقة بهذه الدكتورة أنها أعلنت إسلامها لدى الشيخ صالح الخريصي!

قرر أن يبقى في بريدة، وقدم دراسة الانتساب إلى كلية اللغة العربية، استجابة لنصائح من حوله، وكان يذهب لأداء الاختبار، ويسكن مع (العزوبية) في أحد بيوت الرياض.

وحفظ خلال تلك السنة الجديد من النصوص الشعرية والنثرية المقررة، ومنها قصائد الشعر الجاهلي، ولا يزال يذكر تغنيه بقصيدة مهلهل:

أَهاجَ قَذاةَ عَينِيَ الادِّكارُ ... هُدُوءًا فَالدُّموعُ لَها انحِدارُ

وَبَاتَ اللَيلُ مُشتَمِلًا عَلَينا ... كَأَنَّ اللَيلَ لَيسَ لَهُ نَهارُ

وَبِتُّ أُراقِبُ الجَوزاءَ حَتّى ... تَقارَبَ مِن أَوائِلِها انحِدارُ

وكانت فرصته لدراسة العروض والوزن والبحر، ولكنه لم ينتفع به كثيرًا؛ فلديه ملكة فطرية في معرفة الوزن، وإدراك الخلل، وربما ظن أن ما وراء ذلك من التكلف الزائد فتركه.

وأعدّ لتلك السنة بحثًا علميًّا، عن الإمام عبد القاهر الجرجاني وكتابه في الإعجاز، واجتاز المرحلة بنجاح وتفوق أغراه بمواصلة الانتساب.

في السنة الثانية بدأ جادًا، واتصل ببعض الطلبة ليتابع مستجدات الدرس، وأعدّ بحثًا مبكرًا عن «كان وأخواتها».

ولا يدري ما الذي ربطه بـ «كان»!

هل هي مجرد مصادفة؟!

أم لأنه كان يقرأ في كتاب المطالعة للثالثة الابتدائية: «كان سلمان أجيرًا عند زرّاع، فوفر من أجرته مالًا، فاشترى أرضًا، وزرعها، وسقاها، وحالفه النجاح بسبب جِدّه واجتهاده وإخلاصه في العمل».

وكان زملاؤه يتندرون عليه بهذا العامل في المزرعة..

أم لأنه يذكر ذاك العامل السوداني، الذي رآه يحمل كتبه؛ فضحك وسأله عن كان وأخواتها، إن كان تزوج منهن أحد، أم لا زلن عازبات!

حدث خلال هذا العام أن افتتحت جامعة الإمام فرعًا لها في القصيم؛ بيد أنه يخلو من قسم اللغة العربية، فهل ثمة مجال للتحويل؟ لِيجرب!

وكتب خطابًا لمدير الجامعة، وزوّده بعدد من الشهادات والتزكيات؛ أنالته الموافقة على تحويله من اللغة إلى الشريعة، وبذات المستوى، شرطَ تشكيل لجنة للاختبار.

كم كان مسرورًا بهذا الإنجاز؛ ليدرس منتظمًا كما هو ميله وهواه، ولئلا تفوت عليه سنة دراسية.

كان يدرك أن (اللجنة) غير ذات معنى؛ لأن وكيل الكلية كان متحمسًا لإتمام العملية؛ إنه الشيخ صالح الخزيم، الذي تعرف عليه في المركز

الصيفي، ونظر إليه بإكبار وثقة، وبادله المحبة، لقد كان هو رئيس اللجنة، سأله أسئلة عديدة، كان أحدها عن طهارة جلد الميتة بالدباغ؟ أسرع صاحبنا بالجواب؛ فقد كانت هذه المسألة إحدى محفوظاته القديمة، في السنة الأولى المتوسطة، في مقرر الفقه من (زاد المستقنع).

وانتقل إلى كلية الشريعة منتظماً بعد مرور ما يزيد على الشهر، والتحق بصحبه الأوائل باغتباط.

الرجال الذين ترسخت صلته بهم، أصبحوا أكثر من مجرد زملاء دراسة، بل رفاق طريق يستطيع الثقة بهم دون تردد، فهنيئًا له العودة إلى صحبة (علي اليحيى) و(صالح الونيان) وبقية الرفاق!

اضطر لإعادة البحث من جديد؛ فكتب بحثًا فقهيًا عن (صلاة الجماعة وأحكامها) أشرف عليه فضيلة الدكتور عبد الكريم بكار، الذي كان أستاذًا في الكلية، ومدرسًا للغة والثقافة.

لم يكن الدكتور بكار مشرفًا فحسب؛ بل كان مساندًا وداعماً، حتى إنه زوده بكتب ومراجع، وسهل مهمته في إعداد البحث، وراجعه بشكل دقيق، وكانت فرصة للتعرف على الدكتور عن كثب، معرفة دامت إلى اليوم، حتى حينما انتقل الدكتور إلى أبها جمعت بينهما أجواء مزدلفة على غير ميعاد في ليلة جميلة طيبة الذكرى.

هذه المرحلة كانت فرصة لتأصيل المعرفة الشرعية واللغوية؛ حيث العديد من أكابر الشيوخ والأساتذة، ومنهم كان الشيخ محمد العثيمين، الذي كان يتابع محاضراته في الفصول، والدكتور محمد متولي، والدكتور علي القوني، والدكتور أحمد الخراط، والدكتور محمد فضل المراد، إضافة إلى الأساتذة الزائرين، ومنهم الشيخ مناع القطان، والأستاذ أحمد محمد جمال، والدكتور عبدالله الحامد وغيرهم كثير.

خلال السنة، وبعض الأخرى التي قضاها منتسبًا؛ كان يعمل على

بيع الكتب في (مكتبة النهضة) المخصصة للكتب الإسلامية، وخاصة الحديث منها، وليس يدري كيف استطاع إقناع والده بأن يبيع في مكتبة إزاء دكان أبيه المحتاج إليه، لكنها مرحلة الشباب الباكر التي تؤثر الاستقلال، مع طبيعة العمل في الكتب المناسبة لميله العلمي والدعوي.

كان في المكتبة يقرأ وقت الفراغ، ويتعرف على الكتب الجديدة، ويتصل بأشخاص كثيرين من الشباب والشيوخ، والمتعلمين وغيرهم.

زاره مرة شاب يمني، وسأله عن ديوان امرئ القيس، فأفاده بأنه غير موجود!

فواصل الزبون سؤاله: امرؤ القيس الذي يقول:

اقتربت الساعة وانشق القمر؟!

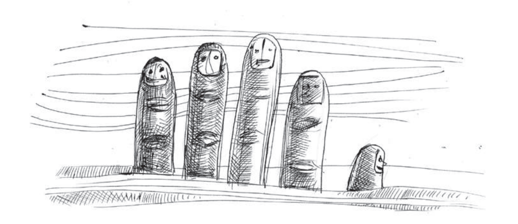
فضحك صاحبنا مندهشًا قبل أن يقول الآخر:

لغزالٍ صاد قلبي ونفر!



16

مع النّاس



شبيبته من رجاله الواعدين يحزمون أمتعتهم في رحلة إلى شمال المملكة؛ العلا وخيبر وما حولها، ويستعيرون (الجمس) الذي يملكه أسبوعًا، ولكن الأسبوع طال، فيا ترى هل وقع حادث؟ أم دهم خطب، لقد اختفى هؤلاء واختفى معهم (الجمس)..

بعد فترة انتظار يخرجون من غيابة الجب، وكان غيابهم مثيرًا لمشاعره وأحاسيسه، كتب فيهم يومها قصيدة معبرة:

أحباءَ الهدى صحبَ القصيمِ ... رعاكم خالقُ الكونِ العظيـــمِ
وأكرمَكـــم وأنزلَكـــم مقامًا ... عليًّا فوق هاماتِ النجـــومِ
أحبـــاءَ الهدى وعدٌ أكيـــدٌ ... من الرحمنِ ذي العرشِ الكريمِ

لمن كان الصلاحُ له سبيلا على رغمِ المخاوفِ والهمومِ
وقال مصمماً والعزمُ مــاضٍ وتنفعـــل المقالةُ في الصميمِ
إلى ديّانِ يوم الدين نمضي وعند اللهِ مجتمعُ الخصومِ!

أخذ البيت الأخير من أبي العتاهية، وتصرف فيه من أجل القافية، بعض النقاد يقولون: «هذا من وقع الحافر على الحافر»، أما هو فيقول: اقتباس بغير التباس!

كان الفتية يحملون كتبًا للقراءة ومصاحف، وكانت سيماهم تنم عن مظهرية التسنن، دخلوا المدينة على حين غفلة من أهلها دخولًا صادف قيام فئة تنتمي إلى (السلفيين، أهل الحديث، أهل المدينة) كما كانوا يسمون أنفسهم، بتوزيع منشورات محظورة تتعلق بالمهدية والتكفير والحكم...، فدارت التهمة حول هذه الشبيبة مما استدعى التحفظ عليهم لأيام معدودات.

استدعاه عميد الكلية شيخه الشيخ صالح المنصور الذي كان القلق باديًا عليه، وسأله هل ثمة شيء يتعلق به لدى الجهات الأمنية؟ فأجاب أن لا، فقال العميد بهمس وحذر:

-إنهم يطلبون منك الذهاب إليهم.

ذهب ليجد أن الأمر يتعلق بتسليم السيارة، وكتابة ورقة باستلامها، فهان الخطب وانتهى الأمر.

هذا مثل للأسباب والدوافع التي حدت به إلى البقاء في بلده بعد الثانوية؛ إذ يظن أنه يتمتع بدور قيادي في صفوف الشباب والطلاب.

كانت أيامًا جميلة مليئة بالحيوية والنشاط والتوقد والطموح، رحلات يومية، ومبيت ليلي في أجواء مفعمة بالإيمان، وأسفار طويلة غالبًا ما تكون للعمرة في رمضان؛ حيث قضاء وقت العشر الأواخر ضمن

مجموعات متآلفة، واستضافة بعض الشخصيات العلمية أو الدعوية، يذكر اللقاء الذي جمعهم بالشيخ القارئ علي الحذيفي، أو بالشيخ عبد الله المطوع رئيس جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت؛ إذ التقى به لأول مرة، أو بالشيخ عبد الكريم السعدون، والأنس الذي يجدونه بمتابعة تلاوات أئمة الحرم، خاصة الشيخ عبد الله الخليفي ونشيجه المؤثر في القراءة ودعاء الوتر... كانت ليلة الختمة مميزة يستعد فيها الشباب للخشوع والدموع.

الرحلات اليومية لا تنقطع، بيد أن المشكلة عدم وجود مكان ملائم لها، كل ما في الأمر (أثلة) يستفيئون بظلها حتى يبرد الجو؛ ليلعبوا الكرة، أو يترامو بقشور البطيخ، أو يجروا بعض المسابقات الثقافية، وأحيانًا يجدون من سبقهم إلى هذه الأثلة؛ حيث لا خيار إلا صناعة ظل ببساط يشبك بالسيارات، وربما وُجد لهم من يقول: إن هذه منطقة محظورة وعليهم الرحيل، ولا مجال للمساومة!

كانت الجسور على الطرقات مكانًا معقولًا حين يتعلق الأمر بلقاء شبيبة من بلد آخر.

ذاكرته تستجيب لرائحة (الحشوة) التي كان يفضل أن يعدّها لهم بنفسه، وهي عبارة عن قطع البصل تُقلى في القدر على نار هادئة مع الزيت، ثم يُضاف إليها بعض الطماطم قبل أن توضع عليها قطع اللحم الذي غالبًا ما يكون من الضأن أو الدجاج..

شاب أعزب وهب كل وقته للقراءة والعلاقة مع الآخرين، وهو يظن أن أيامه على الأرض معدودة، فهو لن يتجاوز الأربعين، يجزم بهذا، كيف ولماذا؟ ليس واضحًا، لكنه يتجاهل هذا الهاجس، ويمضي قدمًا في طريقه في دأب وإصرار.

لن يُفاجأ بأن بعض مَن علّق عليهم أمله قد انسحبوا وتركوه، أو

صادفتهم ظروف عوّقت مسيرهم.
يتصل بمجموعة جديدة من الأصدقاء، وكأنه يحاول لأول مرة، فينصهر معهم، ويمنحهم ثقته، دون أن يسمح لتجربة سابقة أن تكدّر صفو الحلم الجميل.
في المستوى الجامعي، أصبح أكثر ملاحظة لنفسه، وأقدر على إدراك عيوبها وسلبياتها، فهو مفرط الحساسية، قويّ العاطفة، يشعر بالحرج من الانتقاد حدَّ الارتباك، ويحاسب نفسه على بعض أخطائها بقسوة تقرب من التحطيم والتدمير.
لكن الإصرار على التواصل مع الآخرين، وقراءة الحالة النفسية للذات، والانهماك في تصحيحها جعلته يوشك على التخفّف من تلك المآخذ ليتفرغ لمعالجة سلبيات أخرى غيرها مما يجد في نفسه التي تتلوّم وتتفلّت عليه.
لقد اعتاد النقدَ حتى كاد لا يفرق بينه وبين المديح والثناء، فهو لا يحمل الأمرين على محمل الجد التام، ويظن أن الحالة المزاجية للمتحدث أحيانًا والموقف النفسي والاعتبارات الفكرية ذات أثر في هذا وذاك، ومن المهم أن يسير المرء في طريقه دون تعويق، فما قعد بالكثيرين عن المواصلة إلا تبرُّمهم بما يُقال، ولو كانوا أقوى همة وأصبرَ نفوسًا لصنعوا من الحجارة التي يقذفون بها سلّمًا إلى المجد والخلود بدلًا من التعثر أو الوقوف.
بات من المقرر لديه في تجربته أن الاختلاط المشروط بالناس وفق نظام معين ونفسية مؤهلة من أقوى الأسباب في الخلاص من العيوب واكتساب الخبرات والقدرات والعادات الحسنة، ولعل هذا جانب من فقه الحديث النبوي الصحيح «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

لم ينس لغة الزجر التي انهال بها صديقه عليه ذات مرة، والتي بناها على تفسير غير مطابق لنظرات من عينيه؛ عدّها تنقصًا أو ازدراءً لمقامه، أو ترفعًا و«شوفة نفس».

أصبح يدرك بعد مرور السنوات أن تحليل صديقه لم يكن صائبًا، ولكنه كان يستطيع أن يكون أصفى وألطف مما كان!

أدرك بخلطته ومراقبته لمن حوله أن ثمة من يفتح له في باب العلم والمعرفة، أو في العبادة، أو في الإحسان، وقد يستشعر المرء العبودية الحقّة في جلسة مع محتاج أو مكلوم أو حزين ليخفف معاناته ويزيل عنه عناء الوحدة والغم.

والإنسان بطبعه مدني، وقد وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- أم إسماعيل -عليها السلام- بأنها تحب الأنس.

وليس هذا لمجرد المتعة والتسلية، وإن كانت المتعة جزءًا من القصد، بل تبادل الرأي والنظر والحوار اللفظي والفعلي، وإجراء المقارنات بينك وبينه، وبين إنسان وآخر حتى يكبر الإنسان وينمو.

كان يحفظ قسمة الخليل بن أحمد حين صوّر علاقته بالآخرين، وحكمها بالصفح والإغضاء:

سَأُلزِمُ نَفسي الصَفحَ عَن كُلِّ مُذنِبٍ ... وَإِن كَثُرَت مِنهُ عَلَيَّ الجَرائِمُ
وَما الناسُ إِلّا واحِدٌ مِن ثَلاثَةٍ ... شَريفٌ وَمَشروفٌ ومثلٌ مُقاوِمُ
فَأَمّا الَّذي فَوقي فَأَعرِفُ فَضلَهُ ... وَأَتْبَعُ فيهِ الحَقَّ، وَالحَقُّ لازِمُ
وَأَمّا الَّذي مِثلي فَإِن زَلَّ أَو هَفا ... تَفَضَّلتُ؛ إِنَّ الفَضلَ بِالعِزِّ حاكِمُ
وَأَمّا الَّذي دوني فَإِن قالَ، صُنتُ عَن ... إِجابَتِهِ عِرضي، وَإِن لامَ لائِمُ

عاش صاحبنا مع الفئات الثلاث، وجهد أن ينتفع بهم جميعًا، وليس أن يتعامل بالصفح فقط.

ولا تزال صحبة الناس ومعايشتهم سلوته واحتسابه، يحن إليها ويحرص عليها مادام يجد نفسه قادرًا على الاحتمال، حتى إذا بلغ به الأمر إلى الحد الذي يجد التواصل فيه يأكل من نفسه وأعصابه، وقد يأتي بنتيجة نقيض ما يريد، تخفف من ذلك إلى حين استجماع قواه من جديد.

كُتب له أن يتطلع إلى لقاء الأكابر في السن والعلم والتجربة، وكانت المرحلة الجامعية فترة ذهبية تعرّف فيها إلى شيوخ أفاضل، وأساتذة نبلاء، ومربين ناصحين.

وله مع كلٍّ منهم ذكريات ومواقف لا تنسى، بعضها مسجل، والآخر مكتوب، وجلها مما تحتفظ به الذاكرة رغم بعد العهد:

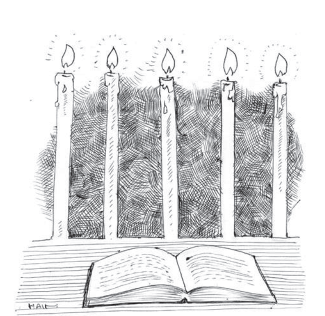
أعـــدْ ذكرَ نَعمانٍ لنا؛ إنّ ذكرَه ... هـــو المسكُ ما كرّرته يتضوّعُ

والحديث عن هؤلاء له لمعانه وإشراقه؛ إذ إن الحياة تطيب بلُقيا الأفاضل والأعلام، والتعرف عن قرب على نفسيّاتهم وسلوكياتهم، ومراقبة تصرفاتهم... فهي مدرسة أخرى أكثر أهمية من الكلية التي يوشك على التخرج فيها.



١٧

الشيخ الصالح



الانفصال بين الأجيال مشكلة تربوية، وعقليّةُ الشاب المندفع لا تستوعب أناة الشيخ ورويّته وبُعد نظره، وقديماً قال أبو الحسن علي -رضي الله عنه-: «لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ».

وعمر -رضي الله عنه- كان في علاقته مع أمثال ابن عباس أنموذجًا للقدرة الكبيرة على ردم الفجوة، فقد كان يُجلس ابن عباس مع الجِلّة من فقهاء وأكابر المهاجرين والأنصار.

صاحبنا اتصل بكهولٍ وخَطَ الشيبُ لحاهَم، وهم لديه محلَّ الأسوة والقدوة، أقله في مرحلة من مراحل حياته، ولا يزال يدين لهم بالفضل ويلهج بالدعاء، حتى بعد ما كبر واتسعت دائرته، وتميز عنهم برأي أو اجتهاد.

في المعهد تعرّف إلى الشيخ صالح البليهي، وَشَدّتْهُ ابتسامتُه الصافية،

فاقترب منه، وتناول معه غداءه البسيط، المكوّن من أرز ولحم وقرصان بُرّ مدورة لذيذة.

قرأ كتابه (السلسبيل) فوجد حسن التبويب، وجودة الاختيار، وعدم التعصب للمذهب.

ميزة دفع الشيخ ثمنها؛ إذ حُورب، وكُتِبت ضده النشرات السرية، ووُزّعت في المساجد؛ لأنه قال بإخراج زكاة الفطر من الرز!!

أو لأنه قال بأن السنة في صلاة التراويح خمس تسليمات، ويجدر بالإمام أن يصليها مرة خمسًا ومرة ستًا أو ثمانيًا أو عشرًا دون التزام! قال هذا في بيئة تقنن التراويح بعشر تسليمات دون انتقاص.

وثالثة لأنه أقام حفلًا لتحفيظ القرآن الكريم.. ورابعة وخامسة..

وصارت المسألة ضربًا تحت الحِزام؛ بترويج الشائعات والأقاويل والتّهم.. ولِمَ لا.. فالغاية تبرر الوسيلة!

ابتسامة الشَيخ الصافية لا تزال.. وإن كان يضجر أحيانًا فيقول بلهجة محلية: «الطق وصل الركاب»، وهي تعني: أن السيل بلغ الزّبى!

ذات صلاة اقترب منه فتى في سن أصغر أبنائه، وهمس في أذنه:

- لي إليك حاجة!

رد الشيخ:

- وما هي؟

قال الفتى:

- أريدك على انفراد!

ويطاوعه الشيخ فيذهب معه إلى (الخلوة) وهي الجزء المبني تحت الأرض من المسجد يلجأ المصلون إليها في أوقات البرد، يقف الشاب قبالة الشيخ ويقول بجرأة:

- أنا أبغضك في الله!

- ولم؟
- لأنك تخالف مشايخنا وتقول بإخراج الفطرة من الأرز!
- عجبًا.. أتخرجها من الشعير الذي تأكله الحيوانات اليوم، ولا تخرجها من الرز الذي هو من خيرة طعام الناس؟
- ولو.. مشايخنا لا يجيزون ذلك!
- دعنا من ذلك يا بني.. هل تحفظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليخبره أنه يحبه؟»
- نعم، أعرف ذلك.
- فهل تعرف أنه قال: إذا أبغض أحدكم أخاه فليخبره؟ وينكسف الشاب، ثم ينصرف ولم يحر جوابًا!
مؤلفات الشيخ كثيرة، بيد أن كتاب (السلسبيل) يظل علامة بينها.
للشيخ ميزات أخلاقية عظيمة..
هو منتج معطاء بنّاء طيلة حياته، حتى بعد المرض الذي داهم قلبه، واضطره للذهاب إلى لندن للعلاج.
وحتى بعد المشيب فهو متوقد مشارك، يكتب ويستقبل ويدرّس في الحرم، ويرأس جمعياتٍ عدة، والبِشرُ دائمًا على مُحيّاه.
خفيف الروح خفيفُ الظل.. مرح دائم الابتسامة، حين يداعب الطلاب يندمج معهم تمامًا، ويضحك، ومع هذا يحفظ هيبته، وإذا سمع تشويشًا في آخر الفصل حزم وشدّ ملامحه، وقال: «لا تلعب، يا هذا! ترى ما يخفى عليّ شيء»!
يحفظ منظومات وقصائد وأشعارًا، يتغنى بها بصوت حسن، لا يزال صوته يرن في الأذن معلّمًا ومؤدّبًا:

فطــورُ التمـــــرِ ســـنّةْ	رســـــــولُ اللهِ سَـــنّهْ
ينــــــالُ الأجـــرَ عبــدٌ	يحـــلّي مِنْـــــهُ سِـــنّهْ

وحين يذكر المواقيت يردّد:

عرقُ العراقِ يلملمُ اليمنِ　　　من ذي الحُليفَةِ يُحرمُ المدني
للشام جحفةُ إن مررْتَ بها　　　ولأهل نجد قرنُ فاسْتَبِنِ

من طبعه إشراك الآخرين ودمجهم في العمل، وإن كانوا بسطاء في أسفاره ورحلاته، يقرأ هذا قرآنًا، وينشد هذا شعرًا، وثالث يلقي قصيدة شعبية، وقد يكون حظُّ الرابع قصةً أو سالفةً.. المهم أن يشارك.

يفهم الحياة جيدًا، ويعيشها، ويعرف كيف يفجّر طاقات الآخرين، ربما لأنه اشتغل وزرع وقاسى، وعاش الزمن الذي كان يعبر عنه بقوله: «ضاع نقطة، ضاع رأس». ضياع قطرة من الماء يعني ضياع نفس؛ فالماء يُستخدم للرّي كما يُستخدم للزرع.

لم يكن غريبًا -وقد أقام ندوة أسبوعية في الجامع الكبير ببريدة- أن يستضيف فيها العلماء وطلبة العلم، ويشجعهم ويثني عليهم، وصاحبنا ممن نال شرف الاستضافة في هذه الندوة، بعد أن كان أحد صغار الحاضرين.

لم يكن الشيخ يتردّد في أن يطلق عليه: «فضيلة الشيخ» وهو يدري أنه لقب فضفاض، لكنهم صغارُ قوم كبارُ آخرين!

متسامح في نفسه، ميسر في فقهه، يداري من حوله، ويفصح عن رأيه، ربما لا يدرك فتى بعد ثلاثين سنة حجم التحدي الذي يصنعه سماع صوت البليهي في المذياع الذي هو من عمل الشياطين، أو فتواه بصلاة النفل على الراحلة لغير المسافر، أو رمي الجمرات قبل الزوال..

البغض تحت بند الشريعة، والهجر فلا سلام ولا كلام، وشتم العرض، وما يتصل بالأمر من تقبل الشائعات وترويجها، اتصلت به، أو بأسرته، أو بعض طلابه، حين يحدث ذلك من شاب متدين يتجاوز اللحم إلى

العظم، ويغدو تشكيكًا في النوايا والمقاصد، وتنفيرًا للطلاب، وتحريماً للصلاة خلفه، في تلك الأحوال يدفع المرء غاليًا ثمنَ قول فقهي معتمد، وتعطل القيود حركة الاجتهاد والنظر، فمهمة المتحدث مهما كان قدره، ترديد ما قاله الأشياخ، والتربيت على مشاعر بعض العامة من أقوياء الشخصية المؤثرين.

الشيخ لم يكن كذلك، كان حرًا حكيماً، وهو وَكُلّ أحد لا يريد أن تكون حياته الذاتية والأسرية سلسلةً متصلة الحلقات من المعاناة والألم والأحزان المصاحبة لعدوان المخالفين، ولا يريد أن يتنكر للرسالة التي آمن بها واطمأن قلبه إليها.

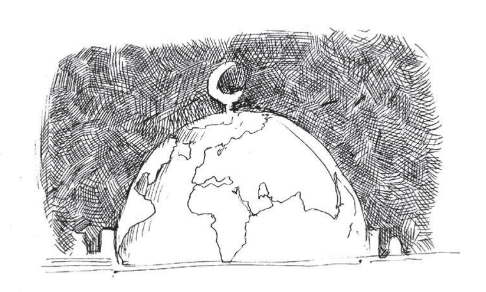
وبين هذا وذاك تكون معاناة المصلحين ودعاة التغيير. «وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً» [الإسراء: من الآية ١١٠].

هي حيز صغير في حياته الملأى بالحركة والعطاء والتفاعل والتواصل والترحال والبناء، وخير وسيلة لعزل التأثير السلبي لقول يؤذيك هي الإمعان في المزيد من الأفعال الإيجابية، وعدم تضخيم الصدى الآخر لمجرد أنه يتعلق بك. الإيمان بالعدالة الإلهية وأنه في نهاية المطاف لن يصح إلا الصحيح، والنية الصالحة تجبر عثرة صاحبها لو عثر فعلًا، والاجتهاد الصائب يجد موقعه وصداه بعد هدوء التشويش، نحن نتكئ على مواقف وآراء حكيمة لمجددين دون أن نتصور الجهد الذي بذلوه، والرفض الذي صبروا عليه.

◆◆◆

18

الشيخ السياسي



يطلق الناس هنا على وسط المدينة؛ حيث الحركة التجارية المتسارعة اسم (الجَرَدَة) فهي مركز البلد ومحط أنظار القادمين إليها من كل مكان.

الجامع الكبير يأخذ موقعه وسطها، وفي الجمعة ينهال الناس عليه من أنحاء المدينة، وقت الفجر الباكر تتزايد الصفوف وترتفع الأصوات بالقرآن مرتلًا بالطريقة النجدية.

ليس يذكر على وجه التحديد أين صلى تلك الجمعة؛ فهو كان يبحث عن خطيب لا يعيد عليهم ما حفظوه منذ الطفولة، من خطب المخضوبي أو ابن نباتة، لكنه يحتفظ بتدوين جيد للحظة التي مر فيها بقرب الجامع، وهو في نهاية المرحلة المتوسطة وأصبح مشدودًا إلى صوت أجش منطلق من مكبرات الصوت خارج المسجد.. ويتحدث باندفاع غير عادي، ويقول شعرًا ليست جودته في إتقانه الفني، بل في حماس ملقيه، والذي

يظهر له أنه هو قائله:

فلسطين دومي لعبة ووسيلة	لسائر طلاب الكراسي ومقعدِ
فلسطين لا ترجين منهم سوى الذي	رأيت؛ فذا طبع العصاة بموعدِ!

أحس بشجاعة غير معتادة، وخيل إليه أن جدران المسجد العتيقة المبنية منذ عهد الملك سعود، وأن المحلات التجارية المحيطة بالمسجد كلها تتفاعل، والناس قعود، والأمر لا يخلو من مفاجأة، فليس معتادًا هذا اللون من الحديث، كان الناس يسمعون في العادة وعظًا يزجر عن المعاصي أو يرغب أو يرهب.

معظم الحاضرين لا يعرفون (ماركس) ولم يسمعوا به إلا تلك اللحظة حينما ذكره المتحدث:

لقد خانهم أسيادهم قومُ (ماركسٍ)	كما نكص الشيطان عن مشركي بدرِ

حينما ختم بذكر الشيطان ومشركي بدر، اطمأن الناس وأدركوا أن الرجل يتحدث عن معنى فاضل!

الشيخ عبد الرحمن الدوسري كان منهمكًا إلى الآخر في الجدل مع الناصريين والبعثيين وهزيمة حزيران في لقاءاته المتكررة، ومجالسه الخاصة هذه هي المسألة التي تشغل فكره، ويتحرك بها لسانه عفويًا حتى وهو يمشي أو يأكل أو في حالة استرخاء، ويحدث بها نفسه بصوت مسموع في حالات عدة.

بيد أن ظهور (السلفيين أهل المدينة، وأهل الحديث) منتصف التسعينات الهجرية -أولئك الذين عُرفوا من بَعدُ باسم (أصحاب الحرم) لاحتلالهم الحرم المكي تحت وطأة السلاح عام (١٤٠١هـ-١٩٨٠م)-، أحدث دويًا فكريًّا وعلميًّا، ومناظرات واصطفافات جديدة واختناقات... واحدة منها كانت في المسجد، والشيخ يتحدث، فقاطعه أحدهم

مستنكرًا سكوت العلماء، فرد الشيخ متمثلًا ببيت من الشعر:

وَلَوْ أَنّ قَوْمِي أَنْطَقَتْني رِمَاحُهُم نَطَقْتُ.. وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرّتِ

فقلب العتب على الأقوام والناس والأتباع!

وأردف: «أنتم (حزمة صنوخ)» وهو مَثَل شعبي، والصنخ هو أصل العسيب اليابس المعوج، و«الصنوخ» لا يمكن أن يجمعها الحبل، لشدة اعوجاجها، وعدم انتظامها، وضعف مادتها، فإذا ضغطها الحبل خرج هذا من جهة، وذاك من جهة، ولم يبقْ منها شيء... وهو تشبيه يشير لفقدان روح الجماعة والفريق، وسيطرة النزعة الفردية والأنانية والاعوجاج الذي يجعل المرء لا يقبل عملًا مشتركًا إلا أن يكون على شرطه، والآخر لا يقبل إلا ما كان على شرطه، والثالث..، وشروطهم متفاوتة، فالمحصلة الأخيرة التشرذم والشتات الذي لا اجتماع معه، وكل امرئ ينحى باللائمة على غيره ويستثني نفسه.

ثم انطلق الشيخ يشيد بموقف سيد قطب الذي عابه الآخر بأنه «يحلق لحيته!» وردّ الشيخُ «بأننا نحتاج شعورًا لا شعرًا»، وثنّى بأنّه (أشعري) فاحتدّ الشيخ قائلًا:

- الأشعريُ ضَعْه في قلبي..

وهكذا اتصلت المناظرة بصورة معبّرة عن الصراعات المنهجية السائدة ونوع التربية التي يخضع لها فتيان في مقتبل حماسهم يسمعون آراء متسرعة، دون اعتبار للمآلات وتطوير المقالات!

الشيخ المولع بنقد السياسة كان يصرح بأن (لا إله إلا الله) كلها سياسة من لامها إلى هائها، وثمة تأويل لهذا القول، على أنه لا داعي له، وهو إطلاق فيه جسارة وإيهام.

يتحدث عن الحاكمية بروحانية عالية، والغيرة تشتعل في سويدائه، بيد

أنه كان يغرد خارج سربه، وكان يصرح أحيانًا لخاصته بأنه مثل «صياح القبور»!

كان يكرر بحرقة: نحن نحتاج شعورًا وليس شَعرًا، ويذكر صاحبنا مرة أن الشيخ صالح البليهي راجع الشيخ عبد الرحمن الدوسري في محاضرة في المعهد حول (اللحية)، واحتد بينهما الجدل بشأنها.

كان الشيخ يتقصد اختيار المساجد التي يكثر فيها المصلون من غير أهل البلد، وبروحه المرحة يقهقه ويقول إنه يريد الوصول إلى «الصلعان» يريد أصحاب الرؤوس المكشوفة وليس أصحاب الطواقي والغتر!

هو من الشيوخ المؤثرين في شخصية ذلك الفتى منذ الصغر؛ فقد ألقى العديد من المحاضرات المشحونة بالعاطفة والصدق في المعهد العلمي، وأكثر منها كان يلقى في(مكتبة ابن القيم الخيرية)؛ حيث تجمع العديد من الشباب المتطلع للخير والمعرفة.

وتوطّدت العلاقة في الجامعة؛ إذ قدّمه في ندوة مسجّلة، حضرها الأستاذ محمد قطب، وعدد كبير من الأساتذة والشيوخ.

ثم قرأ كتبه كلها، ووجد أن التفسير الموسوم بـ (صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم) من أكثرها جودة وإتقانًا.

والطريف أن أحدهم اعترض مرة أمام الشيخ الدوسري في المسجد على مقارنة بين (الظلال) و(تفسير ابن كثير)، فردّ عليه الشيخ بأن تفسير ابن كثير مضى وقته، وأنه لا يوجد تفسير ينافس الظلال، اللهم إلا تفسيري(صفوة الآثار) إذا طُبع واكتمل!

يبدو الشيخ دومًا شديد الحماس، مُلمًّا بشؤون الحياة والواقع، ويبدو على صِلةٍ بشخصيات إسلامية حركية في الكويت ومصر والشام والهند، وكان يشجّع على قراءة مجلات كـ(البلاغ الكويتية)، و(المجتمع)، ومجلة (البعث الإسلامي) الهندية والتي كان ينشر فيها مقالاتٍ من

التفسير ويوزّعها مجانًا.

يتحدث كثيرًا عن اليهود والسلام والناصرية والحكم بالقانون، ويوظف السخرية المرّة أحيانًا، يخطب على المنبر حتى يكاد يسقط من الحماس؛ فهو مؤمن بقضيته.

(الماسونية) تستولي على اهتمامه الكبير؛ فهو يتحدث عنها على أنها الأخطبوط المهيمن على مجريات الأحداث، ويبالغ في ذلك، حتى قال أحدهم: يبدو من حديث الشيخ أن (الماسونية) مدسوسة في فطورنا وغدائنا وعشائنا!

يهاجم البعث بحرارة، ويسخر من منشئ الحزب (عفلق)، ويذكر لهذا الاسم معنى لغويًا يتصل بالأعضاء الجنسية!

ويهاجم (الناصرية) بقوة، ويتحدث مقلدًا صوت عبد الناصر وهو يقول: إسرائيل حنرميها في البحر! ويعقب بـ: «يا ملعون»!!

وأحيانًا ينتقد بمرارة فتاوى تُوظّف لأغراض سياسية، ويراها (مدفوعة) الثمن!

في لسانه حبسة أحيانًا إذا اشتدت وتيرة الكلام، وصوته أجشّ، مما يعطي قدرًا من التميز وسهولة المحاكاة.

وبعفوية تامة يوظف قصصًا شعبية تثير موجة من الضحك، ويطلب إيقاف التسجيل خلال سردها لئلا تحفظ عليه!

ليس من المرجح أن الشيخ ترك تلاميذ على شاكلته؛ إذ لم يكن له برنامج أو خطة محددة، ولعل الروح الحية، والشحنة الحماسية، وتوجيه الاهتمام لقضايا النهوض السياسي والعسكري، ومواجهة النكسات كانت رسالته الجوهرية، إلى جانب الهجوم الكاسح على الحكومات الثورية، ودعاواها في التحرر والانتصار.

١٩

الشيخ الفقيه



يجد نفسه مع الآخرين أكثر مما يجدها بمفرده، يمتلك شجاعة العلاقة وابتداءها، ويبتلع المفاجآت غير السارة أو الجفاء!

ذات مرة مدّ يده مصافحًا لفتى في مثل سنه، وفوجئ بالآخر الذي يبدو أنه ذاق مرارة التعرف على غرباء لم يريدوا به خيرًا، فإذا به يقبض يده عنه ويقول:

إيش المعرفة؟!

كانت صدمة لبراءته وطيبته لا ينساها.

الحدود النفسية بين مدينته وبين جارتها الجنوبية (عنيزة) ليست وهمًا ولا مزاحًا، هي جدار قائم في أغوار النفوس يصنع تنافسًا شريفًا تارة، وتعصبًا مقيتاَ تارة أخرى.

الفتى يعتز ببراءته من التعصب، يشاهد قلبه هل ينحاز عنوة إلى قبيلته

أو إلى بلده؛ فيجد برد الرضا أن خلقه الله غير محتاجٍ إلى كبير جهاد في هذا المقام.

يبحث هناك عن تطوير لعلاقات صغيرة خارج محيط مدينته، فيجد الرجال الكبار على غير ما هم عليه في حيه وبلده، الدماثة والانفتاح، واللباس المختلف، فالعقال يعلو رؤوسهم، وتهذيب اللحية، ولا يكاد يمر بأحد منهم إلا سلم عليه، وعندما يسأله عن بيت صديقه الجديد الذي أحبه من أول وهلة (أحمد القاضي) يحصل على دعوة ملحة للقهوة، و(القلطة) قبل أن يحصل على وصف دقيق للمكان!

مجموعة أصدقاء احتفظ بهم واحتفظوا به، ودون أسماءهم في ذاكرته الوفية، وإن كانت صلته بهم لا تحكى مقدار الحب والوفاء الذي يحمله لوجوه أصبحت لا تفارق خياله، وعندما يرسم الحرف فإنها تتزاحم لتحكي له قصص الجلسات المنزلية في المجالس ذات الأسقف العالية والجص الأبيض والنوافذ الواسعة، والطلعات البرية في (الغضا) التي تستمر أيامًا، والسفر الأول الطويل إلى (أبها)؛ حيث ذكريات السودة والخيمة والمشاهد الدرامية والطرف الخفيفة، والضحكات لا تزال ترن في أذنه، والملامح لا تزال تطلع له، ودون أن يريد فهو يستجمع الصورة كلها بتفاصيلها الدقيقة.. ويود لو يعرف أخبار بعض من غابوا، فلم يعد يسمع عنهم شيئًا.

المسافة لا تتجاوز ثلاثين كيلًا، ومع هذا فهو يلحظ فرقًا واضحًا في البيئة بين مدينته وبين جارتها الأخرى التي تربطها علائق أوسع مع البحرين والهند والعراق، وتهاجر مجموعات من أسرها العريقة إلى هناك طلبا للرزق، وتسهم في بناء الثقافة والمعرفة وهذا يفتح نافذة التلاقح والتأثر والتأثير الذي هو سمة الحياة الإنسانية.

لم يستغرب أن يسمع مبكرًا باسم شيخها (عبد الرحمن السعدي) الذي

مات في السنة التي ولد هو فيها (١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م) وكأنه رآه وعرفه وأحبه من سماحته وربانيته.

تعجّب أن يجرؤ الشيخ على الفتوى باستعمال المذياع يوم كان من العلماء من يعدّ ذلك من الكبائر، ويجيز استخدام مكبر الصوت في المساجد، ويجيز التصوير الذي كاد أن يجمع علماء البلد على تحريمه وتجريم فاعله، وصار هذا التحريم جزءًا من ثقافة المجتمع العادي، وبلغ اندهاشه مبلغه حين سمع من طلاب الشيخ أنه حضر (تمثيلية) جسّدت فيها شخصيات صحابة مثل بلال بن رباح، وقام شباب بأداء دور جواري قريش.

على شيخ كهذا، وفي بيئة كهذه، ولد ونشأ الشيخ الفقيه.

كان صاحبنا وقتها في السابعة عشرة من عمره، فتى يستقبل الحياة بأمل ورضًا وطموح غير محدود.

في زياراته لأصدقائه هنا يسمع عن (ابن عثيمين) كعالم من تلاميذ السعدي، وذات مساء يقترح (يوسف) أن يذهبوا لزيارته؛ فهو رجل متواضع وبابه مفتوح.

يدلفون إلى مجلس متواضع في بيته الطيني القريب من مسجده، فيجدون ثلة، منهم مديرو معاهد وطلبة علم، وهم يتساءلون عن قصة مشهورة أن بعض السلف أكل أكلة فحدثته اللقمة بأنها من حرام فلفظها.. فيجيب الشيخ بهدوء أن هذا ممكن من باب الكرامة لمن يتعاهد مطعمه ويبالغ في الورع، فيسكت الجميع.

يتناولون معه بعض الفاكهة ويخرجون محبورين يتحدثون:

هذا خليفة السعدي ووارث علمه، ومدرس في المعهد العلمي، علمه غزير، وهو فقيه مستقل.

تنظر إليه فترى سيماء التقوى والإيمان والورع، وتحدثه فتجد العلم الغزير،

والتأصيل والتفصيل، وهو يبتكر الكثير من التقسيمات والتفريعات مع الهدوء في النبرة والرفق بالسائل.
فلا غرو أن تختار مؤلفاته في الأصول والعقيدة للتدريس بالمعاهد العلمية.
يعين عضوًا في هيئة كبار العلماء، ويتجادل طلابه: هل سيقبل أم يعتذر؟.. إنه لا يؤمن بتكريس رسمي للعلم والفتوى.
ثم يتجادلون: هل سينتقل إلى الرياض أم يصر على البقاء في مدينته؛ حيث دروسه ونشاطاته؟
كان تعيينه شيئًا جيدًا، وترميمًا لعلاقة بين مدارس فقهية حنبلية، باعدت بينها مواقف سياسية غابرة.
لا يُخفي الفتى ميله لهذه المدرسة المنفتحة التي تقرأ لرشيد رضا، وديل كارنيجي، وتعيش همًّا أوسع من إطارها المحلي الضيق، وتتعامل مع الفروع الفقيهة بهدوء واعتدال دون مبالغة أو تضخيم.
ومنذ ذلك الوقت صار كارها للتصنيف المدرسي حين يتعاطاه عامة بسطاء، كل ما يفهمونه أن هذا معنا وهذا ضدنا، وأن هذه العداوة هي بغض حقيقي ويجب أن يستمر للأبد.
أعجبته كلمة عيسى عليه السلام «من لم يكن ضدي فهو معي».
انتقل الشيخ للتدريس في الكلية، فكانت فرصته أن يتعرف عليه عن كثب، ويحضر محاضراته، ويسجل فوائده، ويخرج معه بعد الحصة ليستثمر وقت الفسحة في أسئلة منهجية مهمة، ويغترف من هذا المعين الذي لا ينضب ولا تكدره الدلاء.
غير مرة أصرّ على الشيخ أن يحمله بسيارته إلى بيته ليستفيد من الطريق في مسائل يطول شرحها، ومن أهمها الحديث عما يثيره (السلفيون الجدد) حول الأوضاع السياسية والفقهية والاجتماعية، والمهدي المنتظر الذي يؤكدون أنه بينهم!

إنها درجة من الوثوقية المفرطة والإلغاء للآخرين تلبست عقلًا باطنًا وأفرزت العديد من الرؤى المتواطئة لنفوس لا تملك الحياد ولا الهدوء، وتسلل عبرها الشيطان!

كان الشيخ ينتقدهم بوضوح لضعف علمهم، وقلة إمكانياتهم، وشدة جرأتهم، ويخشى أن تكون مقدمة لفتنة.. وهكذا كان.

كان يميل إلى الحديث والسُّنة ويكره التعصب المذهبي، وهو يدرّس كتب الحنابلة، ويعرض الأقوال بموضوعية وعمق، ويختار ويرجّح، ويميل لرأي ابن تيمية وابن القيم في الغالب، وقد حرر صاحبنا الكثير من ترجيحاته بقلمه على (حاشية ابن قاسم).

وهذا كان يغري الجماعة إياها بالنظر إلى قرب الشيخ أو بعده، وهم بهذا يحاولون أن يقتربوا منه، لكنهم لم يظفروا بطائل، كانوا هم مغلقين، وأمورهم محسومة إلى حد بعيد، ومن كان كذلك لا يعجبه إلا من كان منقادًا له، مستسلمًا لخياره، وحين يلمح اختلافًا فسرعان ما يتبرأ ويتبرم ويتهم بالنكوص!

كان الشيخ عبد العزيز بن باز عالمًا فقيهًا متبعًا للسنة، وقد نفروا من عنده وباعدوه بدعوى تسامحه في وجود الصور على الورق النقدي، وأنه سئل عن مسألة مخالفة للسُّنة «عندهم»، فقال:

- لا بأس لا بأس.

هؤلاء الأعلام ممن يهدون بالحق وبه يعدلون، وهم أهل العدالة يحملون العلم، وينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين!

على وتر السجال حول سيد قطب، كان السؤال الموجه للشيخ العثيمين في محاضرة أدارها صاحبنا في قاعة الكلية، وقدم للمحاضر بشيء من الارتباك وهو يقول:

إن العالم «يسبح له كل شيء» حتى الحوت في البحر!
واستدرك وهو يسمع همس الشيخ بالاستغفار.. بأن العالم «يستغفر» له كل شيء.
سئل الشيخ عما في تفسير سورة الناس في (الظلال) من إنكار سحر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:
-هذا من الخطأ المغفور، وليس من السعي المشكور.
إجابة منظمة ومسجوعة ورفيقة وصادقة في نظره، أعجبته فصار يرددها كلما حانت مناسبة.
في الإجازات الصيفية صار يتردد على درسه المبرمج، من تفسير، إلى عقيدة، إلى فقه، إلى أصول وقواعد، والساعة ترن مؤذنة بنهاية درس وبدء آخر، في جو علميّ قوي لم يعرف له مثيلًا، ولم يجد عنه بديلًا، وكان يلحظ أن كثرة المرتادين القادمين من خارج المدينة تضغط على الجو وتضعف مناخ الحرية العلمية، سواء في ذكر الآراء أو في وضوح الاختيار.
الفقيه أو القائد يرى العالم فيمن حوله من التلاميذ والأتباع، ويحرص على تألفهم وقربهم منه فيحدثهم بما يعرفون، وقد يتأثر بهم أحيانًا خاصة إن كانوا ذوي جرأة وحضور قوي.
لكن الشيخ كان يعالج هذا بالانفتاح على السياسي، وبالانفتاح على العامة بالدروس والمحاضرات والفتاوى والجولات، فلا غرو أن أصبح أبرز علماء البلاد فقهًا وتنظيرًا ونشاطًا.
هو تلميذ ابن باز ووارث علمه، والشخصيتان مختلفتان في التكوين، متفقتان في المنهج، وإذا كانت شخصية الأول أوسع في العلاقات والنفع العام والمرونة، فإن الثاني أكثر بحثًا للمسائل، وأغزر في الإنتاج العلمي الممنهج، ولذا ترك وراءه طلابًا استطاعوا أن يواصلوا المسيرة

من بعده، وأن يخدموا انتاجه وكتبه وأن يعالجوا المستجدات بحكمة، من أبرزهم (خالد المصلح) (سامي الصقير) (عبد الرحمن الدهش).

حاول الخصوم المتربصون ذات حين أن يزرعوا بين الشيخين جفوة، فنقلوا عن ابن عثيمين قوله في المعية أنها معية ذاتية حقيقية، وكتبوا العديد من المؤلفات «توزع مجانًا لوجه الله تعالى!» وصنفوا الردود والمقالات، وركضوا إلى المشايخ يضخمون ويهولون ويتحدثون عن الحلول والاتحاد.. ولا يتورعون عن لغة مهما جفت.. إنهم لا يدركون حقيقة دوافعهم المبطنة، وربما صدقوا أنفسهم أنهم أغيار على العقيدة السمحة وعلى دين الله..!

وبدا أن الشيخ ابن باز أخذهم بحسن الظن، وعتب على الشيخ حتى صلى معه الفجر ذات مرة، ولحقه إلى منزله وصافاه وطايبه، وانتهت الجلسة الخاصة بمشروع كتيب عن العقيدة الصحيحة، يكتبه ابن عثيمين ويقدم له ابن باز.

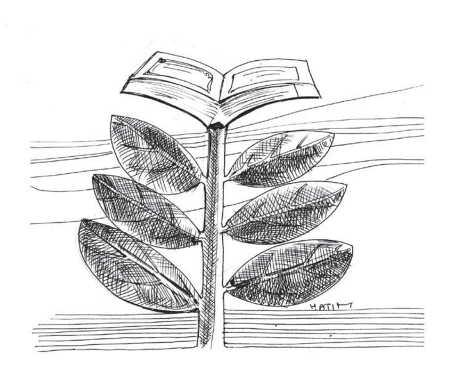
وهكذا تبدو صدور الكبار وأخلاقهم أوسع من أن يفلح الصغار في تكديرها.

الفهم السهل الواضح للتدين والإيمان معنى مشترك يجب أن يوظف للتواصل والحب والتسامح وحسن الظن، والمشترك الإيماني والعلمي واسع بما يكفي لتكريس الإخاء والصفاء إذا تم عزل التأثير السلبي لأتباع يضعون الأمور في غير نصابها.

◆◆◆

20

الشيخ الإمام



اعتاد مؤرخو الإسلام ومترجموه على تلقيب علمائهم بالألقاب؛ من تقي الدين إلى نور الدين، ومحيي الدين، وشيخ الإسلام، وتاج الدين.. إلخ.

أما لقب الإمام الأكبر فهو ما يُطلق على بعض شيوخ الأزهر -حديثًا-، والناس يتوسّعون في الألقاب من باب الإشادة والإطراء ورسم القدوة، وتحقيق مبدأ العرفان..

وكان ابن خزيمة يُلقب إمام الأئمة.

وفي السِّجال العلمي هناك من يتحفّظ على كثير من هذه الألقاب؛ خوفًا من الغلو والتقديس، أو أوصاف لا تصح إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالعموم فلا مشاحة في الاصطلاح.

لا يتذكر على وجه الدقة أوّل مرة سمع باسم (عبدالعزيز بن باز).

لكنه يتذكر أول مرة رآه فيها، إذ كان في زيارة فريدة لمدينة بريدة، وزار

أخوال ولده عائلة (الخضير) وشاهد سيارته، ومن خلف زجاج تلك السيارة قرأ اسم كتاب في الداخل.. ها هو يقرؤه، كأنه أمامه: كتاب الإيمان للدكتور حسن الترابي.. ما ألذّ ذاك الفضول الثقافي!

ثم بدأت علاقته بالشيخ عبد العزيز تنمو في مقابلات عديدة، أثناء دراسة الجامعة، وما بعدها، واستقرّ له لقاء شهري في منزله، اقترحه عليه فأيّده وأجراه، واستمرّ بحضور لفيف من المشايخ وطلبة العلم من أنحاء المملكة؛ يقاربون العشرين، ينتقل بحسب إقامة الشيخ في الرياض والطائف ومكة.

يُدار في المجلس حديث عن الأحوال والحوادث، وقضايا العصر إلى جانب بعض مسائل العلم ومشكلاته، وقراءات في كتب منها (اقتضاء الصراط المستقيم) لابن تيمية.

وإن كان السَّكن في بريدة منع من حضور دروسه ومتابعة محاضراته؛ إلا أن استماع فتاواه ودروسه -مذاعة في إذاعة القرآن الكريم، أو مسجلة على أشرطة- كان دوريًا وقويًا.

وأول شريط مُسجّل سمعه ذاك الشاب كان محاضرة للأستاذ محمد قطب، علق الشيخ عبد العزيز بن باز عليها، وأثنى على الأستاذ، وأشاد به، ودعا له ولأخيه سيد قطب.

سمح سهل محبب، ليس له مشكلة مع أحد، وإن كان رضا الناس غاية لا تدرك؛ إلا أن أخلاقه تُذكِّر بأخلاق الأنبياء مع الموافق والمخالف.

يترحم على الأموات، ويستغفر للأحياء، ويدعو لهم بالهداية، وينصح بلطف، ولا يعنّف، ولا يزجر، ولا يرفع صوته، وقُصَارَى ما يقول حين يَسْتَفزّه أحمق أو طائش «سبّح.. سبّح»..!

يؤمن بالحكمة، ويحافظ على كرامة الآخرين، ويجتهد في التثبت والأناة، وقد يُبتلى بمن يضايقه بكثرة النقل، وتكرار التّهم والمغالبة، والمطالبة والتخويف.

وصلته مقالة من الشيخ عبد البديع صقر تَنْسبُ إلى التّرابي أقوالًا شاذة؛ فسارع الشيخ إلى مكاتبته؛ متحريًا سائلًا متثبتًا بلغة تتسم بالحفاظ على كرامة المخاطب، والتقدير وذكر السابقة، والثناء بالخير، وتغليب حسن الظن، وَرَدّ التّرابي بالتفنيد، واتهام النَقَلَة؛ بيد أن الفتاوى التي نشرت أخيرًا على لسان التّرابي، وبعضها بصوته؛ تؤكد أن للموضوع أصلًا صحيحًا، وربما كان يقولها لخاصّته، أو كان مترددًا فيها ثم اعتقدها وجهر بها، وقد خالف في بعضها الإجماع لدى العلماء.

رجل بسيط، بعيد عن التكلف، واضح العبارة، قريب المأخذ، عظيم الفقه بالحياة وتجاربها، عميق الإدراك لمقاصد الشريعة العامة.

لا يظهر عليه الحماس الشديد لما يراه، وقد يقرّره بهدوء وسكينة، وإن اعترضه معترض وكان في الأمر تردد أظهر التجاوب.. وقال: الأمر محتمل..، والله أعلم..، وما ذكرته ممكن..، وهو محل نظر.. يُتّأَمّل.. يُبْحَث.. وقد يطلب من بعض الحاضرين مراجعة المسألة وبحثها.

فإن كان الأمر واضحًا ولا إشكال، رد على المعترض، وقال: هذا غلط..، هذا لا ينبغي..، ليس بصواب..، وقد يقول: هذا غلط بَيّن..

الناس عنده سواسية، حَدَثَ أن دعا الرئيس الفلسطيني على غداء، وحين حضر ومن معه، ظل الشيخ منتظرًا.. أين فلان الفتى الكويتي الذي زارنا بالأمس ووعدنا بالحضور؟

أين الشيخ فلان؟

أين الموظف فلان؟

حتى ازدحم المكان بالمدعوين.

ثم أقبل على الرئيس ياسر عرفات يحادثه، ويسأله ويدعو له ولشعبه بالنصر، ثم ظل ينتقل إليهم واحدًا واحدًا، ويسأل الشابّ عن أهله، وعن دراسته وعن طريقه.. عفوية تامّة، وصفاء وحسن نيّة، وملكة

هائلة في استيعاب الناس جميعًا دون تكلّف!

تكثر عليه الأعمال فلا تُربكه، ولا تفقده هدوءَه، ولا تعجله، يمضي بها بدأَب وصبر وسعة بال؛ مستمدًا من إيمانه بالله وقودًا ينير له في دربه الطويل، لا يحاول أن يتنصّل، أو يعتذر عن شيء يقدر عليه، ولو كان احتمال النفع قليلًا.

قلائل هم أولئك الذي يحتفظون بنفسية سليمة هادئة، بعيدة عن التعقيد والإشكال، وهو من هؤلاء القليل.. لا كآبة ولا توتر، ولا قلق، ولا حالات عارضة؛ إلا ما لا بد للبشر منه، هو نموذج للصحة النفسية حين تساعد صاحبها على تجاوز المواقف الصعبة، ونسيان الإساءة، واستيعاب الآخر، وحل المعضلات مهما تشابكت.

يتحدث الكثيرون عن حفظه وذاكرته؛ وهو كما يقولون...

ويجد آخرون عبرة باستنباطه، واستخراجه للفوائد؛ وهو كذلك..

ويثني أقوام على عبادته، وهو عابد، رقيق القلب، سريع الدمعة..

ويطري فئام كرمه، وهو من الأجواد الذين لا يجدون للمال معنى إلا في إنفاقه..

وهذا كله جزء من نسيج شخصيته الفذّة، غير أن محل نظر صاحبنا هو سهولة شخصيته، وبعدها عن التكلف، وعفويتها وقربها الفطري من الناس جميعًا، حتى يقتنع كل من حادثه أو جالسه أنه واضح وضوح الشمس، لا يُخفي شيئًا، ولا يضمر شرًا، وما في قلبه يبوح به لسانه، دون أن يكون هذا غلظة أو جفاء أو قسوة، كما يقع للآخرين، أو أن يكون غفلة وسذاجة كما يحلو لقوم أن يقولوا ويعبروا، بل هو الرفق والسماحة والسكينة التي لا تفارقُ مجلسه، حتى في الحالات الصعبة والأخبار المفاجئة؛ تجده يسبّح ويحوقل، ثم يحتسي فنجان قهوة، ثم يسأل بهدوء.. ثم يكمل مجلسه، أو قراءته، وكأن شيئًا لم يكن..

بهدوئهم يصنعون التاريخ، بينما صخب أقوام لا يصنع إلا الهزائم!
ألقى الفتى مرّة درسًا بعنوان (نسيم الحجاز في سيرة ابن باز)، وحين سمعه بكى، واستغفر، وتمنى ألّا يتحدّث عنه أحد؛ فحادثه كاتبه الفاضل الشيخ محمد الموسى بأن هذا طيب، وفيه سبب للقدوة والتأثير.
يشده في الشيخ أمرٌ آخر؛ أن شخصيته كانت عاملًا مهمًا في حفظ توازن المجتمع، بسبب ثقة الجميع به، وإحكام الروابط مع الدوائر الرسمية والشرائح الشعبية، ومع العلماء وطلبة العلم، ومع الموافق والمخالف، ومع كل التيارات.
إذا ذُكر إنسان -عنده- قال: فيه خير، وجوانب طيبة وفضل؛ فهو يقرأ في الناس الوجه الإيجابي الجميل ما أمكن؛ فإذا جلستَ عنده ترى العلماء، وطلبة العلم، ورجال الأعمال، ورجال السياسة، والحرفيين، والفقراء، و«الشّحّاذين»، لا تفصله عنهم أيّة رتبة أو منصب أو حاجب.. على مائدة واحدة، وفي جلسة واحدة.
وعندما تراه، وتحادثه؛ فالدنيا خير وطيبة وسعة وعمل وتوجيه علمي، .. وكل من أدّى عملًا علميًا أو دينيًا أو دنيويًا.. فهو على خير وفضل.. هكذا يرى الناس.. وهكذا هم يرونه.. وهو لم يقل في أي يوم من الأيام «هلك الناس..» أو ضاعوا، أو لم يتبق من الإسلام شيء، بل كلمته المفضلة «الحمد لله.. الناس فيهم خير كثير..» وهو أيضًا فيه خير كثير..
ويبدو هذا في اختياراته العلمية التي يسمعها الطلاب ويقرؤونها، فهو قوي الملكة عظيم الفقه عميق المأخذ، حريص على الاتباع، مراع لأحوال الناس، يحاول ألا يحول بينه وبين الحق حائل من عادة أو إلفٍ، راجعه صاحبنا ذات مرة، وكرر عليه.. ففوجئ به وهو في هدوئه يتجه

إلى الحاضرين ويقول:

- والله الذي لا إله إلا هو منذ أن عقلت إلى اليوم لا أعلم أنني عملت عملًا أو قلت شيئًا إلا وأنا أريد به وجه الله! فغطى الحاضرون رؤوسهم ولهم خنين!

سلام الله على تلك الروح الزكية الطيبة التي أحبت الناس فأحبوها، وذكروها بكل الحب والخير، الروح التي تركت بعدها فراغًا لا يسدّ.

ليس العظيم هو الذي يشعرك بأنه عظيم، بل هو الذي يشعرك بأنك عظيم، وهكذا هو كان.

الكثيرون لا يدركون الأثر الذي يفعله وجوده بينهم، إنما يبين فقده إذا غاب.



21

أشياخ الشريعة



تعلم الشاب في حياته أن من المروءة والدين حفظ مقامات الناس سيما الكبار، وذكر جميلهم، وتتبع صواباتهم، عوضًا عن التقاط الهفوات والعيوب والمؤاخذات، وكل إنسان له ما يحمد، وعليه ما يذم، بيد أن من الناس من يقرأ الخطأ، ويختصر الإنسان فيه، ويجعله لازمًا له، ويقدم نفسه في مقام التصحيح والحكم، وليست المذكرات والأحاديث الذاتية مكانًا للمحاكمة يتطلب الموقف فيها ذكر العيب وتسجيله، وكثير من الأقوال هي أقرب إلى الحديث العابر الذي يقترب من النفس فيقتضي نظام الخلق الكريم فيه اعتماد الإجمال والتجمل، وذكر الحسن وستر القبيح.. وكتب التراجم الإسلامية شاهد بهذا.

أخذ صاحبنا عن كثيرين في مدرج الجامعة، غالبهم ذوو فضل وعلم وديانة، بل لعلهم جميعا كذلك؛ لفيف من الأشياخ المتخصصين في

علوم الشريعة واللغة والثقافة والتربية من شتى البقاع، وهو يعده شرفًا لا ينسى أن يتتلمذ عليهم، ولا يذكر أحدًا منهم إلا تخيله في شكله، ونبرة صوته، وطريقة أدائه، وتداعت إلى الذاكرة مواقف تتراوح بين الطرافة والإحراج، لكنها جميعًا شاهدة على تلك الأيام وعلى شخوصها وأحداثها:

د. علي القوني بعلمه الغزير في النحو، وصرامته في التعليم، وصبره على الطلبة، وهيهات ينسى لثغته المحببة، ونبرة صوته المتواصل وهو يندفع في الشرح فلا يجد وقتًا لابتلاع ريقه..

د. محمد متولي أستاذ التفسير، صاحب الطرفة والدعابة، وهو بحر حين يسرد الأقوال، ويدلل ويعلل ويختار..

د. عبد الكريم بكّار أستاذ النحو واللغة والثقافة، والمربي القدير الذي أصبح علمًا من أعلام الفكر والدعوة والإصلاح..

صحبهم د. بكار في رحلة طلابية إلى الأحساء فكان مثال الدماثة والتواضع والاندماج مع الطلبة في جدهم ولهوهم، واستيعاب المواقف الصعبة..

د. محمد فضل مراد من أبناء سوريا البررة، وهو أستاذ في الأصول، وصاحب أدب رفيع..

د. عبد الحميد أبو زنيد أستاذ الأصول من الجامعة الإسلامية، وصاحب الخبرة في الحياة والتعليم، والمتميز بخلقه وتواضعه ووفائه، كانت علاقته به علاقة راقية تجاوزت العلاقة الجامعية إلى الود والإخاء، لقد كتب الدكتور بحثًا فريدًا في مسألة (إقرار الله للناس في زمن النبوة.. هل يعد دليلًا)؟

وجمع فيها نصوصًا وأقوالًا، وتأنى في إخراج الكتاب وعرضه على تلميذه وصديقه للاستنارة.. ثم طبع بعد، وكان إضافة للمكتبة

الأصولية.. توثقت العلاقة في زيارات متبادلة.

د. عزت علي عيد عطية، المحدث المتفقه، يتذكر طول نَفَسه في الجدل وصبره وهدوءه، دخل معه في جدل حول مسائل عديدة، مثل تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، وصاحبنا الشاب الجامعي يتذكر جيدًا سرور الطلاب بهذا الحوار، لا لأنه سيوصل إلى نتيجة معرفية، بل لأنه سيضيع وقت الحصة، ويعيق الأستاذ عن الشرح.. ولا غرابة أن يقبع شاب في آخر الفصل ويمثل دور الحكم، فكلما سكت أحد الطرفين لالتقاط أنفاسه تدخل هو صارخًا: واحد – صفر، واصل واصل!

وهكذا هم الطلاب في الكثير من الأحوال، تتغير الأشكال والأجيال، وتتفق الطبائع تجاه دروسهم وتعليمهم ما دام هذا التعليم يحمل طابع الروتين والمعلوماتية الصرفة، والحديث من جانب واحد.

لم تكن لغة الحوار سائدة في قاعة الدرس إلا قليلًا، وكان سيّد التدريس هو التلقين والحشو، والترداد الذي قد يملأ خانات الذاكرة، لكنه لا يدرب على التفكير والنظر والتفكيك.

والذين استطاعوا أن يشقوا طريقهم فعلوا ذلك بجهدهم الخاص، وملكتهم الذاتية، واستطاعوا بهذا الجهد الذكي توظيف المعلومات والمحفوظات والنصوص ضمن آلية علمية تلقوها عبر الكتب، أو المحاضن الخاصة.

حسب نظام (الأستاذ الزائر)، زارهم الشيخ مناع القطان أستاذ التفسير وعلومه في الدراسات العليا بجامعة الإمام بالرياض.

يعرفه من مصنفاته الكثيرة، وقد قرأ له (مباحث في علوم القرآن)، ومجموعة رسائل صغيرة منها (الإسلام وتهذيب الغرائز)، كما استمع إليه غير مرة في خطبة الجمعة، التي يلقيها في الرياض، وفي برامج تبث من إذاعة القرآن وإذاعة الرياض.

وسمع عنه الكثير؛ باعتباره من قيادات الإخوان المسلمين الذين جاءوا إلى السعودية فرارًا من اضطهاد النظام الناصري، ويشكل مرجعية للإخوان المصريين في السعودية، وقد أدرك صاحبنا هذا حين توفي أحد الإخوان في (الأسياح) في منطقة القصيم، وظهر اسم الشيخ مناع مدبرًا لشأنه وشأن الكثير من أمثاله.

ألقى الشيخ مناع القطان عليهم العديد من المحاضرات في التفسير، يتذكر جيدًا أنه تلا عليهم قول الله سبحانه: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» [يونس: ١٣]، وسألهم عن المعنى..

ووافق على كل المعاني التي اقترحوها، كخروج الكافر من المسلم، والمسلم من الكافر، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة..

وكان حسنًا أن يفتح لهم باب الحوار، وأن يقبل بسعة النص وشموله للاحتمالات الممكنة، بيد أن طريقة الشيخ في الإلقاء يغلب عليها السرد، والإنشاء، والنبرة الواحدة الهادئة؛ مما يسبب الشرود، وخمول الذهن، فتعلّمَ أن لا يصبح كذلك فيما بعد!

الأستاذ أحمد محمد جمال -من جامعة الملك عبد العزيز بجدة- كاتب قدير، وصاحب مؤلفات واسعة الانتشار، ولعل أشهرها (مكانكِ تحمدي)، صرخة إصلاحية في وجه التغريب، ويبدو أن الحجاز كانت تشهد معركة آنذاك حول قضايا المرأة، ولذا كتب الأستاذ جمال كتابه، وكتب محمد أحمد باشميل: (لا.. يا فتاة الحجاز!)، وقصيدة عنوانها:(هل هذا من العروبة) وطبعت في كتيب، لقد حفظها آنذاك، والآن يتذكر مطلعها فحسب..

تاج الحَيَا يعلـــو على التيـــجانِ ... تزهــــو به حَوًّا على الأقــــرانِ

كان مغرمًا بحفظ كل لفظٍ موزون مقفى!

يتابع ما يكتبه أحمد محمد جمال، وكم كان سروره عظيماً حين وجد له ديوانًا، وهو الذي يعشق الشعر، ووجد فيه جيد الشعر وما دونه..

من جميل شعر جمال أبياتٌ يرد فيها على شاعر رمز لاسمه بـ: ح. س، ويظن أنه الشاعر حسين سرحان؛ حيث نشر قصيدة في خمسة عشر بيتًا جاء فيها:

ذكرتك والسِّحْرُ الغريب مرفرفٌ	على شفتيك اللُّعْسِ أو خَدِّك الدَّامِي
مضى لك يوم في صباك محجّل	ويا ربّ يوم في الغرام كأعوامِ
ويا رُبَّ عطفٍ لانَ منك على يدٍ	مُنَزَّرةِ النُّعمى مُكَثَّرةِ الذّامِ
وفي كلّ نفس من غرورك بضعةٌ	تلوح وتخفى في جلاء وإبهامِ

فأنشأ الأستاذ أحمد جمال قصيدته المعنونة بـ(إفك مدفوع)، يقول فيها:

رميتَ أخاك العفَّ في عِرْضِه السامي	فوا بؤس مرمي، ويا بئس من رامِ!
وأصوب ما أحجوه أنك ناضحٌ	بما فيك.. هل ما فيك نبعةُ إجرامِ!
فلو جئت تستفتي صحائفَ حاضري	وغابرتي، أعظمْتَنِي أيَّ إعظامِ
حبست صباي الغض للدرس، أستقي	من المنهل الأقصى لأملأ أيامي
فأي فتى لا يملأ الجـدُ يومه	يلم بأرجاس الصبا أيَّ إلمامِ
وكم أقدمت صوبي (ظباء) فمسّني	هواها مساس النور... لا مَسَّ إظلامِ

حين جاءهم أستاذًا زائرًا فرحوا به.. ولكنهم سرعان ما دخلوا معه في جدل محتدم حول صلاة الجماعة في المسجد، والتي أبدى الأستاذ أنه لا بأس أن يصليها المرء مع ولده وأهله في منزله؛ ليعلمهم الصلاة ويربيهم عليها.. ليتحول الأمر بعد ذلك إلى لغة: «كنّا نحبّك، وكنّا نظنّ بك خيرًا»!

صاحبنا أعد بحثًا جامعيًا عن صلاة الجماعة، وقرأ وجمع أقوال الأئمة

والعلماء، ممن يقول بأن الجماعة شرط لصحة الصلاة، إلى من يقول: بأنها سنة كفاية. تعلّم أن معرفة الخلاف، والإحاطة بالأقوال، والوقوف على الأدلة يورث هدوءًا في النفس، ويوسع دائرة العذر للمخالف، ويمنح مجالًا لحسن الظن به، ويحفظ معاقد الولاء والبراء التي هي أصول الدين ومحكماته وقواعده، فلا يتحول الخلاف الفقهي أو الاجتهادي إلى سبب للخصومة والبغضاء والتعصب.

أدرك أهمية أن يلقن الشباب أدب التعلم والتعليم والتفقه مع كل مسألة تعرض عليهم، ليتحول هذا الأدب النظري إلى سجية وطبع وسلوك دائم ملازم، وليس تحصيلًا معرفيًا مجردًا من التأثير.

كثيرون هم أولئك الأفاضل الذي أثروه في مرحلته الجامعية، وكانت علاقته بهم تتجاوز حدود الدرس والتلقي في مقاعد الفصل، إلى الاتصال الشخصي والتزاور والحديث وتبادل الكتب والحوار.

العلاقة الشخصية بعيدة الأثر في صياغة الطالب وتكوينه ورسم مستقبله، ونقل العلم والسلوك من جيل إلى جيل.

بحسبه أنه مدين لتلك المرحلة، ولتلك النخبة من الأشياخ الذين توفروا على طلابهم، تعليمًا ورعاية، وصبرًا، وتحملوا شغب الشباب وشرته وعنفوانه بروح عالية، فكانوا -مع اندماجهم في قضايا الشباب واهتماماتهم، وفتح صدورهم لأبواب الحوار- (كوابحَ) فكرية ودعوية عن مأزق الاندفاع والحماس، إذ كلما أوشكت ذخيرة الصبر لديهم على النفاد داواها حافز ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: من الآية ٩٤].

◆◆◆

22

ثم رحل



صوت شاعري مفعم بالعاطفة ينساب من حنايا القلب، وتمتد حوله المشاعر؛ لتبدأ فعاليات التعامل مع ماضٍ حاضر.

أستشعِرُ صورة رجل عرفته فيما مضىً، وشاء الله أن يكون هو من يمنحني شيئًا من موروثاته، وأن يأخذ قطعة من قلبي حينما رحل.

أحمل توقيعه على نجاحات صغيرة، تربوية أو ثقافية أو اجتماعية هي دون طموحه، بصماته تعلق على أجزاء من جسدي، وروحه ترفرف في داخلي، أما ملامحه فتكسو بعض صبيتي!

قد لا يعرفه الكثيرون، ولكنه مميز بالنسبة لي، إذ ترتكز كثير من مفاصل حياتي عليه، ولذا أدين له بعرفان كبير، وأنتمي إلى شخصه كما ينتمي الفرع إلى أصله.

أمام أبوَّته أستلذ بنوَّتي، وأقرؤه جيدًا في منعطفات دربي، وهمس صوتي،

وبصمة عقلي، ومتلازمة سلوكي النفسي والعملي.
ولا غرابة إذًا ألا أرى فيه إلا كلَّ جميل:

تكاملت فيك أوصافٌ خُصصتَ بها — فكلُّنا بك مسرورٌ ومغتبط
السنّ ضاحِكةٌ والكفُّ مانِحةٌ — والصدرُ متسعٌ والوجهُ منبسِطُ

ذكريات طفولة؛ ليس يهون على المرء أن يتنازل عنها أو يفرط في شقاوة الصبا أو عناده أو ضعفه أو حتى غبائه أحيانًا..، ثمة وجوه لا تنسى، هي الشمس والقمر، وثمة جروح في دواخلنا لا تندمل، فهي تظل تطرق الذاكرة والروح كلما حانت مناسبة، وهل نسيت حتى تذكر؟!
تعود الذكرى لتحتوينا اللحظة والمكان، وتتوقف الكلمة التي أدين له بها:

أُهْدِي لمجْلِسِه الكريمِ وإنما — أهْدِي له ما حُزْتُ من نَعْمائِهِ
كالبحرِ يُمْطِرُه السَّحابُ وما له — فَضْلٌ عليهِ لأنَّه من مائِهِ

طواه الردى، لكنه ظلَّ حيًّا بحضوره وميراثه وذكراه..

أحِبَّاي لو غَيْرُ الحِمامِ أصابَكُمْ — عَتَبْت، ولكنْ ما على الدَّهْرِ معتب

كان ذاك صبيحة يوم السبت (١٩/ ٧/ ١٤٠١هـ- ٢٤/ ٥/ ١٩٨١م).
حين استيقظ مبكرًا كعادته، ودار بمساعدة زوجه يصيح بأصحاب الحجرات والنوم الثقيل:
- عبد الله، محمد، سلمان.. أقام الإمام.
ليكل إليها بقية المهمة التي يرتفع معها النبض في كل مرة، ويذهب هو فلا يعود إلا بعد ارتفاع الشمس.
كان ذلك الصباح مختلفًا.. أكل فطوره باقتضاب، وتمتم ببضع كلمات قالها قبل انصرافه، وهو يرى صبيانه الصغار، ما قبل سن المدرسة.. «لولا هذه الرؤوس الصغيرة لركنت إلى الراحة والدعة»، وانصرف

يحمل بضاعته إلى المتجر، ثم توقف ليسير؛ حيث القدر، فالمبنى الجديد هو الآخر يحتاج إلى تعاهد ورعاية؛ حيث ستكون الأسرة بعدُ، واتجه إلى هناك؛ حيث الموت يختبئ ويترقب بين الجدار والماء..

أنامله الرقيقة تلامس حديد الماسورة الموصولة بخرطوم الماء، وفي لحظة غفلة يتصل هذا بتيار الكهرباء ليصعقه صعقة عنيفة، ويتنادى الجيران إلى جثة فارقتها الروح بعد ساعة فحسب.

ليس بين هذا الموقف الصعب وبين رؤياي في المنام غير ساعات، كانت الكآبة تغشاني وقد استيقظت من نومة الصفرة، وأنا أتذكر رؤيا أنني أمشي على عكازين مكسورة رجلي!

هاتف المنزل يدق.. وصوت سائل يسأل: من هنا من الأبناء الكبار؟ وقشعريرة القلق تسري في أجساد النساء..

أحد الجيران يشير لي بيده، فأتوقف لجار يمشي على قدميه، ويحتاج إلى من يحمله، ولكنه يستنزلني بإلحاح ليقول: الوالد أصيب، لكنه في رجاء وخير.

الريق يجف، والمشاعر ترتجف، والقلق يبدو بلا خفاء، وعبثًا نتشبث بالاحتمالات..

طَوى الجَزيرَةَ حَتّى جاءَني خَبَرٌ	فَزِعتُ فيهِ بِآمالي إِلى الكَذِبِ
حَتّى إِذا لَم يَدَع لي صِدقُهُ أَمَلاً	شَرِقتُ بِالدَمعِ حَتّى كادَ يَشرَقُ بي

قررت أن أحافظ على القوة الدافعة، وأبدو جَلدًا صبورًا؛ لأحفز البقية على التحمل والتطبع السريع، «وإنما الصبر عند الصدمة الأولى»، كما قال المصطفى.

نظرات تائهة، وأفكار مشتتة، وأنين مكتوم، وصبية يزيدون الجرح التهابًا. الصمت كان قوة خفية مارسه الجميع، حتى سما بالروح للبحث

في الحياة ومعناها الأعمق، وامتدادها الواسع وراء الأفق الدنيوي.
قبل صلاة الظهر قبَّل الأولاد جميعًا جبهة الأب الحاني الذي حضنهم بعطفه، وتعاهدهم بلطفه، والدمع يطفر، والحزن يحفر أخاديده في الأعماق:

وليس البكا أن تسفح العينُ، إنما   أحرُّ البكاءينِ: البكاءُ الموَلَّجُ

إنها رائحة جسد سيغيب بعد لحظة، وتغيب معه خصال الخير التي جبل عليها.
قد يتعلم المرء الكثير في حياته، لكن تبقى السمات الفطرية الجبلية هي الأكثر حضورًا في شخصيته.
كان متعلمًا بمقياس أهل وقته وبلده، يقرأ المصحف، ويحفظ ما تيسَّر منه، ويحب العلم وأهله، ويشجع أبناءه على مشاركته فيما يقرؤون، حتى المجلات والكتب الحديثة، ويكتب ما يحتاجه من الديون والحقوق التي له على الناس، وهي كثيرة، والتي عليه أيضًا.
شخصيته الفطرية: متميزة، الهدوء سمتها، وقلما يغضب أو ينفعل، والسماحة طبيعتها، والضحكة حتى مع من يسخرون أو يمكرون، وحب الخير والإحسان.
التغافل منهج في التربية، فلا يبحث عن المستور، ولا يلاحق العثرات، وحين يظفر بخطأ يقدم العذر لصاحبه، والشباب الذين يلعبون الكرة في فناء المنزل فيفسدون مصابيح الكهرباء والشجر، لم يشأ أن يصارحهم بأنه يعرف ذلك.
وجهاز التسجيل الذي كان موجودًا -وكان وجوده حالة نادرة في البلد- أراد أن يغض الطرف ولا يقف عنده.
حين يذهب بعض الصبية لمباريات الكرة في الملعب الكبير -ولم يكن

مسرورًا بذلك- كان يقدر قدر الشباب حدثاء السن، ويتفهم عقولهم، ويتقن بالفطرة كيف يتعامل معهم. لم تنقله الشيخوخة وتصوراتها وتجاربها ومرحليتها عن الشباب واحتياجاته، وعلمته خبرته وفطرته كيف يملك الإقناع فيما يحتاج إلى إقناع، والصبر فيما يحتاج إلى صبر.

حياة بعفويتها وبساطتها مليئة بالتفاصيل والأحداث الصغيرة المعبرة التي تبعد عنا كلما حاولنا الإمساك بها.

وَكانَت في حَياتِكَ لي عِظاتٌ وَأَنتَ اليَومَ أَوعَظُ مِنكَ حَيّا

يرحل هكذا ونظل يتامى صغارا بعده، أخذ منا ملامح الطفولة؛ لنبقى على مشارف قبره نرسم ألعابنا بذاك الطين المعفر به.

تهبط كل شواهد الرّاحل، إلا قبره يكبر كل يوم في عيني.. يتعالى يتعالى حتى ينتصب أمامي كوجه يخبرني أنني لازلت طفلا بحضوره.

أكملَ قهوة الصباح.. أغلقَ مواعيده..كان ميعاده مع الله لم يتأخر.

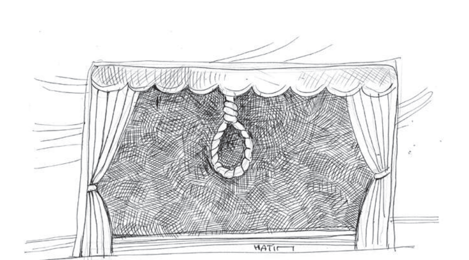
هذه المرة اختار أن يكتب بضميره هو بعيدا عن الغائب؛ فهناك من الفجائع مالا تتسع له الضمائر.

إيه يــــا والدي الكريم سلام يتلقاك مــــن أعــــالي الجنان

◆◆◆

23

دراما



ليس هو فحسب من يجد نفسه في المناشط الحرة خارج إطار التعليم النظامي، بل الكثيرون من الشباب هم كذلك.

لم يكن أحد يومها يتحدث عن ذلك العمل الشبابي بلغة الاتهام والريبة، كما حدث بعد على خلفية أحداث العنف العالمي ثم المحلي، والتي فتحت أبوابًا واسعة لمقاربة الأسباب، من حياديين منصفين همهم الحقيقة، ومن منحازين همهم جر نواصي مخالفيهم إلى المقاصل والمحاكمات الصورية.

النشاط اللامنهجي جزء من الحضانة التربوية ذات التأثير البالغ، مما يهيئ فرصة للإبداع بعيدًا عن الأجواء المقيدة بالروتين والعادة، أما أولئك الذين يتميزون بالشخصية الحادة، أو الفكر الضيق، أو النفسية المتطرفة فهم لا يتكيفون معه ولا يستسيغون برامجه، لكنه يظل جزءًا

من النظام التعليمي ينساق إليه غالب الطلبة ممن انتموا إلى المدرسة أو الجامعة لفترات تطول أو تقصر.

وغير بعيد عن الحقيقة أن جزءًا من هذا النشاط الحركي كان مدروسًا ومنظمًا بشكل أو بآخر، من حيث يعلم أناس ولا يعلم آخرون، وقد تسيطر عليه في بعض مواقعه مجموعة إسلامية أو أخرى منافسة، وتوظفه لتأهيل شبابها، وإعداد رجالها، ومنحهم خبرات قيادية وإدارية، فالأطياف الفكرية والحركية في المجتمع تتنافس لكسب الصوت والقوة، وهذه المناشط أحد أوجه المنافسة.

وهم في النهاية طلبة في الكلية، ليسوا طارئين من خارجها، ووجودهم هنا حق شخصي لهم، شريطة ألا يحرم منه غيرهم، وألا يوظف لغير أهدافه المعلنة.

الفتى مشارك فاعل في النشاط، ومتحمس لبرامجه، يتدرب على إلقاء الشعر الفصيح الذي اعتاد على نظمه ومحاولته، وأمام حفل كبير يشهده مدير الجامعة د.عبد الله التركي، والذي رآه لأول مرة.

الأستاذ محمد الشيبان يدربه على الإلقاء، ويقدم له الملحوظات، ويعيد بعض المقاطع الشعرية بطريقة مختلفة وجذابة..

وتمكن أخيرًا من الوقوف أمام الحفل شاعرًا..

في بلاد الأفغان جرحٌ عميقٌ	نازفٌ يستجيش كلَّ ضميرِ
وبمسرى الرسول مليونُ جُرحٍ	وبكل الدُّنَا نِدا مُستجيرِ..

إنه مشهد مكرر، ولكنه معبر، تعداد مآسي الأمة ومعاناتها، وكأن الحديث عن المعاناة هدف بذاته..

هكذا القوم إلى اليوم!

ومرة أخرى يشارك في حفل مسرحي، ويؤدي دور شاعرٍ يعتذر بين

يدي الخليفة عن فعلته، وقد رأى الموت بعينيه:

أرى الموت بين السيف والنَّطْع كامنًا ... يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأكبر ظني أنك اليــــوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يُفْلِتُ؟!
وأي امرئ يأتي بعذرٍ وحُجَّـةٍ ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ؟!
وما جَزَعِي من أن أموتَ، وإنني ... لأعلم أن الموت حتمٌ مُؤَقَّتُ
يعز على الأوس بن تغلب موقف ... يسل عليَّ السيفَ فيه وأسكتُ!
ولكن خلفي صبية قـد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتتُ..
فإن عشتُ عاشوا هانئين بغبطةٍ ... أذود الرَّدَى عنهم، وإن مت مَوَّتُوا
فكم قائلٍ: لا يبعد الله روحـه! ... وآخر جذلانٌ يُسَرُّ ويشمتُ..

إنه الطبع الإنساني في المواقف الصعبة، أن يستحضر المأزوم أحوال الناس إزاءه، وكأنه ينتظر تغير الحال ليكافئ هذا وذاك.
محمد بن داود بن الجراح كان وزيرًا صالحًا لبعض بني العباس مع ابن المعتز والقاضي إسماعيل، وحينما علم الطبري بتوليتهم قال: هذا أمر لا يتم!
لقد عرف بخبرته التاريخية أن الزمان غير زمانهم، وأن صلاحهم ونزاهتهم لن تشفع لهم بالبقاء؛ لأن الزمان في إدبار!
ونُكِبَ محمد بن داود، وقال وهو في طريقه إلى الموت:

فمن يكُ عني سائلا لشماتةٍ ... بما نالني أو شامتًا غيرَ سـائلِ
فقد أبرزتْ مني الخطوب ابن حرةٍ ... صبورًا على ضراء تلك الزلازلِ
إذا سُرَّ لم يفرحْ، وليس لنكبةٍ ... إذا نزلت بالخاشع المتضائِلِ

هذا هو معنى تميم بن أوس في اعتذاريته أمام الخليفة الغاضب.
وأخذت خليفتنا (رمضان!) الطالب الجهير الصوت نشوةُ التأثر

بالشعر، والشفقة على العيال، فصاح بنبرة سلطوية: اذهب، فقد غفرت لك الصبوة، وتركتك للصبية.

في سمر ليلي كان الإعداد متفوقًا، والمفاجأة كبيرة، ولأول مرة توقد النيرانٌ على خشبة المسرح، وترتفع ألسنتها حتى يداعب الحاضرين والناظرين، بل المشرفين قلق؛ خشية أن يكون حدث مكروه، أو أن الزمام قد انفلت، فاللهب يتصاعد، والمحيط قابل للاحتراق من شراره.

الجميع مشدودون إلى مشهد «الطفل المؤمن»، وقصة الراهب والساحر في صراعهما على النشء، وحادثة أصحاب الأخدود وما فيها من معنى الصبر والثبات أمام الفتنة « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ..» [البروج: ٤- ٩].

العدوان على حرية الإنسان في تدينه وعبوديته لربه، هو الفعل ذاته الذي عمله أبو جهل، أو حاوله بالنبي صلى الله عليه وسلم، «أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى» [العلق: ٩-١٤].

وهو الفعل ذاته الذي كانت الحكومات الشيوعية والبعثية في عدد من بلاد العالم تمارسه بقسوة وعنف ضد المؤمنين..

المشهد على الخشبة يرتبط في ذهن المشاهد بعددٍ من حالات العدوان الواقعية على حرية التدين في الأرض، والأرض الإسلامية خاصة.

كان المشهد مؤثرًا وحيًّا، ولا يزال الذين حضروا تلك الأمسية يستعيدون ذكراها بإعجاب.

هي شاهد فقط على إمكانية توظيف الدراما والعمل المسرحي الهادف في بناء القيم والأخلاق، في بناء الإنسان.

وليس الإلقاء والحديث المباشر هو الأسلوب الوحيد في التواصل مع الآخرين.

لم يكن وقتها سمع جدلًا حول هذا اللون من التعبير المؤثر، بيد أنه وجد اختلافًا فقهيًا بين من يرى هذا كذبًا ومجافاة للحقيقة والواقع، وبين من يرى أنه لا يعدو كونه حكاية وضرب مثلٍ.

حين حاور الفتى ابنَ باز كان واضحًا في تحريمه، بل تحريم القصص الخيالية لأنها كذب.

عرف أن ابن سعدي يجيز التمثيل وسمع من شيخه ابن عثيمين تلميذ السعدي مثل ذلك.

وقد أخذته حالة من التأثر حين رأى بعينه مشهدًا تاريخيًا في حفل مركز صيفي وقال: إن مثل هذا المشهد أنفع من كذا، درسًا ومحاضرة. وظل الغيورون يلحون على الشيخ، ويذكِّرونه بما قد يترتب على هذا الرأي حتى ضيقه بالكثير من الشروط والضوابط، وإن كان لم ينتقل عنه.

وهذا ما يذهب إليه الكثير من علماء الأمصار وفقهائها..

التمثيل لم يعد مشهدًا في كلية أو نشاط مدرسي، ولم يكن كذلك، فهو صناعة عالمية هائلة واسعة التأثير، وإلغاؤه من الحساب الإسلامي لا يعني إلغاء تأثيره الضخم على الشعوب والأجيال.

ولا حرج أن يختلف الناس في موقفهم منه إذا ظل اختلافًا فقهيًا علميًا يقوم على التعاذر وحسن الظن، ومنع العوام من الدخول فيما ليس من شأنهم، لكنه مؤلم حين يتحول إلى تصنيف واصطفاف، وتراشق بالتهم وتحميل للأقوال بما لا تحتمل.

الحديث عن التمثيل والنشيد أصبح فيصلًا في نظر بعض القوم بين اتجاه

إسلامي (إخواني) يقبله، واتجاه إسلامي (سلفي) يرفضه..

والحجة في الرفض أن وسائل الدعوة توقيفية وتعبدية، فلا يجوز ابتكار وسيلة جديدة!

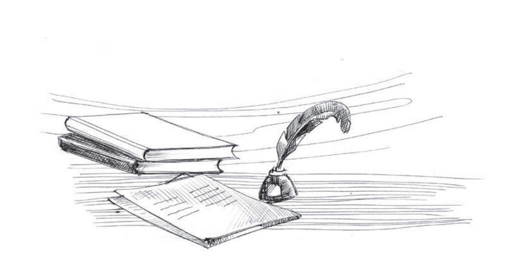
وهذا معناه أن العمل قد يكون مباحًا، لكن إذا صحبته النية الصالحة تحول إلى محرم!

ذلك المنشط مجال خصب لممارسة الحق الحركي في المجتمع، وتعبير طبيعي عن إرادة الأجيال، والمهم أن يبقى الناس فيها وفي المجتمع في أجواء التعددية والاختلاف الإيجابي بعيدًا عن الاحتكار والإقصاء، وإذا عادت الذكرى لتلك الأيام صار يهمس في أولئك المتفرقين بمقولة الإمام مالك: «كلانا على خير وبر، وليس ما أنت فيه بخير مما أنا فيه» يقولها في الساحة الأكبر -ساحة المجتمع والحياة والمعرفة: «كلكم على خير وبر.. كلكم على خير وبر».



24

العودة.. معلمًا



ها هي الأيام الحبلى بكل جديد وطارف، تركض إلى حيث لا يعلم إلا الله، السنوات تنقضي، والرتابة المملة في المدرسة تجعل الطالب ينظر دائمًا في اللوحة الإرشادية، ويتحسس كم بقي له على محطة الوصول، وإن كان الطريق طويلًا فإنه يعد بيده مسافة ما بينه وبين أقرب نقطة.

يتخيل اليوم الذي يجيء وقد انتهى من عناء الدراسة، وتحول من تلميذ إلى شيء آخر.. حلمه الأول هو التعليم والتربية، فهو يحب أن يعود معلمًا للمكان الذي يكره أن يكون فيه طالبًا.

سنة دراسية أولى في كلية اللغة العربية، لا جرم فهو يحب اللغة ويميل لدراستها.

وثلاث سنوات تالية في كلية الشريعة، فهو يحب الشريعة أيضًا، ويميل للقراءات الفقهية والحديثية.

بدأت السنة الرابعة في كلية الشريعة، وبدأت معها أحاديث الطلبة عن التخرج والتعيين، ليس ثمة مشكلة في الوظيفة، فجميعهم يقولون إن الشريعة هي الأفضل بين كليات الجامعة، ومعظم الموظفين الكبار منها، لكن شجو الطلاب كان كثيرًا، والشجى يبعث الشجى، وصاحبنا يحدث نفسه عن أمانٍ عريضة كبار.. والإعادة قد تكون إحداها.

أن تكون معيدًا فمعناه أن أمامك فرصة لمواصلة برنامج الماجستير والدكتوراه، ومن ثم التدريس في الجامعة ذاتها، والذين يظفرون بهذه الفرصة قلائل يعدون على أصابع اليد الواحدة، وهو سيكون منهم، لأكثر من سبب، فالمعدل يسمح بذلك، والمشاركة في الأنشطة، والصلة الجيدة بالعمادة ممثلة في العميد الشيخ صالح المنصور، والوكيل الشيخ صالح الخزيم.

وإذا لم يقبل الإعادة فسيكون قاضيًا لا محالة، وطلاب الشريعة يتحاشون القضاء؛ لأنهم يدرسون في مقرر الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِى الْجَنَّةِ».

فهمهم أن الثلثين في النار، والثلث في الجنة، وربما عزوا هذا بتنصل بعض أئمة السلف من القضاء واعتذارهم عنه.

وآخرون كانوا يتهامسون بأن ثمة أنظمة تتسلل إلى القضاء وتعكر صفوه وصفاءه، فالهرب الهرب!

لقد أدرك هذا الخريج أنها فكرة سلبية، وأن الناس لا بد لهم من قضاء، وإذا تخلى القادرون فسيتولى من هو أقل قدرة وكفاءة، وعرف أنها لك أو لأخيك أو..

كان فهمه أن الحديث لا يعني القسمة العددية، بقدر ما يعني الفرز الوصفي، بمعنى أن القاضي العالم العادل في الجنة، والقاضي الذي يحكم بجهل في النار، والذي يحكم بظلم في النار، فهما صنفان مقابل

صنف واحد، وهي قسمة ثلاثية حاصرة، وربما كان كثير من القضاة هم من الصنف الأول.

وفي تاريخ السلف أعداد كبيرة من أهل العلم ولوا القضاء في كل مذهب.

بمثل هذا تمكن الخريج الجديد من إقناع أحد أصدقائه بالانخراط في السلك الذي تحاشاه وأمعن في الهرب منه تحت ذريعة « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ» [البقرة: من الآية ٦٠] «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» [الصافات: ١٦٤].

هو يعرف أن القضاء منصب شرعي مهم، ووسيلة لأداء الحقوق وحفظ الواجبات فيحتاج إلى القوي الأمين، لكنه شخصيًا لم ير نفسه ملائمًا لهذا، ولذا رغب عنه، وإن كان يحث غيره عليه.

لم يتدرب جيدًا كيف يقول «لا» بصراحة، وأنصاف الوعود التي يمنحها الآخرين تتحول إلى وعود قطعية هي جزء من شخصيته!

هروبًا من القضاء وسيفه المصلت قَبِلَ بالإعادة ضمن مجموعة من الطلبة حتى تم له ذلك، ثم اعتذر عن الإعادة وتحول للتدريس، ليظل أربع سنوات مدرسًا في معهد بريدة العلمي الذي تخرج منه.

ثم يعود بعدها للإعادة ومواصلة الدراسة العليا.

إنها فكرة جيدة، أن يقضي الخريج بضع سنوات في التعليم بعد الجامعة، ويكتسب خبرة ودراية، ويؤدي حق المنشأة التي حضنته في أهم وأثمن فترات عمره، ثم يواصل طموحه العلمي والوظيفي.

ولا مشكلة في التعيين؛ إذ إن المعاهد العلمية تفتقر إلى الأساتذة الوطنيين الذين يشاركون الإخوة المتعاقدين، فيتعين الخريج فورًا في المدينة التي يختارها عادة.

عاد إلى معهده الذي اكتسب شهرة في كثرة الطلبة وتفاوتهم، وفي العبث واللعب والمقالب التي يعملها الطلبة لزملائهم أو لأساتذتهم أحيانًا،

فنجاح المدرس في المعهد أشبه بالمعجزة، والنجاح هنا يعني القدرة على ضبط الطلبة، وألا يتحول الأستاذ إلى أضحوكة يتندر بها، أو يفقد السيطرة على الفصل، فالفصل الواحد -ربما- يتحول إلى مدرسة للمشاغبين، والسابق منهم يعطف على اللاحق بخبرته في ضروب المشاكسة وألوان الإيذاء.

وإذا كانت الشجاعة في إحدى تجلياتها هي القدرة على أن تجعل من نفسك أضحوكة، فهذا هو النوع النادر أو عديم المثال في تلك المرحلة.

المثل يضرب بأساتذة يسجلون حضورًا قويًا يضطر الطلاب أمامه إلى لزوم الصمت، أو التربص بانتظار الفرصة المواتية، وإعادة الفوضى جذعة كلما هرمت وماتت.

انضم هذا الخريج الجديد إلى قافلة المدرسين جنبًا إلى جنب مع شيوخه الكبار الذين تتلمذ عليهم وأخذ عنهم ونظر إليهم بإجلال وإكبار، والهم الأكبر لديه هو أن يحافظ على هيبته أمام فصل يستوعب أكثر من خمسين طالبًا، بعضهم كبار يخافهم، وبعضهم صغار يشفق عليهم، وهو حديث العهد بالتدريس، وللتو تعين في هذا المعهد العريق.

كان يعد كل حركة في الفصل بالون اختبار، فصرير الكرسي أو الطاولة والالتفات والتلثم والكتابة والصوت.. كلها أدوات طلابية لفحص قدرة المدرس وهيبته، فلا بد من الحزم في مواجهة الأمور من بداياتها.. هكذا يحدث هذا المعلم الجديد نفسه.

ليس ثمة أكثر تعبًا في الحياة من مثل هذا الإحساس، أن تشعر أنك في ميدان معركة ترقب حركات الآخرين وترصدها بحذر وتحمّلها أكثر مما تحتمل من الدلالات، وتحترس من الناس بسوء الظن، كما يرشد إليه الحديث الضعيف المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

يفلح الأستاذ هنا في فرض الهيبة وزرع الخوف وإكراه الطلاب على الصمت، ولكن النجاح الحق ليس هذا، بل في اكتساب محبة الطلاب وثقتهم، والصلة الحميمية بهم، والتأثير في سلوكهم وصياغة شخصياتهم.

ولا ينسى أبدًا ذلك الموقف، حين استدعى أحد الطلبة بعد الفسحة معاتبًا إياه على إهمال الواجب الوظيفي لمادة النحو، لينفجر الطالب باكيًا. بعد ما هدّأه وطمأنه.. عرف أن والده يشرب الخمرة، ويقلب البيت الهادئ رأسًا على عقب، منزل ليس فيه سوى بُنَيَّات في عمر الزهور، وهذا الفتى الصغير بمقام رب الأسرة البديل، وقد ناء بالحمل وتبرم بالمعاناة، واستثقل التبعة بعدما تخلى عنها صاحبها أو كاد.

الإفراط في السلطوية على المتعلمين أو الموظفين، وافتراض أن باحة العمل جبهة صراع يفقد العملية الحياتية والتعليمية روحها، ويحول النفوس الإنسانية إلى آلات جامدة صماء، ويدمر أجمل ما في الحياة: الرحمة والمحبة والعاطفة التي هي اللحمة والرابطة الجامعة للناس.

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» [آل عمران: ١٥٩].

الرحمة تجمع، والفظاظة تفرق.

لماذا إذًا كان الأستاذ هكذا؟

كان يحس بأن المعلم في معركة الدرس بين أمرين: إما قاتل أو مقتول.

هل لحداثة التجربة والخوف الذي يدافعه بأن يزرع الخوف لدى الطرف الآخر أثر في بث هذا المعنى، وفكرة الحرب، والحرب النفسية!

أو لأننا نسمع قصص الإشادة والإطراء تكال لشيوخ وأساتذة زرعوا

الهيبة في نفوس الطلاب. الأستاذ فلان دخل الفصل فتجمد الطلاب على هيئتهم، حتى الجالس على الطاولة لم يستطع أن ينزل إلى الكرسي، والطالب الضخم ترتعد فرائصه أمامه، ويرتجف ولا يتحدث إلا متلعثمًا..

أو لعدم وضوح الهدف في العمل التعليمي، حتى لا يحس الأستاذ بأنه جزء من منظومة شاملة تستهدف تخريج جيل مؤهل للعمل والحياة والبناء.

الذي يحدث انفصال بين طرفي العملية: الأستاذ والطالب، أنتج فتورًا في العلاقة، وربما كرهًا أو بغضًا وعراكًا نفسيًا، وشعورًا بالتحدي، وتبادلًا للتهم، فعند الأستاذ أن الطالب مهمل وعابث وغير جاد، وعند الطالب أن الأستاذ معقد ومتشدد، ولا يتفهم الظروف والنفسيات، والعملية التعليمية تفشل حينما تتحول من تبادل المنافع، ودعم المعرفة إلى تبادل التهم ودعم الصراع.

الفسحة فرصة للغيبة، فالأساتذة يغتابون الطلاب، ويقدمون الملحوظات، والطلاب يسخرون من حركات الأساتذة وكلماتهم وما يعدونه من أخطائهم، وليس كل غيبة مذمومة فصاحبنا يبرر هذا الخطأ بما قرأه عن الإمام النووي في شرح مسلم، وما زاده الإمام الشوكاني عليه في الحالات الست التي تجوز فيها الغيبة، بيد أن التفريق بين دائرة الحلال والحرام بحسب المقصد والنية، وما يترتب على الأمر من المصلحة أو المفسدة.

هناك القصائد الساخرة التي نظمها الطالب في أساتذته واستعرضهم واحدًا واحدًا، ورسم لكل منهم صورة أشبه بالكاريكاتور، حتى قصيدة شوقي «قُمْ للمُعَلِّم وفِّه التبجيلا» أصبحت قصيدة المعارضات لكثرة من عارضها وخالفَها، وهي قصيدة يتضاحك منها الطلاب.

ليس غريبًا أن يحدث شيء من هذا وقد أصبح التعليم إلزاميًا للجميع،

وانتظم في سلكه المؤهلين وغير المؤهلين، هو يحتاج إلى دراسة جادة للعملية بحذافيرها، على نمط الدراسة الأمريكية الشهيرة «أمة معرضة للخطر»، فالأمة في قلب الخطر ولا تحتمل المزيد من الأخطاء والإخفاقات، والتعليم أداة معرفة إنسانية إسلامية، أصلها ثابت في جذور الأرض وفرعها سابح في هواء السماء.

عمل مقدس، ووراثة نبوية «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ» [آل عمران: ٧٩].

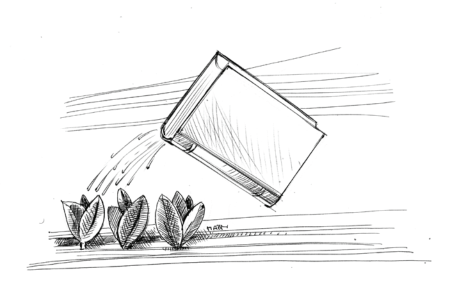
وإذا كنا «ربانيين» حققنا عودة التعليم السليم، ورأينا العلم عائدًا إلى كنف الحب والمعرفة والقوة، والتنمية الشاملة المستدامة.

◆◆◆

25

الفلّاح الجديد

◆



رجع الشاب إلى معهده ولكن بوجه آخر؛ هو الآن يحمل كتاب المعلم بعد أن كان يحمل كتاب الطالب، وحين عاد إلى معهده، أصبح زميلًا لأساتذته الذين تخرج عليهم، وهو جديد على الصنعة، ولذا فقد كان يبادر فور سماع الجرس ذاهبًا إلى الفصل، فتنقلب ساعات الشرح إلى شريط لا يعطب، وحديث لا يتوقف، وقد يأخذ جزءًا من الفسحة لإكمال الشرح، ويأتي ما بين حصة وأخرى حاملًا معه دفاتر الواجب لتصحيحها، وربما انعزل عن لغط الحديث ليتفرغ لهذه المهمة، يحس برسالية مفرطة، وبقدر زائد من أداء الواجب، والأستاذ عبد العزيز العدوان يلحظه مبتسمًا ويقول: بشر الزرع بفلّاح جديد!

لا غرابة فكلهم فلاحون ذوو خبرة يلتقطون المعنى ويوظفونه، والتعليم

حرث للعقول وغرس للأفكار والقيم والمعلومات، المثل لم يكن غريبًا عن السياق!

كل الفلاحين الجدد يبالغون في أداء الأمانة؛ فهم يحسون أن الحياة بدونهم ستتوقف!

تقلب -صاحبنا- على معظم التخصصات، فليس ثمة متخصصون، درّس المواد الشرعية، واللغة العربية، والتاريخ والمذاهب، .. وتنقل بين جميع الفصول من الأولى متوسط إلى الثالث الثانوي؛ المعهد ست سنوات بمبنى واحد وإدارة واحدة.

طلاب المتوسط لم يعودوا كالسابق، أصبحوا صغارًا في سن طلاب المتوسطات الأخرى، ينتمون غالبًا لأسر محافظة اختارت التعليم الشرعي، وأحيانًا طمعًا في المرتب الشهري للطالب، وتطلعًا لمستقبل وظيفي أفضل، وحرصًا على الجو الديني والتربية العلمية في معهد يتولى التدريس فيه منذ أنشئ عدد من العلماء الشرعيين المعروفين في البلد كالشيخ البليهي، والشيخ الضالع، والشيخ محمد المرشد الذي تولى إدارته، والشيخ صالح السكيتي، والشيخ محمد الراشد، ثم تعاقب عليه من خريجي كلية الشريعة واللغة نخبة من أفاضل الأساتذة تحصيلًا وخلقًا.

لا غرابة إذًا أن يكون طلاب المعهد يربون على الألف، وأن يحشر في الفصل الواحد ستون طالبًا، وأن تعمل الوساطات والعلاقات عملها في قبول بعض الطلبة بصفة استثنائية، وأن يتعرض المتقدم لامتحان عسير قبل قرار قبوله طالبًا في المعهد!

درّس التعبير أو الإنشاء، ولا ينسى هذه المادة لأهميتها في التكوين الثقافي للطالب، وفي التدريب على الإلقاء ومواجهة الجمهور، ومع أن المادة لا تحتاج إلى تحضير، وبعض زملائه يفضلونها لهذه المزية، إلا أنها شديدة

التأثير في توجيه الطالب إلى القراءة الحرة والكتابة والتفكير، وهي كانت البداية الأولى للعديد من البارزين في ميدان الأدب والمعرفة، وبواسطتها أحكم علاقته مع طلبة أصبحوا مرموقين كالدكتور (عبد العزيز الفوزان) والدكتور (صالح التويجري).

درّس المطالعة في كتاب (مع الرعيل الأول) لمحب الدين الخطيب، (والنظرات) للمنفلوطي، وهي الأخرى في نظر بعضهم مادة استرخاء، بينما يحولها بعض الأساتذة بجديتهم إلى مادة دسمة ومتنوعة وخفيفة على الطالب؛ حيث لا يقلق من كوابيس الاختبار فيها، ولكن يتعلم كيف يقرأ ويدرّب لسانه على مراعاة قواعد الإعراب، ويتعرف على الأعلام والمواقع الجغرافية وغيرها.

درّس النحو وألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل لطلاب الثانوية، ومقرر النحو للمتوسطة الذي صيغ بطريقة حديثة، وتمرينات، وقواعد وأسئلة، وهو من أكثر المواد ثقلًا؛ إذ يتكرر يوميًا، وربما حصتين في اليوم، مع جفافه وتعسر فهمه، والأحلام المزعجة في الإخفاق والفشل، وكلهم يتحدثون عن طلاب أخفقوا سنة بعد أخرى حتى تركوا الدراسة، أو تم طردهم من المعهد بسبب عقبة النحو.

وحين زارهم وفد من معهد الرياض كان أحد الطلبة يردد قصيدة شعبية تحمل هذا المعنى:

نحوت النحو، والنحو نحـاني حتمًا أجفـاه كـمـا جفـاني

غير مبالٍ بسيبويه ولا بالكسائي!

فلسفته في الحياة قراءة الوجه الإيجابي، حتى الفشل له وجه إيجابي، ذلك الطالب الذي تكرر رسوبه في النحو حتى أصبح رجلاً، كان يستثمر وجوده في إدارة المقصف، ليتحول إلى تاجر، وليمنح زملاءه درسًا في

البحث عن الفرصة المواتية.

درّس المذاهب المعاصرة والملل والنحل، وشرح النصرانية واليهودية والشيوعية والوجودية والماسونية.. وكتب فيها مذكرات؛ حيث كان بعض الشيوخ في المعهد يقرؤون لابن تيمية، ويعرفون المذاهب التي عرضها وفند أقوالها من المعتزلة وغيرهم، ولكنهم يعترفون بأنهم لا يعرفون المذاهب المعاصرة، وبعضهم يقول:

هذه يعرفها مناع القطان.. هو (أبخص) منا بها.

منهج المذاهب مقرر على الصف الثالث ثانوي، أي على المرحلة الأخيرة؛ حيث الطلاب في مرحلة النضج، وقد استوعب الكثير منهم المادة بشكل جيد، كما أن الأستاذ تفاعل معها وأحبها؛ لأنها تلبي حاجة في نفسه، وإحساسًا عميقًا بالحاجة إلى المواجهة بطريقة أو أخرى مع العصر وأطروحاته.

في الاختبار يبدو أنه لم يحسن التقدير؛ حيث جاءت الأسئلة مطولة، وتضجر الطلاب، وارتفع الهمس مما جعله يبادر بالانصراف لئلا يدخل في مواجهة معهم، ولكنه بعث إليهم بتطمينات تتعلق بالتصحيح والدرجات، وهكذا كان!

درّس التاريخ الأموي، واكتشف أن التاريخ كأحداث وتفصيلات ليس من شأنه، إذ يصعب عليه حفظ الأرقام والتسلسل الزمني، ولا يأنس بسرد الوقائع، لكنه يحب التاريخ من حيث هو قراءة للناموس الإلهي في قيام الدول وسقوطها، وبناء الحضارات وانهيارها، والتقاط العبرة والتجربة من الأحداث، ولذا أعجبته المدونة التي جمعت العديد من الدراسات القديمة والحديثة في شأن التاريخ، ومنها (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ).

وكما قيل:

ومن وعى التاريخ في صـــــدره أضـــاف أعمارًا إلى عمـــــــره

وشوقي يقول:

مَثَلُ القَومِ نَسوا تاريخَهُم كَلَقيطٍ عيَّ في الناسِ انتِسابا
أَو كَمَغلوبٍ عَـــلى ذاكِــــرَةٍ يَشتَكي مِن صِلَةِ الماضي انقِضابا

وكان يحفظ للأستاذ وليد الأعظمي ويردد:

إذا قامت الدنيا تعد مفاخرًا فتاريخنا الوضاح من بدر ابتدا

ويتساءل: هل هذا يعني إغماض العين عن تاريخ الإنسانية بما فيه من عبر وأحداث وإيجابيات ومعان تقتبس، وما فيه من نكسات ومآسٍ وانحرافات يجدر ألا يعيد التاريخ فيها نفسه؟

واهتم وقتها بالحراك الكتابي حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، والتي قرأ حولها أول ما قرأ (في التاريخ فكرة ومنهاج) لسيد قطب.

كما وجد للدكتور يوسف العش كتبًا حول الدولة الأموية والعباسية وأفاد منها.

التاريخ الذي نقرؤه ونكتبه وندرّسه هو غالبًا التاريخ السياسي فحسب، والحياة أوسع بكثير من السياسة، وإن كانت السياسة نافذة في القرار، وذات ثراء، تخشى بوادرها، ويؤمل عطاؤها، ولذا تكثر المواهب في دهاليزها.

أدرك أنه يكره التاريخ أرقامًا ومؤامرات وأحداثًا مجردة، ويهتم بالتاريخ لأنه عمق الواقع وسببه وتفسيره، القراءة التاريخية وفرت له فهماً أفضل لأوضاع طالت حيرته فيها.

درّس التفسير وأحبه ولا زال، وتعجب أن يدرّس صغار الطلبة في

المتوسط والثانوي: آيات الأحكام، على طريقة ما كتبه أبو بكر بن العربي والقرطبي!

هل الأحكام هي أهم ما يحتاجه طالب بهذا السن حتى تستل الآيات المتعلقة بها ويترك ما قبلها وبعدها في السياق القرآني، مما يتعلق بالتعريف بالله سبحانه، أو غرس المعاني الإيمانية في القلوب، أو القصص التي فيها العبرة و الاتعاظ، أو الوعد والوعيد، أو التأمل في الكون وآياته، والنفس وخلجاتها؟ إنها مشكلة المعرفة الأكاديمية التي تغفل عن التربية والبناء، وليس يقدر المرء على استجلاء مقاصد القرآن واستلهام هدايته إلا إذا قرأه كما أنزل.

يجد من يقرأ كتب التفسير في أحدها اللغة والإعراب، وفي آخر البلاغة والبيان، وفي ثالث الفقه والحلال والحرام، وفي رابع الإشارات الصوفية، أو كما قيل في تفسير طنطاوي جوهري، أو مفاتيح الغيب للرازي: «فيه كل شيء إلا التفسير»!

ولا عتب على التنوع في المعالجة والاهتمام، بيد أن تدريس الطالب يحسن أن يكون للقرآن، تلاوة وضبطًا وتجويدًا وفهمًا وتدبرًا، ليسهم النص في صياغة فكره وعقله وقلبه وحياته، ولتكون صلته به دائمة بلا انقطاع.

درّس الحديث، وشرح (عمدة الأحكام) للمقدسي، وهي الأخرى أحاديث مختارة في الأحكام التي قرؤوها في التفسير، وقرؤوها في الفقه، وها هم يعودون أدراجهم إليها في الحديث.

لا يجد غرابة بعد هذا أن يكون تفكيرنا منصبًا على الفروع أكثر منه على الأصول، وأن تكون التفصيلات الفقهية والجزئيات الفرعية هي المادة المفضلة لدرسنا وحديثنا وتأليفنا وصراعاتنا، وحين يطالبنا أحد بالاعتدال فكأنما يطالبنا بالكف المطلق عن تناولها، وجوابنا التقليدي أننا نهتم بهذا وذاك، وهيهات، فلا العمر ولا الجهد ولا النظام العقلي

الذي تربينا عليه يسعف بتحقيق هذا التمني في الاهتمام الشمولي بكل شيء.

هو مدين لهؤلاء الذين درَّسهم، فكم من فتى منهم ارتسم في ذاكرته وحباه عطفه ووده، وأنس به، وحاول أن يؤثر في حياته بطريقة أو بأخرى.

وكم من موقف طريف أو محزن، أو تجربة تكبر أو تصغر، أو مشاركة في عمل أو نشاط منحته سلوة أو خبرة، حتى أولئك العابثون من الطلبة بعفوية، أو بدافع التنفيس عن مكنون داخلي، أو تجاوبا مع نزق الشباب وغرارة الصبا.. لا يستحقون كل تلك القسوة... فيا لجمال الشبيبة وحلاوة أيامها!

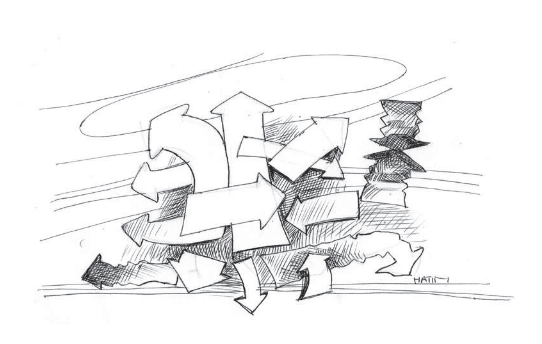
شباب ذللوا سبل المعالي	وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهـــــم فأنبتهـــــم نباتًا	كريمًا طاب في الدنيا غصونا
هم وردوا الحياض مباركات	فسالت عندهم ماء معينا
ولم يتشدقوا بقشور علـــــم	ولم يتقلبـــــوا في الملـــــحدينا
ولم يتحدثوا في كـــــل أمرٍ	خطير؛ كي يقال مثقفـــــونا!

أربع سنوات حزم بعدها (الفلاّح الجديد) أمتعته، وحمل عصاه على عاتقه، وولى وجهه شطر الدراسة العليا في الجامعة..

◆◆◆

26

تيارات في قلب النزاع



حديث عابر ضمن مسيرة صاحبنا؛ لأنه جزء من الواقع وقريب منه:
في الواقع الثقافي السعودي -آنذاك- أناس هم أشبه بالمراسلين للأجواء الثقافية المجاورة، وخاصة مصر، إذ لم يكن لدى المهتمين السعوديين هدف الريادة والتوجيه، وصراعات الفكر في المنطقة الإسلامية تنعكس على الجو السعودي، بمختلف اتجاهاتها، ولكن بدرجة أقل احتدامًا، وبألوان أخف كثافة، فالناصرية تيار سياسي وخطاب حماسي حرك مشاعر العديد من الشباب الذين يعيشون حلم النهضة.
والبعثية، والاشتراكية، والشيوعية على نطاق أضيق، وجدت من يميل إليها أو ينتحلها.
ويتذكر «هو» أنه قرأ تقريرًا نشر في مجلة (الوطن العربي) عن مؤتمر سري للأحزاب اليسارية، يتحدث عن تمثيل سعودي، وأسماء لا

يذكرها، وبغض النظر عن قيمة هذا التقرير أو دقته، إلا أنه مثال على جو الصراع الحركي؛ السري منه والعلني الذي اشترك فيه الكثيرون آنذاك، وكبر عليه الصغار في ذاك اليوم.

أما الأحاديث الخاصة فهي مستفيضة ومفصلة عن التنظيمات القومية والاشتراكية، وعن رموزها ومؤسساتها الثقافية، وغطاءاتها الرسمية أحيانًا.

هناك تختلط الحقائق -وهي موجودة ولابد- بالظنون والأوهام التي تنتمي إلى نظرية المؤامرة، بالاحتمالات الرمادية التي هي بين بين..

كانت الحكومة في حالة ترقب وإلى حد ما حرب مفتوحة مع القوى التي تمثل النقيض السياسي، وتبعًا لذلك النقيض الديني، ولذا تبدو هذه التيارات في حالة عداء مع الرموز الدينية في المجتمع أيًّا كانت.

في الطرف الآخر تعمل التيارات الإسلامية في جو ملتبس، فهي محل ترحيب من حيث إنها إسلامية، وهي بهذا تتفق مع الإطار الذي تعمل من خلاله السلطة، ومع حركة (التضامن الإسلامي) التي رفع لواءها الملك فيصل، ولقيت صدى قويًا، حتى كتب الشيخ أبو الأعلى المودودي كتيبًا يشيد فيه بهذه الخطوة، وهو زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان -أقوى التيارات الحركية الإسلامية هناك- فضلًا عن نفوذه الفكري في التيارات الإسلامية في المنطقة العربية.

واستضافت المملكة عددًا كبيرًا من الإسلاميين، من مصر، ثم من الشام حين كانوا في حالة صدام مع أنظمة دولهم، وكان جلهم في حقل التعليم من مدارس وجامعات.

فضلًا عن الحفاوة الفكرية والإعلامية بالكتب والمؤلفات والإنتاج العلمي لشخصيات إسلامية تنتمي في حالات كثيرة لجماعة (الإخوان المسلمين)؛ حيث كانت توزع كتبهم ورسائلهم بالمجان

وبكميات ضخمة، وتُبث عبر الإذاعة.

المعهد العلمي محضن تقليدي للمعرفة الشرعية، فلا غرابة أن تكون التيارات الإسلامية هي السمة الغالبة عليه، وأن تكون (جمعية التوعية الإسلامية) ملتقى ثقافيًا يتواصى أفراده بكتب محمد محمود الصواف، وعلي الطنطاوي، ومحمد قطب، إضافة إلى كتب ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب. ومجلات إسلامية كالمجتمع الكويتية والبلاغ والشهاب وحضارة الإسلام، والتربية الإسلامية، بينما في المدرسة الثانوية التابعة لوزارة المعارف تأخر وجود مثل هذا الجو كثيرًا، إذ كانت الأمزجة الأخرى تغلب عليه.

يوم أصبح «هو» مدرسًا في المعهد العلمي كان العراك قد حسم تقريبًا في هذه المدارس وتلك على حد سواء، لصالح التيارات الإسلامية، ليس كتنظيم، بل كتيار عام ينتظم في سلكه الكثيرين ممن لا يتعدى نظرهم وقناعتهم الاهتمام بشؤون المسلمين، ومحاربة التيارات الفكرية المناوئة، والتربية الشرعية، ودعم المشاريع الخيرية.

تبقى آثار تلك التقاطعات مستبطنة في النفوس، يثيرها حوار عابر في الفسحة بين جمع من الأساتذة سرعان ما يدرك أحدهم أنه عرّض نفسه لسوء ظن من محاوريه، أو دخل حقل ألغام دون أن يدري، فيبادر بالتنصل والاعتذار وتفسير الموقف، أو يلوذ آخر بالصمت، ولسان حاله يقول:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُرخي عِمامَتَهُ ... هَذا زَمانُكَ، إِنّي قَد مَضى زَمَني!

الموضوع عادي محتمل للاختلاف، لكن الخلفية الأيديولوجية والتصنيف المسبق لدى الطرفين تُضيّق هامش الحوار، وتنحّي حسن الظن.

قد تبدو تلك الآثار في سقطة عابرة من أستاذ ينقلها طالب بعبثية

لشيخه الذي يشجعه على محاورة الأستاذ ومناكفته، واستدعاء مسائل شخصية تثير قلق الأستاذ وتوجسه.

التيارات الإسلامية، الإخوانية في المقام الأول، والسلفية تبعًا، وجدت متنفسًا وتحالفت عمليًا مع الواقع السياسي والعلمي، إلا أنها تشعر بارتباك إزاء عدم تقبل الناس لأي إطار تنظيمي، وبالتالي فلابد أن يكون الترابط بينها سريًا غير معلن، أو علنيًا مقصورًا على التوافق الفكري فحسب، مع عدم تطابق الرؤية السياسية، التي تتفق على مواجهة الخصم، ولكنها لا تتفق على مسائل أخرى قد تتسع مع الزمن، وتظهر بصفة أكثر وضوحًا.

هل كانت هذه التوجهات تقدم نفسها بديلًا سياسيًّا؟ لا يبدو الأمر كذلك، ولا نظرة جدية بهذا الخصوص، وإن كان الفكر قد يُضيّع الحدود الفاصلة بين الحقيقة والخيال، خاصة حين تحتدم المشاعر، وتتفاقم الأزمات، أو يلوح في الأفق أحيانًا ما يبدو فرصة، وهو برق خلّب:

وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من لاقيت ترضاه منعما!

أمر آخر يتعلق بالمؤسسة الشرعية التي تنتمي للمذهب الحنبلي، وعلى خط ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة، فهي سلفية المعتقد حنبلية المذهب، ولكنها لا تتعصب له كثيرًا، وغالبًا ما تكره الانتساب للسلفية؛ لأنه تزكية للنفس، ورفض للمذاهب الفقهية، وهي علميًا تعتني بحق ولي الأمر في الطاعة بالمعروف، وعمليًا تحاذر الفتنة والاختلاف، وبالتالي لا تأنس بوجود الجماعات، على تفاوت بينها في مقدار الاستمساك بهذه المحددات.

طريف أن المعاهد العلمية ربطت بجامعة الإمام التي حضنت الكثير

من الأساتذة الوافدين من مصر وبلاد الشام، وهي في الوقت ذاته تمثل امتداد المؤسسة الشرعية الرسمية بدءًا من الشيخ محمد بن إبراهيم فمن بعده، وهكذا تتداخل الخيوط، وتختلط الأوراق، وتظهر عملية التأثير التبادلي بين الأطراف، وهي سنة الله في الحياة.

فالمؤسسة الشرعية شهدت تطعيماً بمفاهيم حديثة، وذات جذر سياسي، والتيارات الإسلامية بدأت تتشبع بسلفية المعتقد، متواكبة في ذلك مع الروح السائدة هنا، ومع تأثيراتها المترامية في مصر والشام والعراق والمغرب والهند وغيرها.. وما رشيد رضا والقاسمي والهلالي وبهجة البيطار والسهسواني إلا نماذج لذلك.

هل كان صاحبنا يشهد هذه الصورة ذات البعدين في واقعه القريب؟

إلى حد ما، كان الإسلاميون يشعرون أنهم أصابوا الحسنيين، وليس إحداهما، وجمعوا بين الصفاء العقدي من المشرب السلفي الذي يأخذ النصوص بظاهرها دون تأويل خاصة في باب الأسماء والصفات الإلهية، إذ كان مقرر العقيدة في المعاهد يشمل: كتاب التوحيد للمراحل المتوسطة، ثم لمعة الاعتقاد في الأولى ثانوي، ثم الواسطية والحموية لابن تيمية، وفي الجامعة ينتقل إلى التدمرية، ثم شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، وهو خلاصة جيدة وأمينة لما قرره ابن تيمية وابن القيم.

أما الأخرى فهي اقتباس الأطر التربوية والإدارية من تجربة الحركات الإسلامية في مصر والشام والعراق وغيرها..

والأطر التنظيمية الإسلامية كلما بالغت في إحكام الأسوار على منتسبيها هيأت الأسباب لفكر مغلق قد يُسيء تفسير الكتب الحديثة فضلًا عن نصوص ابن تيمية نفسه، أو حتى نصوص الشريعة بعينها، ويبدأ سوء الظن المتبادل بينها وبين المجتمع من حولها، وكلما ضيقت مجموعة

من دائرتها هيَّأت دون شعور منها لانشقاقات مستقبلية ومشاكسات داخلية حادة!

ومن هنا ظهرت حركات الغلو كالتكفير والهجرة والقطبية وغيرها.. وكانت حالة العنف الرسمي والاستبداد والقسوة الأمنية ومقاصل السجون هي المناخ الذي شجع تلك البذرة على الظهور والانتشار، وصنع النفسية المأزومة المستعدة لتقبل تلك الأفكار، التي بدأت في مصر، وامتدت كحريق انطلق من شرارة صغيرة!

وعلى النقيض كلما اقتربتْ من المجتمع، واندمجتْ معه، وتعاطتْ مع قضاياه، وأحسنتْ الظن به اقتربتْ من الاعتدال والوسطية والواقعية.

والذين يحاصرون التيارات الإسلامية في المجتمع، أو يسوقونها إلى المعتقلات، يدفعونها إلى التطرف، بحرمانها من حقها الطبيعي في الحياة الهادئة!

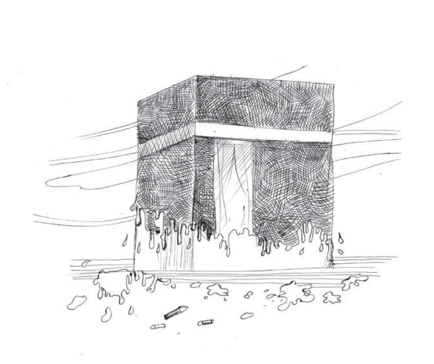
والخطأ طبيعة إنسانية، وكما يخطئ الفرد تخطئ الجماعة، علماً أنه لا يجوز أن نحمّل الجماعة خطأ الفرد، ولا الفرد خطأ الجماعة، و«كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» [الطور: من الآية ٢١].

حق التيارات الإسلامية الطبيعي لا يعني أن تقوم هي بحرمان الآخرين من حقوقهم، إذ إن معيار الشريعة العادل المستقيم: «لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ» [البقرة: من الآية ٢٧٩]



27

فتنة المسجد الحرام



كما الجن حين حاولوا استراق السمع، فوجدوا شهابًا رصدًا ينتظرهم من السماء، وساحوا في الأرض يبحثون عن سبب، حدث لصاحبنا بعد أن أخبره أحد أصدقائه خبرًا عارضًا، أن شيئًا ما قد حدث، وهو أمر جَللٌ يوجب الحيطة، وتجول هو بنفسه بين بريدة وعنيزة والرس والمذنب؛ يتساءل عن الخبر الجديد الذي طرأ وأحدَثَ استنفارات أمنية واضحة، وحين عاد لسيارته (الجمس) وجد زميله الذي يقودها يشير إلى المذياع بيده، ويقول:

«الشر ها هنا»! لقد اقتحمت جماعة مسلّحة الحرم، وانتهكت قدسيته، وسفكت فيه الدم الحرام!

إنها المجموعة التي تنسب نفسها لأهل الحديث والسلفية، وقد شقت لنفسها طريقًا مستقلًا، لا يعترف إلا برأيها الذي تكوّن وطُبخ بسرعة،

فظنه أصحابه نضيجًا، ولعله غرور التدين، ومباشرة العقل الصحراوي غير الواعي الذي يؤثر أن يتعامل مع القضايا المعقدة ببساطة متناهية واختصار شديد ويسخر من أي أطروحة لا يتمكن من استيعابها! كل ذلك مشفوع برؤى متواترة أو متواطئة تؤكده أن محمد بن عبد الله القحطاني هو المهدي المنتظر، ولله الأمر من قبل ومن بعد!

كانت إعصارًا بدأ من المدينة المنورة، على يد بعض المتدينين الجدد الذين أثر فيهم وعظ المشايخ وأبعدهم عن مسالك الغواية الأخلاقية، وبدأ هذا الخط يتلمّس طريقه بقراءات غير مؤصلة في الحديث والإسناد، ويختار من الأقوال ما يتلاءم مع ظاهر النص -حسب عقل ساذج متسرع- دون اعتماد على خلفية راسخة، أو ملكة أصيلة، أو تأسيس متين، ودون تروٍّ أو أناة في النظر والاختيار.

مذهب يميل إلى المباشرة والتبسيط والصرامة والحسم، وهذه صفات تشد الشباب وتجذبهم أول الأمر، وهكذا كان، فالرسائل التي نشرت سرًا عن: البيعة، والجماعة، والطاعة، واتباع الكتاب والسنة؛ فعلت في مجموعات الشباب فعل النار في الهشيم، وقد عكف عليها صاحبنا وقرأها، كان محصّنًا عن تأثيرها ببعض خلفية علمية، وبالركون إلى مدرسة تربوية دعوية سخّر طاقته لها.

زيارات واسعة قام بها المتأثرون بهذا الفكر لزملاء دربهم القديم، ولغيرهم من الناس على سبيل البيان وإقامة الحجة، ومحاولة الإقناع بترك المشايخ ودروسهم التي تعتمد على التعليم المذهبي، وترك الجماعات التي هي عندهم شر وفتنة وحزبية.

الطريف أنهم لا يعتبرون أنفسهم حزبًا جديدًا، ولا يشعرون أنهم أكثر حزبية من غيرهم، فحزبيتهم هي للكتاب والسنة.

الأصدقاء يتحدثون عن احتمالية قدوم أحدهم إلى (بريدة) لتقديم النصيحة.

والرؤى المتواطئة -التي تبشر بظهور المهدي- أصبحت تتداول على نطاق واسع، ويضيف إليها الخيال والتأويل والتوهم ما يجعلها كاليقين القاطع عند أصحابها.. ولذا تتشبع بها النفوس، وتميل إليها العامة.

وقد حدث تسرب كبير من محاضن الدعاة والجماعات لصالح هذه المجموعة الوليدة.

سهولة اعتماد الرأي، واعتباره دينًا لا يُنازع فيه، واتهام من خالفه ولو كان ذا فضل وعلم، حدث في اتهام الشيخ عبد العزيز بن باز بكونه متساهلاً في مخالفة السنة!

كل هذا مع صبره عليهم، وحسن ظنه بهم، وشفاعته لهم مرّاتٍ بالخروج من السجن.

واتهام الشيخ ابن عثيمين، الذي أنسوا به أول الأمر؛ لتحريه الدليل، وسلامته من التعصب المذهبي، ثم استوحشوا حين وجدوه لا يوافقهم على الكثير من استنتاجاتهم، وقد أرسلوا له من يختبره وزودوه بالأسئلة.

وقد زاره صاحبنا في مسجده إبَّان الحادثة، وكان شديد الانزعاج، متخوفًا من فتنة واسعة طويلة المدى.

كان الرمي بالعمالة للأجهزة الأمنية تهمة جاهزة لعزل بعض الذين يشغبون على هذا التوجه، وحرمانهم من مركز التأثير.

انتشار متسارع ومفاجئ، ولا غرابة أن تجد صاحبًا تعرفه فيغيب عنك شهرًا أو شهورًا؛ فتلقاه متغير الحال منغمسًا فيهم، كما لو كان معهم منذ سنين!

أحد الأصدقاء تغيّب لعشرة أيام، ثم رآه صاحبنا في جامع الراشد؛ حيث يحتشد المصلون، ولحظ تغيره؛ فسأله وكان الجواب مفاجئًا.. إنها الطريقة السلفية الحديثة!

فكر مباشر حاد، سريع الاشتعال.. تمامًا كالذي يحدث مع فكر القاعدة وتجنيدها الشباب لمشروعها القتالي، ولم يقتصر الأمر على التأثير المباشر في الأفراد الذين يخضعون للقولبة، والبرمجة وغسيل الأدمغة مع فداحة هذا التأثير وصعوبة تلافيه، بل يتعدى إلى صناعة جو عام، منساق مع الأطروحة، مستسلم لأصلها المبدئي دون أن يدري، وإن كان غير متجاوب دائمًا مع تفاصيلها وجزئياتها..

هذا التراكم يحدث مع الزمن تسليمًا لبعض القول، واعتيادًا على بعض الممارسة، ونقلًا متدرجًا للمجتمع نحو الاختيار الأكثر ضيقًا وإغلاقًا.

مقارنة عابرة بين نمط الشيخ السعدي كما في روايات ابنه وحفيده في (مواقف اجتماعية)، وكما هو ظاهر في اختياراته العلمية في تفسيره وبقية مؤلفاته، ومثله الشيخ عبد العزيز بن باز كما هو مستفيض من سيرته وآرائه الفقهية، ومتضمن في رواية كاتبه الشيخ محمد الموسى، التي صاغها الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد..

مقارنة بين هذه المسالك العلمية والعملية العفوية الهادئة، وبين شخصيات حادة مهيمنة قادت محاولات تصحيحية بتكلف واعتساف، تكشف عن جنوح هذا التيار أو ذاك نحو الاعتدال والتسامح، أو التشديد والصرامة.

صاحبنا حاول أن يقرأ موقف المجتمع السعودي من التشدد، وزعم أن الأمر يمر بأربع مراحل:

مجتمع يصنع التشدد.

ثم يحاربه.

ثم ينتصر عليه.

ثم يستسلم له!

وهذا حدث مع (الإخوان) في (السبلة)، ومع أصحاب حادثة الحرم،

ومع القاعدة، والاستسلام له يعني أن المجتمع بسلطته السياسية والدينية والفكرية بعد ما يهزم التشدد عسكريًا يشعر بأن ثم أناسًا يستبطنون بعض أفكاره التي لا تكون شديدة الجنوح، بل لها نوع من المقبولية، وكأن هؤلاء (خلايا نائمة) فيتبنى بعض هذه الأفكار كنوع من سحب البساط من تحت أولئك المهزومين، وإظهار الأحقية بكل خير وصواب.. وبذلك تتحول بعض أطروحات المتشددين إلى جزء من النسيج الاجتماعي والسياسي يترسخ مع الوقت وتصعب معالجته!

حتى يجد المرء الذي عاش جيلين أن ممارسات اجتماعية عديدة تحولت من عادة متبعة، أو فتوى سائدة إلى أن تكون منبوذة منتقدة، ومن يعتمدها يثير الشكوك والتساؤلات حول نفسه!

الإعصار بطبيعته قوي، ولكنه قصير النفس، وتأثيره لا يعدو مسافة رمية حجر، ولا يحتمل التريث والبطء، وهكذا كان الخط التصاعدي لهذه المجموعة الشبابية مستمرًا حتى تاريخ (١/ ١/ ١٤٠١هـ - ٩/ ١١/ ١٩٨٠م)؛ حيث وقعت الحادثة المرعبة التي جرى تعريفها بأنها قضية (مائة وأحد عشر) بالنظر إلى تاريخها!

حمل السلاح في الحرم، ونزيف الدماء، وتخويف المصلين والراكعين والساجدين على أيدي فئة ذات سيماء إسلامية، ودوافع دينية في ظاهر الأمر، وكما قال -صلى الله عليه وسلم- «وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ»!

عمل شنيع لم تفعله العرب في جاهليتها، وكانت تحامي عن البيت، وتراه عزّها وفخرها وتاريخها، وتتناقل باغتباط صنيع الله بأبرهة الحبشي وجيشه، الذي جاء لهدم الكعبة، وكانت آثار الحادثة ماثلة بمكة؛ إذ وقع الحادث عام ميلاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وكانت الحجارة التي أرسلت عليهم باقية، وكان سائسه أعمى يُقاد بمكة؛ كما روي عن عائشة -رضي الله عنها-، وكانت آثار الفيلة حول مكة باقية.

الذين أقدموا على هذه الفظاعة، هم من كانوا يتورعون عن دقائق المسائل في السلوك الخاص، ويتنـزهون عن بعض المباح!

أحد الذين شاركوا في هذه الفعلة، كان قد أرسل للشيخ ابن باز خطابًا يحتج على تقرير اللغة الإنجليزية في دار الحديث بمكة، قائلًا: إن هذا من الإلحاد في حرم الله!

كم هو ضروري أن يكون المرء واعيًا بنفسه، مدركًا للمؤثرات المباشرة وغير المباشرة على قراراته وتوجهاته، وألا يستغرقه النظر إلى الآخرين، وتصنيف أفعالهم عن النظر لنفسه وملاحظتها، ومعرفة دوافعها ونوازعها الواعية واللاواعية.

أن يكون المرء متسامحًا مع نفسه ومع الآخرين هو شيء حسن، وأن يكون متشددًا مع نفسه متسامحًا مع الآخرين فلا بأس، أما التسامح مع النفس والتشديد على الناس فهذا هو العطب.

كم هو ضروري ألا يطيح المرء ببناءات الآخرين ولو كانت في نظره متهالكة، وألا يزدري جهودهم ولو كانت متواضعة، وألا يبالغ في احتمال المسؤولية وإسنادها لنفسه، كما لو كان يفترض أن يكون هو المنقذ الذي يختصر الزمن، ويحرق المرحلة!

ركب الخضر السفينة وخرقها، وحين سأله موسى عن ذلك قال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» [الكهف: ٧٩].

فاكتفى الخضر إزاء هذا الملك الظالم بالقدر الممكن دون اعتساف، وهو حماية سفينة المساكين بالحيلة!

وحين تحدّث خطيب الأنبياء، شعيب –عليه السلام– إلى قومه قال: «إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [هود: من الآية ٨٨].

كلمة واحدة هي (الإصلاح) لا يريد إلا هو.. وقيّده بالاستطاعة؛ إذ الإصلاح ليس شعارًا يرفع، ولا مزايدة، ولا أُمْنية طائرة لا قرار لها.
الإصلاح محاولة متصلة بالإمكان والاستطاعة، حتى في حق الرسل والأنبياء.
الكعبة التي انتهك حرمتها القوم، تمنى النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعيد بناءها على قواعد إبراهيم، وكانت قريش بَنَتْها في الجاهلية وقصّرت بها النفقة، فأخرجت الحجر من الكعبة، ورفعت بابها؛ فحافظ النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك البناء القرشي، مع قدرته على تغييره، رعيًا للقصد الشرعي في تحقيق المصالح ودرء المفاسد، أي (الإصلاح).
بين إحجام النبي -صلى الله عليه وسلم- عن تجديد بناء الكعبة، وإقدام الجماعة على انتهاك حرمتها، تنداح دائرة واسعة من التساؤلات والعبر لا تتعلق بالبيت فحسب، بل بمجمل الحقوق: الدماء والأموال والأعراض التي حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على حمايتها في خطبة الوداع، على مقربة من البيت، وكان يقول: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ».
وفي هديه أن هدم هذا الجسد الإنساني بغير حق أعظم عند الله من هدم الكعبة، إذ الكعبة تُبنى، والجسد لا يُبنى، وفي سنته أن لعن المسلم كقتله فما بالك بقتله، وأي معنى لدعوة لا تقوم على حفظ حقوق الناس والصرامة والجد فيها؟!
الذين حملوا السلاح عدد محدود، بضع مئات.. لكن كم عدد الذين سمعوا خبر وقوع الآلاف من الضحايا ولم يكترثوا، وقد يكون منهم من استشعر النكاية أو الشماتة، أو حتى داخله شك بصدق الدعوى؟
أن يتحدث أحد عن قضية طويت وبانت أبعادها سهل، ولكن الشأن في

قضايا تظل عالقة دون حسم تاريخي، وهي تحتاج لحسم علمي، يعتمد على الفهم والبصيرة، ومعرفة المآلات والعواقب «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» [البقرة: من الآية ٢٦٩].

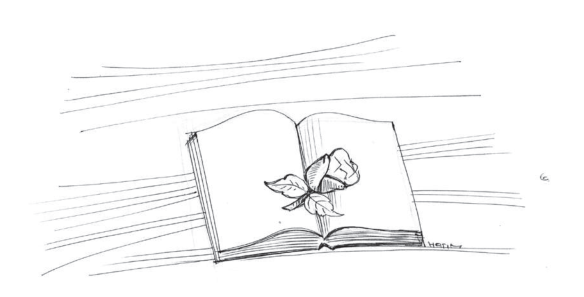
كم في الدنيا من مجموعات وحركات تنادي بالجهاد وفق رؤيتها، وتأخذ زمام الأمر بالاعتساف لتعلن حربًا على العالم كله، وتطيح بكل المعاهدات والمواثيق المبرمة، وتتجاهل أن نصوص الجهاد مقيدة بشروط واعتبارات مجمع عليها، وبإزائها نصوص في السلم والكف والبر والإقساط والعفو والصفح، أما نصوص العهد والعقد والميثاق فهي مطلقة لا يقابلها ما يعارضها، مُحكمةٌ ليس بعدها ما ينسخها.

ولو أن الاختلافات ظلت في إطارها النظري لكان المرء محتاجًا إلى استيعابها والإيمان بحق الآخرين في الانتحال والرأي، أما أن يكون الاختلاف حملًا للسلاح تحت ذريعة الرأي فهذا عدوان على أمن الناس وهدوئهم، وتعويق لمسار التنمية، وإجهاز على البقية الباقية من آثار الحياة في عالم المسلمين!



28

[حمد هو حمد]!



في المرحلة الابتدائية أطل على عالمه بوجهه الجميل الصافي المعبر، وابتسامته الساحرة دون تكلف، وقدرته على الامتزاج بجليسه، وعذوبة كلماته التي تتميز باللهجة الخاصة بـ«عيون الجواء» حيث وُلد ونشأ، فهو لا يشدِّد النون في «منِّي» و «عنِّي» وحين يسخر منه الأصحاب يسرع للاستشهاد بشعر العرب، وأبيات ابن عقيل:

أيها السائـــل عنهـــم وعَنِي   لست من قيسٍ، ولا قيسُ مِنِي

بتخفيف «عني» و «مني».

أحبَّه روحًا طيبة لا تحمل للناس إلا الخير والصفاء، لا وقت لديه للخصومات والشنآن!

سهرات ليلية طويلة حين كان أعزبَ، يُذاكر دروسه ويتحدث ويضحك

وينام في بيت من الطين في (حي الهلال)، ويعيش أمام الفتى وإخوانه الكبار بخلقه الدمث، وقربه من ربه، دون تكلف ولا مبالغة.

حدثه عن قصيدة الأستاذ عصام العطار، وأمام إلحاح طفولي كتبها بخطه الجميل، وأرسلها له من الرياض حيث يدرس في كلية الشريعة، وكأنها أمام عينه الآن:

طال اغترابي، وما بَيْنِي بمقتضب	والدهر قد جد في حربي وفي طلبي!
والشوق في أضلعي نار تذوِّبني	ما أفتك الشوق في أضلاع مغترب!
إني غريب غريب الروح منفرد	إني غريب غريب الدار والنسب
ألقى الشدائد؛ ليلي كله سهر	وما نهاري سوى ليل بلا شهب!
أكابد السقم في جسمي وفي ولدي	وفي رفيقة درب هدها خببي!

حفظها مطولة تزيد على سبعين بيتًا حفظ الصغر الذي لا يكاد يتفلت، وارتبطت بذكرى الروح التي حملتها إليه.

ولعل هذه المعاناة هي التصوير المعبّر لمعاناة أبي محمد مع المرض طيلة أيامه الأخيرة.

تخرج من المعهد، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، لكن الإجازات كانت تجمعهما، ورسائله لا تنقطع، يبعث فيها بكل لذيذ طيب من الأخبار والأشعار، وربما هدايا الكتب، والمظروف دائمًا متميز بكلمات الدعابة التي لا تفارقه حتى حين كتابة العنوان: « إلى السيد الأكرم..».

اقتبس صاحبنا منه هذه العبارة ليطرز بها مراسلاته، وإذ بأحد المتسرعين يأخذها عليه مستنكرًا لفظ السيد، معتبرًا أن (الأكرم) اسم من أسماء الله، لا يجوز إلا له. على حين كان فقه الشيخ أن الأسماء الحسنى الواردة يجوز إطلاقها على المخلوقين إلا (الله) وإلا (الرحمن) وقد سمى الله

الإنسان سميعًا بصيرًا، ووصف نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم- بأنه رؤوف رحيم..

عُين الشيخ مدرسًا بالدمام، ثم مديرًا لمكتب الدعوة، وطيلة الفترة كانت تجمعه به في الرياض لقاءات منتظمة ومدارسات، وحب صادق لا ينقص مع البعد، ومودة لا يفسدها تراخي اللقاء، لقد حفظ معه السور الطوال وقرآ معًا تفاسيرها، كما قرآ معًا كتاب جامع الأصول لابن الأثير قراءة متأنية.

أيام الزواج كانت كلماته -كأبٍ أو أخ كبير- سببًا في تخفيف التوتر والخوف من المجهول:

- أبا معاذ، من حكم الله وأسراره أن المرأة الغريبة التي لا تعرفها من قبل خلال ساعات وجيزة تتحول إلى إنسان من أقرب الناس إليك، وكأنك تعرفها منذ أمد بعيد!

ويتمشيخ الفتى، ويذهب إلى الدمام في سلسلة محاضرات، فيكون بيت الشيخ مأواه، ومكتبته محل خلوته وتحضيره، وقلبه قبل ذلك وبعده مسكن الصديق القديم.

هو من أصحاب النفوس الكبيرة، يراك تشرق فيشرق، ويفرح لتفوقك، ويسعد بإنجازك، وتبرق أساريره، وتنطق ملامحه، وتهتف عباراته.

من يُعايش الناس يجد هذا الصنف قليلًا، بل نادرًا، وإنما هذا نتيجة صفاء القلب، وصدق النية، وسلامة الطوية.

كثيرون قد يندفعون للتعويق، يُحفزهم على ذلك -فيما يظنون ويحسبون- روح الغيرة والتصحيح والتدين، والحق أن وراء ذلك معنى آخر من حظ النفس، عبر عنه شداد بن أوس حين كان يحذر بقايا العرب من «الشهوة الخفية»، الخفية لأنها تتدثر بثوب الورع والدين والتقوى والحفاظ ولكنها شهوة؛ لأن حقيقتها لا تمت لذلك بصلة، ولكن ما

الحيلة فيمن عيونه مفتوحة على الناس وكأنه قد أمن جانب نفسه فلا يوبخها ولا يراقبها ولا يلومها!

كان عيسى عليه السلام يقول: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية».

عاش مثل كثيرين في أجواء حركية، وشهد أحداثًا جسامًا، من حادثة الحرم، إلى حرب العراق وإيران، إلى غزو العراق للكويت، إلى حرب العراق الثالثة، وأحداثًا دون ذلك من تحولات وإشكالات خاصة، وفي كلها كان (حمد هو حمد)، لا ينفعل ولا يغضب، ولا يتعصب ولا يتحمس لمواقف خاصة، وإنما همه صفاء النفوس وزوال الأحقاد وتقريب المواقف، قدم إلى ربه، وربما لا أحد يحفظ عنه كلمة في حق أحد إلا بخير، ولعل من الوفاء لتلك الروح الطيبة والنفس الرضية تجديد العهد بتلك المعاني الإيمانية «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» [الأنعام: من الآية ٩٠].

كان ذلك يوم الخميس (٢٥/ ١٠/ ١٤٢٧هـ - ١٦/ ١١/ ٢٠٠٦م) حين رحل حمد الزيدان بهدوء، ذلك الرجل الذي كانت حياته كلها انحيازًا للعمل بهدوء!

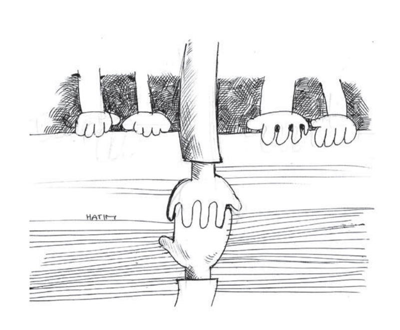
وبرحيله يرحل وجه الطفولة الوسيم.. كانت بسمته ذاكرة فَجْرية لصاحبنا.



29

طفولة أسرة

◆



أربع سنوات قضاها مدرسًا في معهد بريدة ما بين (١٤٠٠ - ١٤٠٤هـ- ١٩٧٩-١٩٨٣م).. كانت محضنًا للعديد من المفاصل المهمة في الحياة: تأسيس الأسرة الخاصة، فالأمر لم يتجاوز تجديد غرفة في المنزل الطيني، في سطحه، أو ما يسمى بـ(الروشن) والتي شهدت صباه، وغدت يومًا ما مكتبة مجازية لمقتنياته الثقافية المحدودة؛ مقروءة وصوتية.

تلك الغرفة فيها سمع أوَّل مادة صوتية، كانت للشيخ محمد الراوي في تفسير سورة (ق)، وهو يذكر كيف كان يهرّب المسجل مع إخوته؛ ليسمع شريطًا، ويتنادى حوله الإخوة هامسين كأنهم يحومون حول الإبريق السحري في الحكايات الأسطورية.

اتسعت المكتبة، وأصبح مهمومًا بشراء الجديد من كتب الأدب والتراث، وتحول المستودع إلى مكتبة واسعة، لها باب إلى الشارع يسمح

باستخدامها في الضيافة واستقبال الأصدقاء، والجلسات الخاصة، واتسعت الأسرة بالزواج، وقدوم المولود الأول، الذي تذوق من خلاله نعمة الأبوة وفرحتها، وأحاسيسها المفعمة، وأصبح أكثر استيعابًا لمشاعر والديه تجاهه، وحدبهما عليه، وتفهم عمليًا وذوقيًا ماذا يعني حرص الأبوين على أن تكون إلى جوارهما، وأن تشاركهما المجلس، ووجبة الطعام، ومتعة الحديث، وزيارة القريب، وحضور المناسبة.

الأمر هنا لا يتعلق بالخدمة، بقدر ما يتصل بشعور نفسي فطري، حين يجمع الأب أولاده وزوجه، فإنه إنما يلملم شتات نفسه، وكأنما هي روح واحدة في أجساد عديدة.

وُلِد الطفل الأول دون أن يراه جده الذي كان يرقبه، لقد حال رحيله المفاجئ دون رؤية حفيده، ولكل أجل كتاب.

قدوم الحفيد كان تعويضًا ربانيًا، وإمضاءً للسنة في خلافة الأجيال، لكن الفرحة كانت ناقصة، فالفارق بين الحدثين لم يكن بعيدًا، لينسخ الفرح الأسى.

البدوية الأرملة (أم فالح) ذات المائة عام، أعلنت يوم الميلاد عيدها وزغردت بالفرحة، لقد تفوقت على نفسها، وأحضرت هدية المناسبة، قارورة عطر إلى نصفها، وعددًا من الريالات المتآكلة، وهذا ما منحها حق تسمية الطفل، فيجب إذًا أن يكون اسمه (عوض).

هو كان عوضًا فعلًا، ولكن (عوض) هو أحد أقاربها الذين تريد إحياء ذكراهم بإطلاق اسمه على هذا المولود الأثير لديها؛ لأن والده كان يداعبها ويلاطفها، وظل الاسم يتردد بروح الدعابة مقرونًا باسمه الحقيقي بضع سنوات.

لقد وُلد الطفل، ووُلد اسمه قبله، فأبو معاذ، هي كنية أبيه منذ المرحلة

الثانوية، تيمنًا وإعجابًا بمعاذ بن جبل الصحابي الجليل، والذي كان إمامًا في العلم والدين والدعوة، حتى قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (معاذ أمام العلماء برتوة)، وكان مالك يقول: هلك معاذ وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وهو أمام العلماء برتوة.

الصبي يكبر، والشقاوة تزداد، وأثاث البيت يتبعثر، و(الحوسة) في كل مكان، فهو فرد بأمة، وهكذا كل الصبيان، وكل أب وأم يظنان مولودهما استثناء من الآخرين، لكن الممارسات تتطور، فها هو يمشي بسرعة على جدار سطح المنزل الأعلى، يحمل معه وعاء كبيرًا للماء، لإثبات تماسكه وتوازنه، يتخيل الأب لو سقط هذا الطفل البريء في الشارع، ما الذي يمكن أن يحدث له؟ إذًا فلابد من التعامل مع الموقف بحزم.

المولود الأول هو ميدان التجربة بالنسبة لوالديه، فهم يتعلمون الحلاقة برأسه، وقد يحملهم الطموح المفرط على تحميل الأبناء حالة من الجدية والمسؤولية لا تتفق ومدرج الطفولة ولهوها.

بيد أن مشكلة صحية تقع للطفل تكشف عن رقة ومخزون حنان لا ينضب.

فها هو قدر الطعام ينسكب، وهو يفور غليانًا، فيأتي على أفراد الأسرة وهم في المطبخ ليصيبهم جميعًا، ويكون أكثر الضرر على هذا الصبي الذي تجاوز السابعة، ودخل المدرسة، ويظل بسبب ذلك نائمًا في المستشفى، متورم الوجه، غير قادر على الكلام والأكل، يغيب ويصحو، ومنظره يبعث على الحزن، وذلك يجعل والده متوتر الأعصاب طيلة الوقت، حتى في حال وضع المراهم والغيارات وما يصحبها من ألم مبرح.

الشائعات تحول الحدث العابر إلى قصة محبوكة، والأقاويل تختلق هجوم لص على المنزل، وتحيط المنكوبين بنياشين بطولة ومقاومة برمي الطعام الحار عليه ليصيب المدافعين بعضه!

تمر الأيام، ويكثر الأولاد، وتستحكم التجربة ليصبح الوالد أكثر هدوءًا وحكمة وحلمًا، وأقدر على التحكم في مشاعره، وأكثر واقعية فيما ينتظره من أولاده، لقد أدرك أنه بقدر ما يمنحهم من المسؤولية والحرية في القرار والموقف، يسهم في بناء شخصياتهم؛ ليكونوا كما كتب لهم أن يكونوا، وكما تقتضيه طبائعهم وأمزجتهم وتكويناتهم؛ لا كما يريد الأب أن يكونوا.

قد يكون فيهم المهيأ للعلم والمعرفة شرعية أو غير شرعية، وفيهم المهيأ للعمل والإنجاز، وفيهم المهيأ للتجارة، وفيهم المهيأ للإدارة، وفيهم صاحب الدعابة، ومهمة المربي أن يساعدهم أن يكونوا كذلك، لا أن يُغير في وجهتهم، أو يجعلهم صورة مكررة لشخصه، أو صورة لبعضهم.

المتغيرات بين الأجيال يجب اعتبارها؛ لئلا تكون التربية قسرًا وإكراهًا، يقتل بها الأب شخصية الولد ويفقده الثقة بنفسه.

يقع لوالد صديقه يومًا أن يسمع من أحد الأبناء كلمة نابية فيكافئه الأب عليها بصفعة على الخد، وبعد سنين تتكرر الكلمة من أحد الصغار فيقوم الأب ذاته بمحاولة إعرابها لغويًا فحسب، يبتسم وهو يقول: هذا من باب عطف العام على الخاص!

ثمة مفصل آخر في هذه السنوات الأربع التي قضاها مدرسًا في المعهد يتعلق بتوسع آخر غير التوسع الأسري، وإن لم يكن بمعزل عنه، إنه شأن الأسرة العامة، شأن المجتمع، فقد أصبح «شيخًا» وهكذا يسمى مدرس المعهد، حتى لو كان أمردَ حديث التخرج.

إذًا فليكن له إقدام على الدروس والمواعظ في المساجد، خاصة وأنه يقرأ ويحفظ الكثير من القرآن والحديث والشعر والأقوال الحكيمة، وقد تدرب على الإلقاء ومواجهة الناس أثناء دراسته، وهكذا كان.

أصبح يحدث ويحرر في مسجد حيّه قبل صلاة العشاء، ويتكلم أحيانًا

بعد الصلاة للتنبيه على ملحوظة أو خطأ في العبادة، أو في السلوك العملي، ويؤم المصلين أحيانًا أخرى، ويخطب الجمعة نيابة عن الإمام، أو يعدّ له الخطبة إن شاء.

بدأ يألف هذا اللون من العمل، ويجده منعشًا لعقله وفكره، متوافقًا مع شخصيته، واكتشف من خلاله عيوبه ونقائصه، ووجد أن لديه القدرة على تطوير ذاته، وتجاوز بعض سلبياته، كالحساسية تجاه النقد، فكأنه تجرع هذا الدواء حتى أساغه، ولم يعد النقد يعوقه عن عمله.

قد تظل بعض الطبائع كامنة في النفس، لكنها أمام اكتشاف صاحبها لها تضعف عن أن تهيمن عليه، أو تتحكم في تصرفاته أو علاقاته مع المواقف ومع الأشخاص.

لا يزال في كل محاضرة أو درس يحمل قدرًا من الهيبة لم ينقرض بمرور الزمن، لكنها ليست تلك الهيبة التي تحمل على الإحجام أو كراهية العمل، ولا التي تؤثر في الأداء، أو تظهر على الملامح أو الصوت، إنها -فيما يزعم ويفسر- نوع من احترام الجمهور يحمله على ألا يقدم على درس أو حديث إلا وقد أعدَّ له أفكارًا ونصوصًا، وحاول أن يعصر ذهنه ليبحث عن جديد مما يحتاجه المستمع، قد يظفر بهذا الجديد في طيات كتاب أو مقالة، أو في مرجع بعيد عن طبيعة الموضوع المطروح، وقد يجده في تلافيف فكره وتجربته الخاصة، أو في كلام الآخرين وحديثهم معه، أو حتى في ورقة التقويم.

أدرك أنه حين يقتبس من الصغار أو المبتدئين فكرة جديدة، أو كلمة جميلة، أو حكمة شاردة، فهو يرفع نفسه بمزيد معرفة، ولا يضعها بتلقيه عمن دونه، حتى غدت هذه عادة عفوية بلا تكلف، ومما أخذه عن بعض شيوخه أنه قد يوجد في الأنهار ما لا يوجد في البحار، وفي الحكمة المأثورة «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها»، وحين

يجد في القرآن الكريم قوله سبحانه: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» [البقرة: ٢٦٩]؛ يعلم أن الحكمة فيها طرف فطري، يتعلق بمواهب العقول والأخلاق، وقد يجدها عند العامة أو البسطاء أو غير المؤمنين، وكثير من علم الحياة وتنمية الذات يتعلق بهذا المعنى، والذي أبدع فيه الغربيون، وتصرفوا فيه بفنون القول والتأليف.

ومن الحكمة ما هو حصيلة التجربة والخبرة وأحداث الزمن، التي هي نجاح وفشل..ولابد، إذ النجاح هو أثر ذلك القرار الصائب، الذي حصلنا عليه نتيجة القرار الخطأ، والتجربة الإنسانية هي معنى محايد؛ لأنها قراءة للسنن الإلهية في الحياة، الواقعة على كل أحد « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ» [النساء: من الآية ١٢٣].

زاره بعض من يحسن الظن به، وشكى إليه بعض الإخفاقات، وبعض قالة السوء التي سمعها من زملاء العمل، وهو يقولها بتذمر وضجر، فاستجمع تجربته ومقروءه، وأقبل على الشاكي يقول له مصطنعًا شيئًا من الحزم:

-إذا كان في البشر واحد لم يمر بالمحاولة والتجربة، أو كان فيهم واحد لم يتعرض للقيل والقال، والنيل منه، فمن حقك أن تحاول أن تكون الثاني!

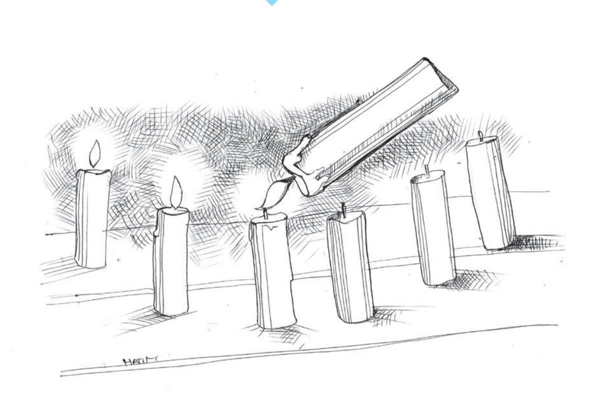
حتى رسل الله وأنبياؤه نِيل منهم وكُذبوا وصبروا، ومنهم من دعا ولم يستجب له، نحن لا نعد هذا فشلاً، بيد أنهم لم يصلوا إلى ما كانوا يريدونه ويسعون إليه.

التجربة الحقة تؤكّد أن الذي يؤثر في الإنسان ليس هو ما يفعله الآخرون أو يقولونه عنه، بل رد فعله الخاص تجاه ما يقوله أو يفعله الآخرون «قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» [آل عمران: من الآية ١٦٥].

30

زوار الفجر

◆



ليسوا أشرارًا دائمًا -أولاء الزوار-، ورب طارق فجر يطرق بخير، إنه وقت التنزّل الإلهي، موعد الرحمة والعطاء والغفران، وقت الهجوع والخشوع والدموع.. «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا »[الإسراء: من الآية ٧٨].

والليل أخفى للويل، إذ ثمة من يدّخر احتكام الظلام للغدرات، ويستخفي بجريرته بحلكة السواد «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» [الرعد: ١٠].

ينفجر الفجر إيذانًا بميلاد جديد، وفي الناس من يموت كل لحظة:

أتدري لماذا يصبح الديك صائحًا	يردد لحن النوح في غسق الفجر؟
يقول: لقد مرت من الدهر ليلة	وها أنت لم تشعر بذاك ولم تدرِ!

درس متواضع يُقيمه في مسجده بعد صلاة الفجر، ولم لا.. وقد صار يُسمى بـ «الشيخ»!

حين يشتد البرد؛ يلتحف العباءة الشتوية ويلتفّ بها، وتمنحه وقارًا ربما أراده، فجاء تبعًا.

التقرير سمة الدرس؛ وهو يعني الشرح والتعليق على ما يقرؤه الطالب بعبارة موجزة محكمة، وهو ما ميّز مدرسة (السّعدي - العثيمين) على المدرسة المحلية التي كان عنوانها (سم - بركة).

سم تعني: ابدأ، اقرأ، قل بسم الله، وبركة تعني: التوقف، يكفي ما قرأتَ، ودور الشيخ هو تصحيح اللفظ فقط، والتلميذ هنا يتعلم من الشيخ تقويم اللسان، ويقبس من زهده وصلاحه وعبادته، ويرتسم منهج الحياة في التعامل مع السلطان، ومع المنكرات في ثنائية غريبة.

بدأ الدرس في المسجد الطيني القديم (مسجد العمر)، بصبية لا يصلون عدد أصابع اليد الواحدة، يتقدمهم أبوهم الذي يحضرهم قسرًا، ويسوقهم سوقًا عنيفًا، شأن الأب الحريص الوجل الذي لم يتعود أن يرعى الطفولة ويقدرها قدرها، ولم يتلق أساليب التربية الحديثة، لكنه يملك الصدق، ويعطي وقته لحياطتهم وعسفهم على الطريق.

النوم يلعب برؤوسهم لعب العُقار بشاربها؛ والأب يعرك آذانهم، ويلقي نظرات العتب واللوم، ويتمعّر وجهه بجلاء.

يبدأ بالتسميع، ثم يقرؤون من بعده ما تيسر من قصار سور المفصل، أو من الأصول الثلاثة، أو القواعد الأربع، أو متن الآجرومية في النحو، و«الشيخ» يفكّ اللفظ، ويفسر المفسّر، يكفي أن يكون شخص واحد يستمع إليه.

سنوات عدة مرت، والعدد كما هو.

هو لا يعتبر الدرس بالعدد، فقد استفاد مزيدًا من الحرص على صلاة

الفجر في الجماعة، إذ الدرس سبب إضافي، وليس الأمر مقصورًا على الطلاب، إذ سوف يلحظ جماعة المسجد تأخر الشيخ عن حلقته، وهم لا يعذرون، ولا يحسنون الظن، ولا يعنيهم أن كان الشيخ مجهدًا أو مكدودًا، أو ثقيل النوم، أو حتى نائمًا في مكان آخر!

واستفاد البقاء في مصلاه حتى ترتفع الشمس ليصلي ركعتين، وهذه سنة عن النبي أنه كان يصلي الفجر، ثم يقعد في مصلاه حتى ترتفع الشمس حسنًا، أو حسناء.

وهذا يقع بعد طلوع الشمس بنحو عشر دقائق أو أقل.

وتعلّم كيف يثني ركبتيه، وهذا ليس عملًا ميكانيكيًا، بل هو مصطلح تربوي متوارث. «ثني الركب»، يحتوي ضمن دلالته الصبر والمصابرة، وطول النفس والتدرب على الجلوس إلى المشايخ والاستماع، وهي صفة جوهرية فيمن أراد أن ينجز، أو يؤثر تأثيرًا في الآخرين، أو يعلّم أو يتعلّم، أو يحقق نجاحًا على أي مستوى كان، ماديًا أو معنويًا.

وتعلّم كيف يتعامل باهتمام وواقعية مع البدايات الصغيرة، والبدايات عادة صغيرة؛ فلسنوات طوال ظل وفيًا لهذا المجلس المكلف، لا يقطعه إلا لسفر أو عارض، أكان الحضور ثلاثة كما بدأوا، أو صاروا ثلاثين، أو ثلاثمائة كما انتهوا، هو لا يستمد حماسته من جمهوره، وإنما يتعامل مع البرنامج المجدول، ويحاول أن يتدرب نفسيًا على قول المتنبي:

وَحالاتُ الزَّمانِ عَلَيكَ شَتّى ... وَحالُكَ واحِدٌ في كُلِّ حالِ

كان يعرف أن الشيخ العثيمين ظلّ سنين عددًا يدرس طلابًا في (جامع الضليعة) لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وأنجز خلال هذه الدروس شرح كتاب (الكافي) لابن قدامة.

الديمومة تكشف أن الفكرة لم تكن عارضة، والحماس ليس طفرة،

العدد يزيد، والصغار يكبرون ويألفون.
الشيخ إبراهيم الهويمل رجل وقور هادئ الطبع حسن الهندام، يتحدثون عن توليه القضاء والإمامة ومجالسته للمشايخ، يستمع من بعيد، ثم يقترب، ثم يباحث، ثم يندمج ويحب ويتحدث باستفاضة، وكأنه وجد من يفضي إليه، ويبثه بعض خلجاته ومكنونات نفسه، ولم يجد حرجًا أن يجلس إلى صغار في سن أحفاده.
حتى الصغار ربما أرادوا شيئًا كهذا، فالناس عادة يبحثون عمن يستمع إليهم أكثر مما يبحثون عمن يستمعون إليه.
تتسع سمعة الحلقة، وتستقطب كوكبة من الفتيان والشبان، الذين جاءوا بعواطف مشبوبة، وقلوب صادقة، ورغبة أكيدة، واتصال روحي ومعرفي.
شباب الحي وأبناء الجيران يتوافدون على الحلقة باغتباط، وآخرون قادمون من بعيد، وعلى الأقدام، راغبون في الحفظ والفهم والتزود، لديهم تساؤلات.. فليكن الدرس أكثر تكثيفًا وإعدادًا.
وكعادة الموجة تأخذ في طريقها من ليس من أهلها، فإلى جوار المجالس والمحب والمستحي، ثمة من يظهر فجأة ويختفي فجأة؛ فلا تعثر له على أثر، ولا تسمع له ركزا، وقد تستعيد شخصه، وتستوقفك بعض الحركات الغامضة التي مرت بهدوء، ولكنها لليقظ أمارة لما بعدها، العينان الساهرتان تخفيان شيئًا، المرء مسكون بالبحث عن أهميته، يبحث عنها هنا وهناك، وقد يستعجل الخطى، أو يجمع النقيضين، فتفضحه عيونه!
كلمة عمر الملهم «لستُ بالخِبّ ولا الخبّ يخدعني» علّمت صاحبنا، والتجربة أكدت أن عليه ألا يتجاهل فراسته ولا يبوح بها، وألا يهمل الاحتمالات التي تخطر بباله، ولا يعتمدها، لئلا يَظلم أو يُظلَم..

هكذا هم الناس، ولكن لا بأس!

تتزاحم الأسماء والشخوص، وفيها من مرَّ ولا ضرَّ، وبقي من كان قراره في المواصلة نهائيًا وبغير رجعة «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [التكوير: ٢٩].

قائمة جديدة من الكتب تعطر المجلس؛ فالتجريد الصريح للزبيدي الذي هو اختصار لصحيح البخاري، وتفسير ابن كثير، ومختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، والعقيدة الواسطية، وكتاب التوحيد، والأربعون النووية، ونزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر..

والحلقة من مسجد العُمر إلى جامع الهلال، فالعُمر مرة أخرى، ثم تكون النقلة إلى مسجد التخصصي؛ حيث اتسعت لتخبو وتنطفئ وتتوقف، وتكون نهايتها مع نهاية مرحلة من النشاط المتنوع. كانت هي أحد روافده حين استقطبت نوعية متميزة من البارزين واللامعين والمؤثرين.

ومع هذه النقلة توافد جمع من خارج البلد، وآخرون من دول أخرى؛ مصر والسودان وليبيا واليمن وسوريا، وتوفر لهم السكن المجاني والتسهيلات الحياتية، وكان اختبارًا أخلاقيًا أن يستفيد من هذه الخدمات من يحضر لشيوخ آخرين، ويتناول بالنقد والثلب مسلك (الشيخ)، فيغضب الطلبة والمشرفون ويهمون بإبعاده، ولكن (الشيخ) كما يُسمى ينبههم أن هذه أوقاف خيرية على طلبة العلم أيًا كانوا.

الحلقة لا تكفي، نحتاج إلى التربية والتحليق بعيدًا عن جو الدرس المعرفي البحت، فلتكن الخرجات البرية بعفويتها وجدها وهزلها ميدانًا لمزيد من الاقتراب، رحلات صيد قليلة، ورحلات بر كثيرة، ولعب كرة، ومجالس أُنس، وفرص للبوح والتساؤلات، وحديث في

المجريات والمستجدات العلمية والاجتماعية والسياسية، كتاب جديد، قصة غريبة، حدث لافت، إعصار سياسي، هواجس أمنية.. «خذوا راحتكم»! فهذا هو البستان الذي لا يحسن التصاون فيه كما يقول الشافعي.

رحلات العمرة والحج، جو علمي وقراءة في المناسك، وشرح وترجيح، وقراءة في آداب ابن مفلح للتربية على الأدب والخلق والسّمت، واندماج وامتزاج بين أرواح تعارفت، وتحابّت في ذات الله، على غير أرحام بينها، ولا أموال تتعاطاها، وشباب من نجد، إلى مصر، إلى اليمن، إلى الشام، سبكتهم العلاقة، وتبادلوا التعليقات الساخرة التي تتجه تلقائيًا لمن يستعذبها، ويتقبلها بغير امتعاض، وتشيح عن الحساس الذي يَشرَق بها، ويسيء فهمها.

التسجيل بدأ أخيرًا، فها هو جهاز التسجيل يشارك الحضور ويتميز عنهم، ويدون كل شاردة وواردة، ويتطوع متحمس بالوشاية.. يا للهول!

جهاز تسجيل في بيت من بيوت الله! ولكن الوشاية تقع في آذان العقلاء الذين يعرفون آداب النصيحة..!

- نحن نحبك في الله، وأنت طالب علم، والمقصد حسن، ولكن هذا باب نخشى عواقبه، وقد تتطور الأمور بغير اختيارك، ولا يسعك إلا التوقف.

- لكن ما الخطب؟! ها هم مشايخنا وعلماؤنا يفعلون ذلك؟

- ولو..!

يظل التسجيل.. والحصاد خمسمائة ساعة مسجلة أو تزيد في مختلف العلوم، شرح الصحيحين، تفسير المفصل من سورة (ق) تنازليًا، شرح المصطلح، شرح التوحيد.. شرائط صوتية حافلة بقدر طيب من المعرفة

العلمية الميسرة، وبقدر آخر لا يعوض من التدوين والتوثيق لذكريات حياتية، ومواقف وأسئلة، وشخوص وتحولات، وأحداث وعلاقات، وأسماء وكنى تأتي ضمن الشروح، أو تأتي مستقلة بمناسبة عارضة.

فيها مواكبة ومراقبة، وصورة قريبة ولحظية، لمشاعر المتحدث، ووجهات نظره وانطباعاته حتى في نبرة الصوت، فضلًا عن فحوى الحديث!

أصابها إعصار فيه نار، واختفت تلك الثروة إلى حيث لا يدري. أحرقت؟ دفنت؟

لا فائدة فلا أحد يريد أن يتحدث عنها!

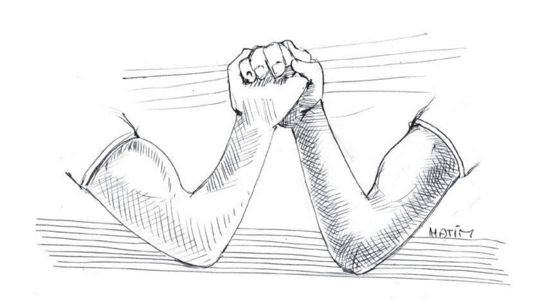
لعل نفسًا خالجها الهلع، وداهمها الجزع، فأرادت أن تقطع حبل اتصالها، وتقضي قضاءً مبرمًا، فيما تحسب، على أي دليل يدمغها بتهمة المعرفة به، أو الجلوس إليه، فضلًا عن تسجيل مادة -والعياذ بالله!- تتعلق به، حتى ولو كانت هذه المادة تفسيرًا لآية، أو شرحًا لحديث، أو إعرابًا لجملة!

بضعة عناوين فقط ظلت باقية تذكر ببحة الصوت الفجري المستيقظ لتوه، وطبيعة الحديث إلى مجموعة قريبة محتفية، وقد تومئ عرضًا لأسماء الرعيل الأول: صالح، محمد، أحمد، إبراهيم، سليمان، يوسف.. أبو خالد أبو أحمد! يا سقى الله تلك الأيام، وسكب على ذكراها صيب الغمام.

◆◆◆

31

سجال الحاكمية



تردده على الرياض لم ينقطع، واللقاء يتجدد مع شباب جلّهم من المدينة ومكة، ومضيفهم من الرياض.

الحديث يتمحور كثيرًا حول هموم قدمت غالبًا من أرض الكنانة، حول الإيمان والكفر، والعذر بالجهل، وحد الإيمان وحقيقته، والحكم بغير ما أنزل الله، والموقف من الأنظمة والحكومات.

سجال علمي، وبحث دؤوب في نصوص الأقدمين؛ اللالكائي، وأبي عبيد، وابن تيمية والأئمة، وإنحاء باللائمة على بعض الشيوخ، خاصة الشيخ الألباني الذي كان يوصم -أحيانًا- بالإرجاء وضعف الفقه! واحتفاءً بنصوص أئمة آخرين؛ كأحمد شاكر، ومحمد بن إبراهيم، والشنقيطي.

كانت هذه المسائل فيصل التفرقة بين الطوائف والمجموعات الإسلامية،

وكلما تركز الاهتمام حول المسألة اتسعت الشقة.

من لوازم السجال تصعيد الخلاف؛ فهؤلاء يشبهون الخوارج، أو هم هم، وقد يترتب على التنابز التزامٌ ببعض الأفكار التي تفضي إلى عزلة، أو انغلاق وشعور بالتميز والتفوق عن الآخرين الذين لا ينتحلونها.

وأولئك لديهم تفريط في قضية الإيمان، وخيوط تربطهم بالسلطان!

والحيرة تلجم صاحبنا في جدوى إنتاج بحوث جديدة، في عمق قضية يفترض أن الأمة درجت عليها من عهد النبوة، وفُرغ منها، بيد أن شبابًا في العشرينيات يعيدونها جذعة، ويحشدون لها، ويسعون في رسم حدودها الفاصلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، ويفاصلون عليها.

سؤال فطري كان يتعرض للقمع من صاحبه قبل الآخرين: أَلا يوجد في العالم الإسلامي كله مِن أصحاب السابقة من الأئمة والعلماء والفقهاء الراسخين من هو أجدر وأولى ببحث هذه المعضلات؟!

العلامة ابن باز وابن عثيمين وابن جبرين وجماعة من أكابر العلماء أفتوا بأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر أصغر، لا يخرج من الملة، ولا غرابة! فابن عباس وعكرمة وجماعة من السلف كانوا يقولون: ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، هو كفر دون كفر.

كلام السابقين يُؤوّل، بيد أن كلام المعاصرين لا يقبل التأويل؛ لأن الحديث عن أمر قائم مشهود متفق على توصيفه وتشخيصه.

وآخرون كابن كثير والشنقيطي وابن إبراهيم وأحمد شاكر يصرحون بأنه كفر أكبر بلا ريب.

وصاحبنا يخلص من هذا بأن المسألة محل اجتهاد، وأن الخلاف فيها قائم ومحتمل، ولا ينبغي أن تكون ضمن الأصول والمحكمات؛ إذ لا يتصور أن تكون المحكمات الضرورية محل اختلاف بين كبار المدرسة السلفية وأئمتها.

آخرون ينفكّون عن هذا، بأن تلك الفتاوى من «زلات العلماء»، وليست من الأقوال العلمية المعتبرة.

ومع أن البحث «موجه» أصلًا، إلا أن قدرًا من الورع حال دون الوصول إلى نتائج حاسمة، بيد أن الغوص نفسه صنع في النفوس شيئًا من الإغلاق والحزم الذي يقرب من الشدة! خاصة حين ينتقل الحديث إلى تطبيق الحكم على المحل.

من الدروس التي تلقاها صاحبنا أن المنهج لا يحتمل الإضافات، بل هو قواعد متفق عليها، والتفاصيل متروكة للاجتهاد، وكلما أوغلنا في رسم التفصيلات واعتبرناها جزءًا من المنهج، كان ذلك تحضيرًا وتأهيلًا للانشقاق المستقبلي، فالناس يكبرون، وتتسع معارفهم، وتنفتح عقولهم، وكلما نضج المرء كان أكثر تعبيرًا عن ذاته، وأقل استسلامًا للمقولات المسلّمة، وهذا هو الفرق بين التقليد للإمام أو للجماعة، وبين الاستقلال بالرأي.

شعور الانتماء الراسخ يظل قائمًا لدى النفوس الوفية، لكنّ شعور الوفاء للقناعة الذاتية أرسخ وأعمق.

كلما ضاق المنهج، عجز عن استيعاب المتغيرات الشخصية والاجتماعية والمعرفية، وكلما اتسع كان أدعى للوحدة والاجتماع والتأليف، الناس ليسوا صورة طبق الأصل بعضهم عن بعض.

من فروع المسألة، الموقف من المشاركة السياسية ودخول البرلمانات، والتي كانت فتوى الكبار تميل غالبًا لتجويزها وتسويغها؛ فتاوى الشيخ رشيد رضا، والشيخ عبد الرحمن السعدي، وهما من المتقدمين نسبيًا، والشيخ ابن باز وابن عثيمين وكثير من مشاهير العلماء في المدرسة السلفية.

بيد أن ثمة من يأخذ بالمسألة منحى آخر بعيدًا عن أن تكون محل اجتهاد

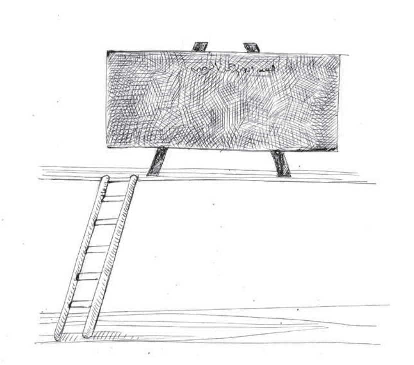
أو اختلاف؛ فيراها من مفاصل العقيدة، ويجعلها مسألة كفر وإيمان، وليست القصة هنا هي ترك المشاركة فحسب، بل الغالب أن يتبعها البحث عن حلّ بديل، وهل سيكون هذا الحل هو التربية والتعليم والدعوة من باب: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: من الآية ١٦]، أو سيكون الاستعداد والتهيّؤ والسعي لامتلاك القوة؛ أخذًا بقاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وكما يوحي به كتاب (العُمدة في إعداد العدة) وهو أحد مدونات الإسلاميين الجهاديين بمصر.

هذا ما تتفاوت مسالك السائرين فيه، ولعل ما يجري على الأرض الإسلامية من قتل، وجرأة على الدماء، واستخفاف بالأرواح؛ هو تعبير عن طائفة -بدأت في مصر ثم اتسعت دائرتها- اختارت الحل الآخر، وسَخِرت ممن يشاركون في الحياة بوسعهم؛ لأنها تريد أن تهيمن عليها لا أن تشارك فيها، وهيهات؛ إذ سنن التدافع والتمانع في الحياة تكسر من لا يفقهها، وعجلتها تطحن من لا يقرؤها، والأماني لا تصنع شيئًا، والولوج إلى الفتنة أسهل من الخروج منها، والنيات الصالحة لا تصنع بالضرورة أعمالًا صالحة، فضلًا عن أن المرء قد يسترسل وراء إحساس بالصدق في نفسه يكون للشيطان منه نصيب.



32

سنة أولى تمهيدي



انصرم ربع العام الأول، حينما تم قبوله (معيدًا) في كلية الشريعة وأصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود؛ ليحزم أمتعته من القصيم إلى الرياض، وليرحل من التدريس بالمعهد العلمي إلى مقاعد الدراسة من جديد في السنة التمهيدية التي تسبق إعداد الأطروحة.

لقد جدَّت أحداث، وتغيرت ظروف تحيط به، وصار بمقدوره أن ينتقل إلى الرياض لدراسة (السنَّة وعلومها).

الرحلة في طلب الحديث سنة مضى عليها المحدثون، وسجلها الخطيب البغدادي في كتابه الشهير.. فلم لا يرحل كما رحل موسى في طلب الخضر؟

الانتقال تغيير ضروري، ليس ماديًا فحسب بانتقال الجسد والسكنى والعائلة إلى بلد آخر، بل ومعنويًا أيضًا بالتعرف على نمط جديد،

واكتساب علاقات وصداقات. ومعظم النجاح ينتج من التوفيق في المقارنة بين نمط وآخر، ورأي وثانٍ، ومدرسة وغيرها، وحينما يُغلِق المرء على نفسه الأبواب، ويحشر ذاته في أنموذج واحد؛ يخسر الكثير من الميزات والفضائل، وقديماً كانت لغة قريش أفضل لغات العرب؛ لأن مكّة كانت قبلةَ الناس، يفد إليها الحجيج، فيسمع أهلها لغات الناس، وينتقون أفضلها وأسهلها وأبلغها.

كان الانتقال إلى الرياض.

هذه النقلة كانت تغييرًا حقيقيًا، ربما لم يدرك هو أبعاده أول الأمر!

لقد تعرف على شخصيات كثيرة خارج إطاره المناطقي والدعوي؛ من الأساتذة الكبار في أقسام الدراسات العليا، إلى الزملاء الذين تعمقت صداقته معهم، لتظل راسخة الجذور إلى اليوم.

وكم يحتاج المتعلم إلى أن يفتح نوافذه وآفاقه لما لا يعهد من المعارف والأنماط، وأن يحسن الاستماع، ويتأنى في موقفه مما ليس مألوفًا لديه، فربما كذّب بحق، أو صدّق بباطل.

اختار أن يدْرُس في قسم السنة، ولا غرو، فقد أصبح لبحوث السنة ودراستها حظوة عند الطلبة والمهتمين بالشريعة، والناس مقبلون على فقه الدليل ومعرفته، وإذ اتسعت حركة البحث والتصحيح والتضعيف، ودراسة الأسانيد، وعلوم الرجال، وصار الطالب المتسرّع للصدارة مولعًا بالحديث عن الرواة، وفلان ضعيف، وهذا فيه لِين، وهذا ثقة ثبت، وهذا صدوق مدلّس. وربما ذم الفقيه أو الأصولي لأنه لا يحسن هذه الصناعة، ولا يمتلك هذه البضاعة.

لرشيد رضا، ومن قبله محمد عبده فضل التأسيس لطلب الدليل في هذا العصر، ورغم ما يبدو من تباعد بين المدرسة التجديدية في مصر والمدرسة الوهابية في الجزيرة إلا أن هذا معنى مشترك بينهما، وموقف

المدرسة المصرية من البدع ومن التقليد المذهبي متناغم مع موقف المدرسة النجدية، ثم جاء التفصيل على يد جمال الدين القاسمي، وأحمد شاكر، ثم الألباني...

تنافس الطلبة، حتى أولعوا بالغريب؛ كما جرى في مرحلة تاريخية في عهود السلف، حين كان طلب الغريب يحمل على التساهل في الرواية، أو يجرّئ على الوضع، وكان محمد بن الحسن يقول: من طلب غريب الحديث كذب.

ونتج عن هذه الحركة توسع أقسام السنة في الجامعات الإسلامية في تسجيل رسائل وتحقيق مخطوطات، والعثور على نصوص غير مشهورة والتعويل عليها، حتى تجد في كتب بعض الأكابر: عليك بهذا الحديث فإنك قد لا تجده في غير هذا الموضع، أو: هذا حديث لا تجده في كتب الفقهاء.

والغالب أن الأجزاء والمشيخات ونحوها لا تنفرد إلا بالمنكرات والغرائب والشَّواذ، وأن دواوين السنّة المشهورة قد جمعت فأوعت، وكفت ما وراءها.

معظم الزملاء يقصدون الرياض، ويختارون قسم السنّة لذات السبب، وللحاجة العملية في تدريس هذا العلم في مراحل الكلية.

سكن في حي الصالحيّة؛ حيث يكثر أهل بلده وقرابته، واستقل بمنزل خاص لأول مرة، لقد كان قبْلُ ضمن العائلة الكبيرة في بيت الأب، ولكل من الأبناء غرفته الخاصة.

الصالحية جـنَّـةٌ	والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلِها	مني التحيةُ والسلامُ

هو وزوجه وولده البكر، والأصدقاء يترددون على المنزل في مساهرات ومسامرات.

(عبد الله) هو المولود الجديد في (الغربة)، في (٢٢/ ٣/ ١٤٠٤هـ-٢٧/ ١٢/ ١٩٨٣م).

حيث شهد هذا المنزل ذو الدور الواحد ميلاده ذات مساء جميل، (عبد الله) اسم فاضل شرعًا، فخير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن، واسم عريق عائليًا، فهو اسم جده القريب.

العجوز مالكةُ البيت تتردد دومًا للاطمئنان على أن المنزل على ما يرام، مع أنه ما ثمّ أطفال يعبثون، ولكنه حرص الكبير، حين سمعت صياح الصبي أسرعت، وعبّرت عن أرْيَحِيّة جادة، وترحاب بهذا القادم، وباحت بأن العَقْدَ كان قبل قدومه، ولكن لا مشكلة! فكرم الضيافة وسعة النفس يحتِّم عليها أن تتقبل ذلك بارتياح.

وشائج الصلة والود تتصل بالجيران وجماعة المسجد وسكان الحي، والمناسبات تجمع الأُسَر، والأسئلة والأحاديث تكشف عن قرابة مطمورة، أو معرفة سابقة، أو رحم، أو نسب.

شبيبة من الحي يغشونه، ويستطعمون الحديث، وقد بدا شيخًا أمام صبية في المرحلة المتوسطة، لم يبارحوا أول عهدهم بالطريق، ليزدهي شاعرًا ينشدهم بعض شدوه الطفولي:

أمةٌ في الأَرضِ..لاَ يَقهرُهَا	مجرمٌ..بـــلْ هي ذُلُّ المجرِمِ
نَشَرَ اللهُ بها دينَ الهـــدَى	مَوردًا عَذبًا لمنتابٍ ظَمِي
وحبـــاهَا اللهُ مـــــن آلائِهِ	نِعَمًا أَكْرِمْ بِهَا مِـــن نِعَمِ!
لا تقلْ ذلّتْ، فَمَا يَصْدُقُ أَنْ	يَسْتَذِلَّ الفَأرُ لَيْثَ الأَجَـــمِ

ومنهم أدرك أن (المجموعة) تنتسب إلى مكتبة المسجد، إذ هي الوعاء الذي يستوعبهم، وعن طريقه تنظم الدروس والرحلات والبرامج والعلاقات والأمسيات، على أن السائد في بلده الأول أن حلقات

المساجد القرآنية هي التي تقوم بهذا الدور.
الرياض لا تخلو من حلقات قرآنية، توسعت بَعْدُ وتطورت، وبلده الأول كان يعرف مثل (مكتبة الضالع) التي طالما قضى فيها الأوقات الطويلة، وشارك في مناشطها، وألقى فيها دروسًا في ريعان صباه، ويعرف مثل (مكتبة ابن القيم) التي كانت حركة حقيقية حافلة بالحضور والحيوية والنشاط، وكان يغشاها الشيخ الدوسري، والشيخ البليهي، ومن الرياض الشيخ إبراهيم الغيث وأحمد السناني وآخرون.
في السنة التمهيدية دراسة مسائية، وفراغ كاف لحضور مجالس أخرى ذات بعدٍ حركي، ثمة حوارات مكثفة حول العمل الإسلامي ومعالمه وأولوياته وأهدافه وملامحه المستقبلية، وأسئلة حول الأُطُر المحدودة، والسرية التي تعوق حركة الدعاة، وتشل نشاطهم وتفصلهم عن مجتمعاتهم، كيف يمكن تصحيح المسار وقطع الطريق على أفكار الغلو من داخل الدعوة، أو محاولات الضرب من خارجها؟
وكيف يمكن التعامل مع أجيال تربّت على نمط خاص، ليس من السهل صرفها عنه، ولا إقناعها بسواه، وهي لا ترى الحياة والنجاح والوصول إلا من خلاله!
بعض الدعاة يحاولون التجديد، ولكن بطرق تقليدية، وفاقد الشيء لا يعطيه.
جوهر المسألة أن ثمة فريقين.
عند الأول: فالعمل الدعوي بناء جديد يتأسس، ويعيد صياغة المجتمع والناس والحياة وفق رؤيته الخاصة المحدودة.
والثاني: ينطلق من رؤية للواقع القائم، متدبرًا كيف يتعامل معه بصبر وواقعية واتزان، بعيدًا عن الأحادية والإقصاء والمصادرة، مدركًا أن (الاستطاعة) ليست في الإطار الشخصي فحسب، بل هي أوضح

وأجلى في الميدان الإنساني العام، وليس يعرى عمل أو محاولة من رعاية الواقع المحيط والإذعان لتبعاته؛ فالإصلاح ليس عملًا تجريديًا متعاليًا، هو عمل بشري، يستحضر الصورة القائمة، ويحاول الرقي بها.

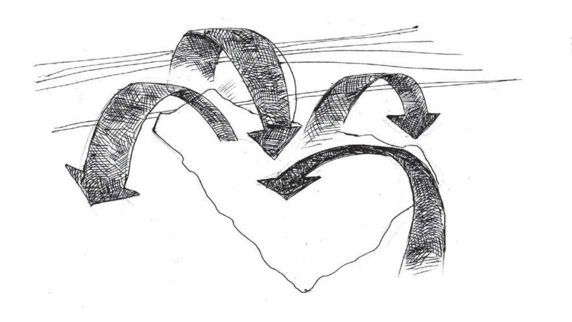
حوارات إلى ساعة متأخرة، وجدل محتدم شهده ذلك العام (١٤٠٣ – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٢–١٩٨٣م). كان عامًا حافلًا بالإضافات والتجليات، مما سوف يضع بصمته فيما بعده.

الكثير من المؤثرات قد لا تبدو واضحة للعيان، والناس اعتادوا أن ينسبوا المتغيرات لأسبابها المباشرة، دون أن يحملوا أنفسهم عناء البحث في الأعماق.



33

شيوخ الرحلة



سمعتهم كانت تسبقهم، وأسماؤهم المنقوشة بخط فارسي جميل على أغلفة الكتب؛ تأليفًا أو تحقيقًا تمنحهم الكثير من التقدير.

ثلة من فضلاء الشيوخ يتولون التدريس في مرحلة الدراسات العليا التي تسبق أطروحة الماجستير.

عبد الفتاح أبو غدة، ذو اللحية البيضاء الكثّة، والابتسامة الصافية، وهدوء الصوت، واطّراد النبرة في الحديث، مع الوقوف على نهايات الكلمات بالحركة دون تسكين؛ كان هو أستاذ علوم الحديث، أو ما يُسمى بالمصطلح.

(مقدمة ابن الصلاح) تُقرأ، والأستاذ يعلّق أو يشرح، بيانًا لكلمة أو فكًا لغامض، تصويبًا لنطق، أو نكتة لغوية، لطيفة أدبية، أو حكمة سائرة، قصة عابرة، أو طُرفة حاضرة.

الطالب يقرأ: فلان صدوق يَهِم، بكسر الهاء، فيصحح الشيخ الفعل بأنه بفتح الهاء، وأصلها: يَوْهم.

منه سمعوا لأول مرة: «يُوجَدُ فِي الأَنْهَارِ مَا لَا يُوجدُ فِي البِحَارِ»؛ إشارة إلى أن الحكمة قد توجد عند الأَصاغر، ويفتقدها الأكابر.

يسوق الشيخ الكلمة السائرة: «اثنان أبرد من يخ؛ شيخ يتصابى وصبي يتمشيخ»؛ فيقول الشيخ إنه وقف بعد البحث على أن اليخ هو: الثلج بالفارسية.

أحيانًا يقول مُلمِّحًا: «لا تهمزوا المشايخ».

المشايخ كلمة تُكتب بالياء ولا تُهمز، فلا يحسن أن تقول: «المشائخ» ولكن الشيخ يشير إلى معنى في بطن الشاعر.

يسوق موعظة في صورة قصة للحسن بن صالح وأمه وأخيه، الذين كانوا يقومون الليل أثلاثًا، فماتت الأم، فتناصف الأخوان قيام الليل، فمات الأخ فقام الحسن الليل كله.

الحديث عن كتب النوادر والمخطوطات شأن لصيق بالشيخ، وعن طريقه عرف الدارسون كتاب (التمييز) للإمام مسلم في الرجال والعلل، أو تعرفوا على القطعة المطبوعة منه.

يتوسع الشيخ في ترجمة الإمام أحمد من المطولات، ويقرأ ما كتبه الذهبي، ويعلق ويثني.

الشيخ يمنح الطلاب شيئًا من بحوثه أو تحقيقاته: (صفحات من صبر العلماء على شدائد التحصيل والطلب)، (العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج).

العلاقة يشوبها شيء من التوجّس، بيد أن لطف الشيخ وأدبه وذوقه يتجاوزها، رغم أن عبارات قد ترد؛ تنمّ عما في الصدور.

كتب تنشر وتوزع في (تفنيد أباطيل تلميذ الكوثري) والشيخ يصدر

رسائل علمية سلفية، ويقرر فيها عقيدة السلف في الإيمان والأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات بغير تأويل إلا أن تفاقم الخصومة واحتدامها لم يُجْدِ معه دواء، ولا بد عند بعضهم أن يتبرأ من شيخه، ومن كتبه، وأن يردّ عليه، وأن يعلن ذلك على الملأ، ولو حدث هذا؛ فالظن أنه سيقال بأن وراء الأكمة ما وراءها، وأن الأمر لا يعدو أن يكون ذرًا للرماد في العيون!

الدائرة المفرغة تضيع بدايتها، بين طلاب يتأثرون بأقوال شيوخهم، أو شيوخ يستحوذ عليهم الأقوياء من طلابهم.

بُعدٌ آخر، لعله كان حاضرًا بطريقة أو أخرى، الانشقاق الحركي الذي ضرب تيار الحركة الإسلامية في الشام، وامتدت آثاره إلى حيث يعيشون: في السعودية، والعراق، وغيرها...

الذين كانوا يحفظون قصيدة الأستاذ عصام العطار الوجدانية، والتي حوت شوقًا لبلده وزملاء طريقه، لاحظوا أن الرواة نسخوا بعض أبياتها لأسباب لم تكن محل الإفصاح.

إيهٍ أبا زاهد يا قمة شمخت ... بالعلم والفضل يا كنزًا لمكتسب!

ماذا عن الصحب والإخوان في حلب ... يا طول سهدي على الإخوان في حلب!

ما قر جنبي وقد أقوت مضاجعكم ... كأن جنبي مطويّ على قضبِ

ماذا تعانون من عسر ومن رهقٍ ... ماذا تقاسون من سجن ومن حَرَب!

يا أوفياء وما أحلى الوفاء على ... تقلب الدهر من معطٍ ومستلب!

أفديكم عصبة لله قد خلصت ... فما تغير في خصبٍ ولا جدب

التداخل في الانشقاق الحركي التنظيمي، والتمايز العقدي والمذهبي أديا إلى أن يتلقّن بعض الشبيبة قالة السوء في الرجل -أي الشيخ أبي غدة-، فتضطغن قلوبهم، حتى لا نرى للرجل فضلًا أو علمًا أو حقًا.

يصلي صاحبنا في مسجد كلية الشريعة صلاة المغرب، وإذا يدٌ تربت عليه من ورائه، ويلتفت ليرى الشيخ أبا غدة يصافحه، ويحييه ويدعوه لمصاحبته إلى منزله؛ حيث أهداه مجموعة من كتبه، وحين يقلب صفحاتها؛ يجد أنه لم يعد طالبًا في الدراسات العليا، بل أصبح «فضيلة الشيخ».

كان الشيخ أبو غدة في حاجة لمن ينصفه، كما قال أبو الطيب:

وَلَم تَزَل قِلَّةُ الإِنصافِ قاطِعَةً بَينَ الرِّجالِ وَلَو كانوا ذَوي رَحِمِ

حين قال عمار: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان؛ الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»، كان يقبس من نور النبوة، ويعيش خصومات كالتي نعيش!

من دروس الخصومة؛ تَعَلّم أن من شر ما يحدث إقحام العوام والصغار والبسطاء في دهاليزها، وهم غير مستبصرين، وأدواتهم في الانتصار والغلبة، ليست الحجة والبرهان والمعرفة والحوار والجدل والنصيحة، إنما الوقيعة والثلب والتعيير والتحذير والاستفزاز والتسرع والتصنيف والاتهام والغيبة والتجرؤ والإهدار.

وهم يواصلون الحرب إلى النهاية، فلا صلح ولا سلم ولا هدنة ولا متاركة، ولا يكفي تراجع أو تصحيح حتى يقع الإذلال والمصادرة وتدمير آخر الحصون!

ينظر المرء إلى ميدان المعركة بعد انطفائها؛ فيجد أشلاء ودماءً وطعنات، ووسائل شريفة، وأخرى ليست كذلك، ويدري أن العراك يستخرج أسوأ ما في النفس الإنسانية من معاني الأنانية والعدوانية والظلم والجهالة، يقول الله سبحانه: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»[الأحزاب: من الآية ٧٢]، ويقول سبحانه: « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا

مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ» [المعارج: ١٩- ٢٢].

كم يجمل أن يُحْكِم الكبار سيطرتهم على من تحت أيديهم، وأن يضبطوا أصول التعامل الرشيد اليقظ مع الاختلاف، ومع الخطأ، وفي مقام النصيحة ومقام الرد، ويتفطنوا لإفرازات الخصومة وتبعاتها، وينأوا بأنفسهم عن التعزز بالأعوان أو بالسلطان، بل يمحضونها لله، لا حظ فيها للنفس، رحمة بالعباد، وإشفاقًا عليهم، وحماية للمدرسة الشرعية من التصدعات.

الدهماء تميل إلى الخصام، وتجد نفسها فيه، تتقحم المعارك والمهالك دون تردد، والروح عالية، والحماسة مشتعلة، واللسان حديد، والعصبية والثقة بالمتبوع لا تحتاج إلى برهان.

لا يسألونَ أخاهُم حين يندبهم في النائباتِ على مَا قَال بُرهَانَا

لا يخرجون من معركة إلاّ ليستعدوا لأخرى، فما قيمة الحياة إن لم تكن طرفًا في عراك، وهو لا يظن بل يعيش في نفسه في مقام الذي كلما سمع هيعة طار إليها!

ثمة اختلاف، وثمة خطأ وصواب، وراجح ومرجوح، وحق وباطل، بيد أن الحق يحتاج إلى نفوس كريمة تحمله، وأدوات شريفة تدافع عنه، وعقول نيرة تفهمه، وإلا فيرحم الله من قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم.

◆◆◆

34

وآخرين منهم..



كلما عدنا إلى (المدرسة) زهدنا فيها من جديد!

الدراسة المنهجية كانت أربعة أيام في الأسبوع، وقد فات على صاحبنا شهرٌ أو يزيد قبل أن يلتحق بها، وأساتذة التخصص يُعدّون على أصابع اليد الواحدة، بيد أن الجلوس للتعلم هو درسٌ بحد ذاته.

كان جيدًا أن يعود إلى كرسي الطلب والتلقي بعد سنوات من ممارسة الأستذة والتعليم، وقد يظفر بتأنيب أو عتب على تأخر في الحضور، أو خطأ في الإجابة.

فضلًا عن معلومات متفرقة هنا وهناك، تؤهل لمناقشة الأستاذ، أو استطعامه الحديث، وتسجيل بعض الإفادات والدروس والاعتبار.

كان بعض الحكماء يقول:

«إن مما بقي من جمال الحياة مجالسة الأكابر، والاستماع إلى أعاجيب أخبارهم وعبرهم».

والسن لها حكم، فإن العلم لا يُؤخذ بالقراءة والحفظ وحسب، بل إن حرارة التجربة والمعاناة تُنضج العقل، وتلقّحه بأهم العلوم وأنفعها وأكثرها احتواءً على الروح البنّاءة.

كان مما قرأه عن الزهري أنه قال: «إن هذا العلم إن أخذته بالمكاثرة غلبك ولم تظفر منه بشيء، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذًا رفيقًا تظفرْ به» وهو يفهم من هذا عنصر الزمن والسن وحضوره القوي في المعرفة وتوظيفها.

الأستاذ الكبير محمد أديب الصالح من دمشق، هو أديب كاسمه، أديب في شخصه وخلقه وسمته، هادئٌ في لفظه ومنطقه، اتصلت به معرفةُ الفتى في دراسته الثانوية، يوم أن وجد على رفوف مكتبة النهضة كتابًا في نحو خمسمائة صفحة بعنوان (على الطريق لمحات وكلمات) قرأه بإعجاب، ووجده مقالات متنوعة، كتبها صاحبها في افتتاحياته لمجلة (حضارة الإسلام) التي كان يرأس تحريرها من دمشق، وكان يكتب فيها أكابر الأدباء والعلماء والفقهاء.

ثم تعرف إليه عن كثب في السنة التمهيدية، مدرسًا لمادة الحديث الموضوعي، التي تعالج موضوعات شتى، كالعصبية الجاهلية، والعلاقات الاجتماعية، على ضوء الأحاديث الواردة في الباب.

ثم استمع إليه متحدثًا عبر إذاعة القرآن الكريم من الرياض في موضوعات شائقة، مقتبسة من هدي السنة.

كان هادئًا وقورًا، ذا فضل وخلق رفيع.

الأستاذ الدكتور أحمد معبد عبد الكريم، أستاذ المادة المتخصص المتعمق، يُدرِّس المصطلح وعلوم الحديث، يتوغّل في دراسة ألفاظ الجرح والتعديل واختلاف الأئمة في اصطلاحهم ومرادهم، ومقارنة المراتب بين المتقدمين والمتأخرين، يدرّس مادة التخريج، ومعرفة الروايات

والطرق والعزو والإسناد، والتعامل مع كتب السنة، كالصحيحين والسنن والمسانيد والمعاجم والمستدركات والمستخرجات...

وينقل الطلبة للمكتبة؛ حيث الدروس التطبيقية العلمية على كتب السنة، حتى الاختبار يُؤدَّى في المكتبة وبين الكتب. هو أستاذ حقًا، بل هو من أكثر من يؤهل الطلبة ويخرجهم، ويزودهم بالمعرفة التخصصية، لغزارة مادته العلمية، ودقة معرفته، وجدّيته في الأداء، وقربه من الطلبة. يتحمل عبئًا ينوء بالعصبة أولي القوة، فهو يدرس كافة المستويات، ويتولى الإشراف على رسائل علمية، ويمنح أوقاتًا إضافية للطلاب، ويصحبهم في خروجه من المحاضرة، ويستقبلهم في المنزل، وطالما استقبل طالبه في منزله، أول ذلك كان بمعية وترتيب الشاب النابه عبد الوهاب الطريري، والذي سبق إلى معرفة الدكتور معبد والاتصال به، ثم توطّدت العلاقة مع الدكتور؛ ليصبح مشرفًا على الأطروحة العلمية للماجستير (الغربة وأحكامها في ضوء السنة النبوية)، وليجيز تلميذه بمروياته، في ثبت حافل بالأسانيد.

الدكتور أحمد معبد نموذج للتضحية والتفاني؛ لربما أدركه التعب، وأجهده حتى يعيا ويسقط، ولكنه حين يقف للتدريس ينسى ذلك، ويتعامل بحيويته وحرارته الفطرية.

صبور حسن الخلق والسّمت، لا يغضب ولا يتبرّم، حاضر النكتة والبديهة، خفيف الروح كعادة أهل الصعيد.

حين سأل بعض الطلبة أحد الموظفين بدار الكتب المصرية.. هل يعرف الشيخ أحمد معبد؟

ضحك وتساءل: كيف لا يعرف من كان يركب معه الباص صباحًا إلى دار الكتب، ويعود معه في نفس الباص مساء.. فيداوم كالموظفين في المكتبة؟!

بيد أن الأستاذ يفرط في الاستيعاب والتوسّع، فيعوقه هذا عن

الاستكمال. لقد أخرج وحقق كتاب (النفح الشذي في شرح سنن الترمذي) لابن سيد الناس، فأنجز منه مجلدين فحسب، وكان يكتب في التعليقة الواحدة أكثر من مائة صفحة، ولذا يتوقف العمل أو يتأخر.

الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب البحيري، صاحب أطروحة (الحِيَل في الشريعة) والتي طبعت فيما بعد، وهو محل حفاوة واهتمام من المتخصصين في الفقه وأصوله، أدركه الطلبة وقد كبرت سنه، وضعفت قواه، وكان يأمر أحد الطلاب فيقرأ من شرح النووي على صحيح مسلم، والشيخ يعلق تعليقات خفيفة، ويقول: ضع تحت هذا خطًا، ضع تحت هذا خطًا، للمواضيع المهمة في الشرح..

ناقشه أحد الطلبة يومًا، فقال:

- عندي أن الأمر كذا!

قال الشيخ:

- (يا ابني إنت ما لكش عند)!

يقولون: هذا عندنا غيرُ جائزٍ ومن أنتم حتى يكون لكم عندُ؟!

والطالب أحيانًا يكون مفرطًا في الجدّية، يجادل عند كل مسألة، ويستوقف عند كل كلمة، بينما التجربة الحياتية ترشد إلى أن السهولة والإمرار والعفو هي من أخلاق الحكمة، وأن كثرة الإيقاف والملاحظة دليل على ضعف الفقه والبصيرة.

حصة الشيخ كانت ثرية بالطرافة والتعليقات الجادة والهازلة.

مادة الثقافة الإسلامية كانت مشتركة بين طلبة الأقسام في الدراسات العليا، إذ يلقي أحد الأعلام أو المتحدثين محاضرة أسبوعية في قاعة كلية الشريعة في مبناها القديم، وتُطبع المحاضرات في ملازم يختبر فيها الطلاب، وهي المادة الوحيدة التي نال فيها الدرجة الكاملة،

وكانت سببًا في رفع معدله على زملائه، ربما كان مهتمًا بموضوعاتها، بينما الكثيرون يرون أن مادة الثقافة ليست من المقررات الجادّة، وقد يستغرب بعضهم تقريرها على الطلاب..

مناهج البحث مادة ذات أهمية كبيرة، كان يدرسها د. عبد السلام عبده، وهي تُعنى بطريقة إعداد البحث شكلًا ومحتوى، وقد أعد فيها صاحبنا بحثًا في تلك السنة بعنوان (ضوابط للدراسات الفقهية).

الشاب تخرج من كلية الشريعة، وله عناية بالفقه، وهو الآن في أصول الدين، وهذه الحالة المخضرمة ولّدت هذا البحث الذي سبق الرسالة العلمية، وقد أتمه بعد ذلك، وطبعه في كتاب.

صورة العديد من الزملاء متحلّقين حول الشيخ في مكتبة الكلية هي انطباع يصعب نسيانه، محفورة في الذاكرة بجدها وهزلها، وشخوص تلك المرحلة باقية لا تزول.

الأساتذة والشيوخ، والجهاز الإداري في الكلية، والزملاء الذين استحكمت العلاقة معهم، والجو العلمي والتكويني هي عناوين خلابة لسنة عمرية، بدأها خجلًا لمقابلة أناس لم يعرفهم من قبل وقد تأخرت بدايته عنهم، ثم اندمج فيها حتى تمنى أن تطول، وخرج منهم بزاد أيّ زاد، ليس أقله أن ظفر بمعرفة ثلة من الزملاء الذين كان لهم أثرهم على شخصه وحياته لا يقل عن أثر الكثير من الشيوخ والمربين والمعلمين.

ولا زال يعد تلك الصحبة رحمًا بينه وبينهم، وقد تفرقت بهم سبل الحياة، فيصادف أحدهم ليكتشف أنه وزير، ولكنه محتاج إلى اليد التي تدعم وتساعد بلدًا منكوبًا ببعض أهله كالصومال، ويلقى آخر عند عتبات الحرم فيجده رجل أعمال، ويذكر ثالثًا فيراه داعية يصول ويجول، «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ» [الأنعام: من الآية١٣٢].

35

المعيد



عاد في سنة (١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م) إلى كليته التي تخرّج فيها (الشريعة) تحت اسم: معيد، اسم تراثي ذكره السبكي ونحوه للطالب الذي يعيد شرح بعض المسائل بعد الشيخ.

وريثما يُسجل الأطروحة ويحضّرها ويناقشها، يحل المعيد أزمة الأساتذة بتدريس بعض المواد التخصصية، وبالذات مادة الحديث النبوي، والمصطلح، والتخريج.

الكتاب المعتمد هو (سبل السلام) للإمام الصنعاني، وهو شرح لكتاب (بلوغ المرام من أحاديث الأحكام) للحافظ ابن حجر، والحق أنه ليس فيه مادة علمية ذات قيمة عالية، وغالب ما فيه مقتبس من (البدر التمام) للحسين المغربي، سوى آراء متفرقة للمؤلف في مسائل، وهي مما انفرد به المؤلف، وخالف فيها المشهور أخذًا بظاهر الدليل، وهذا مما

يحمد له، أصاب أم لم يصب، فليس الاجتهاد مشروطًا بالصواب، وإلا لم يسم اجتهادًا.

يضاف إلى ذلك نقله واحتفاؤه بآراء الإمامين ابن تيمية وابن القيم في مواضع أخرى من الكتاب.

من الناحية النظرية فالطالب الجامعي غير مرتبط بمقرر أو كتاب خاص، بل لديه أبواب وكتب وموضوعات وأحاديث ومسائل، يدرسها من خلال النصوص، إلا أن أكثر الطلاب لم يتهيئوا لذلك، وذكر مصدر لهم يعني الاكتفاء به عما سواه.

من الناحية النظرية أيضًا، فالأستاذ الجامعي لا يلزم بشرح المقرر كله، إذ يكفي أن يشرح نماذج منه، ومن ثم يحيل الطلبة على مراجع علمية، إلا أن ما يشرحه الأستاذ غالبًا هو المقرر المعتمد الذي تدور حوله أسئلة الامتحان.

لم يكن جديدًا على التدريس بعد خبرة السنوات الأربع في المعهد العلمي، فلا قلق يذكر من مواجهة الطلاب، ولا من إعداد المادة، على أن مما يعتز به أن قدرًا معتدلًا من القلق يساوره كلما هم بحديث، أو تهيأ لمحاضرة، أو تصدر في درس أو مجلس.

ألقى آلاف المحاضرات، والمواد المسجلة له نحو ألف مادة، وما ضاع منها، أو لم يوثق أصلًا يزيد على ذلك أضعافًا، ولا زال يحمل هيبة ذلك المقام، ويرتب ما يجب أن يقوله، ويُعد الأدلة والنصوص والأمثال والقصص والأشعار، ولو في ذاكرته أو في قصاصة صغيرة.

ومما يعتز به حتى اللحظة، أنه لا زال غير راض عن أدائه من بعض الوجوه، ويحاول أن يتعلم المزيد من المعارف والمعلومات، ويتعلم طرائق الإلقاء والحديث والتأثير، ويتعلم قبل ذلك وبعده طرائق التفكير والتأمل والنظر.

أدرك من تدريسه في المرحلة الجامعية أن المشكلة الأولى لدى الجادين من الطلبة، هي سرعة منح الولاء للفكرة، والتشبع بها، ومنحها القداسة دون تمحيص، وسرعة التأثر بالجو المحيط والاستسلام لمطالبه، وكأن الطالب ينظر من حوله إلى مصائر المتمردين وما آلوا إليه، فيستعيذ بالله من مصيرهم، ويزايد على ذات الأفكار التي حوكموا بموجبها، وكأن لا طريق إلا الاستسلام أو التمرد، أما الصبر والتأني والحلم والحكمة فهي ما لا تأتي إلا لمامًا، أما تقليب النظر والرأي، والقعود في موضع المخالف والتأمل في أدلته ومقاصده وزوايا نظره فلا يقبله لنفسه أصلًا!

المنهج الجامعي، يحفل بالمقارنة بين المذاهب والأقوال، ويسمح بسرد الأدلة وحكاية وجوه الاستدلال، ولكن لا يعلِّم الطالبَ طريقةَ التفكير، ولذا يقبل المتعلم -بأريحية- قولًا ما في مسألة كبيرة الأهمية لأنها صارت تاريخًا، أو لأنه لم يتلق فيها قولًا لشيخه أو لمجتمعه!

وقد يكون القول منطويًا على غرابة أو مخالفة لنصوص صريحة، ولكن بالنظر لنصوص أخرى في الباب.

وتجده عاجزًا عن إطراد هذا المنهج في مسائل أقل أهمية وأقل وضوحًا؛ لمجرد أنه تلقن فيها رأيًا على قاعدة:

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكَّنا

وجد شابًا يتحمس لرأي أبي حنيفة في سقوط الصلاة عمن لا يأتيه وقتها باعتبار أن الوقت هو سبب الوجوب، كالذين يعيشون في المناطق القطبية وما حولها، ولا يوجد وقت لصلاة العشاء عندهم؛ حيث لا يغيب الشفق إلا بطلوع الفجر.. وآخر جادله في رجحان القول بسقوط صلاة الظهر عمن وافق العيد عندهم الجمعة، فصلى

العيد، فلا جمعة عليه ولا ظهر، احتجاجًا بالنقل عن ابن الزبير أنه صلى العيد، ثم لم يخرج إليهم حتى صلاة العصر، وبأنه قول لبعض أئمة السلف..

ومع احترام هذه الأقوال، إلا أن الرشد يقتضي ألا يتعجل المبتدئ بمثل هذه الترجيحات التي تحتمل من أئمة عظام، ولا تقبل من متعلم حديث العهد بالشأن!

ولكنك تجد الفتى نفسه صاحب هذه الترجيحات (نشبة) في مسائل عادية، يعظمها ويفخمها، وتكبر في نفسه؛ حتى تصبح موردًا للولاء والبراء، والانسجام النفسي، ويفترض نفسه فيها (مجاهدًا) يمشق الحسام للذب والدفاع، وإسكات الخصوم، ودحض المعترضين، وتفنيد (الشبهات)!

درّس طلاب الشريعة وأصول الدين الذين تعتبر المادة عندهم مادةَ تخصص، وقد تلقوها من مدرس الفقه، وبعضهم أخذها عن الشيوخ في المساجد، وفي تلك المرحلة كان صيت العلامة الشيخ محمد بن عثيمين في ازدياد، ودروسه تتلقى العديد من القاصدين، وآراؤه الفقهية تستقطب المتفقهين والطلبة، وعادة ما تكون محل حوار وجدل في قاعات الدرس.

درّس صاحبنا لهؤلاء المتخصصين صلاة المسافر وقصر الصلاة، وكان للشيخ ابن عثيمين فيها رأي خاص يتوسع فيه بتعريف السفر، ولا يقصره على مدة محددة، كثلاثة أيام أو أربعة أو أسبوع، كما هي عادة الفقهاء، ويميل إلى رأي منسوب لبعض علماء السلف وابن تيمية ومدرسته في أنه مسافر أبدًا ما لم يُجمع ويُزمع إقامة، ولو مكث سنين.

وكان هذا ميدانًا للمحاورة بين أصحاب المذهب، وبين منتحلي هذا القول ومعززيه بالدليل.

وبعيدًا عن العوام وأشباه العوام والسماعين للعوام الذين يستخدمون النبز والتحقير لكل رأي جديد لم يسمعوا به من آبائهم الأولين، كانت مواقف الطلبة تتفاوت تفاوتًا شديدًا، بين من يميل لهذا القول، ومن يتردد، ومن يعارضه، ومن يعتبره قولًا محدثًا خارجًا عن أقوال الأئمة، وتفسيرًا غير دقيق لشروح ابن تيمية.

وهو قول معتبر، وإن كان محتاجًا إلى ضبط ودقة في التطبيق، هكذا كان يقول صاحبنا.

وإلى جانب هؤلاء درَّسَ الأقسامَ غير المتخصصة، كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والتربية؛ حيث الأحاديث لا تتعلق بالأحكام، بل بالآداب والأخلاق والتربية، فهي مختارات من كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي، مع شرحها من كتاب (دليل الفالحين)، ويحذف الأستاذ ما يتعلق بأبواب الاعتقاد من الشرح؛ حيث قرره المؤلف في بعض المواضع على غير طريقة السلف -رضي الله عنهم-، الحذف محبب لدى الطلبة أيًا كان سببه.

والطلبة هنا أسلس قيادًا، وأبعد عن التكلف المعرفي، والدرس الأكاديمي، وبهذا يميل العديد من المعيدين غير المتفرغين لهذه الأقسام، لسهولة مؤونتها، وخفة تحضيرها.

بيد أن صاحبنا يشاطرهم هذا الميل للسبب ذاته، ولاعتبار آخر هو المقصد التربوي لطلبة يتخرجون من كلية إسلامية دارسين علومًا حياتية، فهم محتاجون لتعميق القيم والمفهومات والمعاني الشرعية في نفوسهم.

أثقلَ عليهم يومًا بطول المقرر، وكثرة المذكرات، وحين رأى تبرمهم قال: «إذا كان مقصودكم بالمذاكرة النجاح فلا تذاكروا، من حضر الاختبار فهو ناجح، فالأسئلة يسيرة ولا كلفة فيها، لكن من أراد

المعرفة والتكوين التأسيسي فليقرأ بهذه النية».

لا يعتقد أنه حابى أحدًا أكثر مما يقتضيه طبعه السهل، ولكن الذي حدث فعلًا أن الطلبة كلهم نجحوا إلا من لم يحضر الامتحان!

ثمة هدف آخر، كان يتعرف على النوعية التي تناسبه، ويمكن أن تعمل معه، ولم يكن لديه معايير، بقدر ما كان الانجذاب الذاتي يسبق المعايير جميعها.

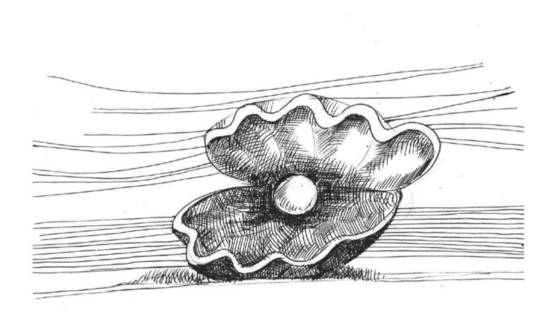
الأستاذ خالد البهلال، الذي يتولى تصحيح بعض مقالاته، ويراجعها لغويًا، هو أحد الطلبة الذين درَّسهم في كلية اللغة العربية، وتوطدت علاقته معه، منذ ذلك اليوم إلى اليوم.

ما بين (١٤٠٥ هـ إلى ١٤١٤ هـ - ١٩٨٤-١٩٩٣م) -وهو العام الذي شهد قرار إبعاده من الجامعة- عديد من السنوات حافلة بالأحداث.



36

ومن العزلة يتحدّث



كان طبعه اجتماعيًا؛ يخالط فيعرف وينكر، ويرقب الناس من حوله، فيمشي تارة ويهرول أخرى، ويفحص العيون، فيعرف منها ما وراءها:

عيناك قد دلتا عينيّ منك، على ... أشياءَ لولاهما ما كنتُ أدريها

والنفسُ تعرفُ مِن عينيْ محدّثها ... إنْ كان مِن حزبها أو مِن أعاديها

وليس يرغب من ذلك إلاّ أن يحاول جهده أن يمضي لعزيمة قاصدة؛ فقد توافقه نفسه، وقد تجري به مع الهوى حيث ولّى.. وإذا كان ابن خلدون يقول: «إن الإنسان مدنيٌّ بالطبع»، فإن صاحبنا مدني بالطبع والتطبّع.

كان ذلك طبعه، ورصد اتجاهًا غير بعيد يحثّ على العزلة؛ إذ يجد فيها

حلًا نفسيًا لمشكلات الزمان والعصر، ويطبق عليها شروط فهم أحاديث العزلة والخلطة، فكان ذلك دافعًا ضمن دوافع كثيرة؛ علمية وحديثية ومدرسية لدراسة هذه الإشكاليّة.

ولذلك كان الحديث عن (العزلة والخلطة وأحكامها) أحد موضوعات رسالته العلمية، بيد أنه طَبَعَه مستقلًا في كتاب يحمل ذات العنوان.

أصّل أن المخالطة هي منهج الأنبياء؛ لأنهم بُعِثوا بالإصلاح والتصحيح، وهو ما يتعذر إلاّ بمعايشة الناس والصبر عليهم.

وأفضى البحث إلى الحالات التي تشرع فيها العزلة، وهي:

- العزلة عند فساد الزمان، حين يكون الإصلاح متعذرًا في حق الفرد، أو في حق الجماعة كلها، وهنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإقبال على الخاصّة، وترك أمر العامّة. وقد يتأتى هذا في قُطْر دون آخر، أو في زمان دون غيره، لا أن يستحكم هذا في الأمة كلها، فقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي في الإصلاح، قاعدة مستقرة، وشريعة قائمة.

- العُزلة عند الفتنة؛ التي هي القتال على الملك والدنيا، مع التباس الأمر وعمايته، كان يعجبه أن يردد قصة سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- حيث يقول: «لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان، ولسان وشفتان، يعرف الكافر من المؤمن».

أوأبيات أيمن بن خريم:

ولَسْتُ بقاتلٍ رَجُلًا يُصَلي	على سُلْطان آخَرَ مــن قُرَيْشِ
لــه سُلْطانُهُ وعــليَّ وِزْري	مَعــاذَ اللهِ مــن سفَهٍ وطَيْشِ
أأَقْتُلُ مُسْلِمًا في غير جُــرمٍ	فليس بِنافعي مــا عِشْتُ عَيْشي

فهي بهذا المعنى لا تعني اعتزال الناس والأنيس، بقدر ما تعني اعتزال

هذه الفتنة بعدم الخوض فيها، والحرص على ألاّ يكون طرفًا سياسيًا لحرب داخلية، المنتصر فيها خاسر.

- اعتزال السلطان عند فساده، حين يكون غشيانه لنفع دنيوي عاجل، أو لمصلحة خاصة، وتزول عنه نية الاحتساب، مع وجوب السمع والطاعة في المعروف.

الكتاب طُبع مستقلًا عام (١٤١٣هـ-١٩٩٢م)، ولم يُسمح بتوزيعه؛ لأن الأجواء بدأت تتلبّد بالغيوم.. ليس لمحتواه، ولكن لاسم مؤلّفه الذي كان محظورًا، ثم نُسخ الكتاب، وطُبع، ووُزّع بعد عشر سنوات.

كتب مقدّمتَه سماحةُ الشيخ عبد العزيز بن باز، فقد كان حيًا، ولا يزال حيًا في وجدان الكاتب، وقد قرأ الكتاب، وعلّق على عشرة مواضع، أهمها الاستدراك على المؤلف في باب الإنكار على الأكابر؛ حيث قال:

«ما ذكره المؤلف -وفّقه الله- حقٌّ، إذا لم يُخش المُنكر على الأمير ونحوه جهرةً، ما هو أعظم فسادًا وأسوأ عاقبة، وإلاّ فإنه لا يجاهره بذلك، بل ينصحه سرًا بالأسلوب الحسن، ما لم يخش أن الناس يظنون أن الحق هو ما فعله الأمير أو الكبير، فإنه يبيّن الحق بالأسلوب الحسن؛ كما فعله أبو سعيد الخدري مع مروان بن الحكم أمير المدينة المنورة، لما أراد أن يخطب قبل صلاة العيد». (ص: ٦٢).

وقريب منه (ص: ١٠٤) حول الخروج عند الكفر البواح، وأنه مرهون بالاستطاعة، وتحقق المصلحة.. والتحذير من مغبة الخروج وتبعاته وآثاره.

وكتب سماحته للكتاب المقدمة التالية:

«اطّلعت على الكتاب الموسوم بـ(العزلة والخلطة، أحكام وأحوال) من مؤلفات أخينا في الله العلاّمة الشيخ سلمان بن فهد العودة، فألفيته كتابًا قيّمًا كثير الفائدة في موضوعه، وقد حقّق المؤلف فيه أحكام العزلة

والخلطة، وبيّن فيه متى تكون العزلةُ مستحبةً أو واجبة، ومتى تكون الخلطة أنفعَ للمسلم وللأمة، وذكر الأدلة في ذلك، وخرَّج الأحاديث في الحاشية تخريجًا جيدًا، فجزاه الله خيرًا وضاعف مثوبته، ونفع المسلمين بهذا الكتاب، وجعله عونًا لهم على كل خير، وإني أنصح طلبة العلم بقراءته، والاستفادة منه، ولطلب المؤلف -وفقه الله- بيان رأيي في الكتاب جرى تحريره، والله وليّ التوفيق».

حميمية يعتز بها، كما يعتز بأن سماحته كان يستمع إلى قراءة إمام مسجده بمكة بعد صلاة العصر من رمضان لكتابه الآخر (دروس رمضانية)، ثم يعلق عليها ويشرحها، ويقول: مراد المؤلف كذا.. وليس يعلم أكان الشيخ يدري أنه المؤلف أم لا.

أصبح يدرك أن روح استيعاب الآخرين، والثناء على صواباتهم، وإفساح المجال لهم، هو أهم ما تحتاجه القيادة العلمية والسياسية على حدٍّ سواء.

وأن محاصرتهم بالخطأ أو الزلة، وتذكيرهم بها كلّما نسوا، وتعييرهم بالعيب، وعزلهم عن نطاق التأثير والمشاركة، أو عن مجال الثناء والإشادة يعني الحكم عليهم بالتأبيد في سجن الخطأ، وتدمير أي رغبة داخلية في التصويب والانعتاق.

الإمكانيات النفسية لذلك الشيخ الطيب جعلته مقصدًا يؤمّه الكثير في شتى شؤونهم، وجمعت حوله القلوب، وإن لم تجمع حوله العقول.

الخلطة والعزلة ليستا نقيضين، إذا وجدت إحداهما رحلت الأخرى، بل سلوكان، يمكن أن يوجدا معًا، ويمكن أن يغلب أحدهما.

ولعل مما لم يقله المؤلف آنذاك، أن مخالطة الأغيار تمنح المرء ثقافة جديدة، وتمكّنه من عقد المقارنات المفيدة، وتؤهّله لمعرفة الطبائع والعوائد والسنن، وتربّيه على التواضع، حين يعيش مع مَن لا يعرفونه

ولا يلتفتون إليه، فتزول الأبهة التي يمنحها الأتباع والمتتلمذون، وربما أفضت إلى أن يأخذ الإنسان (مقلبًا) في نفسه، أو يبالغ في تصوّر إنجازه الذي يبدو له تاريخيًا، ولو غطّى ذلك بقشرةٍ من التواضع المصنوع.

المخالطة تكرّس البعد الإنساني الذي يحتاجه الخطاب الدعويّ ليكون أقرب إلى الواقعية والفطرة، وتلمّس حاجات الناس، واستحضار أعذارهم وظروفهم وأسباب ما هم فيه، بدلًا من النظر المثاليّ المتجرّد من لمسة المعايشة والحياة.

مما لم يقله أن العاقل لا يخاف من مخالطة مخالف لمصلحة دين أو دنيا، وقد سكّ الفاروق وسنّ مبدأ «لستُ بالخبّ ولا الخبّ يخدعني»، فلماذا أفترض الحصافة والذكاء والدهاء لخصمي، وأفترض الغفلة والسذاجة لذاتي؟

مما لم يقله أن من العزلة أن يحفظ المرء كرامته بألّا يقع في أسر الدنيا ومطالبها، وإن عرضت له، وأن يرتفع بروحه وطموحه عن الاستئسار للمصالح الشخصية في علاقاته ومواقفه.

وأن من العزلة أن يستوعب البيئة وإمكاناتها في التغيير وقبول التصحيح والإصلاح، دون أن يسمح لها باعتقاله والإملاء عليه، وأي معنى لصاحب فكر أو رأي أو علم إذا كان يهمس بالأمنيات، ويعلن ما تريد فئة أن تسمعه منه؛ لتحفظ له فيها مقام الريادة، على قاعدة «أنا قائدكم، فدلّوني على الطريق».

إنها عزل القلب عن تأثيرات الضغط السلبي، وعن الأذى المقصود وغير المقصود الذي يحاوله معوق يظن أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وقد يغلبه فرط الاحتساب حتى يجور على حق الأخوة والمروءة والخلق الكريم.

وعزل العقل عن تقليد السائد؛ ليرتقي إلى أفق الاختيار الطوعي

للأحسن، «يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» [الزمر: من الآية ١٨].

وعزله عن الخضوع لردود الأفعال؛ ليظل في دائرة الوسط، لا يستجيب للحصار أو يستسلم لمقتضاه، ولا ينفعل فيتجاوز الحد غضبًا أو انتقامًا، «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» [الفرقان: من الآية ٦٧].. هي قمّة التوازن التي يحاولها المرء فيخفق، بيد أنه واصلٌ ما دام أن الإخفاق لم يقض على روح المحاولة والصبر والتكرار، ولعل هذه المعاني هي بعض دلالات «يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»، لقد أصبح يقرأ العزلة والخلطة ليس من منطق مشكلة ما، بل يحاول أن يقرأها كثنائية تقوم عليها العلاقات بين الأشياء، فهو يحب الآن أن يخالط الناس، وأن يعتزل مواطن السوء والابتذال، تمامًا كما يريد ابن الوردي:

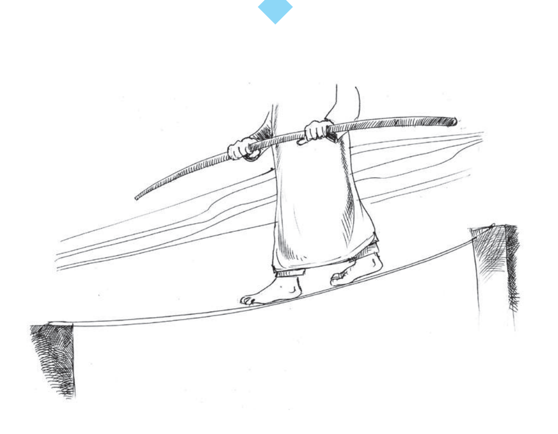
«اعتزل ذكر الأغاني والغزل».

وهي من معنى الجهاد الدؤوب، حتى يأتيك اليقين. وشرطها أن يكون المرء بصيرًا بنفسه، عارفًا بجوانب قوّتها وضعفها «وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [فصلت: ٣٥].



37

باحث عن الغربة



السفر والترحال واحدة من هواياته المحببة على أنه لم يكن مغتربًا، ولم يكن يعدّ سفره إلى الرياض -ولا مقامه فيها نحو سنة- شيئًا من الغربة؛ فهناك الأصدقاء والشيوخ والتلاميذ والقرابة. فابن عمه ونسيبه -الطالب في الدراسات العليا في كلية العلوم الاجتماعية (قسم التاريخ)، والمختص فيما بعد بالتاريخ الإسلامي والسيرة النبوية (د. سليمان بن حمد العودة)- كان مستقرًا في حي الصالحية، وهو حي يشكّل فيه أهل القصيم أغلبية واضحة، وأخوه الأكبر منه سنًا (محمد) كان -أيضًا- هناك، وغدت أبوابهم مشرعةً لا تكاد توصد.

وهو وإن كان في بيته الخاص أثناء دراسته المنهجية، إلاّ أنه ظل يتردّد على هذا البيت طويلًا، وحين انتقل أوّلهم إلى (حي الضباط)؛ حيث صار إمامًا للجامع فيه، كان يجد أنسه ونفسه هناك.

(الغربة) دلفت إليه حين فرغ من السنة التمهيدية، وهمّ بتسجيل الرسالة، واختار أن يبحث موضوعًا ما، على أن يحقق مخطوطة؛ فالبحث أكثر أصالة، وأدلّ على شخصية الطالب من المخطوط الذي هو فيه مظهر لجهد الآخرين، والمحقق على الرغم من أنه يمارس جهدًا علميًا عاليًا، إلاّ أنه في النهاية يضيف عمره لعمر الكتاب الذي يحققه، عوضًا عن أن يصنع عمره بنفسه من خلال البحث المستقل.

وبعد مداورة ومشاورة استقر قراره على معالجة موضوع (غربة الإسلام وأحكامها في ضوء السنة النبوية).

تم التسجيل، ووُضعت الخطة، وعُيّن الأستاذ أحمد معبد عبد الكريم مشرفًا على الرسالة.

وأنجز البحث في سنتين، لتتم المناقشة، ويحصل على الشهادة في (٢٤/ ٥/ ١٤٠٨هـ- ١٤/ ١/ ١٩٨٨م).

الجُذاذات السميكة وأقلام الرصاص الصفراء الألمانية، وحشدٌ هائل من المراجع المتخصصة كانت سلوتَه الدائمة أثناء البحث.

ونال الطالب درجة الماجستير بتقدير ممتاز، وناقشه فيها الأستاذ د. عبد العزيز التخيفي، والأستاذ د. شاكر ذيب فياض، من جامعة الملك سعود.

أقام لنفسه مكتبًا خاصًا، كالصومعة يحجبه عمن حوله، وأمامه أدراج الكتب والمراجع بعضها على الرفّ، وبعضها مفتوح على الطاولة، فضلًا عن آلاف البطاقات التي رقم عليها فوائد البحث والقراءة مما يتعلق بموضوعه، وقسم آخر منها معزول مما يتعلق بالفوائد العلمية العامة، وكلما فرغ من رزمة عاد يقول: ردّوها عليّ، فطفق مسحًا بالسوق والأعناق.

كان التفرّغ فرصةً نادرةً عكف فيها على ما كان يتمنى، وقدّم بحثًا

علميًّا في السيرة النبوية، وموضوع الغربة وأحاديثها، وأقاويل أهل العلم فيها، وقرأ كتب السنة المطبوعة أو كاد.

قرأ البخاري ومسلمًا، والسنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد، وموطأ مالك، ومستدرك الحاكم، ومصنف عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وصحيح ابن خزيمة، وابن حبان، وكتب الجوامع، كجامع السيوطي وكنز العمال ومجمع الزوائد..

ألمّ بالمعروف من نصوص السنة النبوية، ولو لمرة واحدة، وسجّل في هوامش تلك الكتب فوائد مقتبسة عالية القيمة، عزيزة الوجدان، ولا يزال يحتفظ بهذه النسخ في مكتبته بلطائفها وطرائفها، وكانت الفترة التي غابت عنه تلك المكتبة وخضعت للتحوّط الأمني فترة عسيرة، والإفراج عنها كان بمثابة الإفراج عن ذاته شخصيًا، أو عن بعض ذاته.

كانت أمه تقول حين عادت مكتبته.. لقد عاد نصف ولدي وبقي نصفه الآخر، وهي تذكر النواة الأولى المتواضعة لهذه المكتبة في (روشن البيت).

أفاد ثروة معرفية بالقراءة، وأخرى لا تقل عنها بالقصاصات التي تغطي آلاف المواضيع في شتى المسائل مما يشتهي، أو يتوقع أنه سيحتاجه يومًا ما.

وهي طريقة داوم عليها، وحصّل منها الكثير فيما يقرأ، حتى إذا همّ بمراجعة كتاب، ألقى نظرة عابرة على صفحاته البيضاء في أوله وآخره، ليجد ما تعشقه العين وتطرب له النفس، من المعارف التي يرسّخها التكرار.

وعمل بهذا بعد ذلك في مدوّنات ضخمة، كالمغني وفتح الباري وفتاوى ابن تيمية، والأغاني، والعقد الفريد، وسير أعلام النبلاء وسواها..

زميله الذي كان مثله يعد أطروحة، وعجز عن تخريج أحاديث، أعطاها إياه ليبحثها له، وفعل، ثم طلب إليه أن يراجع نص الرسالة ففعل، حين مر صاحبنا على متجر تصوير الرسائل وجد الرسالة التي أشرف عليها معروضة للطباعة، ولم يشأ أن يصورها، كان متأكدًا أن زميله سينفحه بنسخةٍ مقابل جهده، وأن الأمر ليس سوى نسيان، مقابلة عابرة في ساحة الكلية تذكره أن يستأذن صديقه في تصوير رسالته؟ فيجيب الآخر أن لا مانع! يدرك أن من النفوس من لا تحتفظ بالجميل، وكانت صدمة صغيرة هونت عليه ما حدث بعد هذا حين أصبح ذلك الزميل يغتنم الفرص ويدبج المقالات الناقدة في ظرف صعب!

بَحث عن أحاديث الغربة، وخرّجها تخريجًا عمليًا، أتقن بواسطته طرق التخريج ودراسة الأسانيد، ودرّس هذه المادة لطلاب أصول الدين بأسلوب عملي في مكتبة السنة، وكان هذا مدخلًا مكّنه من دراسة كتاب (بلوغ المرام)، وتدريسه في مرحلة لاحقة.

وأطل على السيرة النبوية في طيّات الرسالة، وطبع ما كتبه عنها مستقلًا، تحت عنوان (الغرباء الأولون.. أسلوب جديد لقراءة السيرة النبوية).

كان صاحبنا مؤمنًا بأنه لم يأت بجديد يُذكر، سوى تحرير بعض الأخبار والأحاديث، وتمحيص أسانيدها، وجمعها وتبويبها وترتيبها وعنونتها، وصياغتها بأسلوب أدبي حديث.

بحث صفة الغرباء، وأحاديث الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، وتوصّل إلى أن هذه الأوصاف ترسم المناهج العملية العامة، وليست علامات لفئات محددة توصف بهذا أو بذاك، فالنجاة والنصرة ليست حكرًا على مذهب فقهي، أو جماعة أو حزب أو طائفة، وإنما هي صفات وأعمال وخصائص مَن ظهرت عليه فهو أحق بها وأجدر، ولا تحتمل أن تكون تنظيمًا أو فئة بعينها أو جماعة مرسومة الحدود.

واستنتج أن ثمة دائرة أوسع، هي الفرقة الناجية تشمل عموم المؤمنين المتبعين لسنة سيد المرسلين، ولو كانوا مقصّرين، أو ظالمين لأنفسهم.

ودائرة أضيق، هي الطائفة المنصورة، التي تقوم بأمر الدعوة والبلاغ والتعليم، وتتميّز عن غيرها من عموم المسلمين بحمل مشروع أو برنامج للإصلاح.

ودعم ذلك- في بحثه- بالفرق المعنوي بين لفظ «فرقة»، ولفظ «طائفة»، وهكذا هو في لغة القرآن، يقول الله جل وعلا: «فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ» [التوبة: من الآية ١٢٢]. وكذا الفرق بين لفظ النجاة ولفظ النصرة؛ فالنجاة لفظ عام، والنصرة لفظ خاص لمن يقوم بالمجاهدة وينازل في الميدان.

كان هذا الاستنتاج العلمي البحت سببًا في امتحان عسير، صدرت لأجله كتب، من أشهرها كتاب الشيخ ربيع المدخلي بعنوان: (الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة هي أهل الحديث)، وعُقدت مناظرات، وسُطّرت رسائل، وأُقيمت سهرات، وارتفعت أصوات!

هو اجتهاد ظاهر لا يزال يراه صوابًا، لكنه كان وما زال غير متحمس لتعميمه أو فرضه على أحد، أو حتى الدفاع عنه، ولا معنيًّا بتقريره إلاّ بقدر ما يقتضيه المقام العلمي.

وهو بمحض الصدق كان وما زال لم يستوعب المشكلة، ولم يفهم الخطب، ماذا إذا كان هذا أو هذا؟!

وما علاقة هذا الرأي بالحزبية التي كان مهاجموه يتهمونه بها؟!

اختلف السلف في مسألة الإيمان والإسلام وعمومها وخصوصها، وهي مسألة أعظم وأكبر، وكان للبخاري وبعض الأئمة فيها رأي يخالف رأي الآخرين فما الخطب إذًا؟

أن يختلف الناس فنعم، لكن أن تكون حربٌ ضروسٌ توقدها تلك

الشرارة، وتتحول إلى مقصلة للذمم، واتهام للنوايا، وتفسير لما وراء الكلمات، وامتحانٍ للناس، وتراكضٍ لاستنطاق العلماء وتجييرهم وتجييشهم لصالح هذا أو ذاك؛ فهو مؤشر على تردي البيئة العلمية وتأزمها وضعف استيعابها للتنوّع ونتائج البحث المتجرّد.

ها هم الشباب المقبلون على العلم الشرعي يجدون أنفسهم اختيارًا أو اضطرارًا منغمسين في المسألة المحنة.. أهي هي؟ أم هي غيرها، ويصبح للمسألة ذيول وتفسيرات تتصل بالانتماءات الحزبية، والتهم الحركية.. ويكثر الهرج والمرج، والقيل والقال، وتطلّ شعارات التبديع والتفسيق، وأحيانًا التكفير، ومن لا يدرك هذه الأبعاد للمسألة المثارة فهو إما متواطئ يخفي شرّه، أو ساذج مغفَّل لا يدري ما الدنيا عليه!!

قصة تشبه فتنة خلق القرآن، واصطفاف عجيب من الدهماء والرعاع، هذا مع، وهذا ضدّ، ولعل الجمّ الغفير لا يفقه المسألة أصلًا، ولكنه متعصب معجب بهذا الشيخ أو ذاك، مقلّد، يسمع فيتّبع.

وها هو الزمن يدور دورته، ويسحب ذيل النسيان على كثير من المسائل التي نصعّدها بحماسنا، ثم تأبى السنة الربانية إلاّ أن تعيدها إلى حجمها الصحيح.

حين يكتب لا يريد أن يطبق المثل السائد «رمتني بدائها وانسلت»، بل يقبل أن يتحمل تبعته، ولو لم يعرف تفصيلها، يكفي أنه لو تمّ إخلاصه لتمّ خلاصه، وربما صحت الأبدان بالعلل، وهو لا يقبل أن يتّهم الآخرين ليبرّئ نفسه ومَن في صَفّه؛ فكلهم «في الهوا سوا».

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» [الحشر:١٠].. وبين هذا وذاك: كان صاحبنا باحثًا عن موضوع الغربة.. بيد أنه لم يشعر باغتراب الروح، ولا العقل بين أهله وأصحابه وأحبابه، وأكوام الكتب التي تملأ طريقه؛ حيث ولّى..

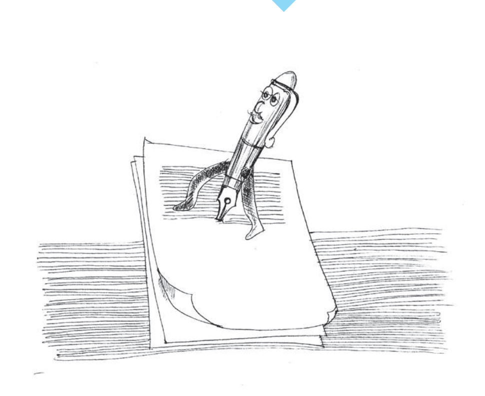
ليبحث في الأرض كيف يكتب عن الغرباء.. والغربة.. والخلطة..
وليقول بأن غربة الفكرة ليست دليلًا على خطئها..
«هو» كان يبحث عن الغربة.. فوجد الخلطة!



38

طفولة قلم

◆



طالما حَلَم في طفولته أن يرى نفسه مكتوبًا على الورق، وحاول ذلك حين كان في الثانية عشرة من عمره، كتب ما ظنه أبياتًا من الشعر يتغنى فيها بمدينته (بريدة)، وذهب إلى محل التصوير (الشمسي) يسأل عن إمكانية طباعة الورق، ولجأ أخيرًا إلى تصويرها، لقد رأى خطه مصوّرًا على ورقة، وهذا يكفيه؛ إنه شيء مختلف عن الكتابة الأصلية، فليعتبرها مرحلةً إذن!

كان ذلك في عام ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م حين أصدرت جمعية البر الخيرية ببريدة كتابًا رشيقًا، لا يزيد على ست وخمسين صفحة بحجم اليد، لكن مداه وصداه تجاوز ذلك الحجم!!

كان قد ألقى محاضرة في بواكير نشاطه الدعوي بمدينة (الزلفي) تحت العنوان ذاته، ثم أكمل بأخرى في مدينة (الرس). كانت معظم مادة

المحاضرتين نصوصًا نبوية وأحداثًا وقصصًا من السنة والسيرة، شدّته وهو يتصفحها، وجعلته يشعر بالبون الشاسع بين المجتمع الإسلامي الأول، والمجتمع الذي يعيش في كنفه.

حين همّ بتحويلها إلى كتاب أعاد صياغتها، وضمّنها نقدًا لممارسات واقعية ميدانية في الانغلاق الاجتماعي والشدة على المرأة، وتحريم المدارس النظامية، والمبالغة في الإنكار في مسائل لا تحتاج إلى ذلك، وانتقد طريقة إقحام ما ليس من الدين أصلًا، وجعله في مقام متقدم، وإطلاق الحكم بالتكفير على من خالف، كالقول بكروية الأرض أو دورانها، إذ كان هذا الاتجاه يطرح رأيًا خاصًّا فرديًّا يمنحه قدرًا من الدلالة العقدية، ويمتحن الناس، ويصنفهم إلى محق ومبطل بناء على ذلك في مسألة من الأساس تفتقد للحس التخصصي والمعرفة العلمية.

صاحبنا مأخوذ بروح الدين المتسامحة، متحمس لبقائها كما هي دون إضافات محلية، إجماعًا فيما أجمع الناس عليه، وتوسعة للخلاف فيما اختلفوا فيه، وتفريقًا بين ما هو دين محض، وبين ما هو قول أو مذهب، بين ما هو رأي شخصيّ أو عُرف اجتماعيّ، ناعيًا على من يتعاملون مع هذه الدوائر الثلاث على قدم المساواة، وكأنها في مقام واحد، بل قد يكون القسم الثالث، وربما الثاني يحظى بيقظة أكبر وبغير وعي، بدافع التقليد للمجتمع والمألوف، وممارسة التسلّط والوصاية عبر التصدّر لحمايته.

روح شبابيّة تتطلع إلى صياغة مجتمعيّة جديدة، ليس الطموح أن تكون صورة مطابقة لما يجب أن يكون، لكن الطّموح هو محاولة ردم الهوّة بين النظريّة والواقع، وضبط المعيار الذي يحتكم إليه.

حَفِل الكتاب بالعديد من النماذج العملية في مجتمع المدينة الأول، الطافحة بالعفوية وعدم التكلف، كسباق النبي- صلى الله عليه وسلم- لعائشة، واستماعه لغناء الجواري بالدفّ في بيت عائشة، وإشراكه لعائشة

في مشاهدة الحبشة وهم يلعبون في المسجد النبوي في يوم العيد...

قدّم للكتاب شيخ مدينته وأحد أكابرها علمًا ووجاهة؛ الشيخ صالح البليهي، أستاذ الكاتب وقدوته، الذي انطبعت صورته السمحة المبتسمة في ذاكرته..

كثرة من الناس عدّت الكتاب تعبيرًا صادقًا عن معان مقهورة مكتومة في دواخلهم، لم يكونوا يقدرون على البوح بها؛ خوفًا من سطوة مَن حولهم، أو تجنّبًا للقالة والاتهام، لقد كان الكتاب تفريجًا لهم، وتعاملوا معه وكأنه وثيقة إعلان لمبادئهم.

وفيهم من رأى أن الكتاب كان يحتاج فقط إلى لمسات هنا وهناك؛ ليكون أطروحة إسلامية تتجاوز الإطار المحلي أو القطري إلى الأفق العالمي.

وثمة مجموعات وجدت فيه هجومًا مباشرًا عليها، وإجهاضًا لمكتسباتها، وتعرّضًا لأسسها ومبادئها وأفكارها.

المجالس، وحلقات العلم، والدروس الخاصة، ومواعظ المساجد، والكلمات بعد صلاة الجمعة تتميّز غيْظًا، وتحذّر وتردّ وتنقض، وتستعين بمخزونها من النصوص والأقوال، والأصوات ترتفع، ولِمَ لا.. والخطر محدق، والنقد جاء هذه المرة من داخل البيت!!

حديث مستفيض عن ردود مكتوبة، واستعانة بأسماء ذات قيمة، الردّ الوحيد الذي وُزِّع على شكل مذكرة هو (النقض الرشيد على مدّعي التشديد) كاتبه الشاب الصالح المهتم بالحديث النبوي، المهيَّأ للقيادة العلمية في الوسط الذي يحيط به، الشيخ عبد الله بن محمد الدويش.

لماذا لم يُطبَع الكتاب؟

هذا ما لا يستطيع الإجابة عنه، أهو بسبب التردّد، أم لأن التوزيع الخاص يكفي في تحقيق المراد؟!

الشيخ صالح الخريصي رئيس محاكم القصيم، له هيبة وإجلال ومقام

لدى العامة والخاصة، لم تفلح المجموعات المتردّدة عليه- على الرغم من قربها منه وقوة تأثيرها- أن تستخرج منه شيئًا لصالحها.

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز مرجعية البلد في الفتوى لم تفلح محاولات المؤيدين للكتاب أن تستخرج منه تقديمًا أو تقريظًا، حتى الشيخ صالح البليهي كتب إليه يطلب منه تقديم الكتاب، لكن يبدو أن حكمته آثرت أن يبقى من الجميع على مسافة واحدة.

كان حصارًا ينبري له متحمسون، ويندفع فيه محتسبون، ويتهالك فيه عامة، والأكثرية الصامتة كالعادة تؤثر أن تكون في موضع المتفرج حتى ينجلي الغبار.

(الإخوان) في بريدة اسم معروف يتردد كثيرًا، وهم مجموعة من المحبين يحتسبون على المجتمع وفق رؤية خاصة، وينظمون الدوريات بسيارة (الجي إم سي)، دوريات تفوق في حضورها وسطوتها دوريات الهيئة الرسمية في ذاك الوقت، وتحاصر البؤر المستهدفة بحماس شديد، وتبسط هيمنة ملموسة على المجامع والأسواق والمشاهد، والعقل الاجتماعي.

(دار العلم) في وسط البلد، وبقرب الجامع الكبير؛ حيث منطقة التواجد العلمي السابق لعلماء آل سليم، ثم لتلاميذهم من أصحاب المشهد العلمي، هذه الدار هي ملتقى للمشاورات بين أقطاب المجموعة، فضلًا عن الدروس المتنوعة التي تُقام فيها، ويشترك عدد من المشايخ وطلبة العلم في إقامتها، سواء كانوا من المدرسة ذاتها، كالشيخ عبد الله الدويش، أو من خارجها كالشيخ حمد المحيميد الذي هو شيخ صاحبنا وأستاذه في النحو والبلاغة ونمط متميز في الهدوء وحسن الظن والتقوى.

المجموعة فيها طلبة العلم المشتغلون بالتحصيل والدرس والتدريس

وعقد المجالس، والتهيُّؤ لسدّ الفراغ الذي يحدث برحيل متوقع أو مفاجئ، وفيها المستمعون، وفيها العوام ممن يقومون بأدوار احتسابية لقوة شخصياتهم وجرأتهم، حتى يقف أحدهم أمام شيخ جليل كابن عثيمين وينفض يده وهو يقول له:

- اتّق الله.

وقد ينازعه مسألة علمية، كل علمه بها الخوف أن (تفتح بابًا)!

الأبواب كلها يجب أن تكون مغلقة، وإلاّ خرج الناس! وفيها التجار الذين يرعون ذوي الفقر والحاجة، ويموّلون البرامج.

لا يمكن اعتبار هؤلاء (الإخوان) تنظيمًا، ولا مدرسة بالمعنى الدقيق لتوفّر قدر من العفويّة والمحليّة والتفاوت، بيْد أنّ أشياء عديدة تجمعهم، وهم يدركون ما لا يجب أن يكون، أكثر من إدراكهم ما يجب أن يكون.

التغيّرات المجتمعية كثيرة، والتيارات متعدّدة. الشباب المنتسب للصحوة يتقدم بقوة، ويؤثّر في الغالبية العظمى من الشباب الذي يريد تديّنًا، ولكنه يريد دراسة ووظيفة وشهادة، والجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن تأخذ مكانها تحت إشراف الشيخ صالح البليهي، وفي حفلها الأول يحضر الشيخ صالح الخريصي، ويلقي كلمة في الحضور في الجامع الكبير، والحلقات في كل مكان، على الرغم من المقاومة والرفض والمنشورات السرية!!

أن يكون المجتمع متنوعًا في أطيافه واتجاهاته وأمزجته وميوله الفكرية فهذا أمر فطري يتفق مع السنة، ليس غريبًا ولا شاذًّا أن يكون في المجتمع المتشدّد والمتساهل. التشدّد قائم في التاريخ، ممتد في مفاصل المجتمعات الإنسانية من الغرب إلى الشرق، ووجوده جزء من الناموس، وقد يكون مدعاة للمحافظة، أو تحقيقًا لمفهوم الوسطية الميدانية حين يشكّل

التشدّد طرفًا، والتفريط طرفًا آخر، ليتحقق الوسط الجغرافي بينهما.

غير المألوف، هو أن يكون التشدّد مهيمنًا على عقلية المجتمع، أو متحكمًا في سلوكه، أن يمارس اختطافًا ويصرّ عليه، وبين الأمرين بون شاسع.

ظل كتاب (المسلمون بين التشديد والتيسير) ميدانًا للجدل المحتدم لسنوات، بدءًا من عنوانه الذي كان محل نقد ومؤاخذة للبينية التي يوحي بها، حسب فهم البعض، ومرورًا بالمقاصد والنيات التي هي دومًا محل تشكيك عند الاختلاف، وانتهاءً بالمضامين الشرعية، وما يمكن أن يقرأه بين السطور من لا يكتفي بقراءة النص المكتوب.

الهجمة التي أفرزها الكتاب كانت قاسية، والحرب النفسية قامت على سوقها، والضرب تحت الحزام يغدو مشروعًا، وبقدر قسوتها صنعت لدى الكاتب مناعة وجسارة وقوة نفسية تعززت مع الزمن، حتى لا يضعف أمام النقد الجارح، فيتوقف عن العطاء، أو يتهم نفسه، أو يفقد ثقته بما لديه، أو ينطوي على ذاته، ويدع أمر الناس، وكأنه لا يعنيه.

الحكمة الإلهية وراء كل حدث، وهو حين يستذكر الماضي وملامحه ومخاوفه وقلقه، وأساليب التدمير غير المقصودة التي تصل إلى حد وضع جائزة لمن يأتي بالبشارة بتوبته، يستذكرها بابتسامة صافية، شأن كل أمر مؤلم انتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، من الجغرافيا إلى التاريخ، ويجد البصمة الإيجابية للعديد من الأحداث التي لم يكن ليختارها لو كان الخيار له: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ» [القصص: من الآية ٦٨].. «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

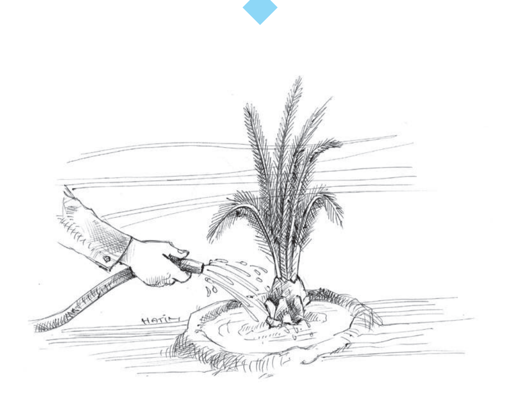
يزيده فرحًا أنه يغلق الملفات في وقتها، ولا يعاني من آثار موسومة في قلبه، مهما لجّت العداوة، واحتدمت وآلمت وقتًا ما، وكم هو ممتع حقًا

أن يتحكم المرء في مشاعره، ويحافظ على صفاء قلبه، ويبادل الآخرين صفاء بصفاء، وحبًّا بحبّ، أو يقابلهم بالصفح والحلم.



39

نسخة الروح



قدر جميل أن يكتب عن شقه الآخر في يوم مقمر، والكلمات ورود تتسابق بين يديه، أيها يلبس معطف ذلك الفتى؟

ربما هو الآن يتذكر شبابه الأول، في وجه رفيق دربه.

تلك الكلمات التي حرم منها كثيرًا، حُرم أن يكتبها، أن يقولها، أن يرسمها لأي أحد، حتى لا تتشوّه، هو الآن يكتبها محضًا من الصدق والوفاء في سياقها الملزم.

جرب تباريح الزمن، وتفاصيل الصداقات، وتنوّع الوجوه، كان هذا الوقت هو الأليق به، وقت الوجوه التي تمر سريعًا، وترحل سريعًا، وبعضها يرحل مشوهًا، كما دخلت وجوه أخرى بنفس الطريقة.

كثيرًا ما نشفق على الأشياء الجميلة في حياتنا أن نكتبها، هل يكتب المرء أنفاسه التي تتردد، أو قطرات دمه العابرة في عروقة، أو أقسام روحه

الهائمة؟ والذي يكتب عن الآخرين يكتب ليعبّر عن نفسه، فكيف إذا كان الآخر هو النفس والنفيس والروح الساكنة في الجسد؟!

أماسي تلك السنة الجميلة كانت تجمع ما يربو على الخمسة عشر على مقاعد الدراسة التمهيدية، وهو يكبر بعضهم بنحو ثلاث سنوات، ولم يكن يظن أنه أمام علاقات جديدة، ستكون هي الأهم والأبقى في حياته.

الفتى الآدم، الممتلئ حيوية وثقة، وتطلعًا للحياة يبدو هو الرابط بين أطياف متنوعة في جنسياته (من تونس: الحسين شواط، ومن الصومال: محمد علي إبراهيم، وعلمي طحلو، ومن مصر، ...).

وفي مناطقها (من أبها: عائض القرني، ومن الرياض: سعد الزيد، ومحمد التركي، وحمد الشتوي.. وآخرون، ومن القصيم: سلمان العودة، وعبد الرحمن المجيدل، وحمود الصايغ، وعبد الرحمن الزميع، ومحمد العمران) إلى آخر الصحبة. والمختلفة في اهتماماتها العلمية والعملية، وتكوينها المزاجي والنفسي.

أبى إلاّ أن يقتحم عالمهم، بأخلاقه الكبيرة، وكرمه الفطري، وعطائه الثَّرّ، وأن يكون منزل عائلته بالشفا جنوب الرياض مرتادًا للأصدقاء، وجلسات سهرهم وسمرهم، وفرصة للتعرف على والديه وأصدقائه، وإخوانه الكبار والصغار، والتي عادة ماكان يبدؤها بنكتة أو طرفة تجعل أول العلاقة ضحكة، وليس ابتسامة كما كان يقول شوقي.

يستحوذ عليك لتوافق من حيث تريد أو لا تريد على موعد للغداء، وآخر للعشاء، وثالث للقهوة العربية والتمر، ورابع للشاي الذي يدمنه، ويتعاطاه في أكواب كبيرة، حتى أثناء قيادة السيارة!

يحصل على الموعد الذي يريد، ويعطل ملكة المقاومة أو الاعتذار، بقدر ما يتمكن من إفشال أي محاولة منك للحصول على موعد لدعوته!

ثم يتمسك بك، حتى ربما أغلق الباب بالمفتاح، ليستبقيك أكثر!
عاطفي يحب حتى الثمالة، وبكل قلبه وجوارحه، فالحب عنده لا يعرف أنصاف الحلول، ولا يؤمن بالوسطية:

الحب مغامـــــــرةٌ كبرى	إبحـــارٌ ضـــدَّ التيـــارِ
لا توجـــد منطقـــة وسطى	مـــا بين الجنةِ والنـــارِ!

يسلم قياده لقلبه، ويسير وراءه راضيًا مختارًا.. وهو يردد:

مساكينُ أهلُ الحبِّ، حتَّى قبورُهمْ	عليها تُرابُ الذُلِّ بينَ المقابرِ!

والحب عنده ليس كلمات تُقال فحسب، «فالحروف تموت حين تُقال»، ولكنه ممارسة وبذل، وتضحية وعطاء بغير انتظار.
عقلاني يفكر بكل عقله، ويرتاد آفاق المعرفة والتأمّل، ويستسلم طائعًا مختارًا لمقتضيات الإيمان بالله، وغيبه وألوهيته، وقضائه وقدره، يعرف أين يُقْدِمُ.. وأين يحْجِمُ.. وأين يطلق عنان الفكر ليسترسل ويبحث، وأين يمسك ليقف مؤمنًا محتارًا، طائعًا مختارًا:

فيك يا أعجوبةَ الكون	غـــدا الفـــكرُ كليـــلا
أنت حيرت ذوي اللـــــبِّ	وبلبلـــت العقـــــــــولا
كلـــما أقـــدمَ فكـــري	فيـك شبرًا فرَّ مِيـــــلا
ناكصًا يخبطُ في عَمـــــــــ	ـــــــياءَ لا يُهدى السبيلا

متحدث بليغ، يملك زمام اللغة، ويحسن توظيف مفرداتها، متلقيًا عن أكابر أئمتها المتقدمين، كالجاحظ وابن قتيبة، والمتأخرين كالعقاد والمازني والزيات والطنطاوي.
يسلس له القول باللفظ، فيخطب على المنبر بإلقائه المتميز، ونبرته المحببة، حتى جاز أن يوصف بأنه (خطيب العاصمة)، وصار العديد

من الشبيبة يحاكونه في إلقائه، وبحّة صوته، وتحدّر ألفاظه، مزاوجًا بين عاطفة مشبوبة ربما بكت وأبكت، وبين رؤية عقلانية متزنة، مشبعة بواقعية الحياة، ويكتب فيسيل القلم توصيفًا وبراعة، وتصويرًا يأخذ الألباب.

عرف أن المنبر ليس درجًا يُصعَد، أو عباءة يُتّشح بها، إنما هو صوت المعاناة والألم يبوح فترجع العصافير الشاردة إلى قلوب الناس.

وعدَ ووفَّى، فأدمن الوفاء، ورهن حياته لهذا المبدأ العظيم، مهما تبدلت حالاتها.

لو كتب للوفاء أن يتمثل رجلًا سويًا لكان هو!

أيام طويلة متصلة، وبيته الجديد المجاور لمسجده الجامع شاهد على مؤانسات مفعمة بالسرور والابتهاج والغبطة الغامرة، ونجمها المتألق عائض القرني بمحفوظه الشعري الذي يتغنى به بصوت رخيم، خاصة أشعار المتنبي وأبي تمام وأبي العلاء، ونوازع من مختارات الشعر العربي القديم، مع ضميمة من شعر المحدثين، كالبردوني ونزار قباني، إلى طرائف ضاحكة، يضحك لها حتى تدمع عيناه، ويستغرق حتى يقوم من مجلسه، إلى مسامرات علمية وفوائد ونوادر.

صلة حسنة بالعديد من الشخصيات العلمية، حضور مجلس الشيخ عبد العزيز بن باز بعد صلاة الفجر، وقراءة العديد من الكتب، آخرها الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، وصلة بسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ -مفتي الديار السعودية لاحقًا- في الكلية والمنزل والمسجد، وصلة بسماحة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ومحاورات مثمرة، في كوكبة من أماثل أهل العلم، الشيخ الدكتور محمد أحمد الصالح، وصفوة من أعيان العلماء والمربين والمفتين.

شهادة الماجستير في السنة النبوية، ثم يحتدم النشاط ويتنوع، وتتفتح

الآفاق والفرص، دروس ومحاضرات، وخطب وكتب وكتيبات، وأحداث الخليج تلقي بظلالها المتوجسة الوجلة، ثم تضيق الحلقة ويستحكم الإغلاق، فيجدها فرصة لاستكمال الدكتوراه، فيعكف عليها ما بين البيت ومكتبة المسجد، لكن اتصاله الروحي برفيق دربه لا ينقطع، والعلاقة الحميمة التي توطدت مع الأسرة تظل راسخة، فالوالدة والأهل والأولاد محل حفاوته وسؤاله وطرائفه، وربما حاكاهم في عباراته، فَسَأَلَ العجوزَ عن مرض (القيلون) أو داعب الصبي ببعض كلماته الملثوغة.

يغيب رب البيت، فيكون خير حافظ للود، حفي بالأهل، متابع لحالة الأولاد في درسهم وسلوكهم وصحبتهم، وتعويضهم العاطفي.

يراهم فيرى طريقًا طويلًا من الهجير البائس، وكل أصواتهم حنين لكاسيهم ومطعمهم، فيحمل الهم همين، والألم ألمين: همّ الرفيق البعيد، وهمّ السؤال البريء.

كأنّ كلَّ سـؤال في مســـامعهِ	قميصُ يوسفَ في أجفانِ يعقوبِ

يخرج صاحبنا فيجد وجهًا حوّله البعد إلى وجه بدري تتقطع السحب دونه، فيشعره بنوع من الأسى والحنين..

اللقاء في تلك الليلة لم يكن لقاءً عاديًا، دموع أبت أن تنام في العيون، وكلمات رفضت أن تفصح عن ذاتها، وكف تتوجس نبض الكف الغائبة هل لا زالت دافئة؟

كان لقاء كالقدر المكتوب، بل هو قدر مكتوب!

صحوه هو تذكر تلك القسمات والملامح التي أدمنها وانطبعت في ملامحه وقسماته عن طواعية ورضا، وما خطرت له إلا تذكر قول الأول:

جَزى اللهُ عَنّا جَعفَرًا حينَ أَزلَقَت بِنا نَعلُنا في النّائِبَات فَزَلَّتِ
هُمُ خَلَطونا بِالنفوسِ وَأَلجَأوا إِلى حَجَراتٍ أَدفَأَت وَأَظَلَّتِ
أَبَوا أَن يَمَلّونا وَلَو أَنَّ أُمَّنا تُلاقي الَّذي لاقَوهُ مِنّا لَمَلَّتِ

تفكير مبكر باستطلاع معرفي يجمع آراء العديد من المختصين حول (نحو فضاء جديد للدعوة) يدرس بسبق زمني ضرورة استيعاب المتغيرات، وتطويع التقنية للدعوة، واستخدام الإنترنت، والفضاء والإعلام والعلاقات، بدلًا من التقوقع والانكفاء.

ومن مخرجات هذه الدراسة يولد موقع (الإسلام اليوم) فكرة بسيطة وشخصية، تتطور لتكون موقعًا شاملًا، فبوابة للعديد من اللغات، ويتحول إلى مؤسسة إعلامية تحتضن مجلة بذات الاسم، وقائمة من المطبوعات المختارة، ووسائط متنوعة، وبرامج تلفازية.. لتدخل عالم البث الفضائي من أوسع أبوابه.

تقويم للأعمال ومراجعة لها وتطويرها، ونقلها عبر مراحلها..

السهر على العمل بجملته في إدارته، وفي توفير احتياجاته المادية والبشرية، وفي بث روح التضحية والبذل لدى قياداته.. وفي تذليل الصعاب والعقبات أمامه.

النظر المستقبلي بطموح وتفاؤل يتواكب مع رغبة العاملين بل يسبقها..

يجد نفسه في صحبة السيرة فيتقن أحداثها، ويحيط بمواقعها وجغرافيتها، ويتخصص بأدواتها ومقتنياتها ومتحفها المنزلي والشخصي والمدني، ويغوص على معانيها غوص الخبير الفنان، ويُلهم حسن التعبير عنها بلغة لفظية وجسدية تأخذ بالألباب، وتفحم المجادل، ويغيب بها السامع عما حوله حتى يسكت الصوت فجأة فيضج الإعجاب والتكبير!

وربما قرأتها في كتاب فوددت أن مدّ في صفحاته فلا ينتهي، وهو لا ينتهي إلا ليعود!
صحبة حياتية مستديمة بدأت هادئة على مقاعد الدرس، لا يدرك هذا ولا هذا إلى أين تتجه؟
واستمرت في تحولات شتى، من سفر وإقامة، وحل وترحال، وضيق وسعة، ونشاط وتوقف، كانت مع الدرس والمحاضرة والاجتماع والجلسة، ولقاء الموافقين، والإعراض عن الكاشحين والمنتقدين، وفي صياغة الأفكار، وتحديد المواقف، وإن شئت فقل: في تفاصيل العمر كله، دون استثناء..
أنس لا تقاربه ملالة، وحب لا يخضع للتقلبات، ووصل لا يتعلق بالأجساد وقربها، بل هي الأرواح المتعارفة تآلفت واندمجت وأعطت عهودها ومواثيقها وسلمت قيادها.
الحب هنا يرفض أن يكون التالي، قراره أن يكون الأول، وألا يقبل بمنافس وهو يرسم الطريق اللاحِب، ويمد الجسور، فدفء علاقته بالآخرين ولطف عبارته مما يقتبس ويستفاد.
هكذا هم الرجال الذين تعلموا كيف يستوطنون حقول النفس، بطريقة رائعة، لا يمكن أن تفرط فيهم الحقول، وقد جربت مطرهم ودفأهم..
ذلك كله، وغيره، هو بعض ما انغمس فيه بتفانٍ، ونكران للذات، وإخلاص كبير.. الجميل عبد الوهاب بن ناصر الطَّريري:

انزع حبيبي معطف السفرْ

وابق معي حتى نهاياتِ العُمُرْ

ماذا أنا لو كنت لا تحبني؟

ستصبح الأيام لا طعم لها

وتصبح الحقول لا لون لها

وتصبح الأشكال لا شكل لها

ابق بقربي دائماً كي يورق الشجر

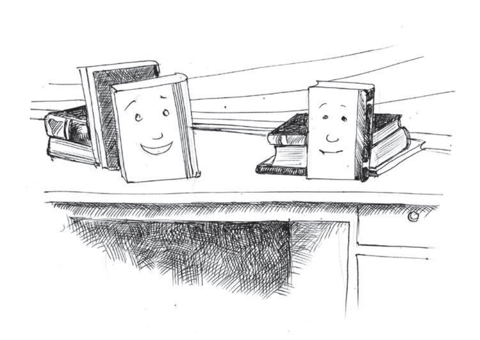
ابق بقربي دائماً كي يهطُلَ المطر

ابق بقربي دائماً كي تطلع الوردة من قلب حجر!



40

الفتى الجنوبي



صحراء الجزيرة لاسعة، وهجيرها لا يعرف المزاح! فتعطش القلوب، وتظل النفوس بين القلق والتطلع؛ مشدودة بانتظار قطرة ماء باردة، يا الله..! وما تستوي الظلمات والنور «وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ» [فاطر:٢١]، ولا الأرض العمار، ولا الغمار!

اكْتَشِفْ هؤلاء العابرين! حتماً سيكون فيهم مَن روحه شقيقة روحِك، تتعارف فتتآلف، ولو لم تكن قادرة على التفسير؛ فتتدافع لقطع المفازة بفرح واغتباط، ولا تسمح لخطرات الحزن والإحباط أن تئد الطموح، أو توقف العطاء.

قد تلتقي صديق العمر عند أحد رفوف مكتبة، أو على قارعة طريق أو أي صدفة أخرى تصبح هي الفصل الأول لقصة صداقة عريقة.

في تلك المكتبة الحديثية بكلية أصول الدين بالرياض كانت تُقام معظم

الدروس، الطلبة يتحلّقون حول طاولة ممتدة، يجلس في صدارتها الأستاذ، وبين يديه كتاب يقرأ فيه، أو يعلق عليه، ولا تبدو الحاجةُ ملحةً إلى الكتابة على اللوح، وقد يتسلل الملل والخمول إلى الجوّ، ويستثقل الجماعة الدرس، فلا ينعشهم إلا تعليقٌ ضاحك من أحد الطلاب.

(الفتى الجنوبي) هو أبو نكتتها، والطّرفة تجري في دمه بلا تكلّف، كأنما يلهمها إلهامًا، أو تُساق له سَوقًا، فهي تصادفه في كل مكان، وأطرف منها حكايته لها، وقد يصنع الطرفة على نفسه، فيضحك منها بأريحية ويُضحك!

توطدت العلاقة بين كوكبة كأصابع اليد الواحدة، وكان بيت الشاب عبد الوهاب في السويدي، ثم في العليا هو مكان السمر؛ حيث القلب المفتوح، والسرور، والكرم، والصحبة المأنوسة، والمائدة الشعبية الحافلة.

في جامع الملك عبد العزيز كانت أولى المحاضرات:

(احفظ الله يحفظك).

الجمهور الحاشد، والإلقاء المميز، والروح الوثابة كانت أهم الملامح، وتلك كانت الشرارة؛ فقد سجلت المحاضرة في شريط شاع وذاع، وكان بداية لسيل من المواد السمعية التي شرقت وغربت وبيع منها الملايين في أنحاء العالم..

صوت شبابي جذّاب، وعاطفة مشبوبة، وانسياب تاريخي، واستشهاد شعري، ونصوص محكمة، مع مسحة من نقد الواقع.. تلك كانت مؤهلات (الشاب عايض بن عبد الله القرني) للنزول إلى الميدان.

ويتسلل الرجلان للخروج من المسجد من بين الزحام، وتأبى الطرفة إلا أن تلاحقه على صورة فتى يركض وراءهم وهو يصيح:

« تكفى يا شيخ تكفى.. حديث علي في الفأرة »!
المعيد عايض القرني متفرغ للماجستير، فلا غرو أن تطول ليالي السمر، وأن يكون محفوظه الشعري والقصصي مادة الحديث، الذي يطرب له الجلساء، وربما وعظ فأبكاهم، أو مزح فأضحكهم، فهو نديم يبكيك إذا شئت، ويضحكك إذا شاء؛ فلك الأولى وليست لك الثانية.
يتكلم في مناسبة عامة مثنيًا على أحد أصحابه: فلان بضعة مني!
وحين عاتبه وقال: إن مثل هذا يقوله النبي صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة -رضي الله عنها-، ولكن لا يقوله القرين لقرينه وزميله؛ يجيب على الفور: أنا أذهب إلى حديث طلق بن علي، وليس إلى حديث فاطمة.
يأتي إلى القصيم، ويلقي محاضرة (الشباب والطموح) مستهلًا بأبيات شعر تحمل الحب والترحاب، وتثني على شخوص ورجالات، مستطردًا بأن صاحبه عبد الوهاب قال له في الطريق: إنك تأتي قومًا «أهل كتاب» وسنّة.. مؤكدًا أن لو سلك الناس شعبًا وواديًا لسلك شعب القصيم وواديه.
وفي جامع أبي بكر بأبها؛ حيث يصلي إمامًا بالناس، ويلقي الخطب المؤثرة، منطلقًا على سجيته، مستعينًا بزاده الثقافي ومحفوظه التراثي، على أنه ربما فاجأه الموقف وضايقه الوقت فتحدث في شؤون شتى، وشرق وغرّب، فإذا سألوه:
ما نضع عنوانًا للخطبة؟
قال: (شعاع في الأفق)!
مسامرات وأسفار وحبّ متبادل، وصوت أبي عبد الله لا يكاد يغيب وهو يحتسي كأس الشاي الأخضر، ويحك ناصيته، وقد تعارّ من الليل:

أَعيدوا صَباحي فَهوَ عِندَ الكَواعِبِ	وَرُدّوا رُقادي فَهوَ لَحظُ الحَبائِبِ
إِلَيَّ لَعَمري قَصدُ كُلِّ عَجيبَة	كَأَنّي عَجيبٌ في عُيونِ العَجائِبِ
إِذا عَلَوِيٌّ لَـم يَكُن مِثلَ طاهِرٍ	فَما هُوَ إِلاّ حُجَّةٌ لِلنَواصبِ
يَقولونَ: تَأثيرُ الكَواكِبِ في الوَرى	فَما بالُهُ تَأثـيرُهُ في الكَـواكِبِ؟!

وقد يسوق البيت لمناسبة مما تقتضيه تكاليف الحياة، كأن يسمع ذامًّا فيقول:

إِنّي وَإِن لُمتُ حاسِدِيَّ فَـما	أُنكِـرُ أَنّي عُقـوبَةٌ لَهُـمُ!

الشيخ ابن باز معنى مشترك لدى الجميع، هدوء النفس، والتواضع وقوة الاحتمال، وسلامة الصدر جعلته موئلًا للهموم؛ درس يتعثّر، أو محاضرة تُوقف، أو مشكلة هنا، أو نازلة هناك.

ينتقل إلى الرياض، ويستضيف كوكبة من طلبة العلم يصحبون الشيخ ابن باز، ويلقي قصيدة في مدحه.

ثم يلقاه في حفل التوعية قبيل موسم الحج بحي العزيزية بمكة المكرمة؛ حيث بيت الشيخ عبد العزيز، ويلقي الشاعر عائض القرني قصيدة (أبو ذر في القرن العشرين):

دمعة الزهد فوق خدك خرسا	ووجيب الفؤاد يـحدث جرسا
أنت من أنت..يا محب..وماذا	في حناياك..هل تحملت مسا؟
مـا لهذي الدموع..مالك صبٌ	حالكم مأتمٌ وقد كان عرسا
لاطفوني، هددتهم بالمنايـــا	هددوني لاطفت حتى أُحَسَّـــا
أركبوني..نزلت أركب عزمي	أنزلوني ركبت في الحق نفسا

وكعادة الشيخ يعلق على الكلمات والمشاركات، وحين يصل إلى قصيدة أبي ذر يقول: أما الشيخ عائض فإنه ذكر أن أبا ذر نزل في الرمال، ودخل

في الرمال، وخرج من الرمال.. وليته وضّح وبيّن..
وعرف الشاعر من أين أُتي، وكان موعد الاستدراك في آخر الموسم، في حفل الزاهر؛ حيث ألقى منظومة سهلة مطلعها:

يا مـركز الخـير حَيوا لي محياه	نداء حق من الفصحى سمعناه
كن كالصحابة في زهدٍ وفي ورعٍ	القوم هم ما لهم في الناس أشباه
عُبَّاد ليل إذا جن الظلام بهم	كم عابدٍ دمعه في الخد أجراه
وأُسْدُ غاب إذا نادى الجهاد بهم	هبوا إلى الموت يستجدون رؤياه!

وعلق سماحة الشيخ وأشاد بالقصيدة، ودعا لصاحبها أن ينفع الله به، ويبارك فيه، ويوفقه لكل خير.
وقدم له في جامع الراجحي وخاطبه:

أدعوك للعلم الشريف رواية	عن مالكٍ ومسدد بن مسرهد

وهي المحاضرة التي تحدث فيها عن السلام مع اليهود وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم صالحهم، والأمر موكول إلى المصلحة.
وأحدثت هزّه إعلامية واسعة.
وكتب في قصيدة (البازية):

قاسمتك الحب من ينبوعه الصافي	فقمت أنشد أشواقي وألطافي
لا أبتغي الأجر إلا من كريم عطا	فهو الغفور لزلاتي وإسرافي
وعلمك الوحي لا من علم حضرته	رأي الرجال ومن كافٍ وكشاف!

و(الكافي) و (الكشاف) اسمان لكتابين محتملين، فهل قصد الشاب السلفي المقبل على علم الحديث التقليل من شأن كتب المذاهب، كـ (الكافي)، و(كشاف القناع)، أم قصد نقد كتب الفرق كـ(الكافي للكليني)، و(الكشاف للزمخشري)؟!

تتفرق الدروب، وتستحكم الحلقات، ويسكن الصوت الجهير، ولكنه يجد في خطبة الحرم ما يحرك لواعج الشعر، فينطلق على سجيته ممتدحًا:

أيها الشعر.. أنت أنت الحداء	غن شعرًا تصغي إليه السماء
رتل الحق ساطعًا يفضح البهـ	ـتان فالحق عزة شماء
لا ترائي يا شعر واسكب شجونا	فقبيح لدى الكرام الرياء..

فيدفع ثمنها في دار أبي سفيان شهورًا تسعة، أوحت إليه بـ(حدائق ذات بهجة) وألقت في روعه فكرة الكتاب الذي سطره بعدُ ووسمه بـ(لا تحزن) والذي بيعت منه ملايين النسخ، وتُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، وتداولته أيدي الشباب والفتيات في كل مكان.

قارئ نهم لكتب الشريعة واللغة والأدب والشعر والتاريخ والتراجم، وصاحب ملكة فذة في الحفظ والاستيعاب والاستحضار، يحفظ الشعر، ويطرب له، وربما أعجب بالقصيدة فاندمج فيها ورددها وحاكاها وزنًا وقافية وموضوعًا.

يزيد محفوظه على عشرة آلاف بيت، هو صاحب هوى، ولكنه سنيٌّ، قرأ مرة في الأغاني:

وقالوا صحيرات اليمام، وقدموا	أوائلهم من آخر الليل في الثقل
مررن على ماء العشيرة والهوى	على ملل.. يا لهف نفسي على ملل!

فصاح، وقال: «خلاص الله يعوضكم فيّ خير» وكاد أن يفعل كما فعل ابن أبي عتيق، الإمام الجليل، حفيد أبي بكر الصديق، حين سمعها وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته نام على جنبه، ورفع رجله، وقال: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا» [الحج: من الآية ٣٦]!

استوعب النابغة وزهيرًا والمتنبي وأبا تمام، وطوائف من المحدَثين كالبردّوني والقبّاني، وحفظ القصائد الطوال، وعن طريقه اتصل صاحبنا بالعديد من الأسماء والأشعار والطرائف، وهو يفوق صاحبنا وسائر أقرانه في سرعة البديهة، وكثرة المحفوظ من الأخبار والأشعار والأسماء والتراجم والأنساب.

في قلبه حب صادق لهذا الدين، ولسيد المرسلين، عاش مع سيرته، قراءةً وإلقاءً وتدريسًا، وربما غلبته دموعه فبكى، أو سالت هذه الدموع بحرا من الشعر الجميل:

محمدٌ في فؤاد الغار يرتجفُ	في كفه المجد والتاريخ والصحفُ
مُـزَمَّلٌ بـرداء الوحي جَلَّلَـه	نورٌ من الله، لا صوفٌ ولا خَصَفُ

ومن حبه لهذا النبي الكريم اتصل بهذه الأسرة المحمدية من الصحب الكرام؛ فعاش مع قصصهم وأخبارهم، ودرس علم أئمة السلف في مدوّناتهم، فأحبهم وردد ذكرهم، وأكبّ على كتب ابن تيمية، فقرأ الفتاوى وأعادها، وكان يقول في ظرف ودعابة:

ثلاثة كلهم أحمد، من نازعني فيهم شربت من دمه: أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والمتنبي!

كتب له القبول حين كان صوتًا مسموعًا في الكاسيت، ثم كتب له مرة أخرى حين غدا كتابًا مقروءًا يطبع بالملايين، ولا يزال يدخر الموضوعات الأدبية الممتعة، والسياقات الجميلة في مثل (عز العزلة) و (الأسطورة).

ثم كتب له القبول حين (غزا الفضاء)، عبر برامج عديدة، في السير والأخلاق والتفسير والأدب والتراجم.

الصلة التي بدأت على مقاعد الدرس بالدراسة العليا، وتوطدت في

منزل أبي محمد: عبد الوهاب، وكمنت زمنًا لعوارض الحدثان، ظلت وفيّة قائمة، الإخاء دثارها، والأنس شعارها، والتغافر مبدؤها، والدعم والإسناد في مقابلة مشقات الحياة وصعابها، ولله جعفر الصادق حين قال: «أخي كل أخي من إذا جلست معه كأنني وحدي»!

الانطلاق على السجية، والتخفف من قيود العلاقة ورسومها، وزوال الكلفة هي أبرز ما يميز علاقة بين صفيين، دامت لما يزيد على عشرين عامًا، تسعد أحيانًا بالوصل حتى يقول:

سيدي..علِّلِ الفؤادَ العَليلا — واحييني قبل أن تراني قتيلا

إن تكن عازمًا على قتل روحي — فترفق بـها قليلًا قليلا

وتشقى أحيانًا بالحرمان حتى يقول:

أَجابَ دَمعي وَماالداعي سِوى طَلَلِ — دَعـا فـلَبّـاهُ قَبلَ الرَكبِ وَالإِبِلِ

ظَللتُ بَينَ أُصَيحابي أُكَفكِفُهُ — وَظَلَّ يَسفَحُ بَينَ العُـذرِ وَالعَـذَلِ

وَما صَبابَـةُ مُشتاقٍ عَلى أَمَلٍ — مِنَ اللِقاءِ كَمُشـتاقٍ بِلا أَمَلِ

وَالهَجرُ أَقـتَلُ لي مِمّا أُراقِبُـهُ — أَنا الـغَريـقُ فَـما خَوفي مِنَ البَلَلِ؟!

ويمتد الوصل حينًا حتى يقول:

مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي — ورؤياك أحلى في العيون من الغُمْضِ

إنها اللحظات التي تجدد الروح، وتزرع الفرحة، وتعيد للحياة شيئًا من عفويتها وصدقها، و«الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»!

النجم الذي ينتزع الابتسامة بين طلبة الصف صار نجمًا حقيقيًا، وتمثل بقول القائل:

وكنتُ سمعتُ أن الجن عند اسْـ ـتراق السمع تُـرجَمُ بالنُّجومِ

فلما أن علوتُ وصرتُ نجما رُميتُ بكل شـيطـانٍ رجيمِ..!

علَّمته الأيام أن يتحمل التبعة، ويتجرع التجريح والإساءة، ويتذكر أنها ضريبة النجاح، وأن أهمية المرء هي بقدر النقد الموجه إليه، والذي يقصد المستقبل لا يلتفت للوراء؛ فالقافلة يجب أن تسير، والعربة الفارغة لا تصدر إلا الضجيج.



41

في الملأ



أربعًا وثلاثين سنة كان عمره آنذاك، حين بدأ يقول شيئًا أكثر من درس علمي، ويتحدث إلقاءً بطريقة طبعته فيما بعد بسمةٍ خاصة لازمته، حين ينظر لمن حوله يحاول أن يغوص على ما يعتمل في نفوسهم، وماذا ينتظرون، وأن يخالج ذواتهم فيحس بنبضهم، وقد يحاول أن يضغط على الجرح فيوجع.

كان قد حصّل قدرًا من المعرفة والاطلاع، ودرّس في المعهد والجامعة، وبقدر ما علّم فيهما تعلّم كيف يقول، وكيف يشعر بالناس حوله، وكيف يقرؤهم ويقرأ لهم!

وبدأ مع جمهور المسجد شريط البداية، وهو ما سمّاه (الدروس العلمية العامة).

لقد أراد أن تكون رديفًا لدرس بلوغ المرام، وهو درس علمي أكاديمي

-بدأه قبل سنتين ونيّف- للطلبة والمتخصصين والملازمين، في ذات المكان (الجامع الكبير ببريدة).

بدأ يتحدث في الدرس التخصصي عن الفقه الشرعي، وشرح كتاب (بلوغ المرام) للحافظ ابن حجر العسقلاني.

وثنّى بالحديث عن الناس والعالم والسلوك والفكرة والتربية والدعوة.

الزمن كان ليلة الأحد، منتصف شهر رجب، والعام كان (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

المسجد في قلب بريدة، وضمن مركز المدينة المكتظ بالناس والأسواق والحياة، كان يحمل معنًى رمزيًا وتاريخيًا؛ يجعل الكثيرين يصرّون على أن يكون هو بالذات مكان الدرس.

بدأ بالفعل هناك، لكنه لم يقف ثَمَّ، تبدأ الأشياء هكذا.

- (الأسماء والكنى والألقاب).

حديث عن الاسم والمسمّى، والمشروع والممنوع، والعلاقة بين اللفظ والحقيقة، كان ذلك هو البدء.

- (الصمت والمنطق)، وحديث عن أدب الحديث، ولغة العيون، وإحكام التدرّب على فنون القول.

- (الرؤى والأحلام)، مادة مثيرة تشغل الناس في المنام، ثم تأخذ حديثهم واهتمامهم في اليقظة.

- (أدب المزاح)..

مادة علمية متنوعة، تطل على مستمعيها على استحياء، حديقة عامرة من آية محكمة إلى حديث صحيح، إلى طرفة تلطّف الجو، إلى شعر سائر مأثور.

يشعر بالإخفاق حين يتحدث فيرى مستمعًا شاردًا أو ناعسًا، مما يحدوه إلى اتباع وسائل التنمية وتطوير الذات وتفعيلها، وتجسيد

أسلوب خاص: تكثيف المادة الحرة وتنويعها، وتجديد طرق العرض وتسريعها، ثم العزف على أوتار الصوت صعودًا وهبوطًا، و الشدو بكلمات شاعرية.

لا استخفاف بالمستمع قط، وبقدر اهتمام المستمع يتزايد إحساسه بالتبعة والمسؤولية، ليس إعدادًا وتحضيرًا وحسب، بل تدرّبًا يزداد عمقًا مع الزمن على أهمية الكلمة ومردودها السلبي أو الإيجابي على الآخرين.

أدرك أن تلك العضلة الصغيرة قد تلقي دررًا، أو تلقي جمرًا أو حجرًا، فليكن ثمة حديث عن:

- (آفات اللسان)

المناسبة تفرض ذاتها، والشهر الفضيل يقترب، فالحديث عن:

- (السلف في رمضان) يغدو لازمًا، ويليه: (شعائر ومناسبات).

ضمن سياق الصمت والمنطق وآفات اللسان.. يتحدث عن:

- (وجوب التثبّت والتبيّن في الأخبار) (١-٢).

درس سلوكي في تمحيص الأقوال والنقول والمرويات، ومجانبة التسرّع في النقل والحكاية..

بدايات مشجعة، وسياق هادئ، وطريق رحب، محاضرة في جو عادي تم توظيفها صحفيًا بمناسبة لاحقة في جو مكهرب، مما صنع مشكلة عالجها هو الآخر بأن الأمر «كلام جرايد» وأنه لم يدل بأي تصريح خاص في تلك المناسبة، وردت جريدة (المسلمون) ليردّ عليها القراء في ثلاثين مقالة نشرتها الجريدة ذاتها بأريحية!

العام الهجري إلى أفول، والناس يتبادلون التهنئة بعام جديد، جدل معتاد؛ هل التهنئة بدعة أم سنة، مسائل وأغلوطات، وكالعادة ثمة أقوال وبحوث وتحرٍّ واجتهاد، ومن ينبري للتوسط بهاجس الظفر بالحسنيين!

إعادة إنتاج لمسائل جدلية لا نتعاطاها على عجل، بل نقف عندها بتأنّق وتفرّغ، ونمنحها من الوقت والجهد والنية فوق ما تستحق.

العام الجديد عظة وعبرة فليكن درسه يحمل ذات العنوان:

- (مواعظ العام الجديد)، والدرس يحمل الرقم (١٣) ولا علاقة له بشؤم المتشائمين، وهو يوافق الأول من المحرم من العام الحادي عشر بعد الأربعمائة والألف من الهجرة (١-١-١٤١١هـ - ٢٣/ ٧/ ١٩٩٠م)، يعترف بأنه لا يحسن الوعظ كما يجبّ؛ لأنها تتطلب روحًا عاطفية، كأنه لا يملكها كما يجب.

ماذا عساه أن يقول ضمن جو هادئ من هذه المواعظ؟!

مـــا أُرانا نـقـولُ إلاّ مُعارًا	أو مُعادًا مـن قولنـــا مكرورا

النفوس كانت تعيش استقرارًا، وليس ثمة شيء ينذر بالخطر.

عشر سنوات مضت على أحداث الحرم، فهل ترى ما سمعه الفتى من بعض أشياخه خلال تلك الأحداث أنها نذير لما بعدها مما قد يطرق الناس بعد عشرها.. أتراه كان أضغاث أحلام.. أم شيئًا من الإلهام؟!

- الدرس الآخر في العام الجديد يحمل عنوان: (النكت والطرائف).

ربما كان الأمر جدًا لا هزل فيه، أو كما قال نشوان الحميري في مطوّلته:

الأمرُ جِدٌّ وهْوَ غيرُ مزاحِ	فاعملْ لنفسِكَ صالحًا يا صاحِ
كيف البقاءُ مع اختلافِ طبائعٍ	وكرورِ لـيلٍ دائمٍ وصـباحِ؟!
الدهرُ أفصحُ واعظٍ يعظُ الفتى	ويزيدُ فوق نصيحةِ النُّصَّاحِ
تجري بنا الدنيا على خطرٍ كما	تجري علـــيه سفـينـةُ الملاّحِ

أو كما قال وتشاءم بشار بن برد:

يا راقِدَ اللَيلِ مَسرورًا بِأَوَّلِهِ   إِنَّ الحَوادِثَ قَد يَطرُقْنَ أَسحارا

الحياة أسئلة، والعلم سؤال، فليجعل درسه التالي مخصصًا لأسئلة حضنها عبر دروس خلت.

- (سؤالات الجامع الكبير).

يعرض سيلًا من رقاع وردت من الطلاب حول شؤون شتى، لكن ليس من بينها ما يُعدّ استشرافًا للغد، أو قراءة لليوم، أو اعتبارًا بالأمس.

جرت له هذه العادة في إفراد السؤالات بحلقة كلما ملّ من الإعداد الموضوعي، أو تجمّع لديه ما رأى التوقّف عنده، اقتبس العنوان من مصنفات المحدثين التي خصصت لسؤالات عن رجال الإسناد، واشتهرت بذلك الاسم، استحسنه واستعاره لسلسلة من دروسه، وشجعه من حوله على طريقته الفريدة في اختيار العنوانات.

أيًا ما تكن، فإن تنوّعها منحه الكثير من الإشارات التي تعرّف من جرائها على الطبائع والاهتمامات المتفاوتة، والمتأصلة في شخصياتهم. إنه التدريب على كيفية التعامل مع الطالب، والتعاطي مع همومه ولو صغرت.

الأسبوع الرابع لم يكن عاديًا، همسات ووشوشات وأحاديث عن كابوس مرعب؛ شاب من طلبته يصلي معه ظهر الخميس في مسجده قرب المستشفى التخصصي، ويلقي بالخبر الصاعق: صدام حسين احتل الكويت!

هل يمكن أن يتفرد شاب كهو بخبر بهذا الحجم؟ حدثٌ مثله يصعب أن يحدث ثم يتكتم الناس عليه، أم تراها الشائعات والأقاويل التي طالما حذّر منها، وتحدّث عنها في درس لم يجفّ مداده بعد؟

كان الشاب هو جهينة، وكان خبره هو اليقين.

يصلي الجمعة مع إمام شاب، والناس يتوافدون إلى المسجد بعدما اتصل بهم الخبر، والنفوس مشرئبة إلى حديث إيماني يهدئ النفوس الثائرة، أو حديث علمي يهديْ العقول الحائرة، أو حديث واقعي يتجاوب مع المخاوف والآمال.

لا هذا ولا ذاك، لقد كانت الخطبة عن عذاب القبر!

وعذاب القبر حق، ولكن هذه الجمعة بالذات كانت محتاجة لشيء آخر.

على أن الخطيب ذاته حيران ليس يدري ما يقول، ولا بأي لسان يتحدث.

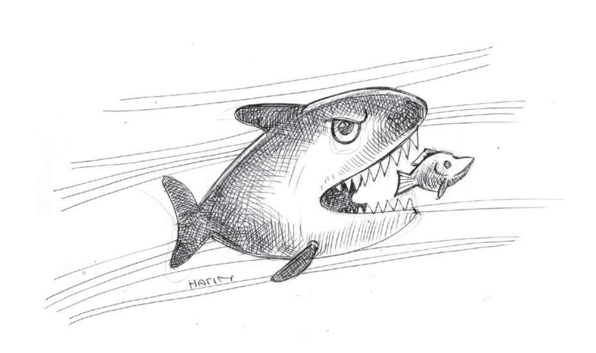
يوم الأحد يجد نفسه أمام الجمهور ذاته، والعيون تبحث عن شيء، تحدق فيه، فيتحدث (حول الأحداث الجديدة).

كان يستخير ربه ويسأله أن يلهمه أن يقول أو لا يقول، فقد كان متردّدًا، لم يحدّد الموضوع، ولديه أكثر من خيار حتى أثناء صلاة العشاء!



42

العاصفة والمرفأ



أهل الكويت في عاصفة الخليج يتركون أرضهم وديارهم وأموالهم تحت وطأة عدوان غاشم بيّتهم على حين غِرّة، وقلوبهم تنازعهم إلى الأرض التي علقت أذهانهم بها، وسرى حبّها في دمائهم، وحين أخرجوا منها فكأنهم فارقوا قطعًا من أجسادهم.

بِلادٌ بِها نيطتْ عَلَيَّ تَمائِمي وَأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدي تُرابُها

يزيد المفاجأة هولًا أنها من جارٍ يُفترض فيه الإخاء والصداقة والود والحماية، لكنه راود الأرض عن نفسها، وحاول أن يغتصب حليلة جاره!

وَمِنَ العَـداوَةِ ما يَنالُكَ نَفعُهُ وَمِنَ الصَداقَةِ ما يَضُرُّ وَيُؤلِمُ

وأهلُهم في المملكة يتلقّونهم بحنان أخوي، يواسونهم في مصابهم،

ويشاطرونهم معاناتهم.
وقد تتلاقى العيون فتتحدث حديث الشجون، والصحبة تنجلي في الشّدة، كما قال سليمان بن شريم:

إنْ كانْ منتهْ مصافيني على الشدّه　　　وقت الرخا واجدٍ ربعي وخلاني!

المحنة تصقل معادن القوم، أفئدة على أمل واحدٍ، وحّدها المصاب، وصار حديث سرها وعلانيتها: متى ميعاد الرجوع إلى الأرض والأهل والوطن؟ وهل ستطول الغربة أم أنها محنة عابرة؟ لقد خطف خبر الحرب القلوب.
هو أيضًا هتف في درسه: (يا أهل الكويت) لقد حاول ألاّ يتحدث لنفسه فقط، جرّب أن يهمس لأحبابه هناك.
حديث ودٍّ لأحبة وجيران تقاسموا معهم المنزل ولقمة العيش وذهول الصدمة.
كان هو الدرس الأول في المقر الجديد للدروس. جامع السوق المركزي بحي الصفراء؛ حيث يؤم المصلين فيه صديقه وحبيبه الشيخ يحيى بن عبد العزيز اليحيى، والذي امتدت صلته به وبَسقت.
الصدمة تتفاعل، والمفاجأة تتسع، إنه حدث يكسر طوق العزلة، ويحمل المنطقة ليلقي بها في قلب الاهتمام العالمي، ويأخذ النوّام لا ليوقظهم بهدوء، ويربت على أكتافهم، بل ليرمي بهم في بحر لجيّ من فوقه موج، من فوقه سحاب، وهم يفركون عيونهم ويتساءلون إن كانوا في يقظة أم في حلم وسبات!
الإعراض التام عن الشأن العام لم يعد خيارًا، والرجل العادي -في حقله أو دكانه- بات يدرك أن استقرار حياته وحياة زوجه وصغاره وطيب عيشه مرهون باعتبارات إقليمية ودولية لابد أن يعيها، ولم تعد

مفهومة من حديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ»!
حتى رغيف الخبز وخرقة الكساء بدَت جزءًا من كلّ للبسطاء من الناس، فضلًا عمن يعيشون همًا وطنيًا أو همًا فكريًا، أو همًا أمميًا.
في ثورة بركان النفوس الهادر، كانت ردود الأفعال متلاطمة متقاطعة، وإن كانت تصب في وعاءٍ واحد؛ أن يا أهل الكويت كلنا لكم أهل، وهو يقول في ندائه لهم:

أهلَ الكويتِ وأبناءَ العمومة هلْ	تشكون جرحًا فَلا نشكُو له أَلَمَا
إذا حَزِنتم حَزِنّا؛ فالقلوبُ لكم	كالأمِّ تحملُ من همِّ ابنِها سَقَما
وكم نَظرنا بكم نُعمى يجسِّمها	لنا السرورُ فكانت عندنا نِعما
صبرًا على الدهر إنْ جلّت مصائبُه	إن المصائبَ مما يوقظُ الأُمما
إذا المكارمُ من أخلاقكم سَلِمَت	فكلُّ شيءٍ على آثارها سَلِما

كان يصارع الحدث كي يبقى يقظًا، ويحاول استخلاص نفسه من ظلام الموقف الحالي، يسعى للسيطرة على ردود أفعاله. لقد أمعن النظر، ودقّق في الصورة، وتنقّل بين زواياها، وربما جرّدها حينًا من إطارها، وقرّبها إلى عينه مرة، وأبعدها عنها أخرى، لعله يحسّن استجابته للانفعالات البشرية الإيجابية، وأن يأخذ هدنة ولو مؤقتة مع تلك الانفعالات السلبية.
حاول أن يستعيد توازنه، وأن يصنع سلّمه الخاص لتجاوز الأزمة، وليكن الرجوعُ إلى التاريخ، وقراءة سننه هو الضوء في تلك العتمة، لذا كان الدرس الذي حمل عنوان:
- (أسباب سقوط الدول).
جرعة زائدة من البوح والمكاشفة، وتفكير بصوت جهوري، ومهارات تحليل وتفكير لم تأخذ حقها في الميدان، ومجازفات فكرية لا تخلو من واقعية، تستند إلى ميراث بشري، تتمحور حول شرح مخطوطة

الفشل والسقوط، وإذا كانت الدول تسقط فلابد أنها تعرف الوقوف والصمود، فلمن المستقبل إذًا؟

تلك الأفكار حول سقوط الدول ليست قانونًا لا يمكن الحيْد عنه، هي بداية للحديث حول العلاقة السببيّة بين الدولة وقوتها وضعفها من جهة، وبين محركاتها الداخلية التي تصنع الأجواء الطبيعية لمستويات التطور والانحدار، بدأ يفكر بهذا الاتجاه..

عشرات ملايين النسخ تُوزّع في كل مكان، والصوتيات على قارعة الطريق، وحول إشارات المرور قد تجد من يلوّح لك من بعيد «خذ نسختك»، ودكاكين التسجيلات تنتعش وتزدحم بوجوه جديدة: علية القوم، المثقفون، المؤيدون المعارضون، العامة، والشباب في بلدان شتى زارها أو سمع بها. غدا هذا العنوان يتصدر قائمة طويلة من المواد المسجلة في سائر القضايا والموضوعات.

في المساجد والمراكز والمدارس والسيارات توزيع غير عادي، والنشر الخيري يساهم في التغطية.

ردود أفعال الأفعال في كل اتجاه، أول صدى مباشر سمعه من حبيبه وشقيقه خالد الذي يثق برؤيته وعقله: «جرعة زائدة من النقد».

كأنه توجّس في التعليق تساؤلًا أو محاذرة.. أم تراه إحساسًا موهومًا؟

لم يكن يتوقع هذه العاصفة المستديمة من التفاعل، كان يستحضر بضعة آلاف على الأكثر كانوا محتشدين حوله في تلك الأمسية المتميزة في الجامع المركزي بالصفراء، أما أن يكون بإزاء تدشين حالة جديدة فلم يكن يظن.

أتراه لم يحسن التقدير، ولم يقرأ الصورة من وجوهها؟ أم تراها وهلة الحدث ومفاجآت التغيير صدمت مجتمعًا هادئًا معزولًا؛ لتضعه على فوهة بركان أو تكاد؟

التوقيت عامل أساس، وكأن الحديث بدا سابقًا لأوانه شيئًا، التوقيت جزء لا يتجزأ من الفكرة، وقد تأتي المبادرة في ظرف فتأخذ موقعها بهدوء وصمت، أو تختار قبرها بعناية، وتأتي هي ذاتها في ظرف آخر فتحدث دويًا غير معتاد. لقد كان النص والوقت والصوت السريع المنطلق أقلامًا رسمت الصورة وسارعت في الحدث.

أشرطة تحاكي الأصل، وأخرى تنتقد، ومقالات وتحليلات، وحراك يوحي بأن الشريط قصّ الشريط، أو يوحي بأنك أمام مجازفة غالية الثمن!

كل ما في الأمر أن الدرس قال في العلن بعض ما كان الناس يقولونه في الهمس.

درس خلط الأوراق، وفرض بقوة أسئلة على مجموعات حركية وتكتلات دعوية، ومدارس فقهية، وتيارات سياسية، هو نجاح بهذا المقياس وللنجاح آباء كثيرون، والشاب يدرك أن ما يلحق من تبعات سيتحملها بمفرده ولذا يردد:

والناس من يلق خيرًا قائلون له ... ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبلُ

يتوقف الدرس.

صديقه وصاحبه د. سفر الحوالي، والذي وثّقت الأحداث اتصاله معه، يقول؛ وقد تشابه الحال:

إن تكن غضبة فصفحٌ جميلُ ... أو تكن محنة فصبرٌ جميـــــلُ

كان التوقف لأسبوعين فحسب، سافر خلالهما إلى مدينة جدّة، كان لقاؤه بوزير الداخلية تكريمًا، وإن تخلله عتاب وملام.

الأمر سُوّي بطريقة ودّية، والرجل عاد إلى درسه وناسه، وتحدث متفائلًا عن المستقبل للإسلام.

انحياز للرؤية الإيجابية اللازمة لبعث النفوس من كآبتها، وكسر روتين التشاؤم المحتدم في أحاديث الناس.

«وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٢٢].

لا يمكن الفكاك من كل شيء؛ فالطقس الغاضب لا يزال في اشتعال، وعنفه يهز المركب.

يقول أرسطو:

«يمكن لأي شخص أن يغضب، فهذا أمر سهل، ولكن توجيه الغضب إلى الشخص المناسب بالدرجة المناسبة في الوقت المناسب للغرض المناسب بالأسلوب المناسب؛ ليس سهلًا، وليس بإمكان الجميع».

عاصفة الخليج حثت في الوجوه التراب، وصنعت نوعًا من القابلية للاشتعال والاستغلال في الوقت ذاته.. فالنفس -حينئذٍ، وفي تلك الحالة بالذات- تصبح قابلة للاختطاف والتوجيه، الكل يريد أن يقرأ الحدث، ويستفيد، لكن النفس المندفعة تريد ألاّ تقرأ الحدث فحسب؛ بل أن تكون جزءًا منه، بل هي الحدث نفسه.

لابد من النظر إلى معلم البشرية محمد - صلى الله عليه وسلم- كيف كان في المحن؟!

ما الذي قاله عنها، وما الذي فعله، وما الذي ينصح به؛ فليكن الدرس إذًا:

(نظرة في أحاديث الفتن).

الشباب مندفع، هزّه الحدث، وأفقده السيطرة والتحكم، وزاد ضباب الرؤية احتدامًا، وثاب آخرون إلى رشدهم تحت وطأة الأحداث المتسارعة، ودون أن يخضعوا لتربية ذاتية وجدوا أنفسهم في الميدان، وفي المواجهة يجتمعون ويفترقون، يركضون لهذا الشيخ أو ذاك؛ حيث

المرافئ، أمان من العواصف.

سيل من التساؤلات: ماذا نصنع؟ ما دورنا؟ ماذا ننتظر؟ ما الذي سيحدث؟ ماذا لديكم؟ أين الحل؟ ما طريق المستقبل؟

أسئلة وأسئلة ولا جواب.. لقد اعتاد بعضهم على صناعة الشيخ المسؤول، لكنهم أغفلوا شيئًا مهمًّا، يثبت أن المسؤولية فردية، يحمِّل كل إنسان مسؤوليته الخاصة في التحكم بذاته، ولزوم الحكمة وتطوير الذات.

الشيخ.. ليس عصا موسى، تقلب أوحال التخلف والجهل عسجدًا وذهبًا وعلمًا، ولا مسحة عيسى تبرئ الأكمه والأبرص، وتحيي الموتى بإذن الله! بل هو دارس لعلم الشريعة، قدّره الله على نوع توجيه وإرشاد، يعطي منه حسب ما عنده، وإن كان موفقًا ترقى في مدارج الكمال وأفاد من تجاربه وأخطائه وعثراته.

التبعة لم تعد وقفًا على حاكم أو عالم، كلهم أصبحوا يتحدثون، يتابعون الأخبار على مدار الساعة، ويحللون الحدث ويدرسون الخيارات، حتى إنك لتسير في الشارع فترى شيخًا كبيرًا يحمل مذياعًا صغيرًا، قد قرّبه إلى أذنه يتخطّف الأخبار، ويتنقّل بين إذاعاته، يصطاد الأمل أو يفترسه الوهن، ثم تعود لترى ذلك المشهد مكرورًا داخل المنزل لعجوز تقترب في كل خطوة من القبر، تحاول أن تلتقط الحدث أو تشارك في تحليله.

الموقف الحالي كان صعبًا، وإذا لم تحرك قِدرك والنار تشتعل تحته؛ فسيغلي القدر وينسكب على يديك. وهكذا كان، فغليان المجتمع المحيط به، وسُحب الخوف التي تحجب السماء تعمل عملها بداخله؛ ليعاني ما بين مدّ وجزر، على الرغم من محاولته بث الطمأنينة والأمن النفسي والاستقرار الفكري على تلامذته، ومن حوله وأهل بيته، إلاّ أن الخوف الإنساني الكامن داخل كل منا قد يبزغ في خلواتنا، كيف لا

وهو يحمل بداخله قلبًا كقلوبهم، ومشاعر كمشاعرهم، ينظر إلى داخل نفسه بعمق؛ فيرى خلف تلك القوة الظاهرة ضعفًا يرتجف لا يجد له دثارًا، ويصرخ بداخله صوت مكتوم، أين أنت أيها الركن الشديد؟ صرخة مكلومة تصدّع مفاصله، وتجفّف عروقه؛ يحبسها بإتقان حتى لا تظهر للعيان، فتقنع منه بأن تزوره في الأحلام، لم يحمرّ وجهه أو يبلع ريقه أمام العيان، لكنه يعرف أن الخوف شعور إنساني طبعيّ، يعلّم الإنسان أنه ضعيف إلى الأبد، الإنسان الذي قد تعلو به نفخة الروح «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» [الحجر: من الآية ٩٢]، قد يهبط به عنصر الطين «وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» [الأعراف: من الآية ٢١] الإنسان الذي قد ينسى طينيّته ذات حين:

نسيَ الطـينُ سـاعةً أنه طيـ ـنٌ حقيرٌ فصال تيهًا وعَرْبَدْ
إن طيرَ الأراكِ ليس يُبَالي أَنت أصْغَيتَ أَمْ أَنَا إنْ غرّدْ
والأزَاهيرَ ليسَ تسخَرُ من فَقْـ ـرِي وَلا فيكَ لِلـغِنى تَتَوَدّدْ
أَيهَا الطِّينُ لستَ أنقى وأسمى من ترابٍ تـدوسُ أو تتوسدْ
إن قصرًا سَمَكْتَهُ سوف يند كُّ، وثوبًا حَبَكْتَهُ سوف يَنْقَدْ

ضعف الرحمة والشفقة وضعف الغريزة، وبكل اختصار: ضعف الإنسان الطَبَعي، كان يدرك ذلك فيه حيال الموقف؛ لكنه لم يكن يستسلم لمحاضن ندب الحال، وولولات تطمس البصيرة وتدفع إلى ما لا تُحمد عقباه، تحليل الحدث ودراسة الخيارات، هي تجربة قد تنضج بعض من يخضعون لها، بيدَ أنها تدمر آخرين.

إنّ الشجاعةَ في القلوبِ كثيرةٌ ووجدْتُ شُجعانَ العقولِ قليلا

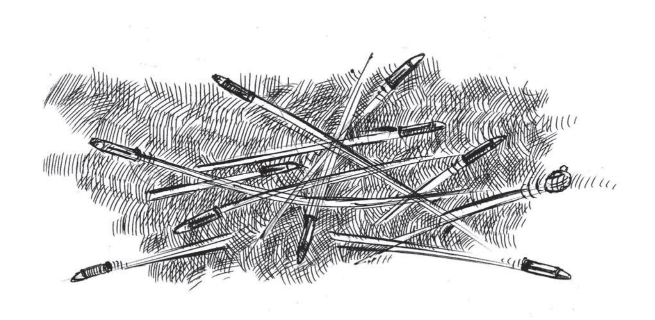
علّمته الأحداث أن يلتفتَ قبل أن يَعْبُر، وأن ينظر أمامه قبل أن يمرّ،

وأن يتحسّس أثرَ الأرض قبل أن يدوس بقدمه ما يكون فيه العثار..
إنه إنسان، يعثُر في الطريق، إن لم تنله العناية الربانية.



43

حجر في الخليج الراكد



من القناعات تتولّد الأفكار والمشاعر والأعمال. وحينما يحسم المرء خياره الشخصي في البعد عن الحياة، وتجريم الأحياء الذين يخوضون فيها بقدر؛ يكون قد ارتكب خطأً شخصيًّا، قد يحتاج للتوجيه والإرشاد، أما أن تتحول تلك القناعات إلى التحكم بأشياء الآخرين والإكراه وفرض الرأي ورفض الرأي الآخر؛ فهذا مستوى من الجهل؛ يحتاج للإقناع بأن الإسلام شيء، وأن رأينا الخاص شيء آخر. «وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» [النحل: من الآية ١١٦].

ها هي مجموعات من الشبيبة الطريّة المحتدمة؛ تعود أدراجها من تيه الغياب عن الذات، وتصرّ على التعويض؛ والتعويض يعني: أن تسبق

من سبقوك، أن تتقدم للأمام بخطوات سريعة حتى ولو كانت غير مدروسة، أو كانت مدمرة في بعض الأحيان.

المرحلة العمرية الغضّة، وغياب المحضن التربوي، وضعف التوجيه، تسمح باتساع دائرة المنفصلين عن السياق العام، والذين يتحوّلون بسرعة إلى «قادة» وقادة مغامرين، يصنعون ذواتهم من جبل الثلج في الليل، ثم ينسون أن شمس النهار تذيب كل ذلك، ولا تبقي إلاّ ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

يبنون ذواتهم مرة أخرى من صنم التمر، فإذا جاعوا افترسوها وأكلوها.

إن المشاعر السلبية تغذيها اختياراتنا، ولا نُساق نحوها سوقًا، وتلك حقيقة تدركها فئة، وترفضها فئات، وهي تقود إلى الندامة والهزيمة ولو بعد حين.

تلك النغمات المشحونة بدمدمات الغضب؛ تجعل الأمور تتفاقم، وتلفّ الضباب على العقل، وتنازعه سيادته.

يتصاعد الحديث عن هجوم ليلي مباغت على جمعية نسائية أهلية، أوَليس قد رُسّمت رمزًا للعلمنة والتحرر؟!

وهل يحتاج الأمر إلى دليل بعدما تشبّعت قلوب، وامتلأت أنفس، وتكوّنت قناعات؟

وغدت وصمة النفاق ترمى على الآخرين، وكأنها أصدق تعبير عن صدقنا وإيماننا.. ولذا فالويل لمن يتردد أو ينازع!

كان الحدث بداية أقرب إلى البساطة، بيد أن ما حدث بعد سنين عديدة من اتساع دائرة العنف، ونهوض مجاميع من الشباب المتديّن إليها، مؤشر خطر لما تؤول إليه الأوضاع كلما تمحورت شبيبة حول ذاتها، وانقطعت عن مجتمعها وأشياخها ورجالاتها، وغدا طريقها الوحيد

لاكتساب الخبرة هو التجربة؛ بيد أن التجربة أحيانًا قاتلة!
مقدمات غير مدروسة، تبدأ بأن معنا الحق، وبأن ثمة باطلًا يجب أن يتم تقويضه بأيدينا.. ثم يكون القرار؛ حيث الضحية: الذات والآخر.
مؤلم أن نجعل الحياة كلها درسًا واحدًا، بينما تستحق أن تكون دروسًا عديدة، نأخذ من شرها لخيرها، ومن خطئها لصوابها، ومن غرارتها لحذقها وفقهها.
انفجار آخر في محل لبيع أشرطة الفيديو في الرياض، فثالث في بريدة، هجمات متقاربة، وأدوات بدائية مدمرة، والبصمة واحدة، حريق يستهدف سيارات العديد من رجال الأمن في المنطقة.
الغموض يلفّ الموقف، والكرة تُرمى بين الفرقاء، هل هم (الإسلاميون)، كما يحلو للبعض أن يسميهم؟ إنه عمل ساذج، وتحليل أكثر سذاجة.
أم هي مجموعة مغرّدة خارجة عن مدارها، ولا حسابات لها، وليس عندها ما تخسره؟ أم تُراها خلية مدسوسة تضرب الصف من داخله؟
حدث محدود، لكنه معبر.

أُمُـورٌ تَضْحَكُ السُّفَهَاءُ مِنْهَا وَتَبْكِي مِن عَوَاقِبِهَا الرِّجَالُ

الكل يتحدث، والفرضيّات تشرّق وتغرّب مما يخطر بالبال، ومما يشطح في الخيال.
ليس ضروريًا أن يصبح كل حدث ذكيًا.. عميق البعد، مدروسًا بعناية، له أهداف بعيدة؛ فبعض الأحداث أربكت الناس والمحللين؛ لأنها -ببساطة- غير مدروسة، ولأن أصحابها لم يفكروا بذكاء شديد، وإن كان هذا لا يمنع من وجود من يستغل طرفًا أو آخر.
المخاوف تكبر، والظرف ملائم لدرس جديد؛ فالدروس العلمية

العامة هي ملتقى أهل البلد:
- (فقه إنكار المنكر).
شابّ لم يرق له العنوان؛ فقد قرأ مباشرة أن عليه أن يتفقّه قبل أن يتحرّك، أن يستخدم عقله قبل أن يستخدم يده. هذه لغة لا يريدها.
آخر ضايقه المضمون أكثر، أهذا وقت الحديث عن «فقه» وعن «ضبط» وعن «مصلحة»؟ إلى متى وشيوخنا يتحدثون عن «الحكمة»؟!
إنها القصة المكرورة، نحن لا نريد قائدًا، نريد من يؤدي دور القائد؛ بيد أنه يفكر بعقولنا، وينتحل آراءنا، ويتقمّص شخوصنا، وينطق باسمنا.
نريد من نشحنه بقناعاتنا؛ لنسمع رجع الصدى، ونجد أصواتنا تجري على لسانه، ممزوجة بوجوه الاستدلال، وضروب الحجج، ولطائف النظر، ومختار الشعر بكل وضوح.. نريد أن نفكر نحن.. وأن يقول هو.
ليس مهماً كيف يوفّق بين تناقضاتنا، المهم أن يكون صورة طبق الأصل عن آحادنا!
الإحساس العام يتجه نحو الحيرة، ولا أحد يستطيع أن يتأكد؛ فالتردد سيد الموقف في حدث محلي، وفي حدث عام يلفّ المنطقة. وكما الحاضر المرتبك المشوّش، فالمستقبل أيضًا غير واضح.
و«الشك هو الصديق الحميم للأرواح الضعيفة»، كما يقول توماس بين، والأوهام سجن كبير يقبع فيه نزلاء من زمن بعيد، ولا أحد يسعى لفك أسرهم من عقال الذات، وحتى هم لاً يريدون ولا يشعرون بمرارة السجن وأقبيته ورطوبة جدرانه العتيقة؛ فليكن الدرس إذاً عن الخلاص تحت سؤال كبير:
- (كيف نتحرر من الأوهام)؟
اعتنى هو شخصيًا بالمادة بعد تسجيلها، وتابع إعدادها للنشر، وأصرّ

على تطريزها بإدخال صوت القارئ محمد المحيسني في تلاوة الآيات، بدلًا من صوته هو، وكالعادة تولّت (تسجيلات أحد) نشر المادة وتوزيعها.

لم يكن الأمر يكلّف مراكز التسجيل أكثر من وضع مقدمة مكرورة بعنوان المادة، واسم المتحدث، ورقم الشريط، لكنها كانت تدرُّ أرزاقًا على محلات التسجيل التي انتشرت في كل زاوية، وغدت جزءًا أساسيًا من المشهد.

المساجد تكتظ، وحلقات العلم تشهد زحفًا يغري بالمزيد.

درسه العلمي العام يستوعب الآلاف، سحنات جديدة، ووجوه غير مألوفة، لم يعد يتحدث إلى طلبة العلم أو أصحاب حلق العلم فحسب.. هي فرصة فليغتنمها، وليخاطب الشباب الذي أصغى وأصاخ، وليمنحه مزيدًا من الاهتمام والمساندة:

- (رسالة إلى الشباب).
- (مسؤوليتنا عن انحراف الشباب).
- أما (جلسة على الرصيف) فهو درس مختلف..

الإعلانات أشكال وألوان، واستطلاع للرأي عفوي يُوزّع في كل مكان، وتُعرض أهم نتائجه في الدرس، العنوان ذاته لافت، والجو مشحون، والحماس يلهب الرجال، ها هو أبو خالد أحمد السعيد، تلميذه القديم في المتوسطة، والجديد في ميدان العمل والدعوة، ومجموعات من الشباب تحمل الرسالة إلى تجمعات رياضية، وإلى محافل تجارية، وتلصق الإعلان في كل مدرسة ومسجد، وحتى عمود كهرباء، البعض يلصقه على زجاج سيارته؛ إعلان متنقل.

إنها حالة استثنائية؛ تستفزّ مكنون الطاقة، وتمثل التحفيز الذاتي في أجلى صوره.

المسجد يمتلئ، والمنطقة المجاورة، وشباب يستمعون في سياراتهم، والحديث عاطفي يبدأ بخطاب المحبة والود.

أخي، هل رأيت المآذن تشقّ الفضاء؟!

أخي، هل سمعت النداء يردّد: «الله أكبر»؟!

أخي، هل غسلت فؤادك يومًا بنور السماء!

تعالَ معي يا حبيبي إلى روضةٍ من ضياء..

تعالَ إلى حيث يدعو المنادي صباحَ مساء..

يردّد: «الله أكبر»، تعال إلى روضة الأوفياء...

حدث متميز، ومادة جديدة تتولى تسجيلات التقوى بالرياض إخراجها هذه المرة، وهي الأكثر عناية؛ إذ قامت باقتراح الموضوع، وإعداد بعض فقراته، ومن ثمّ تمّ التوزيع على أوسع نطاق.
ثلاثة ملايين نسخة في فترة وجيزة تمّ توزيعها من المادة الصوتية، وعدد مساوٍ يُوزّع من الكتاب المطبوع تحت ذات الاسم.
إحساس بالإنجاز والمشاركة؛ يعكّر صفوه نقد لاذع، ينصبّ على فقرة في الشريط المسموع، تتحدث عن مغنٍّ ماجن، يفهم منه بعضهم أن العبارة تعني تكفير الناس بالمعصية.
هو إذًا من «الخوارج» الذين يكفّرون المسلمين، ويستحلّون دماءهم، ويخرجون على ولاتهم، وينابذونهم وينازعون الأمر أهله!
العبارة الصوتية ليست محكمة، والحديث الشفهي يعتريه ما يعتريه، بيد أن الصيغة المكتوبة أكثر ضبطًا وإحكامًا، فلِمَ لا يعتبرونها قاضية على ما سواها؟! وكيف تجاهلوا حديثه المفصّل في ذمّ الخوارج، ونقد مسالكهم، والتحذير من بدعتهم؟

يُسأل فيجيب، ويكرّر أنه لا يكفّر أحدًا من المسلمين بمعصيته مهما كبرت، إلاّ الشرك بالله، ولا يكفّر إلاّ من أنكر معلومًا ضروريًا قطعيًا من مُسَلّمات الدين المجمع عليها عند الأمة، ولا يكفر الأعيان والذوات بمجرد الفعل؛ لاحتمال طروء عوارض الأهلية من الجهل والإكراه والتأويل: والأصل بقاء المسلم على ما هو عليه، وليس من حقّ أحدٍ أن ينفي عنه الإسلام إلاّ بيقين لا يحتمل التردّد.

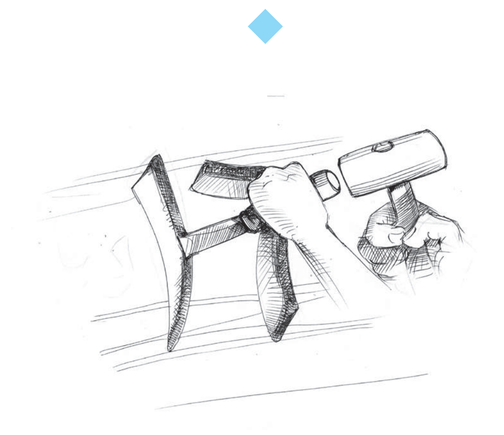
ربما لأن بعض الأجواء العلمية اعتادت منازلة الخصوم واحتراف الردود، كأنها تبحث بلا وعي عن خصم ليكون كبش فداء، فهي تعرف خصومها أكثر من أصدقائها، وتنازل أعداءها أكثر من أن تحاور أقرباءها، وتشكّ قبل أن تثبت التهمة، وقد تتهم قبل أن يثبت الحدث؛ لأنها اعتادت على أن تعرّف خصومها وتحذّر منهم، وهذه الطريقة ليست إلاّ طريقة عامة للتفكير، قد يتخذها أي إنسان، بغض النظر عن خلفيّته أو اتجاهه أو مدرسته.

التشكلات المدرسية داخل الإطار السلفي بدأت تتحدّد وتتّضح؛ فهي مدارس سلفية -إذا شئت- وليست مدرسة واحدة، والتميز عن الآخرين شعور مستحوذ داخل كل فصيل، فالصغائر قد تكبر في العين؛ لأنها هي التي تضع العلامة الفارقة..، الافتراق والتميّز غدا مطلبًا -في بعض الحالات- أكثر من جمع الكلمة ووحدة الصف، ومقدار التقوى هو الذي يحكم سلوك المرء عند الخصومة، والدوائر التي صنعها حجر أزمة الخليج في مياه الخليج الراكدة تكبر وتكبر، وتنضج على حرارة بخار تلك الأحداث.

◆◆◆

44

16 يناير



يقولون بأن نبات الفطر ينبت سريعًا، بيد أن أرجل الأطفال الصغيرة تسحقه بسهولة.. إذ هو ينمو سريعًا، ويموت سريعًا، لذلك كان صاحبنا يؤمن بأن ما يُسقى بمؤونة فإنه يخرج نباته بإذن ربه، وبأن الانقلاب على الأوضاع السائدة بغير تروٍّ قد يكرّس المألوف، بدلًا من تغييره، وهو يتذكر تاريخ (٢٥/ ٤/ ١٤١١هـ - ١٣/ ١١/ ١٩٩٠م)، ودرس الجامع الكبير الموسوم بـ:

- (لسنا أغبياء)، لقد كان تعليقًا على المظاهرة النسائية المطالبة بقيادة المرأة السعودية للسيارة، والتي وقعت في الرياض، وأفلحت في ترميز هذه القضية لتتجاوز حجمها المعتاد، وتصبح ميدانًا للمنافسة وليّ الأذرعة، بين فصائل فكرية متنازعة داخل البلد، ولتحافظ على حجمها الكبير الذي يحار فيه الكثيرون، ويعجزون عن فهم الأهمية

التي يوليها المؤيدون والمعارضون على حدٍّ سواء، حتى بعد أن مضت الأحداث.

وفي جو الحرب وقلق القادم، تسري الشائعات دون تحقق، والجميع مأخوذ بأهمية المبادرة، وخطورة أن تسبقنا الأحداث، فالأصابع على الزّناد، والمسافة الفاصلة بين النصر والهزيمة هي ضغطة زِرّ!

حديث عن بوادر مظاهرة أخرى؛ يستدعي درسًا آخر:

- (المرأة.. عوْد على بدْء).

تبرُّمٌ من ظاهرة الشريط الإسلامي ودوره في صناعة الوعي عند فئة، وفي تغييب الوعي عند أخرى، وحوار مع د. غازي القصيبي في إحدى الصحف.. أوحى له بموضوع جديد:

- (الشريط الإسلامي.. ما له وما عليه).. بتاريخ (١/ ٦/ ١٤١١هـ - ١٩/ ١٢/ ١٩٩٠م).

الدكتور غازي السفير حينئذٍ يرد بمجموعة كتب على د. عوض القرني، ود. عائض القرني، ود. ناصر العمر، ود. سفر الحوالي، وسلمان العودة..

وهو يقول: يا أخي سلمان.. (اعذرنا لا مكان لولاية الفقيه بيننا) والسلسلة (حتى لا تكون فتنة)، وفيها حديث عن تغيّر الفتوى بتغيّر الزمان والمكان، ونقل مطوّل عن ابن القيّم في (أعلام الموقعين).

سجال إعلامي يتّسع بين طرف يحاذر من تغيّرات غير محسوبة؛ تأتي بها الحرب وتداعياتها، وينفلت معها الزمام.

وبين طرف آخرَ يجدها فرصة للتخفّف من قيود الطرف الأول وسطوته على المجتمع وتأثيره على الأحداث، وعلى رؤية صانعي القرار.

وقد يتسامح هذا الطرف مع بعض غُلاته ومتشدّديه، حرصًا على وحدة صفه، حتى ولو بدر اندفاع في العبارة، أو تصنيف غير حصيف، أو

اتهام غير مدلل، أو تخوّف في غير محله.. أَوَلَيست طبول الحرب مسوّغًا لما يقع؟!

تحوّلات الزمن تتطلب انفتاحًا لا يملك الطرف الأول القناعة به، ولا يملك الطرف الثاني خارطته.

أدوات الطرف الأول: خطب ودروس وأشرطة ومطويات وكتيبات وحشود شعبية، وأدوات الآخر: إعلامٌ حديثٌ، وصحافة، وتلفزة، وعلاقات واسعة بعضها مع المؤثرين، أما الإنترنت فلم يكن يومئذٍ..

يلخص د. غازي الموقف حين سُئل، فقال:

- استعدينا عليهم السلطة، واستعدَوْا علينا المجتمع!

الحرب بدأت، تاريخ محفور الأربعاء (٢٩/ ٦/ ١٤١١هـ الموافق ١٦/ ١/ ١٩٩١م).

كاد يكون عنوانًا لدرس جديد، تاريخ يقتحم حياة الناس، القلوب ترقبه، والأبصار مشدودة إليه، والنتائج معروفة، بيد أن المجريات التفصيلية، والمخاوف من المفاجآت، وأشباح الهياكل العظمية لضحايا سلاح كيماوي، أو دمار شامل، تلاحق اليقظة والمنام..

سكتة تصيب الدرس تمتد لثمانية أشهر، ودّ صاحبنا أن لو زادت إلى تسعة لتناسب قول العقاد الذي استشهد به بعد البداية الجديدة.

وكنت جنينَ السجنِ تسعةَ أشهرٍ ... وها أنذا في ساحةِ الخلدِ أُولَدُ
ففي كلِّ يومٍ يولدُ المرءُ ذو الحجا ... وفي كلّ يوم ذو الجهالةِ يُلحدُ
عِداتي وصحبي لا اختلافَ عليهمُ ... سيعهدُني كلٌّ كما كانَ يعهدُ

زيارة لوزارة الداخلية في جدة، ووساطة من سماحة الشيخ ابن باز تؤدي إلى فسح الدرس من جديد.

الأحد ليلة الاثنين الثاني من صفر عام (١٤١٢هـ- ١٢/ ٨/ ١٩٩١م)

إعلانات عن درس جديد:

- (حديث الروح)، اقتباس من شعر محمد إقبال في خطاب عاطفي:

حديثُ الروحِ للأرواحِ يسري	فتدركُه القلوبُ بلا عنـــــاءِ
هتفتُ به فطارَ بلا جناحٍ	وشقَّ أنينُه صــــــدرَ الفضاءِ
ومعـدنُه ترابيٌّ ولكـــــــنْ	جرتْ في لفظه لغةُ الســـــماءِ

وفي صدر الدرس.. «قدّر جهاد أولئك الأفاضل؛ من أمثال الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن عثيمين، والشيخ صالح اللحيدان، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ عبد الرحمن العجلان رئيس محاكم القصيم حينئذٍ، وغيرهم من كبار الشيوخ».

هل كانت صدفة أن يتحدث هنا أيضًا عن الشريط الإسلامي، وأنه يجب ألاّ يغلب على الكتاب؛ فالكتاب أرسخ وأبقى وأطول عمرًا، وقد تنتفع به أجيال وأجيال، ولا يزال العلماء الذين دوّنوا علمهم في صحائف أحياء بيننا..!

- (من يحمل هم الإسلام)؟

دعوة للمشاركة والإيجابية في العمل والدعوة، ونعي على الاتكالية والانتظار.

- (على سرير الموت.. قصص وأشعار)، ربما حاول فيها أن ينعتق من لزومية الأحداث وتسلسلها وطرديتها، ليتحدث بعيدًا عنها، ولا غرابة أن يهمس له غير واحد: ما هذا؟!

تسارُع الحدث يجره إلى الميدان، صِدام في أفغانستان بين مجموعات جهادية، ومقتل الشيخ جميل الرحمن الذي زار المملكة وعرّج على القصيم، واجتمع إليه غير مرة.. فليتحدث عن:

- (أفغانستان.. عِبر وعَبَرات)..

محاولة أخرى للانعتاق ومقاربة الحياة العادية في عنوان معبر:
- (صناعة الحياة)..
دعوة إلى العمل والحضور والتأثير؛ فالحياة لا تُختصر في حدث عابر، ولا في جانب سياسي أو عسكري.. أو حرب تثور هنا، أو تهدأ هناك.
أحد أصدقائه يهمس له: «هذا منهج الإخوان!».
كان قد قرأ كتابًا بالعنوان نفسه، وهو غير منتم لجماعة ولا تنظيم، ولكنه لا يعتبر انتماء الآخرين عائقًا دون الاقتباس متى رأى شيئًا جديرًا بالاقتباس، كانت طريقته وما زالت: «الحكمة ضالّة الإنسان، أنى وجدها أخذها».
-(تحرير الأرض أم تحرير الإنسان)، درس في عنيزة، لقد بدأ الدرس العلمي يتنقل أحيانًا إلى عنيزة أو البكيرية أو مساجد أخرى في بريدة، كان ذاك المجلس في (٢٤/ ٦/ ١٤١٢هـ- ٣١/ ١٢/ ١٩٩١م)، وصادف إقامته صدور بيان من سماحة الشيخ ابن باز في الدفاع عن الدعاة، وحماية أعراضهم وحسن الظن بهم..
لم يكن صاحبنا بعيدًا عن صياغة الخطاب، و لم يجد مفاجأة في صدوره، بيد أن حفاوة وسائل الإعلام ووكالات الأنباء المحلية والتغطية الكبيرة له؛ كانت مثار دهشة!
لم يخف الآخرون انزعاجهم وهم يشعرون بالاستهداف، واستصدروا من الشيخ حديثًا مسجلًا بأنني لا أقصد فلانًا ولا فلانًا؛ فكلهم أهل سنة ودعوة، وليسوا مقصودين بالبيان.
على الحملة الطويلة والتي امتدت لسنين لم يقف صاحبنا عند الأمر، ولم يسمح لنفسه بالردّ، أو الدخول في عراك، غير أن تعليقه في تلك الجلسة على بيان الشيخ، كان هو الاستثناء الذي ندم عليه، لقد سُئل عن المقصودين بالبيان، فأجاب باقتضاب: «المرجفون في المدينة»، وودّ

أنه لم يقلها، فهي الكلمة التي تقول لصاحبها: دعني!
أحداث عالمية تفرض نفسها، الجزائر تعيش أوضاعًا جديدة، تشكيل الأحزاب، جبهة الإنقاذ الإسلامية تحدث زلزالًا غير عادي في المنطقة، تأزّمات داخلية، وتدخّلات خارجية، فوز في الانتخابات بأغلبية مطلقة، الصراع يتفاقم بين الشيوخ والجنرالات، ويتحول الأمر إلى شبح حرب أهلية. المحتشدات تكتظ بعشرات الآلاف، وإلغاء الانتخابات، والدماء تجري في اتجاه إلى المجهول.. ربما لم يكن يتوقع مَن وراءه أن يمتد أثره لأكثر من خمس عشرة سنة قادمة..

يدلي بدلوه بـ:

- (كلمة في المسألة الجزائرية).

لم يكن شاعرًا، بيد أن قلق الأحداث أوحى له بشيء مما يصح أن يسمى شعرًا، وتلاه في صدر تلك «الحصة» الجزائرية:

سلامٌ على قلبٍ من الطهرِ أطهرُ ... وروح شفيف في ربا الخلدِ يخطرُ

وأطيافُ جناتٍ وأنسامُ رحمةٍ ... وحبٌّ عفيفٌ رائقُ الدلّ أخضرُ

وساعات إسعادٍ يظل غمامُها ... على كلّ ساعاتِ المحبين يمطرُ

ترفّقْ بقلبي؛ فالأعاصيرُ تزأرُ ... وسودُ الرزايا في الظلامِ تزمجرُ

ترفقْ بقلبي؛ فالجراحُ عميقةٌ ... وذي أسهمٌ شتى عليه تكسّرُ

عقب كل جلسة سيل من الأوراق، فيها التأييد والدعاء، وفيها السؤال، وفيها النقد والاستدراك لكلمة أو عبارة أو أسلوب أو منهج، فليتحدث حول هذه الأوراق، وليكن عنوانه:

-(المراجعات).

أراد أن يجعلها سلسلة متصلة بين الفينة والأخرى، هي بداية إيجابية أن نتعلم الصواب من الآخرين، وأن نعلنه على الأشهاد، لتكن

البداية بتصويبات حديثية أو لغوية أو تاريخية، بيد أن منهج التصحيح والتصويب والمراجعة يمكن أن يستمر ويتطور لمراجعة الذات والأفكار، وبعد سنة ونيّف، عمل حلقة أخرى تحت العنوان ذاته، وفي المكان ذاته، وفي الاتجاه نفسه تأتي محاضرة:

-(لماذا نخاف النقد)؟

على أن تكرار النظر في المادة أوحى إليه بفكرة مهمة، مفادها أننا بحاجة إلى أن نعلم أنفسنا قبول النقد أكثر من الحاجة إلى أن نعلّم ذلك للآخرين، فنحن جميعًا نريد أن نطبّع النقد لدى الآخرين، خصوصًا حين ننقدهم؛ لأن كبرياء النفس حينئذٍ محفوظة، بل متألقة، فهي تصحح وتستعلي، أما حين ينقدنا الآخرون فالأمر مختلف، جد مختلف، أنت هنا أمام أزمة أخلاقية حادّة، ومستوى تربوي سامق، يصعب تصوّره، فضلًا عن الوصول إليه، إلاّ لمن اختارهم الله، وصدق الله إذ يقول: «وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [فصلت: ٣٥]، وفي التوجيه النبوي الجامع: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ».

- (المعركة الفاصلة) درسان حول الصراع الإسلامي الصهيوني، يتلوهما ثالث حول:

- (التطبيع)، لم يعدّه بما فيه الكفاية، ولكن المكتوب يُقرأ من عنوانه، بين وقت وآخر يتم قياس مدى الاستعداد لجرعة جديدة من التنازل بشأن القضية الفلسطينية، وقوى الممانعة، دينية أو سياسية، أو ثقافية، أو عسكرية تستميت في الرفض، وما يُسمّى بالسلام يراوح مكانه، والغلبة للأقوى، العدو بترسانته وعمقه الدولي والأمريكي خاصة، والأهل بإصرارهم وتحديهم واتكائهم على قائمة طويلة من التضحيات، ومخزون هائل من الصبر.

ويرحلُ قتـلانا وفي القلبِ غصةٌ يريدون عمرًا ثانيًا كي يقاتلوا
سنُهدي كما أهدوا، ونشوي كما شوَوْا فمخزونُنا من هذه النارِ هائلُ

الشيخ عبد العزيز بن باز المفتي العام، والقيادة العفوية النادرة التي حظيت بقبول شعبي، ورسمي، وحركي، من النادر أن يشكك أحد في نيته أو مقصده، أو في علمه واطّلاعه، على أن مخالفيه يلجؤون إلى الاتكاء على عدم إحاطته بالصورة كلها، أو إلى إمكانية التأثير عليه، والحق أنه كان أستاذًا في الحياة، وليس في الشريعة فحسب، وربما كان ما يعيبه به بعض المنتقدين سرًا من أسرار عظمته..

الشيخ كان له رأي مختلف، كَتَبه في فتوى، وسجلّه في حوار، كان يقول: لِمَ لا يكون الصلح أو السلام ممكنًا ما دامت قدراتنا وإمكانياتنا بهذا اَلقدر؟

وحين عُرض عليه كلام ابن قدامة في عدم جواز الصلح المطلق إجماعًا، لم يستسلم لهذا النقل، واقتصر على القول: «يُنظر فيه.. يحتاج تأمل.. يحتاج بحث».

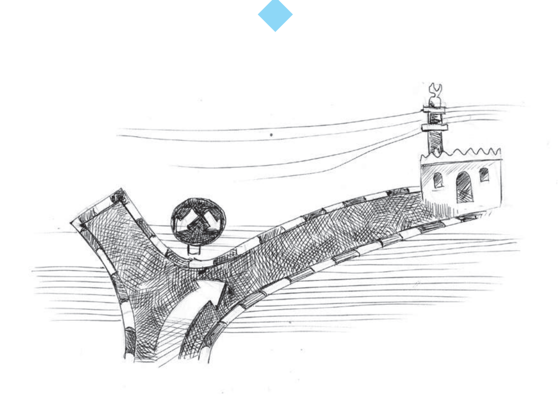
تختلف معه، ولا تملك إلاّ أن تحبّه، وتُكبر روح الهدوء والاستقلال والشجاعة في رأيه، وفي إصراره، وفي تواضعه، وتقبّله للرأي الآخر..

١٦ يناير.. كان حدثًا مدوّيًا.. على أن ذيوله ظلّت حاضرة أكثر مما كان يظن معظم المحللين والخبراء.. وبدت الحياة الإنسانية قادرة على الاستيعاب والتكيف مع المتغيرات أكثر مما يظن الناس.



45

تحت قبة المسجد



قبة المسجد التي كان يتحدث تحتها في محاضراته العلمية والعامة كانت تشهد معظم تفاعلات تلك المرحلة، وعرفته في أحوالٍ شتى..

لديه إحساس متزايد بأن السياسة يجب ألاّ تكون كل شيء؛ فالحياة ميدان فسيح، وثمة فرق بين قبة المسجد وقبة البرلمان.

اختصار الحياة في همّ واحد هو اختلال فكري وتربوي، ولذا فهو يتفلّت من حصار الموضوعات السياسية في أحايين كثيرة؛ إذ هي ذات شعب، وليس على المرء أن يخوضها برجليه إذا كان يجد أرضًا أكثر عمارًا وأقل ضجيجًا.

امتد به الفكر والزمن ليقرأ النظرية الغربية في (موت السياسة)، وهي لا تعدو أن تكون وجهة نظر، بيد أن عرضها قد يعدّل مزاج المفرطين والمبالغين.. قد تجد نفسك أحيانًا حيث لا تحب ولا تريد!

درس يمثل لفتة اجتماعية تعالج مشكل الطلاق، اختار له عنوان:
- (الحلال البغيض)، اعتمادًا على أثر مرسل مشهور: «أَبْغَضُ الْحَلاَلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلاَقُ».
وثنّى بلفتة نفسية تحدثت عن:
- (العوائق والحيل النفسية)، حلّل فيها بعض ميول النفس وانحناءاتها وخدعها للتهرب من التبعات والمسؤوليات، ثم أكمل موضوع النفس لاحقًا في المركز الصيفي بالطائف، في محاضرة تجمع بين الحشد وبين الترقب والحذر والإحساس الغامض بشيء ما.. تعلّم هو أن يحدس، وأن يضع احتمالات قد تفيده، وعرف أن النفس الإنسانية قد تسوّغ الشيء لاشتهاء داخلي، ثم تجعل له الأسس المنطقية، وقد تسير عليه أمدًا يطول، وقد يتحوّل إلى مفصل للحق والباطل.. وهو في الأساس شعور نفسيّ بالخوف من شيء، أو بالركون للآخر.. الخوف من الغريب والجديد.. والخوف من المستقبل، والخوف من الناس.
المحاضرة كانت مصورة، ولذا بقيت وامتدت، وميّزتها الغترة البيضاء التي كان قليلًا ما يلبسها، فالعادة عنده محكمة في اللباس!
كان عنوانها: (طائفة أخرى من الحيل النفسية).
الموسم يقترب فيملي عليه حديثًا عن الحج يعنونه بـ:
- (رسائل إلى الحجيج)، وهو قد نادى بعد:
- (يا أهيل الحرم)!

دَعُونِي أَنْفُثْ بَعْضَ الأَلَمْ عِتَابًا لَكُم يَا أُهَيْلَ الْحَرَمْ!

معلومات جديدة، وذات خطورة عن جهود المنصّرين، إذاعات تُبثّ، وكتب تُوزّع عبر البريد، ونشرات ومطويات، وأرقام وإحصائيات.. مادة دسمة ضخمة ومهمة توحي له بسلسلة من الدروس تمثل عملًا متكاملًا:

-(التنصير يجتاح العالم الإسلامي).
-(التنصير في الخليج).
-(صانعو الخيام ١-٢).
إنه مصطلح يعني أولئك الذين يتسترون تحت شعار التعليم أو الطب أو التجارة للدعوة إلى المسيحية؛ ولأنها ذات رواج في العديد من دول إفريقية وسواها؛ خصص لها حلقتين.
- (٥٩ طريقة لمحاربة التنصير)، وكان هذا الدرس تمثيلًا للفعل الإيجابي المفترض، بدلًا من الاكتفاء بلعن الظلام.
ثم عود إلى الموضوع التربوي والتعبّدي في:
- (هكذا صلّى الأنبياء)، تفصيل لصفة الصلاة وخشوعها وأثرها وسننها وواجباتها، كان يقول بأن الأحداث ينبغي ألاّ تجعلنا أساراها سواء معها أو ضدها.
- فـ(جلسة مع مربٍّ)، وهو درس أُعدّ بعناية لمخاطبة المدرّس وتذكيره بمهمته الربانية.
ثمة مشروع ضخم أخذ وقتًا طويلًا في الإعداد والتحضير: (حفل السُنّة النبوية). نخبة من الطلبة الحفّاظ الذين اعتنى بهم على وجه الخصوص صديقه الشيخ يحيى بن عبد العزيز اليحيى، وآخرون من خريجيه، وتم لهم حفظ الصحيحين والسنن الأربع، أو ما يُسمّى بالكتب الستة وفق طريقة الزوائد، أي: يحفظ الطالب أحاديث البخاري، ثم زوائد مسلم على البخاري، ثم زوائد أبي داود على الشيخين، ثم زوائد الترمذي..، بل وزوائد المسند على الكتب السّتة.
والحق أن الشيخ يحيى حظي بنخبة من الحفظة يقلّ نظيرها، جمعت بين الحفظ والذكاء والنباهة، وكانت مدرسة متميزة ذات حضور وتأثير، ولا تزال إلى اليوم في القصيم والمدينة واليمن والسودان، وغير ما

مكان، ولعل خبيئة من عمل صالح، أو سريرة حسنة لدى هذا الرجل كانت وراء هذا الإنجاز الجميل.

حفل السُنّة يُقام في الجامع الكبير في حشد هائل بتاريخ (١٩/ ٤/ ١٤١٣هـ-١٦/ ١٠/ ١٩٩٢م)، وفود من كل مكان، أمير المنطقة فيصل بن بندر يتصدر الحضور، سماحة الشيخ ابن باز يخاطب الجمع برسالة مكتوبة قرأها نيابة عنه الشيخ عبد الله بن قعود، الشيخ محمد بن عثيمين كان حاضرًا وتحدث إلى الحضور، صاحباه الشيخ سفر الحوالي والشيخ ناصر العمر كانا من الحضور، ورفيق الدرب الشيخ عبد الوهاب الطريري يُقدِّم للحفل، وفود من خارج المملكة من مصر والسودان والجزائر واليمن وغيرها. المسجد يكتظ، والطلاب يتقدمون للامتحان وسط إعجاب وتهليل. إنه مَنْشط علمي مبتكر متميّز، بقي صداه طويلًا، وزاد في وهجه أن الحضور المتنوع شارك في برامج محاضرات موزعة على مدن القصيم، فالشيخ سفر الحوالي تحدث من الغد في الجامع الكبير ببريدة عن (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)، إلى زيارته لكلية الشريعة، ومجموعة في عنيزة، وثانية في الرس، وأخرى في رياض الخبراء..

عَشاءٌ بعد العِشاء اختلط فيه الحابل بالنابل، وتتالت فيه الكلمات، وجرت حوارات ومعاتبات على المائدة، ظلت القصة محفورة في الذاكرة، مسجلة صوتيًا تسجيلًا يعيد إليك وهج تلك الأسمار الرائعة:

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» [الأحزاب: ٢٣].

القضية البوسنوية في أوج تفاعلها؛ شعب يتطلع للحياة فيجد الطرق قد سُدّت عليه، تجاهل عالمي، وتواطؤ أوروبي، وتعاطف أمريكي مصلحي خجول، وعجز إسلامي. القيادة الاستثنائية للدكتور علي عزت بيغوفيتش وحزب العمل، والحراك الإسلامي الشعبي المعلن،

والرسمي في أكثر من بلدٍ خاصة في السعودية وإيران، ساعد المسلمين على الصمود، على التضحيات الهائلة، والمجازر الجماعية في سراييفو وسربنيتشا، والحظر الجوي، ونزع السلاح، لكن المعجزة حدثت، والجهود تكلّلت بقدر من النجاح، والاتفاقية الأمريكية (دايتون) تضع حدًا للحرب، وتسمح بقيام دولة البوسنة والهرسك للمسلمين والصرب والكروات، وتنشئ مجلس الرئاسة وتلغي منصب الرئيس.. ليكون د. علي عزت هو الرئيس الأول والأخير.

- (في القضية البوسنوية) هو الدرس رقم (٧٥) بمشاركة صديقه وشريكه في العديد من البرامج والأعمال؛ البروفيسور صالح بن محمد السلطان، والذي كان مهمومًا بالقضية البوسنوية، وعلى صلة شخصية بالدكتور علي عزت، والناشطين في الحقل ذاته.

صالح السلطان رفيقه منذ الصبا، هما متقاربان دراسيًا، متجاوران سكنًا، متحابان في ذات الله على غير أرحام ولا أموال، صحبة صادقة لا تزيدها الليالي إلا رسوخًا وعمقًا، وهو يتفاءل بصفاء قلب صاحبه، وحرصه على عبادته، أن يكون قربه المستديم ومشاركته في الرؤية والعمل صمام أمان.

كان الدرس عرضًا للجديد من المآسي، ودعوة إلى التضامن والتبرّع والدعم، الناس يتسارعون ويبذلون، ويعبّرون عن تعاطفهم بالتخلي عن حاجاتهم الشخصية، فهذا يلقي ساعته، وتلك ترمي بحليّها، وذاك لا يجد سوى غترته فيرمي بها في حاوية التبرعات!

مشاهد رائعة معبرة عن صدق الإحساس، ونبل المشاركة، وحرارة الإيمان.

المجاهدون في البوسنة يضربون أروع المثل، فبعد أن وضعت الحرب أوزارها أُشير عليهم بالتطبيع مع الوضع القائم، والاستقرار تحت بند

السلام، أو الرحيل؛ حيث لا خطر ولا حظر، ونجحت قيادتهم في لجم الاندفاع المصاحب عادة لِحَمَلَة السلاح ومعتادي المعارك، وكان هذا إنجازًا آخر ساعد على مضي الأمور على خير، وإن كان الكثيرون لا يدركون أهمية مثل هذا القرار؛ لأنهم لم يتصوّروا ما يمكن أن يحدث لو أن المقاتلين رفضوا الانصياع تحت ذريعة أن الاتفاقية مجحفة، وهي كذلك، كم سينزف من الدماء.. وما سعة حجم الانشقاق في الجسد الإسلامي هناك! وكيف سيكون هذا الحماس المنفلت إجهاضًا لمشروع إسلاميّ وليد! ولكن الله سلّم، وحُسبت هذه المحمدة لقيادة المقاتلين وحصافتها، وإدراكها لحراجة الموقف وحساسيته.. الاتفاق -أحيانًا- انتصار أكثر من المعركة، «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» [الفتح: ١]، وإجادة الصلح أذكى وأكثر مشروعية من إجادة الحرب «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» [الأنفال: ٦١]، والمنتصر في المعركة ليس رابحًا، بل أقل هزيمة من خصمه!

عود إلى القضية الاجتماعية في دعوة مباشرة للرجال:

- (أنصفوا المرأة).. أحد أصدقائه من الأحساء يقول له: كل الدروس أنا أهديها لزوجتي، إلاّ هذا الدرس فهي التي بادرت بإهدائه إليّ!

-(وأنصفوا العمال أيضًا)، عطف على ما سبق، ومطالبة أرباب العمل برحمة العمال، وحفظ حقوقهم، ورفع الظلم عنهم.

قصاصات صحفية وترجمات تحفزه على عنوانات مختلفة، مثل:

- (الصحوة في نظر الغرب)، (نظرة الغرب للمسلمين)، (وسائلهم في حرب الإسلام)، (حتمية الصراع).

يحس أن الحلقة تضيق فيطلق:

- (السهام الأخيرة)، يبقى في الأمر متسع، فينادي:

-(دلوني على السوق)، وهو الدرس رقم (٨٨) في (١٢/ ١١/ ١٤١٣هـ- ٤/ ٥/ ١٩٩٣م).

عنوان لم يبتكره، اقتبسه من كلمة عبد الرحمن بن عوف، بيد أنه تم تداوله من بعده في صيغ شتى.

دعوة للعمل الحر والكسب والتجارة والتدرب على أصولها وفنونها وطرائقها، هذه الدعوة أحدثت تحوّلًا في مناشط الشباب، وتحوّل العديد منهم إلى التجارة، فمنهم من أفلح وأنجح، ومنهم من تسلّل مبكرًا، وآخرون لم يشعروا بالإخفاق إلاّ بعد أن ركبتهم التبعات!

هو يقول مستظرفًا: كثيرون يستنجدونه، ويبعثون له صكوك الديون، قائلين إنهم من جماعة (دلوني على السوق)، والتي تحوّلت في حقهم إلى (دلوني على السجن)، أما أولئك الذين أصبحوا يلبسون الجيد، ويسكنون الفخم، ويركبون الفَارِهَ، فهم يُسَلِّمون ولا يتكلمون!

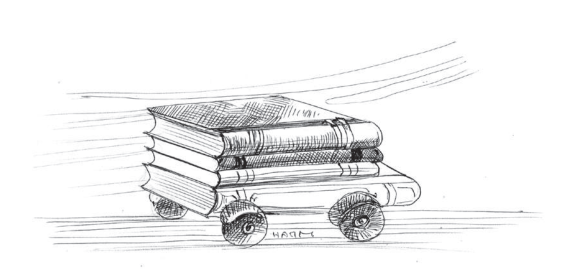
الستار يُسدَل على دروس الجامع الَكبير ومحاضراته، وحزمة الموضوعات التي كُتب لها في القدر أن تُلقى.. ألقيت.. فماذا بقي ثمّ؟ وما الذي بعد ذلك تمّ؟

حديث هذا شأن آخر..

◆◆◆

46

نهاية البداية



الجامع الكبير، حاضن المجالس العلمية، بمركزيّته واتّساعه ورمزيّته.. أعطى بعبقه التاريخي وتوسّطه وانفتاحه على الحياة؛ حيث إنه في قلب المركز التجاري للبلد، ومقصد الرجال والنساء الذين يؤمّون المدينة للشّراء أو إبرام العقود، أو البحث عن فرص العيش، أعطى لتلك المجالس بُعدًا أوسع، وحرّرها من سطوة المدينة ذات الخصوصية وبعض الإغلاق!

وهي أعطت للمكان روحًا جديدة لم تكن من قبل، وخفّفت وطأة الإذعان للمحلّي الصرف، لصالح الانفتاح على شباب البلد واستيعابهم، والتعاطي باعتدال مع الآخرين.

ثمة مَن لا يروقه ذلك، على أن الهدوء سيّد الموقف، ولم يتطوّر الأمر إلى مشكلة ظاهرة. هناك من ينتظر، وهناك من يتربّص!

للمرة الأولى تتحول خلاوي المسجد إلى مكان مخصص لحضور النساء، وتتسامع طالبات المدارس والكليات، والحشد يتزايد، أبواب المسجد تفتح على سوق مكتظ بالنساء، لكن مجيء المرأة للمسجد يبدو مستنكرًا فيحتسب بعضهم في سحب الأسلاك وإطفاء مكبرات الصوت!

يتعرض المسجد والمنطقة المحيطة به؛ حيث الأسواق الطينية الضيقة والمخصصة للبضائع الشعبية، وما كان يُسمّى بـ(الوسعة)، لمرحلة جديدة من الهدم والبناء وإعادة التخطيط.

كان ذلك طبيعيًا؛ فهذه (الوسعة) لم تعد مع تطوّر الحياة سوى دائرة ضيقة، لا تستجيب لمتطلبات الانفجار السكاني، والنمو الاقتصادي. الشوارع لا تسمح بمرور السيارات، ونظام البناء الطيني متهالك، وحتى نمط البضاعة هو نفسه تاريخي.. لم يشعر بتغيّرات العصر، ولم يتجاوز بيع الحناء ولسان العصفور والكركم وحب الماش والأدوية الشعبية.

بيد أن العقول كانت مهيّأة للتفسير والتساؤل، والشائعة تتحوّل إلى حقيقة في مثل لمح البصر، ثمة ربط بين الخطة الجديدة لهدم المنطقة وإعادة إعمارها، وبين درس يجب أن يتوقف!

إعادة البناء.. هي خطة هندسية لبنيان قديم، وثمة من يقرؤها على أنها إعادة بناء اجتماعية وتأهيل لتغيّر ما، أو عرقلة لتحوّل آخر، أو بمعنى آخر كان يضع لها بعدًا أعمق، قد لا يتحمله الموقف، أو قد لا يكون العمل العفوي مدركًا ومفسرًا هكذا.. هل لأن الثقة بين بعض الأطياف بعيدة المنال، أم لأن الناس يتحسّسون من كل جديد ويرهبون الأمور الحادثة؟

(جامع الذياب)، الذي بناه الشيخ حمود الذياب في حي المنتزه شمال البلد، هو المكان البديل.

(التاسع عشر من ذي القعدة لعام ١٤١٣هـ الموافق: الحادي عشر من مايو لعام ١٩٩٣م).

عشر حلقات كل ما هنالك:

- (أخي رجل الأمن) وتيرة مرتفعة أحسّت بأن التعامل سيكون أمنيًا لا محالة، والعديد من الخصوم يجدون فيه وثيقة إدانة، ولكي تتم الإدانة يجب أن يُفصل الحديث عن سياقه التاريخي العام والذي يمتد من (المحيط) إلى (الخليج).

رجل الأمن هو أخي وأخوك.. والخطاب إشارة لكون الأمن مطلب الجميع، وأن رجاله هم رجالنا، هكذا أراد أن يقول، فهل قال ذلك بشكل جليّ؟

ربما ليس كذلك، فشعوره الآن وهو يكتب بهدوء وقد انجلت أحداث وتغيرات ملامح يختلف عن شعوره آنذاك وهو محتدم من شأن داخلي، أو متردد في آخر خارجي!

الحفاوة بالشباب الذي وجد نفسه في الأطروحات الجديدة يفرض نفسه على النهاية القادمة، فمناشدة:

- (يا شباب) كانت تعبيرًا هادئًا، استفتحها بأبيات أبي العتاهية:

إِلَهي لا تُعذِّبني؛ فَإِني	مُقِرٌّ بِالَّذي قَد كانَ مِني
وَما لي حيلَةٌ إِلاّ رَجائي	وَعَفوكَ إِن عَفَوتَ وَحُسن ظَنّي
فَكَم مِن زَلَّةٍ لي في البَرايا	وَأَنتَ عَلَيَّ ذو فَضلٍ وَمَنِّ
يَظُنُّ الناسُ بي خَيرًا وَإِني	لَشَرُّ الناسِ إِنْ لَم تَعفُ عَنّي

- (حوار مع الشباب).
- (مَصارع العشاق).. وأخيرًا:
- (نهاية التاريخ).

البعض يقعون في الحماس، ويقدّرون الأمور بقليل من المعلومة، وكثير من الحدس والإحساس.

يقول أحد الحكماء: «كلما طالت مدة خدمتي، وسافرت أكثر، ورأيت أشياء تحدث، ازددت احترامًا وتقديرًا للأشياء طويلة المدى»!

نهاية التاريخ هي نهاية الدروس لهذه الفترة المنقضية في السادس من ربيع الأول لعام ١٤١٤هـ للهجرة المشرفة.

وتاريخ النهاية هو (٦/ ٣/ ١٤١٤هـ - ٢٤/ ٨/ ١٩٩٣م).

ليس هذا كل ما هنالك، فالمحاضرات في مناطق المملكة تعالج موضوعات فكرية وسلوكية وفقهية وسياسية:

- (الإغراق في الجزئيات)؛ حيث فكرة مركزية تعبر عن طبع شخصي لديه، وتمثل قناعة فكرية صادقة، كانت محاضرة في مسجد صديقه الشيخ عبد الوهاب الطريري (جامع الملك عبد العزيز) بالرياض، وقد أحدثت هِزَّةً في العقل السلفي آنذاك.

- (حقيقة التطرّف) بجامع الإسكان بجدة، تعبّر عن قيمة الاعتدال، وتسجل رفض التطرّف، سواء كان مصدره شابًا ضلّ الطريق فعلًا، أو حاكمًا مستبدًا يأخذ الناس بقوّة الحديد، ويدين القتل الأعمى، سواء صدر قراره في الجامع أو في مخفر الشرطة.

ما يربو على مائتي مادة مسجلة موزعة على خارطة البلد من الجوف إلى أبها، ومن الدمام إلى جدة، عبر سنوات أربع مليئة بالنشاط والعمل والتحفّز.

وأسفار خارجية، منها رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في لجّة الحدث؛ حيث مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي بكلورادو، ومحاضرة حول الأحداث، أرادها هادئة، ولم يسمح لنفسه أن يقول فيها ما كان يقوله في بلده من حرارة النقد.

-(أحاديث الربيع)، كانت جلسات تأمّلية تربويّة، في منزله المجاور لمستشفى الملك فهد التخصصي، خارج إطار الدرس والمحاضرة، جلسات غير رسمية، بيد أنها لقيت حضورًا وصدًى لدى من فقدوا وجبة الدروس العلمية.

-(الكلمة الحرة ضمان).

- (يا أهيل الجزيرة).. صرخة تريد أن تقول: إن السماح بالنقد الهادف وتنظيمه، ليس هدمًا لأسس الاجتماع الوطني، ولا تقويضًا للأمن؛ فالأمن مطلب ومكسب، وفي غيابه فإن التنمية الشاملة ستكون مهدرة، والدين ذاته سيكون في تراجع، والمنّة الإلهية ظاهرة «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» [قريش: ٤].، «وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا» [النور: ٥٥].

جلسات للقراءة المطوّلة مع خاصّة الطلبة، جرد وسرد لفتح الباري والمُغني وأمهات الكتب، وحضور للخاصة ممن طالت صحبتهم وبان وفاؤهم، صالح السلمان، صالح العامر، وآخرون.

هل استفرغ ما في الجعبة؟

كلاّ؛ فالفكر والعقل ليسا مادة فحسب، هما أشبه بالخلايا التي تموت ليولد غيرها في ذات المكان، وبقدر مهارتك في قراءة نفسك وقراءة ما حولك، ومصداقية التعامل مع الآخرين، وتمثيلك لذاتك تستطيع أن تعمل في كل الظروف.

تأتي لحظة تكون فيها قد انتصرت على كل القضايا الحقيقيّة والنفسيّة لصالحك، وعبّرت عنها بأفضل ما يمكنك، فإذا واصلت الجدال فلن تفعل شيئًا، ستولّد الاستياء لدى الأشخاص الذين تحاول إقناعهم.

إذا أردت أن تكون ناجحًا فعليك أن تنمي روح الإبداع والتجدّد في داخلك، وأن تعمل مع نفسك الشيء الذي تريد أن يعمله الناس.

ولكي تكون ناجحًا، عليك أن تكون واثقًا من نفسك، ومجدّدًا لأفكارك

وأطروحاتك، وماهرًا في الاستفادة من الجو العام، وكأي منتج آخر، فالفكر يتطلب التحديث، والتطوير، واستثمار المتغيّرات.

هو ينظر إلى المادة محفوظة موثّقة بعد تلك السنين، فيجد منها ما هو كالأصل أو القاعدة الراسخة، يتغيّر الزمان ولا تتغيّر؛ فهي الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة «أَصْلُهَا ثَابِتٌ» [إبراهيم: من الآية ٢٤]، «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » [إبراهيم: من الآية ٢٥]. إنها الكلمة المتطابقة مع الحق والوحي. والعريّة عن الإلحاقات والإضافات، شأنها شأن المعيار الذي يُحتكم إليه، ويُعتمد عليه دون خوف زللٍ أو خلل.

ومنها ما هو متصل بظرف خاص ذهبً وتولّى وانقضى؛ أضحت جزءًا من تاريخ مدوّن محفوظ، يعتزّ به المرء ويستذكره، كما يحتفظ بأوراقه المدرسية وكتبه وأدواته ورسومه وخطوطه وأخطائه وصواباته، والتي لم يكنْ لو لم تكنْ.

وهو غير معنيّ بأولئك الذين ينقبّون في تراث طويل عن كلمات تصلح للتقويس، وتُستخدم أدوات إدانة، بعد أن يتمّ وضع الكشافات الكهربائية عليها، وكتابتها بالخط العريض، مع إضافة وسائل الإيضاح اللازمة!

البعض يحسب أخطاء الآخرين، أو ما يظنّه كذلك، وهو مُبرمَج على أن يحمل ذلك التوتر المصاحب للضغائن، ومع أن التمسك بالضغينة يعطي بعض الناس إحساسًا بالرضا، إلاّ أن الحق أنه يضرّ نفسه أكثر من الآخرين.

ومع أنهم لا يطلبون الصفح؛ لأنهم لا يحتاجونه إلاّ أنه يصر في داخله على منحه لهم، ويرفض أن يردّد الدعاء الأيرلندي الشهير:

«ليت أولئك الذين يحبوننا، يظلّون يحبوننا.. وأولئك الذين لا يحبوننا، ليت أن الله يغيّر قلوبهم لكي يحبّونا؛ وإذ لم يفعلوا فليت أن الله يلوي

كواحلهم حتى نعرفهم من مِشيتهم العرجاء».
هو غير معنيّ أيضًا بأولئك الذين يتعاملون مع المنتج كله، وكأنه كل لا يتجزّأ، ومقدّس صحيح، لا يقبل صاحبه سوى العصمة، وما على المتلقّي إلاّ فهمه وقبوله والقتال دونه! دون قدرة على التمييز بين المحاولة البشرية الناقصة، والتجربة الناضجة التي هي ثمرة تلك المحاولة، وبين المحكم الذي يَلزَمُ الناس جميعًا؛ لأنه الدين، ولا يفرق بين دين، يسأل الله الثبات عليه، وبين اجتهاد يسأل الله أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه.
هو يرى أن اللونين على تباعدهما، هما وجهان لعملة واحدة، ويجمعهما أنهما يستثمران الحديث لرؤية خاصة، وفي العديد من الحالات يلتقيان، أو يتبادلان المواقف.
يقول إنه أمام كتاب طُبع، وأخذ دوره، وحين يعيد طباعته فمن الإخلاص لنفسه وللآخرين أن يتفحّصه جيّدًا، ويُعدّل فيه، ويحذف ويضيف، وهكذا حاول أن يعيد إنتاج الأفكار التي يرضاها وفق تجربته المتواضعة، وأن يتجاوز ما تجاوزه الزمن، مهما حاول هذا الفصيل أو ذاك أن يشدّه إليه لمقصد أو لآخر.
على صعيده الشخصي تعلّم الكثير، تعلّم أن الصدق، والشجاعة، والصبر هي ثالوث الفاعلية الدائمة.
لم يقل يومًا بأن أداءه كان خالصًا من الكدر كالعسل، ولا صافيًا كالمزن، ولا عذبًا دائمًا كماء العيون.. لكنه حاول أن يخطو جهده، فيمنّ الله عليه بتوفيق، وقد يدركه العثار؛ فهو إنسان قد تحلّق به روحه في السماء، وقد تهبط به إلى السفح، وهو في هذا وذاك، الإنسان نفسه: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

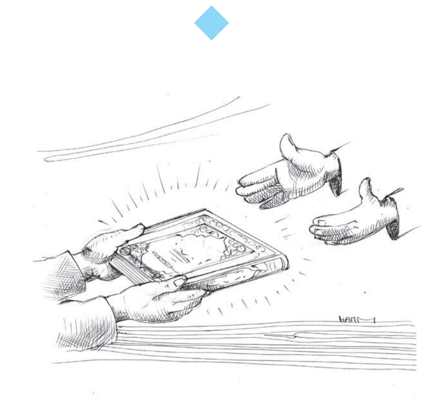
نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» [الإنسان: ١-٢].

وتلك بداية التاريخ التي تطلّ مع كل نهاية.



47

بداية البلوغ



(الأول من جمادى الأولى لعام ١٤٠٨ للهجرة، الموافق: ٢٢/١٢/١٩٨٧م)، بعد صلاة مغرب ذلك اليوم في ردهة الجامع الكبير ببريدة، وتحت أروقته بدأت في ذاته الحاجة للتعلّم، وبدت في نفسه الحاجة للتبليغ.. والتبليغ الديني لعلوم الوحي والإسلام ليس له سِنّ مشروطة، ولا لبلوغها علامات بيّنات، وكلّما تعلّم الإنسان علِم من جهله ما كان يجهله، وجِهل من معرفته ما كان يعرفه من قبل.. فكان (البلوغ).

الدروس العلمية الجديدة، وجبة من التعليم الشرعي، يعلن عنها مكتب الدعوة والإرشاد.

الشيخ محمد بن صالح المنصور (المنسلح) يُدرّس الفقه الحنبلي، ويشرح زاد المستقنع.

الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي يشرح (العقيدة الطحاوية).
صاحبنا يشارك في هاتين الحلقتين طالبًا يحمل القلم والكتاب، ويلتقط أنفاسه ليبلغ كتاب البلوغ، وينفرد بتقديم ثالث الدروس في (أمالي شرح بلوغ المرام) للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
ولا غرو إذًا أن عامله الشيوخ كتلميذ وزميل في الوقت ذاته، وأن خصّوه ببعض الاهتمام، وسمّوه «شيخًا».
كان يقدّم دروسه لنفسه، فيقرؤها عليها ويحيلها فيها ثم يعرضها بقدر ما أدركت قدرته الضعيفة، ويتحدّث بقدر ما أمكنته حباله الصوتية.. إذ تبدو حروفه حديثة عهد بنوم في دروس الفجر، أو تندلق الحروف في فمه أحيانًا أخرى؛ فيدلّه الشيء على أخيه، والفكرة على نظيرتها، والمسألة على أخرى، غير أنه يحاول جهده أن يبدو منتظمًا لأساس حديثه، كارًّا على أوله يعيد إليه آخره.
المجموعة الأولى من حضور درس البلوغ أسماء ظلت ترافق الدرس حتى توقف بتوقف النشاط كله عام (١٤١٥هـ- ١٩٩٤م).
عبد الله الجعيثن، محمد الفراج، صالح السلمان، خالد القفاري، صالح العامر، عادل الزبن، يوسف الغفيص، عبد الله السلمي، محمد الحسون، عثمان العثيم، يوسف الحجيلان، عبد الله السهلي، سليمان الفراج، صالح الفراج، صالح الخضيري، عبد الله السلوم، وياسر السلامة، وأسماء أخرى.
مجموعة من طلبة الشيخ محمد بن عثيمين يلتحقون بالدرس؛ خاصة حين تحوّل وقته من المغرب إلى العشاء، لتكون حصة المغرب من نصيب الشيخ الرباني عبد الرحمن العجلان.
شيخ طاعن جاوز المائة، وهو ممن قاموا بالسفارة للملك عبد العزيز يتجشّم الحضور.

طالب علم يحضر مستخفيًا ليسمع، وإن كان لا يحب «الشيخ».
القائمة طويلة، والحضور يتزايد، ولِمَ لا والفلاح جديد!
يُحضّر الدرس جيدًا من المصادر الحَديثية، تخريجًا للحديث ومَن رواه، ودراسة مفصلة للإسناد ورجاله، ووقوفًا عند علله، وسياقًا لشواهده، وسردًا لأحكام الأئمة عليه تصحيحًا أو تضعيفًا.
حصل على نسخة من مخطوطة المحمودية للكتاب الأصل (البلوغ)، وكان يقارنها مع المطبوع، ويستدرك بعض الفوات والخلل، كما كان يعتني بالاستدراك على الحافظ في مواضع وقع له فيها الوهم في عزو الحديث، أو الحكم عليه.
الحافظ وإن قال في مقدمته إنه حرّر الكتاب تحريرًا بالغًا، ليكون من يحفظه بين أقرانه نابغًا، إلاّ أن الكمال عزيز، والنقص يلحق الطبع البشري، ولذا وقع له بعض السهو.
فيقوم «الشيخ» الشارح بالتنبيه على هذا؛ لينتقل بعده إلى ترجمة الراوي، وشرح غريب الحديث واختلاف ألفاظه، ويقف عند المسائل الفقهية المتصلة بالحديث، يورد الأقوال المختلفة للمذاهب والأئمة من مصادرها الأصلية، ويسرد أدلتها، ويناقشها، محاولًا الترجيح أو التقريب، مستندًا في الغالب إلى تراث ابن تيمية، وابن القيم، وابن قدامة، وابن عبد البر، وابن باز، وابن عثيمين، وآخرين.
ينتهي إلى سرد الفوائد العلمية والتربوية من الحديث، وينجز في نحو ساعة شرح ما بين ثلاثة إلى أربعة أحاديث في الغالب.
بهذه الثلاثة أحاديث استمرّ البلوغ.. في كل درس حتى في السنوات العشر التاليات.
توطين الطلاب كان مقصودًا؛ إذ لا غرابة أن يحتشد الطلبة بالعشرات أو المئات في بدايات الدرس حماسًا أو استشرافًا، ثم يتسللون واحدًا

واحدًا؛ حتى لا يبقى إلا من يُعدّون على الأصابع.
كان يحسّ أنّ من مسؤوليته صناعة القناعة لدى المتلقّي بأهمية الحضور، وذلك يدور حول شعور المتلقي بأهميته هو في الدرس، وأنه ليس رقمًا عاديًا يستوي حضوره وغيابه، فكان يلتفت إليه وينظر في عينيه.. ويطرب له إن أحسن، ويدع له الحديث إن أجاد.. كان يفعل ذلك أو يحاول جهده، وبذا ظل الحضور قويًا، وكان الشيخ صالح السلمان هو (عميد) المتابعين.
الأحاديث كانت تُسمّع حفظًا في بداية كل درس، يتلوها مراجعة لموضوعات الدرس السابق.
أثناء الشرح يطرح بعض الأسئلة ويتلقى إجاباتها، وربما جامل أقربهم إلى الصواب، وعدّل إجابته ورشّحها، أو وجد من يجيب ويصيب.
تكليف بعضهم بإعداد بحوث صغيرة يُعرض ملخصها أثناء الدرس في قضية ما، بحث مداره أن اليوم اثنتا عشرة ساعة في السنّة النبوية، وصالح العامر يعدّ البحث ويلخصه، وهو الدؤوب بلا ملل، السائر بلا تردد.
قبول التصويب والتصحيح، يوسف الغفيص يعلّق على حديث ضعّفه بأنه في (شرح معاني الآثار) للطحاوي بسندٍ متصل، فيعدّل الحكم على الحديث.
تخفيف حدّية الجديّة بطرح بعض المستطرفات، روى ذات جلسة قولًا منسوبًا لعلي، خاطب فيه بعض كتّابه فقال: «ألْصقْ رَوانِفَكَ بالجَبوب، وخُذ المِزْبَر بشَناتِرك، واجعل حُندُرَتَيْك إلى قيْهَلي، حتَّى لا أنغي نَغْيَةً إلاَّ أودعتها بَحَماطَة جُلْجلانك».
وسأل عن معناها، ثم أجاب بما أجاب به الفيروزآبادي حين سُئل عنها وهو في بلاد الروم، ففسرها بقوله:

« ألزِق عِضْرِطَكَ بالصَّلَّة، وخذ المسطر بأباخسك، واجعل جحمتَيك إلى أُثعباني، حَتَّى لا أنبس نَبَسَة إلاَّ وعَيْتها في لمظَة رِباطِك».

عبد الله السهلي حفظَ النصّ وكرَّره، وفاز بالجائزة، وكانت «فلّة»، لقد أهداه في الدرس التالي باقة من الورد والفل فيما كان يظن أنها «فيلا» سكنية!

وجد في كتب الأدب والطبقات الشيء الكثير من هذا اللون، كان الطلاب يتشوفون إليه ويستظرفونه.

التطبيق العملي لمسائل شرعية، كتقصّي صفة الصلاة؛ حيث يعتلي المنبر أحد الطلبة، ويمثّل تلك الصفة محلّ البحث.

خارج الدرس ثمّة جلسات علمية، ورحلات ممتعة، واستضافة الطلبة عند زيارة المشايخ للبلد، وإقامة المجالس والولائم، وتنظيم الحوارات بين الشيوخ والطلاب.

لم يتأخر عن الدرس قط، ولم يتقبّل بسهولة أن يغيّر موضوعه، مرة واحدة كان الاستثناء لأحداث عصفت بالناس، وخضع لضغوط المحيطين، وجاراهم شريطة أن يبادر أحدهم بطرح السؤال أول المجلس.

الطلبة يفرّغون الدروس أولًا بأول، ويقوم هو بالمراجعة والتصحيح، ثم يُطبع الدرس ويُوزّع كنسخةٍ أولية قابلة للتعديل.

سمع ثناءً على الشرح من رجالٍ يعتدّ بهم؛ منهم المفتي الحالي للمملكة، سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، الذي حدّثه أنه سمع قدرًا طيبًا منها.

كان يصنع الدرس ليصنعه الدرس، وهو إن أحس بأنه أحيانًا يعيد إنتاج بعض الجدل الفقهي الغابر، والمردد في مجالس شبيهة، إلا أنه كان يعد ذلك تأهيلًا أكاديميًّا له، وتدريبًا للملكة الفقهية لديه، وإرساء لقاعدة علمية جيدة في بداية حياته تمكنه من التعاطي المستقبلي مع

المستجدات برؤية أقرب إلى الاتزان.

وليس يبعد أنه يدري أثر درس فقهي حديثي في دفع قالة المخالفين الذين ابتلي بهم، وهم يبحثون عن مغرز إبرة ليعيبوه، فهو ليس بطالب علم ولا فقيه ولا محدِّث، فالدرس بتحضيره وديمومته وجديته هو الرد العملي على الدعوى.

وحتى هذا الرد يتعرض للتهوين، فهو عندهم لا يملك هذه المعرفة بل يقرؤها ويعدها، وكأن الاستعداد مما يعاب، ولكن درس الشيخ المرضي من طرف الذهن، ومن طرف الثمام على عادة مشايخنا!

حين أخرج رسالته في الغربة ورأى بعضهم فيها شيئًا من الجهد العلمي سارع بكتابة دراسة تقول إن هذا البحث مسروق برمته من بحث سابق!

كم من الناس من سيكتشف أن البحث السابق هذا هو بحث متأخر، اقتبس صاحبه معظم مادته من كتاب الغرباء الذي أعد وطبع قبله بما يزيد عن سنتين!

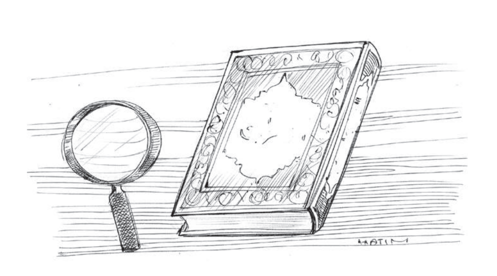
لا يزال يتألم من نفس مؤمنة ضعيفة تحملها العداوة والحرب على اختلاق الأقاويل وترويج الشائعات، وتبرئ ذاتها بإلقاء التهمة على الآخرين!

وكلما راوده الجزع من فئة تقتات على هذا؛ أدركته الرحمة بالنماذج الصافية التي ترعى حق الأخوة والحب، أو ترعى حق التنوع والاختلاف، واستذكر أن الحزن هو استجابة إرادية ذاتية لأفعال الآخرين وأقوالهم، وأن بالإمكان التماس العذر لهم بظروفهم الخاصة، وعزل التأثير السلبي لما ينتجونه.



48

فقه العبادة.. والحياة



قدّم ما أنجزه من كتاب الطهارة، مضافًا إليه كتاب الصلاة، رسالة علمية للدكتوراه بقسم السنة بجامعة الإمام بالرياض، وتمت الموافقة على الموضوع، وتعيين الشيخ سالم الدخيل مشرفًا على الأطروحة.

راجع الشرح مراجعة علمية أكاديمية دقيقة، وأحال إلى المواضع المحددة في المصادر المختلفة، واستوفى شروط البحث العلمي، ولكن تسجيل الرسالة في الجامعة أُصيب بموت دماغي، أو سكتة قلبية مفاجِئة.

قدّم الرسالة بعدُ.. لجامعة خارج الوطن في ما يقرب من عشر سنوات تاليات وتزيد، وأشرف عليها في صيغتها الجديدة سماحة الشيخ عبد الله بن بيه، الذي تعرف إليه عن كثب، وأحبه، وانتفع به، ورآه كبيرًا في عقله وفقهه، عميقًا في تجربته، متواضعًا كريمًا في خلقه، وصارت العلاقة بينهما علاقة شراكة صافية بعد ما كان صاحبنا جاء على ذكر

اسمه في قائمة لم يكن موفقًا في سردها، وهو ما سمّاه شيخه وشريكه ابن بية بـ«النيران الصديقة»! وذلك في سياق الحوار مع أهل الكتاب. وتمّت مناقشة الرسالة بمدينة جدة، وشارك في المناقشة سماحة الشيخ عبد الله ابن جبرين، وفضيلة الدكتور خلدون الأحدب، وتمت طباعة الرسالة في مجلدات أربعة، مشفوعة بشهادة المشرف وشهادات المناقشين.

عادت الروح إلى الدرس بعد تسع سنوات، استؤنف عبر دروس أسبوعية، ثم دورات علمية صيفية في بريدة (كتاب الصلاة)، ثم في الرياض (كتاب الزكاة)، ثم في مكة (كتاب الصوم).. و(كتاب الحج).

وبذلك اكتمل قسم العبادات مشروحًا بالأقوال والأدلة، وهو في (البلوغ) يمشي العَنَق، فإذا وجد فجوة نصًّ، تأسّيًا بالمصطفى -صلى الله عليه وسلم- في حجّه.. أو وجد دورة علمية كثّف أيامه ودروسه، وأنجز منها ما كتب الله له أن يفعل.. وهو يعلم أنه يمشي الهوينى.. غير أنه قدّر لنفسه ألاّ يقف من تلقاء نفسه إلا أن يشاء الله..

المجالس مكتوبة أو مسجلة أو مرئية؛ تُبثّ عبر عديدٍ من القنوات، كانت أحد وجوه التحصيل والتكوين التي عرفه بها من أحبهم وأحبوه.

ثمة من يريد المعرفة الفقهية الحديثيّة فحسب، بعيدًا عن الاحتكاك والتلامس الذي يوقع لهم الالتباس والتردّد.

وثمة من ينظر لهذا النتاج على أنه حُجة تعزز القناعة في وجه من يريدون الإطاحة.

كان يقدر في بدء الدروس أن ثماني حجج، أو تتم عشرًا، تكفي لإنجاز الكتاب، بالنظر لكون أقسام العباداتً التي تتصدر المؤلفات تكثر فيها النصوص والمسائل والأبحاث؛ لأن العبادة تفتقر إلى النص في مشروعيتها، وصفتها، وسببها، وترتيبها، ووقتها.

بينما المعاملات لا تحتاج إلى ذلك؛ إذ الأصل فيها الحل والإباحة والإذن، يأتي النص في البيوع ليحدد الاستثناء والمحرم من البيوع الخارج عن أصل الحِلّ، أو يوضح الشروط والفروق.

بيد أنه رأى أن عشرين سنة لم تكد تفي بقسم العبادات، عزاؤه أنه أصرّ على المواصلة متسامحًا في شروط الزمان والمكان.

أصرّ؛ لأنه عوّد نفسه إن بدأ بشيء أن يتمّه، ولم يسمح لها أن تكون ذوّاقةً قلّبًا، تقبل على الشيء بحماس، ثم تنصرف عنه بفتور.

أصبح يجد في ذلك روحًا وأنسًا وسعادة؛ مهما طال الطريق وتكرر العثار.

وأصرّ؛ لأنه كان يحلم أن يستكمل شرحًا لكتاب من كتب السنة، وهو الذي كان يقرأ في طُرّة الكتاب المدرسي في المرحلة المتوسطة هذا القول:

وقـــائلٍ: هل عملٌ صـــالحٌ — أعددْتَه ينفعُ عنـــدَ الكُرَبْ؟
فقلتُ: حسبي سنةُ المصطفى — وحبّه، والمرءُ معْ مَن أحـــبْ

كما كان يحلم أن يستكمل تفسير الكتاب العزيز، والوقوف عند الآي التي فُتح عليه فيها فيما يرى، تشبّهًا بالأعلام، ومحاكاة لأئمة الإسلام، مردّدًا:

فتشبهوا إِن لم تكونوا مثلَهـــم — إنّ التشبّهَ بالكرامِ فـــــلاحُ

من الملحوظات المنهجية المهمة التي استدركها د. خلدون الأحدب عليه، عدم الاتصال القوي مع المسائل النازلة والمستجدة، وهو يجد ذلك صوابًا من القول؛ فالمهم ليس تكرار البحث الفقهي وإعادة إنتاجه، بل فرزه وتصفيته، والبناء عليه للعصر ومتطلباته ومتغيراته.

هو يضيف أنه ليس مهمومًا بمجرد إعادة إنتاج الخلاف الفقهي

والعلمي.. فإلى متى سنظل نكرر كتبًا أُلِّفت منذ القرون الأولى بمجرد تقديم أو تأخير أو اختصار أو جمع أو ما شابه؟!

لَسنا وَإِنْ أَحسابُنا كَرُمَت	مِمَّن عَلى الأَحسابِ يَتَّكِلُ
نَبني كَما كانَت أَوائِلُنا	تَبني، وَنَفعَلُ مِثلَ ما فَعَلوا

أن يَدرس -بفتح الياء-، أو يُدرّس -بضمها- أمر لا عيب فيه، لكن أن يتوقف عند تدوير هذه القضايا معتزلًا واقعه المتغيّر، وظروفه الطارئة، وصِيَغه المتجددة، فذلك شدٌّ للطالب والمتلقي إلى التاريخ، وبناء سور عليه يعزله عن معايشة الواقع والتفاعل معه.. المدونات العلمية الإسلامية تراث ثرّ وإرث غزير، لكنه بدا هكذا؛ لأن علماءه فتّقوا عقولهم، وثقّفوها، وخلطوا ذلك بمعرفة الناس والعالم؛ فكان منهم الفقيه الطبيب كالشافعي، والفقيه السياسي كابن حزم، والفقيه الفيلسوف كابن رشد، وابن عقيل والغزالي وابن تيمية، والفقيه التاجر كابن المبارك.. الخ.

أن تؤسّس وتبني على علوم هؤلاء الأكابر فنعم، لكن أن تقف عند حد التأسيس ليكون هو الهدف والعناية والمحطة الأخيرة فلا.. لأن ذلك يصيب الرحم العلمية بالعقم، ويقضي على الروح التي صنعت الإبداعات العلمية؛ ليجعلها لا تفتأ تكرّر ما قاله الأولون، وتؤمّن عليه من غير أن تعيد النظر في تحريره وتقريره.. أو تضيف إليه ما يجعله مشروعًا عصريًا يقف على سوقه ويستوي على أصوله.

الإغراق في التفاصيل وإدارة المعارك حولها، لن يسمح بالنظر في الهموم الكبار، والبحث عن حلول مشكلاتها، ولا بالمشاركة في النهوض الحضاري ولا التغيير الإيجابي.

ليس ممنوعًا أن تُبحث أو تُناقش أو تُقرر أو تُكتب أو تُقرأ، بيد أنه ليس

من السائغ أن تظل هكذا، وكأن هذه هي الغاية من التنزيل والتشريع.

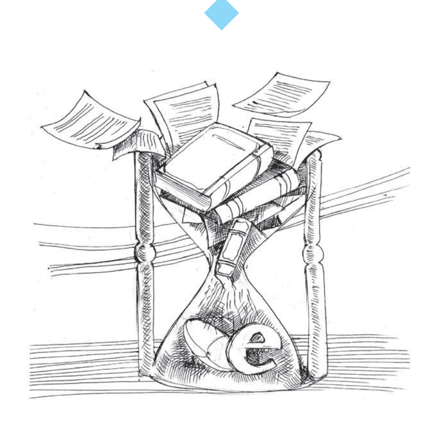
ولانفتاحه على هذا المعنى أصبح يعتني بتفسير التنزيل، والوقوف عند مقاصده ومعانيه ومراميه؛ لأنها في الغالب تعالج الكليات العظمى، وتحدد المقاصد الكبرى للشريعة.

على أنّ هذا وذاك مما لابدّ منه، ولا مندوحة عنه، لكي نكون «أهل كتاب وسُنّة»، وبما أن القرآن العظيم يحمل قواعد التأويل السليم والفقه الرشيد، فإنه مع الأيام اقترب لدراسة القرآن.. خاشيًا أن يتّخذ هذا القرآن من دروسه مهجورًا.. فلذّ له النظر في القرآن وتدارسه، كما أحب دراسة السُنّة من قبل، وهو في هذا وذاك يسأل الله أن يبلغ مرامه من كليهما.



49

حـجر الأساس



ثلة غير كثيرة هم أولئك الشباب الذين اجتمعوا لديه حين كان يسير، فسارت به خطاه إلى حيث هم، فعرفهم وهم له عارفون، فصاروا كالجسد الواحد واليد الواحدة، قادتهم السراء والعمل..وجمعتهم الضراء والأمل ذات يوم آخر:

كُلًّا بَلَوْتُ، فَلاَ النَّعْمَاءُ تبطرُني	وَلاَ تَخَشَّعْتُ مِن لَأْوَائِهَا جَزَعَا
لاَيَمْلأُالخَطْبُ قلبي قبل موقعِهِ	وَلاَ أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا

أولئك هم أعضاء المكتب الخاص الشخصي الذي أنشأه مطلع عام (١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م)، فكرة جديدة غير معقّدة، تقوم على مأسسة العمل الشخصي، أي: إلى تحويل المبادرة الذاتية لنمط مؤسسي، يخفف التبعة عن الشيخ، ويدرّب الطلبة المقربين على التعاطي مع أعمال

تؤهلهم مستقبلًا لأداء أفضل، وتصنع فيهم روح الفريق المتجانس المتكامل.

وبقدر سعة خلق الشيخ وعدالته ولحظه للاعتبارات النفسية، ومنحه الاحترام والتقدير والثناء على الإنجاز، والتلطّف في العتب والمؤاخذة حين الزلة، تكون الديمومة والعطاء.

عشرون عامًا وتزيد، وهم مجموعة واحدة، وشائجهم عامرة، وحبلهم وثيق، وقرباهم فوق قربى الرحم، لم يُمْلِلْهم القُرب، ولا أنساهم البعد، قام الحب والانسجام بينهم مقام القرابة:

إنْ يختلف نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَينَنا	أَدَبٌ أَقَمناهُ مُقامَ الوالِدِ
أو يبْلَ مُطَّرَفُ الإخاءِ فَإِنَّنا	بالحبِّ نرفلُ في إخاءٍ تالِدِ
أَو يَختَلِفْ ماءُ الوِصالِ فَماؤُنا	عَذبٌ تَحَدَّرَ مِن غَمامٍ واحِدِ

تقلبت بهم الأيام ما بين شدة ورخاء، وانطلاق وقيد، وسعة وضيق، وهم هم، معدن كريم أصيل، لا تزيده الأحداث إلاّ صقلًا..

رعاهم المكتب صغارًا في صباهم قد خطّت شواربهم، ما عافسوا الأزواج، ولا الأولاد، ولا الأموال والضّيعات، في غرارة الشباب والفتوة وحماسها واندفاعها، وتقلّب بهم في صفوف المناشط بين ظعن وإقامة، وعلم وعمل، ومسؤوليات وإعفاء، وتنقّل بين هذا الميدان أو ذاك، سبرهم وخبرهم فألفاهم على صبغتهم الأولى حبًا ووفاء وصفاء وبذلًا وعرفانًا للجميل، وإغضاء عن الزلّة، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السّاقة كان في السّاقة، لم تفسد بينهم منافسة، ولا آذى إخاءهم احتكاك، ولا أعياهم الجهد، ولا أضناهم طول السرى:

عصائب من شيبانَ ألَّف بينهم	تقى الله، نزالون عند التزاحفِ
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى	وصاروا إلى موعود ما في الصحائفِ

شابت لحاهم أو كادت وهم شباب القلوب، شعث اللمم، بيض الهمم، أبناء الأربعين أو ما قاربها، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم كقلب رجل واحد.

أفئدة كأفئدة الطير، ونفوس تشبّعت بالعفوية والفطرة، وأبغضت التكلف والتصنّع؛ تضحك حتى لكأنها لا تعرف إلاّ الهزل، وتحتفز حتى كأنها ما قارفت هزلًا يومًا من دهرها.

نواة البداية؛ حيث جاء طليعتهم وسابقهم خالد القفاري، الطالب المشاغب في المدرسة الثانوية ليأخذ موقعه باختيار صادق لا تردّد فيه ولا مزاجيّة، ولسان حاله يقول: لا أقيل ولا أستقيل!

يأخذ موقعه في غرفة ملحقة بالمنزل الجديد، المجاور للمستشفى التخصصي شمال البلد، فيما يُعرف بـ (الصفراء) مغتبطًا بالمكتب، والطاولة، والكرسي، ومغتبطًا أكثر بالمهمّات والمسؤوليات التي تحمّلها باقتدار وإصرار وصبر وجد، لم تكن نزوة شباب عابرة، ولا تجربة يتجاوزها إلى غيرها، ذلك الرمح رُكز ليظل بقية حياته؛ حيث هو لا يبرح ولا يريم، لا يكلّ ولا يملّ.

مهمته: الصحبة الشخصية، والمرافقة في التنقل والسفر والبرامج الدعوية، وتنظيم المواعيد الخاصة والعامة، ويظل مقتسمًا مع شيخه شتى المواقف والتحوّلات، مابين جدول مكثف مكتظ بالدرس والمحاضرة واللقاء والسفر....، إلى غرفة محكمة الإغلاق لا يجاوبه فيها إلاّ جدرانها المصمتة المليئة بالكلمات المتقاطعة «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ» [الرعد: ١٠].

فيعكف بين يديه متحفظًا للكتاب، دارسًا للسنة، قارئًا للتاريخ، يصوغون من الفراغ شغلًا تذهل له العقول، وتنافسًا في الدقائق والثواني فضلًا عن الساعات والأيام..

ليعود بعدُ إلى حيث كان، قائمًا على برنامج الدرس والمحاضرة والدورة والموعد، والبرنامج الإذاعي والتلفازي، مشاركًا لشيخه كظله في سائر مساعيه.

لا نفسه ولا أسرته ظفرت بالوقت الذي وفره لهذا العمل، أَحكمته التجربة وعزّزه المراس، فعرف الناس والبلاد والإجراءات، وتحمّل وكظم، حتى تظن أن نفسه ما حدثته يومًا أن يدع هذا الميدان لسواه!

يدلف إنسان آخر، هذا أبو سهيل، وهو اسم ذو فأل «سَهُل أمركم»، عبد الله السّهلي، يصحبهم في سفر إلى الرياض فتفيض النكتة من لسانه، ويبدو بارعًا في تقليد الأصوات، وانتزاع الابتسامة بسهولة، وفوق هذا كانت معرفته بالكتب والمطبوعات حية وقوية، وحضوره في المكتبات التجارية دائمًا، وهو حفيٌّ وفيٌّ حريص على الصحبة، فليكن مسؤولًا عن المكتبة والكتب، موافيًا بالجديد منها؛ لتتسع دائرة عمله بعد في الشؤون الخيرية والتطوعية، والمساعدات التي كان المكتب يصرفها بانتظام للمحتاجين والمعوزين.

شاطره الفترة الزمنية ذاتها، يوسف الحجيلان، الذي كانت بوابته الواسعة، إخراج شرح بلوغ المرام مكتوبًا ومصححًا وتحضيره للطباعة، الشابان كانا مداومين على الحضور، كان الانضمام في (شوال ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م). يوسف الحجيلان يتردد يوميًّا في الصباح نحوًا من خمسة وأربعين يومًا واضعًا حجر الأساس لمشروع البلوغ، وإن تركه بعدُ إلى غيره، وتولاه أبو سهيل فأفلح وأنجح.

يتوسط المكتب مكتبة زاخرة بأطايب الكتب، فيعكف الفتيان على صفِّها وترتيبها وفهرستها ونفض الغبار عنها. عمل نَشِط جادّ، تحفزه همة عالية ورغبة سامية في الاندماج ضمن هذا العالم الصغير الآخذ بالتشكّل، ولا غرْو أن يكون استكمال الإنجاز محزنًا خيفة أن يثمر

الانقطاع، يوسف يهمس في أذن صديقه مازحًا:
«لعلنا نعيد بعثرتها من جديد»!
والشيخ يرد: «لا. عندنا لكم شغل»!
يتجه بعدها يوسف للأرشفة، وترتيب القصاصات والصحف والمجلات والوثائق، التي كان يُعتقد أنها وثائق، بيد أن الزمن كان كفيلًا بسلب الكثير منها أهميتها وخصوصيتها، والتي حفظها فضاعت، أوضيعها فحفظت!

يَرُدُّ أَبو الشِّبلِ الخَميسَ عَنِ ابنِهِ   وَيُسلِمُهُ عِندَ الوِلادَةِ لِلنَملِ!

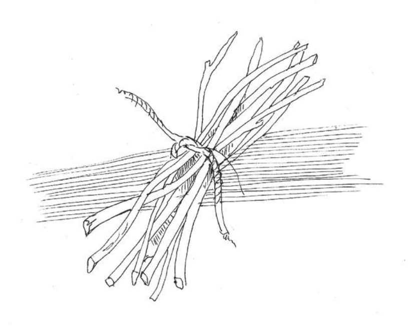
يوسف، رجل الصحراء بأشجارها ووهادها ورمالها، العاشق لأخبارها وشعرها ورجالها، عقل حرّ، متابع لمجريات السياسة الدولية، مساهم في تحليلها وقراءتها، وقلب طري مفعم بالحب لشيخه، عامر بروح التضحية، متفوق بمعنى الاعتزاز والانتماء.
أبو سهيل، صاحب طرفة (الجيم) الحجازية، القريبة من مخرج القاف المتمثل بـ «جاء الجماعة كأنهم جن على هجن»، حافظ للشعر العربي والنبطي، والذي وجد نفسه في الجغرافيا، تعرّفًا على المواقع وتوثيقًا لها دراية ودراسة، ومنها أصبح مصورًا محترفًا يحصل على الجوائز والمكافآت، ولم تنقطع صلته بالأدب الأصيل والشعر الجميل، الذي طالما انتقى منه أطيبه، ثم رقَّمه، وأسرَّ به سرًا إلى شيخه في معتكفه في أوراق تبلغ أن تكون كتابًا من غرر كتب الإبداع الشعري والنثري، لولا أن عيون الرقيب أتت عليها، بيد أن ذكراها الزكية باقية لا تُمحى ولا تزول، وربما أعطتها نكهة أجمل وأحلى، فكأنها المعشوقة الفاتنة التي تخطّفتها المنون قبل أن يقضي العاشق الولهان منها وطره، فبقيت نفسه مرهونة بها حتى تبعتها حزنًا وأسفًا.

«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى» [الكهف: من الآية ١٣].

50

أرواح مجنْدة

◆



كان أئمة العربية يقولون بأن الاسم إما فاعل أو مفعول، فجاء دارسو السياسة في العلم الحديث فقالوا: هو إما فاعل أو متفاعل أو مفعول..، فأنت أحد هؤلاء: إما صانع للحدث، أو جزء مشارك فيه، أو متفرج عليه.

الصانع إيجابي يؤمن بقدرته، والمشارك جزء يعدّ نفسه مهمًا فيه، والمتفرج جبري يؤمن بالمؤامرة، ويعتقد بالأبواب المغلقة، والطرق المسدودة، والنتائج الحتمية.

الفراسة موهبة تُصقل بالتجربة، وصناعة الحدث تعني التجربة، وأن تقترب من الآخرين أو يقتربوا منك، تتشامّ الأرواح، فتتعارف أو تتخالف، والأرواح جنود مجندة؛ كما في الحديث المرفوع.

قراءة الوجوه فنّ، ولغة العيون خبرة، والانطباع الأول لشخص تلقاه

يصدق غالبًا لدى المتفرسين المتوسمين.

العقل بلا قلب: رياضيات صرفة، والقلب بلا عقل: ريشة في مهب الريح.

مكتبه في الجانب الغربي من منزله الجديد، ممر طويل، غرف تفتح ذات اليمين وذات الشمال، أشبه بنظام المدارس، هو فعلًا كان مدرسة لعبت فيها الفراسة والانطباعات العفوية دورها في صناعة الفريق.

الطلاب الذين انتموا إلى هذه المدرسة نجحوا، أما المنتسبون فمنهم ومنهم!

أرواح تتهامس وقد أحكم الشباب والتوقّد مِرّتَها، وهذَّب الدين والأخلاق شرّتها، تعارفت فتحابّت، وتنادت فتجاوبت، فهي الداعي والمجيب، والمحب والحبيب:

ركب المحبين يا أهلي وأولادي!	وإخوتي وبني عمى وأحفادي
أسرتم القلب حبًا صادقًا ورضا	فالقلب يرقص في قيدٍ وأصفاد
أتلو حكاياتكم.. أشتاق صحبتكم	أهوى أحاديثكم يا زينة النادي!

أولى هذه الغرف مكتب شخصي خاص، لو سُئلت جدرانه لباحت بالكثير من الأحاديث، وأفصحت عن العديد من الأشخاص والتوجهات، ولأرّخت لأحداث، وأبانت عن عبر!

قد يجوب أنحاء هذه الممرات «شاي» صنع للتوّ، أو تمر عربي لذيذ، أو تقعقع فيه الأكواب المحمولة لضيوف ذوي شأن.

الكثيرون يحللون الأحداث، ويجزمون ويريدون أن يسوقوا الآخرين معهم، دون أن يمنحوهم فرصة الاختيار، ولأن مواقفهم غير مدوّنة فهي غير محسوبة، فلا ضير إذًا أن تثبت الأيام خطأها، أو أن ينتقلوا هم عنها إلى نقيضها دون أن يدري بهم أحد، ويهاجموا الطرف الآخر.

(ع) يزوره بعدما عاد من أفغانستان، وملء إهابه الحماس والاندفاع والتكفير، مقررًا بما لا رجعة عنه ألّا مهادنة مع الكفر البواح، ولا عمل ولا وظيفة ولا دراسة، وأن الأمر واضح وضوح الشمس في رابعة النهار لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد!

يجادله صاحبنا مخففًا من غلوائه، داعيًا إياه إلى التعقل والتريّث والهدوء، مذكّرًا بالتضرع إلى الله وسؤاله الهداية، يصلّون الظهر معًا، ليهمس في أذنه بعد الصلاة وهم على الباب؛ أنه لا زال مقتنعًا برأيه مصرًّا عليه، بعد ما كاد أن يتردد أو يتراجع أثناء الحوار..

شهور وشهور لتنقلب الآية، ويصبح ذاك الطالب هجوميًّا، يحذّر من التكفير، ويتّهم بعض (أصدقائه السابقين) بأنهم تكفيريون!

ذلك المكتب حضن كثيرين من شتى الاتجاهات والآراء والتيارات، وأنصتت زواياه لأحاديث هامسة وأخرى صاخبة، تراوحت بين الليبرالية والتطرف الغالي، وبين روّاده من هم في سدة المسؤولية، ومن هم في غيابات السجن.

وإلى جواره غرف أصلية، وأخرى جاهزة، ومكتبة واسعة ضمّت جديد الكتب إلى قديمها الذي كان يحتفظ به منذ الطفولة الباكرة.

وحين توقفت المحاضرات العامة؛ أصبح المكتب مقرًا للدروس، (أحاديث الربيع)، (الكلمة الحرّة ضمان)، (يا أهيل الجزيرة)... والحضور يفترشون المكاتب والممرات، ويقعدون في الشارع؛ حيث يطيقون الاستماع.

المكتب بشخوصه يتعاطى مع التقنية مبكرًا، فبعد الهاتف، السنترال، الذي يمثل شبكة لتواصل العاملين، والرد، وتحويل المكالمات، يدخل الفاكس الذي شغل الغرفة الجنوبية، فالحاسوب أيضًا، وآلات التصوير الثابتة والمتحركة!

أرض الغرفة؛ حيث الفاكِس، بكسر الكاف، كما كان ينطق، وكما سمعها من الشيخ ابن باز، ثم استخرج تصريفات لها، وكان يقول لأحدهم «فاكسني بهذا» أي راسلني عبر الفاكس! ولعلّ من الطريف أن الشيخ الزّرقا وجد لها تصريفًا؛ فكان يسمّيه (الفاقس)؛ فهو يفقس بين فينة وأخرى الأوراق البيضاء!

أرض الغرفة مغطاة بمئات القصاصات والمجلات والرسائل من كل حدب وصوب، ما بين مقالة صحفية إلى تقرير إلى بيان إلى استفسار إلى نصيحة وعتاب، ويوسف يبدي قدرة على التعامل معها؛ ليكون بعدُ مسؤول الأرشيف.

في شعبان (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) يدلف فتى أمْيَل إلى السمرة، يبدو أصغر من أن تعتقد أنه متزوج، كما تبين بعدُ، ابتسامته صافية، ونبرة الصوت هادئة، طيّع، وَفِيّ، تثبت الأيام أن هذه الخصال تخرج من مشكاة قلب طيّب نظيف، جمع إلى كرم العشيرة صلاح الخؤولة وطيبها؛ حيث خاله الشيخ الداعية عبد العزيز العقل.

عبد الرحمن بن عبد الله النصيان.

جاءت به مهمّة عارضة، بينما يضمر رغبة في الانتماء الدائم لهذا الفريق الذي يضم عددًا ممن هم في عداد شيوخه.

لديه خبرة في الكمبيوتر؛ فليكن مسؤولًا عن الحاسوب، إحساس رائع بالاعتزاز بفتى ذي خبرة نادرة آنذاك، والجهاز الوحيد يتحول إلى شبكة تغطي المكتب، وتسمح بتطوير الأداء بشكل أفضل.

أسوة بإخوانه ظَلّ الفتى متصلًا بالمكتب ومناشطه، دؤوبًا، عاملًا بصمت، حتى نومه كان استشرافًا لغدٍ آت!

«الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ» و«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ». وكم من الرؤى يراها المرء في منامه؛ فتأتي في يقظته كفلق الصبح!

بعد تقويض المكتب ينام حزينًا، وكأنّ أحلامه تبخرت في ساعة واحدة، فيرى والده في المنام، ويسأله أبوه عن سر كآبته وحزنه؛ فيقول: إن البناء قد تهدّم، والماء قُطع عنا!

تعبير رمزي صادق، تأويله هو وقوعه، والوالد الطيّب المتعبد يبتسم، ويقول:

لا تحزن يا بني! سوف يُعاد بناؤه بطريقة أفضل وأوسع وأرسخ..

وهكذا تكون تلك الرؤيا ملهمة للثقة التامة؛ بأن الأمر سيعود أفضل مما كان.. وبصبر وثقة وإصرار وطول نفس، وتعامل هادئ مع المعوقات والعقبات التي تبدو معقدة حين تنظر في جملتها، على أن تفكيكها والتعامل معها واحدة واحدة، وإعطاء الوقت حقه، مع حسن الظن بالله، كفيل بتحويلها إلى عوامل إيجابية على طريقة أن الحجارة التي تُرمى بها يمكنك أن تبني بها معبرًا إلى المجد والإنجاز.

ما يعتقده المرء سيحصل عليه، ومصداق شيء من هذا في قوله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ».

و«لو توكّل العبد على الله حق توكّله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورا بإزالته؛ لأزاله» كما يرى صاحب (المدارج).

حسن الظن بالله مدرج لتحرير الطاقة من القيود، وتأهيلها للعمل والانطلاق، فلا شيء كالأمل يحدو إلى العمل!

ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأَمَلِ!

قيم إيجابية رائعة، شديدة التأثير فِي صناعة الهمة، ولن ينتفع بها أولئك الذين يكرّسون جهدهم لهدم هذه النظرية وإثبات فشلها؛ ستنجح النظرية، ويثبت فشلهم هم وسيكون فشلهم إثباتا لنجاح النظرية.

إغفاءة خفيفة لخمس سنوات، يلتقي بعدها التلميذ بشيخه، لقاء الحب

والشوق والقصص الجميلة التي كانت مؤلمة؛ ليحدثه في أول لقاء عن التقنية من جديد، عن الإنترنت!

في مسكنه الجديد العابر في الرياض والذي حضنه تلك الليلة إيذانًا بتقويض المسكن، والتئام شمل الأسرة جسدًا وروحًا على حد سواء!

لأول مرة تصافح عينه مواقع إلكترونية اقتحمت الأسوار بعد التغيرات الكونية الواسعة والانفتاح الإعلامي، استكمالًا لمهمته السابقة، وتحضيرًا لتأويل الرؤيا..

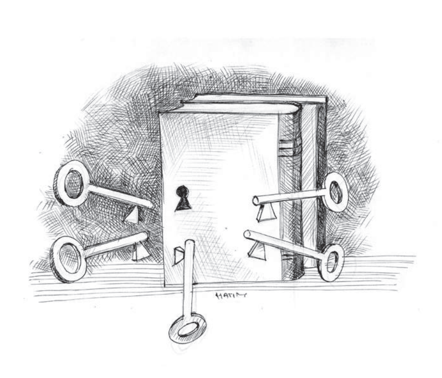
«وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [يوسف: ١٠٠].



51

أصحاب المفاتيح

◆



لم يكن ثمة كثير شيء يخاف عليه؛ بيد أن منح أحد الشبيبة نسخةً من مفتاح الباب يعني له الكثير؛ لقد أصبح متمكنًا وأمينًا، وحصل على الثقة، وفي نظره كشاب في العشرين فهو قد ملك مفتاح الحياة والمستقبل والنجاح، وأصبح للميدالية أكثر من معنى!

وسحْبُ تلك النسخة يعني أنه أخفق في الامتحان، وتلقائيًا سيسحب نفسه من المشهد ويختفي في الزحام.

شَطْبُ شخص ما يقتضي أن تغير المفاتيح كلها من جديد كإجراء احترازي، هل كانت تربية الحسّ الأمني من مقاصد تلك الحركة؟ ربما، بيد أن هذا يحدث باقتراح من أحد أصحاب المفاتيح الأساسية ينم عن اهتمام وحرص، ولا بدّ أن يقابل بالرضا!

حَمْل المفاتيح كان تعبيرًا عن ثقة، والحفاظ عليها باقتراحات كهذه هو

تعزيز لتلك الثقة.

«رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» [الأعراف: من الآية ٨٩].

خالد، يوسف، أبو سهيل، عبد الرحمن، محمد المرشود، هم ضمن القائمة.

ولا يزال في جعبة الذاكرة مزيد..

أبو صالح، ذلك الفلاح البسيط، تعرّف إليه يوم كان طالبًا في المدرسة الثانوية العامة، وأثناء جهد مبذول لكسر طوق العزلة بين طلاب المعهد العلمي، وطلاب الثانوية، ممن يجب أن يكونوا محلًا للدعوة والتربية والتثقيف، وشاركه العديد من الرحلات والأسفار، وبدت شخصيته واضحة بلا تكلّف، الصدق والصفاء والهدوء والتحمل، خدمة الآخرين باغتباط، السلاسة والسهولة، الذوق الخاص في الملبس والمأكل والنوم والتعامل.

وقد يغتدي إلى سوق هنا أو هناك والطير في وكناتها، ثم يعود كما تعود الطيور بطانا، تنام في أعشاشها حين يرتخي صدر الليل، فتخدر معه أحلام المبكرين، القهوة العربية وليس الكابوتشينو، التمر وليس الكاكاو والشوكولاته، لحم الغنم أو الإبل، وليس السمك أو التونة!

حين تتمخطر الشاة -أو تتبعطز على حد تعبيره- فهي تسكب ألحانا مميزة في أذنه..

يتعامل مع ما يخرج من الأرض، فهي أمّنا الرؤوم، و«مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ» [طه: من الآية ٥٥]؛ فأسرار الصحّة فيها تنبت، أما المعلبات والأطعمة الجاهزة؛ فهي مرفوضة بدون جلبة أو تعليل أو منطق، يكفي أن الذوق لا يقبلها، ولا يستجيب لرائحتها.. هذه هي الأرض صدق فيها الشابي حين قال عنها بأنها تحب الحياة:

وقالتْ ليَ الأَرضُ لما سألتُ ... أيا أمُّ هل تكرهينَ البَشَرْ
أُباركُ في النَّاسِ أهلَ الطُّموحِ ... ومَن يَسْتَلِذُّ ركوبَ الخطَرْ
وأَلعنُ مَنْ لا يماشي الزَّمانَ ... ويقنعُ بالعيشِ عيشِ الحجرْ
هو الكونُ حيٌّ يحبُّ الحَيَاةَ ... ويحتقرُ الميْتَ مهــــما كَبُرْ
فلا الأُفقُ يَحْضُنُ ميتَ الطُّيورِ ... ولا النَّحْلُ يلثَمُ ميْتَ الزَّهَرْ
ولولا أُمومَةُ قلبي الرَّؤوم ... لمـــا ضمَّتِ الميْتَ تِلْكَ الحُفَرْ
فويلٌ لمنْ لم تَشُقْهُ الحَيَا ... ةُ منْ لعنةِ العَدَمِ المنتصرْ

«وَللناس فيما يَعشَقونَ مَذاهِبُ»..

يتندّر علَيه أصحابه أنه يغيب عن جامعة الملك سعود حيث كان يدرس، في اليوم الذي تفوح رائحة السمك من المطبخ! ويكفي لتحرمه لذة المائدة أن تضيف إليها وجبة من التونة أو حتى الزيتونة!

ويالمرارة الطرفة حين يصبح رهين محبسه، لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وعربة الطعام تمر على الجناح، أو (الونق) غرفة غرفة، والطعام موحد: السبت دجاج، والأحد لحم، والاثنين سمك الكنعد، الذي ارتبط في الأذهان فصار مكروهًا من الجميع لذكراه الحزينة. ولا مفرّ، حتى الرائحة تزكم أنفه، وتشارك في حصاره.

في بداية علاقته تولى جانب الخدمة الإنسانية وتوزيع الأعطيات والأطعمة على البيوت الفقيرة؛ للمريض والأرملة واليتيم، كان يعمل باحتساب وتضحية يقِلّ نظيرها.

ثم تولى إلى ذلك أمر توزيع الأشرطة. لقد صُرفت عشرات الملايين من الريالات، لبضعة ملايين من الأشرطة، خَاصّة من أشرطة الدروس العلمية في الجامع الكبير، والمحاضرات العامة، وأحيانًا شريط لهذا

الشيخ أو ذاك، صالح بن حميد في بعض خطبه، عبد الوهاب الطريري، سفر الحوالي، ناصر العمر، وآخرين..

الكرم يبدو في العطاء بدون مَنٍّ ولا أذى، وبكميات كبيرة أيًا كان هذا المُعطى. المئات يطرقون الأبواب، ويسألون عن الشيخ علي بن عبد الله الدخيّل! متعهّد شؤون المنزل، فهو المسؤول عن توفير الاحتياجات من طعام وشراب، هذه المهمة التي اضطلع بها بجدارة، وظَلّ حفيًا وفيًا بها دون انقطاع، غير متأفف من تكرر الطلبات، أو الإلحاح، أو الاستعجال.. ولا يزال.

والحياة إنما تطيب وتصفو بهذه النفوس الصافية السهلة، التي لا تعرف التعقيد، ولا المكر ولا التضجر.

على رفيقي ما يتغضبْ حجاجي	إن قال: قم. سوّ الغرضْ، قمت أسويهْ
أدرى رفيقي مثل ضَوَّ السراجِ	أقل نسناسٍ من الريحْ يطفيه!

يساعده في ترتيب لوازم المنزل فتيان متفانيان: فهد الحميد وعلي العوض.

أحمد الصبيحي، المدرس بمعهد الرّس، يجلس إلى شيخه، يبوح له بأن لديه رغبة ملحّة أن يشاركهم حياة الفريق، وهو الرجل الذي يعمل بصمت، حتى لا تظن أنه ينجز ما أنجز، وربما نفعه هذا في المواقف الصعبة التي مرّ بها؛ حيث شخصيته الهادئة لا تنم عن شيء آخر، الطرود البريدية بمئات الآلاف إلى بقاع الأرض كلها، وخاصة مصر وليبيا والجزائر واليمن.. برسائل توجيه وكتب وأشرطة، ومتابعة عبر البريد، كميات تصادر، ولكنه يعمل بسياسة الإغراق، والرسائل الراجعة تؤكد وصول الكثير وتحمل عبارات الشكر والتقدير.

هو الوحيد -ربما- الذي ظل في عمله حتى النهاية دون انقطاع أو تغيير.

شخصية شديدة الهدوء ظاهرًا، قوية الترابط الاجتماعي، واسعة العلاقات، حاضرة النكتة، هو من القلائل الذين يصنعون النكتة ليكونوا محورها، فلا حرج أن يضحك الآخرون منه أو يضحكوا عليه، وأن يكن هو نقطة التندر فيها. من الثقة أن تسوق المواقف المحرجة والصعبة التي مرت عليك دون تَردّد، وأن تسمح للآخرين أن يتعجبوا منها، دون أن تشعر بالضعف أو الارتباك.

كصاحبه الذي قبله.. تتساءل هل يعرف معنى الغضب أم لا؟ فأنت لا تراه مغضبًا، حتى حين يُشتم أو يهان، فهناك الابتسامة أو الصمت، وقد لا يحسن، أو لا يريد، أن يدافع عن نفسه، أو يوضح موقفه.

سليمان أبا الخيل.. البداية كانت في مركز المعتصم لخدمة الطالب؛ حيث كان يطبع إعلانات الدروس والمحاضرات، وامتد الأمر لطباعة بحث أو قصيدة، اقترب ليكون من أكثر المتردّدين على المكتب حظوة وحبًا، ومشاركًا في جلسات السمر المسائية مع الأعضاء، أو جلسات السمر الخاصة التي تقام بين الفينة والفينة ليدعى لها مثل الشيخ سليمان العلوان، أو بعض الضيوف الطارئين على المدينة.

لم يكن أبو إبراهيم من أصحاب المفاتيح، ولكنه بعد خروج صاحبه وعودة المياه إلى مجاريها أخذ المفاتيح كلها، وغدا مديرًا للمكتب الجديد.

خبرة إدارية، ودقة مالية، وتفانٍ وإخلاص، وأمانة يحاسب فيها نفسه على القليل والكثير من الوقت أو المال، أفلح في تأسيس المكتب الجديد، وصنع من العاملين معه فريقًا منسجمًا متجانسًا، وتابع المهمة دون ملل، طباعة الكتب، المقالات، إعداد المادة الأولية للمحاضرات والدروس والدورات والبرامج الإعلامية، أرشفة كل ما يرد إلى المكتب، خاصة من مسودات البحوث والمقالات، الطباعة، التنظيم المالي، التنسيق

مع دوائر أخرى كالمؤسسة، أو الموقع الإلكتروني، أو دائرة النشر، والتعاطي مع البريد الإلكتروني، وما يعنيه من تدشين مرحلة جديدة من العطاء والتواصل والانفتاح.

في العالم الغربي، تعطي الأسرة لشاب في الحادية والعشرين مفتاحًا رمزيًا تسميه (مفتاح الحياة) يعني أن عليه ألا يعتمد كثيرًا على أسرته ومنزله، وأن يبحث عن ذاته خارجها في ميادين الحياة المختلفة، وتعرف الأسر الغربية (أطفال المفاتيح) الذين يحرمون من حنان البيت بانشغال الأبوين، ويتعاملون مباشرة مع المفتاح في وقت مبكر.

المفتاح فلسفة ذات بعدٍ تواصلي، يتعاطى معه الإنسان بعفوية تامة، بينما يتغلغل معناه في أعماقه، معبرًا عن السكن والنجاح والطموح، وحتى في المنام؛ فرؤية المفتاح تعني فتح الأمر المغلق وتفريج الكربة والصلة والرزق، ومن الحسن التفاؤل بالأسماء والرموز، ولعل أصحاب المفاتيح ممن حسنت أسماؤهم فكانت مصدرًا للفأل، بالسهالة والمجد والصلاح وزوال الغربة والنجاح.

شباب كما الإسلام يرضى خلائقًا	ودينا ووعيًا في اسوداد المفارق
قلوبهم طهر يفيض عن الورى	وأيديهم تأسو جراح الخلائق
هم الحلم الريان في وقدة الظمأ	وليس على الآفاق طيف لبارق
هم الأمل المرجو إن خاب مأملٌ	وأوهن بُعْدُ الشوط صبر السوابق

محمد المرشود يصلي معه ذات ليلة ويبحث عن سبب للحديث.. هل سمعت أشرطة الشاعر (مظفر النواب)؟ إنها عندي وسأمنحك نسخة منها.

مدخل سلس لتستحكم العلاقة، ويحصل على مفتاح، غرفة الفاكس تخصه، والقلم الفوسفوري رفيقه ليسهل على شيخه مهمة إنجاز الكثير

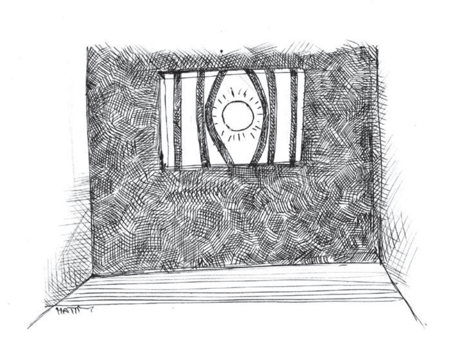
من القراءة في اليسير من الوقت! يسبقهم في ظرف عابر إلى السجن..
فيعدون ذلك سببًا لتجريب لياقة الحب والإخاء والوفاء مع الأهل،
وبذل الوسع في تسهيل خروجه..
وهكذا كان.
لم يكن الأمر كما ظن بعضهم متعلقًا بعمله في المكتب وحساسيته، ولكن
من يمنع الطبع البشري أن يتوقع أو يظن؟
ينشغل جسدُه ووقته، وتبقى روحه تحوّم حول المكان!



52

الوداع المخطوف

◆



حين يألف المرء مجتمعه الإنساني، فإن من حظ نفسه أن يبادرها باعتكاف يسبر فيه أغوارها، ويسحق أصباغها، ويسوسها للتهذيب بالترغيب والترهيب؛ فيبدو له منها ما غاب، ويتجلى منها ما خفي، ويتمحض صدقها من غيره «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» [سبأ: من الآية ٤٦].

وحين يقرؤك الآخرون؛ يرون فيك جانبك الظاهر، ولن يغوص إلى ذاك الخفي الهائل سواك، ولن تكون هناك قناة أخرى تبث تردداته إلاك «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ» [القيامة: ١٤- ١٥].

منكَ وبكَ وفيكَ، يرى الآخرون روحك وعاطفتك، ويتعرفون على وجدانك، ويقرؤون أفكارك. تترجم ذلك بعبارات، أو تعبّر عنه

بحركات، أو ترسمه بقرارات، أو تنسجه بكلمات.

استأذن صاحبنا عقله هذه المرة أن يتركه إلى جنب قلبه أثناء تسطير هذه الحروف، لتُصْغ ذرات العقل لنبضات القلب، فالأفعال تفقد مصداقيتها ومذاقها إذَا لم يشارك القلب في صياغتها.

لم يكن متشبثًا بالماضي؛ بيد أن للذكريات صدى يضج في أعماق النفس، ويلح حتى في المنام، ومهما علت خطوط الزمن على الوجوه فلابد للذاكرة أن تجلب ملفات غطّاها النسيان.

كان يوم (الثلاثاء الثامن من ربيع الأول لعام ٨/ ٣/ ١٤١٥هـ الموافق: ١٦/ ٨/ ١٩٩٤م)، لا يشبه أي ثلاثاء آخر، فالطائر الذي تعوّد أن يطرق نافذته كل صباح بدا مطرقًا على غير عادته، وكأن حنجرته قد سُلبت!

لابدّ أن يلحقه ألم غامض بسبب تلك الذكرى التي تعتصر شرايين قلبه وأوردة روحه، وتجعله يستعيد المعايشة مرة أخرى، ليبدو المشهد حيًا كما كان.

ذاك صباح غربت شمسه قبل أن تشرق؛ تلقى اتصالًا مع نسمات الفجر العليلة من بعض أصحاب المفاتيح الذين سبقوه إلى حيث يقضي وقته ويدير شؤونه، أن وفدًا طارئًا يتطلب حضوره.

استعجل خطاه للموعد المرتقب الذي لم يكن مفاجئًا، وترنحت نظراته ذات اليمين وذات الشمال، اتجه للمغسلة ليتوضأ، ثم إلى غرفته يبحث في أدراجه عن المصحف، الرفيق الذي قد تطول خلوته به، وحدسه الخفي يرشده أنه سيكون هناك مصدر السلوان والمعرفة معًا.

يمرّ على مصحفه ذي الحجم الرفيع مرات دون أن ينتبه إليه أو يلحظه، ثم يراه، فيحمله بين يديه، ويضع شفتيه عليه طويلًا، وكأنه يستنشق عبقه ليملأ به فراغ فؤاده..

وهو يردد في سرّه:

وأضــم قـرآني إلى قلبـــــي	وأقـول: أنت أخي وأنت أبي
بيدي خبير قد رسمت شديـــ	ـــد الحول، مطلع على الغيب
متجدد فيك الشباب.. وكـــم	أكل التراب صحائف الكتب!

في جزء من الثانية قد تتغير حياتك للأبد؛ فهذه المرة ليست مجرد خمس دقائق!

ودّع أهله توديعًا خاطفًا تمليه عليه المفاجأة، واستقل سيارته إلى ذلك الحشد الملتف حول مكتبه.

يعرّف بنفسه ليتمكن من الدخول عبر هذا الطوق، ليجد نفسه بعد قليل في المقعد الخلفي لسيارة يمتطيها لأول مرة، يشاركه في مقعده جاران عن اليمين وعن الشمال، جاران هادئان صامتان طول الطريق الممتد لثلاثمائة كيلو متر، شفتاه تلهجان بالاستغفار والدعاء والتسبيح، وروحه تردّد في خلجاتها أن كل عقبة فرصة إذا أُحسِن استثمارها.

تركيزه يخلق مشاعر جديدة، ويمنح أفكاره صورًا غامضة لمستقبل مجهول.

وكما تنمو زهور اللوتس من الطين؛ فلعل المحنة تنقلب إلى منحة.

يا حَبيبي سَيَملأُ الحُبُّ قلبي	فَليَشيدوا الحُصونَ وَالأَسوارا
وَسَأبنيكَ فيهِ جسمًا وَروحًا	وَحَنانًا وَعِفَّةً وَوَقـــارا
أَيوسعِ الجدران أَن تحرِمَ القَلـ	ـــبَ رؤاهُ، وَتَحجبَ التَذْكَارا
سَأُنادي في عُزلَتي كُلَّ غَيمٍ	كُلَّ عِطرٍ سَرى وَطَيرٍ طارا
إِنَّ بَيتًا عَلى الجَمالِ بَنينـ	ـاهُ ليأبى الجمالُ أَن يَنْهَارا
كُلَّما غَرَّقَ الظَلامُ عُيوني	أَطلَعَ الحُبُّ في دَمي أَنوارا

يشعر أنه قال الكثير الكثير مما يريد أن يقوله، ولم يكن يظن أصلًا أن التفصيلات التي يعيشها في حياته ودعوته يجب أن تكون سرمديّة لا نهاية لها، وفي أعماقه إحساس بأن ثمة جوانب في النفس والعقل والقلب لم يتم التعامل معها كما يجب، وأن ثَمّ غفلة عن الخلوة والأنس بالرب الذي لا تجتمع قوى النفس إلا إذا انصرفت إليه، وأنّ تلقيح الفهم بقراءة تجارب الحياة وسير الأعلام، ونتاج العقول، هو الأبقى والأهم لمن يعزم على المسير الطويل.

في سويدائه يحس بأن الناس اقتحموا أعماقه بضغوطهم ورؤاهم أكثر مما كان يريد، لقد غدا مثقلًا بهم، يحملهم في قلبه أكثر مما يحمل ذاته، وأفكارهم تحاصره حتى تضيع أفكاره أو تكاد!

من طبعه أنه لا يَغْرَق في الماضي، ولا يغرق في المستقبل أيضًا، هل هذا جيد؟ هو لا يحكم أو يقرّر، ولكنه يرتاح للانسياق مع هذا الطبع.

لم يفكّر كثيرًا، ولم يثر في نفسه الكثير من الأسئلة: إلى أين أنا ذاهب؟ كم سيطول الغياب؟ من سألقى؟ ماذا عسى أن يكون مصير من ورائي؟... ماذا بعد؟!

قد تخطر ولكنها لا تستوطن.. فسرعان ما تتبخّر، وهو وجد الحل في مشاغلة النفس منذ البداية بالأمور العمليّة؛ البدء بمراجعة محفوظِه، وضبط القرآن الكريم، وإتقان ما حفظ من السنة، شُغل الوقت بالأوراد والأدعية والتسابيح.. منذ اللحظة الأولى..

هل تراها طفرةً عابرةً.. أم برنامجًا صارمًا سيحافظ عليه؟

جلس وحده على السرير الإسمنتي، بعد إيداع مفاتيحه ومحفظته وغترته، فقد غدا كما قال الشاعر:

أَلْقى الصحيفة كي يخففَ رحلَــه والزادَ، حتى نعلَه أَلْقَاهــــــا!

وأمامه رفٌّ فارغ من كل شيء، إلا من قارورة الماء التي نفحه بها المدير تقديرًا له!

يسترجع مخزونه الشعري، ويردد (رسالة في ليلة التنفيذ) لشاعر أحبه وأعجب بجودة قريحته، وإبداع صوره، وقوة تأثيره:

اللَيْلُ مِنْ حَوْلِي هُدُوءٌ قَاتِلٌ	وَالذِّكْرَيَاتُ تَمُورُ فِي وِجْدَانِي
وَيَهُدُّنِي أَلَمِي فَأَنْشُدُ رَاحَتِي	فِي بِضْعِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ..
قَدْ عِشْتُ أُومِنُ بِالْإِلَهِ وَلَمْ أَذُقْ	إِلَّا أَخِيرًا لَذَّةَ الإِيمَانِ

هو اجتماعيّ بطبعه، وقد اعتاد أن يعيش ويأكل ويشرب وينام ويظعن ويقيم مع الآخرين، فهل ترى سيطيق وحدةً تضرب رواقها عليه؟

يبدو أن الأمر كذلك، فهو متكيّف مع العزلة أيضًا.

ملامح الوجه النوراني لتلك العجوز الحزينة تأبى أن تفارقه، حين ترفع نظاراتها المثقلة، وتمسح ذرات متبقية من أمّ لا تزال تخاف على طفلها الكبير، والدمع يخضب وجنتيها، وهي تردد بصوتها الشجي:

اليومْ أنا ضَـــايقٍ صَدْرِي	كثرتْ همـــومي وأنا حَيّهْ
دَمعي عَلى صَابري يجري	والكَبْد بالنار مشـــويهْ
ســـلمان ياليت من يدري	عن حـــالك اليوم شخصيهْ؟

ملامح أخرى لزوج تترقب عودته كل يوم عند عتبة الباب.

طفل يبحث عنه في أرجاء الدار ويصيح.. بابا.. بابا.. ولا يعلم أن دون «باباه» فلاة أوسع من صدر الحليم!

يا للغفلة..! كيف نسي أن يودعهم كما يجب، كيف لم يشعر بضخامة وجودهم من حوله إلا حينما حالت بينهم وبينه السدود؟ فبدأ يقرؤهم بصوت مرتفع.

أدرك جيدًا أن جلسة مع أهل وده هي هدف بذاته، لا يحتاج الأمر إلى سبب لتجلس مع من تحب، اغتنام الحياة ذاتها يكون أجمل ما يكون حين نغدو قريبين منهم!

بدأ يتعرف على رفيق جديد لم يكن يمنحه وقتًا كافيًا فيما مضى، وليس يدري كم في جعبة هذا الرفيق المُلابِس المخالط للحمه ودمه مما يجهله هو ليتعلمه.

لكنه يدري كم يلزمه لكي ينتفع بهذا الرفيق، من التجرد من التزام الموقف المسبق، والحكم المطلق، فلكي يتواصل مع ذاته يلزم أن يحسن الاستماع، وأن يذيب الحواجز، وأن يؤمن دائمًا أن الوصول إلى الأكمل والأفضل والأصوب هو في مصلحته، وأن مقام الحرية الصادقة يتطلب التحرر من سطوة النفس كما يتطلب التحرر من سطوة الآخرين.

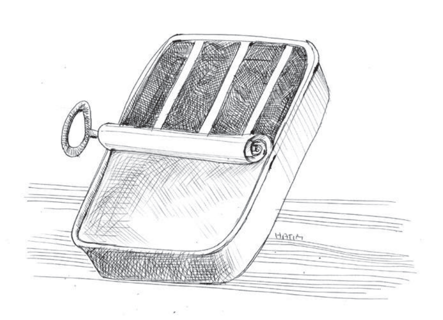
تلك الليلة الغاربة التي لم تشرق:

ياليتَ شِعْري أَيْنَ ودّع رَاحِلٌ	فَأَضُـمَّ كَلّ مودِّع ومودَّعِ
وَأَشَم رِيحَ الوَصْل مِنْ بَعْد الْجَفَا	فَعَسَى رِيَاضُ الشَّوْقِ أَنْ تَبْكِي مَعِي
فَلْتسق أَيّام اللقــاءِ بشربةٍ	دهقت وصبّت من غدير مترعِ



53

الليلة الأولى



شيء جميل، أن نستطيع الالتفات للوراء، دون حنين، ودون ألم، ودون حقد أيضًا، وأن نستخدم القلم لتنظيف الجرح.

يقول كينيث أيوكنيكلوس: «أن تعلم شيئًا عن الماضي فهذا أمر، أما أن تظل غارقًا فيه فهذا أمر آخر تمامًا».

لهذا هو يكتب ويرسم ويتحدث، لا ليصنع الشفقة عند الآخرين حيال معاناة، ولا ليعبّر عن مشاعر الكراهية التي تترفّع عنها النفوس الطيبة؛ بل ليعيش الحياة ذاتها بتجربة جديدة، وليشاركه الآخرون لذة عيشها؛ حيث أصبح ذلك ممكنًا.

أيها الساهـــــر تغفـــــو تذكر العهد وتصحـــــو

فـــإذا مـــــا التام جرح جـــد بالتذكار جـــــرح

فتعلّـــــم كـــــيف تنسى وتعلّـــم كـيف تمحـــــو!

إنها الصورة المتحركة، يعيدها الشريط مرة ومرة أمام النظّارة، بعد أن يتحول الألم إلى متعة، لأنه أصبح تاريخًا يُروى، يتدثر أحيانًا بردائه الشفاف.

حين تنغرز سيارتك في الرمل ذات ظهيرة، ويأخذك العطش والخوف تكون قلقًا ومرعوبًا، وبعد سنوات تسرد تلك القصة للأصدقاء والأبناء، وتكون محبورًا وضاحكًا، فلم يبق من القصة سوى وجهها الجميل ونهايتها السعيدة، وتم نسيان مخاوفها وآلامها، لقد تكشّف الزمن الذي كان مستقبلًا عن فرص ذهبية، وأحلام رائعة، حين تحول إلى واقع.

إن العمل الذي لا مخاطر فيه ولا كدر، لن يحوي شيئًا تحكيه أو تتندّر به.

الحياة تعلّمنا التفاؤل، وتذكّرنا بأن الخروج من سطوة الحاضر الضيّق يكون بنظرة إلى القادم الأوسع.

اليسر في طيات المعاناة وليس بعدها، فليبحث عن تجلياته في حاضره قبل مستقبله.

تفتحت بوابة الفكر الليّنة على بوابة الفولاذ العريضة، المتربعة على الجدار الإسمنتي، الذي تضاهيه سماكة وتفوقه تماسكًا، عندما تدفعها تتحرك ببطء، حتى تشعر بثقلها ووطأتها عليك، ويبقى قفلها المركزي محتفظًا بسريته ومركزيته وغموضه الذي يرتبط في داخلك بأشياء كثيرة تتصل بسلوكك وتفاعلك وإيجابيتك، حين تدلف داخل خزانتها ذات

الأمتار الثلاثة طولًا، والمترين عرضًا، ترفع رأسكَ فتجد في الزاوية العليا منها عين الرقيب الذي لا يطرف ولا ينام، هكذا هي الآلة.

فوق البوابة شاشة تلفزيونية كأنها بُنيت مع الجدار، فهي جزء منه، بنفس مستواه يعلو الشاشة بانحراف يسير فتحات صغيرة يهب منها الهواء، في السقف كوة إلى العالم، يتسلل منها بصيص النور، بصيص الأمل، قدر ضيئل بقدر ما تسمح به الضآلة والضِيق.

تنسلّ خيوط الشمس إلى الكائن القابع في تلك الحجيرة، إلى اليمين تجد فتحة الطعام المتصلة برف إسمنتي، أمامه كرسي حديدي مثبت بإحكام، يليه عارض إسمنتي قصير هو حاجز لدورة المياه، والمروش.

يمتد في تلك الأرضية لَيٌّ صغير يمتد إلى أعلى، وبجواره مربع حديدي قد تعييك الحيلة في معرفة العلاقة بينهما حتى تطأه برجلك فينبثق منه الماء، وينساب الصوت المنتمي إلى الحياة المعبر عن أصالتها وعمقها «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ» [الأنبياء: من الآية٣٠].

على الجدار مرحاض معلق من الاستيل الخالص، هنا تتحول الأشياء العادية إلى معانٍ عميقة ودلالات يتفاعل معها الساكن بقوة، تعيش هنا بمفردك، قد تجوب تلك الأمتار وتذرعها لتحافظ على قدر من الحياة للجسم بعد أن كنت موكلًا بفضاء الله تذرعه، وضع صاحبنا العصا عن عاتقه أو وُضِعَت عنه.

تسمع صدى خطواتك حينذاك، وترى الأجزاء الصغيرة في كل بقعة وزاوية، وفي كل مرة تراها بعين غير عين الأمس، وتقرأ رموزها، وليس غريبًا أن تصاب بدوار خفيف جرّاء خط سيرك فتضطر لعكسه لتتوازن المعادلة لديك، وفي أثناء ذلك حتمًا تترنم بآيات من الذكر، أو أبيات من الشعر، اعتصرها عقلك من وحي اللحظة، أو تدفقت مع شلال الحدث، وقد تسرح في خيال يراوغك أو يطاردك؛ حيث لا حواجز ولا

أسوار، فكلما ضاق القيد اتسع أفق العقل.

قد يمر عليك وقت طويل.. تتحدّث فتسمع همسًا تصغي له فتجده صدى صوتك أو ترددات نفسك لتقف شاكرًا متفكرًا لنعمة طالما غفلت عنها كثيرًا، تتذكر فلا يشغلك عن ذكراك سوى ذكرى أخرى تزاحمها.

كان الدخول الأول لذاك المنزل الجديد الساعة الحادية عشرة ضحى، لم يكن حزينًا فقد كان طبعه التفاؤل، ولا يحتاج عقله لجلسة تهيئة، لذلك كان فعله يسبق شعوره، وقد يكون ذلك لعدم تصوره الموقف بشكل جيد أيضًا..

فوق البوابة يقرأ بخط عريض« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ » [الحجرات: من الآية ٦] هل هذا خطاب له.. أم هو وعد؟ هل يحمل المعنى أم نقيضه؟ هل التبين والتحقق سيطول إمعانًا في الامتثال؟ خطرات ضائعة في أعماقه بين الجد والهزل!

صلاة الظهر ركعتان لمسافر مثله، «وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» [المؤمنون: ٢٩]. «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» [الإسراء: ٨٠].

إغفاءة القيلولة لابد منها، لا يفصل جسده الأسمر النحيل عن سريره الإسمنتي في زاوية الغرفة سوى قطعة إسفنج، ووسادة خفيفة، وكعادته لا ينام إلا ملتحفًا مغطيًا عينيه، والنوم يتسلل بسرعة حتى لا يكاد يكمل أوراده، «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ» [الأنفال: من الآية ١١]. هو يتعجَّب إذ يرى هذا الطبع في صبيته الصغار!

أحيانًا تحتاج إلى لحظات من الظلام تمنحك الهدوء، ولكنك لا تعثر عليها!

حين رأى الصحن المعد للطعام تذكر المستشفى، مربع للرز، وآخر للسلطة، وثالث للمرق، واللحم الذي قد يكون ضأنًا أو سمكًا أو

دجاجًا، هنا لا كلام ولا حديث ولا أنيس، عليه أن يفتح فمه لالتهام الطعام المحمّل بالذكريات، هو جائع لم يطعم شيئًا منذ الصباح..

إنه يتناول غداءه للمرة الأولى منفردًا، كان لوقت الظهيرة عادة سُلبت منه، وطعم أُزيل عنه، حين كان فرصة اجتماع الشمل بمن حوله، مع والدته، أو أسرته، أو إخوته، أو ضيوفه، أو أصدقائه، عازم أو معزوم، ولسان حاله يقول كما قال حاتم أو قيس بن عاصم:

إِذا ما صَنَعتِ الزاد فَالتَمِسي لَهُ ... أَكيلًا؛ فَإِنّي لَستُ آكُلُه وَحدي

من عادة العرب أنهم يعدون الإيثار في الطعام من أعظم المكارم:

أَما وَالَّذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ ... وَيُحيي العِظامَ البيضَ وَهيَ رَميمُ

لَقَدكُنتُأَطوي البَطنَ وَالزادُيُشتَهى ... مَخافَةَ يَومًا أَن يُقالَ لَئيمُ!

لم يكن يخاف أن يقال له ذلك، بيد أن انشغاله بالحديث وإسناده إليه في غير مجلس ربما كان سببًا في اكتفائه ونحوله، حتى يظن أنه خلق هكذا، ولا سبيل إلى أن يتجاوز وزنه ستة وخمسين كيلًا، وهو ابن الثامنة والثلاثين، كما كان وزنه وهو ابن العشرين!

ومع ذلك لم يسبق لصاحبنا أن دخل المستشفى، فهو يتمتع بصحة جيدة تقوم على الاستقرار النفسي، والتغذية السليمة، وشيء من الرياضة.

كان أحيانًا يردد قول عروة بن الورد:

أَتَهزَأُ مِنّي أَن سَمِنتَ وَأَن تَرى ... بِوَجهي شُحوبَ الحَقِّ وَالحَقُّ جاهِدُ

فَإِنّي امرُؤٌ عافي إِنائِيَ شِركَةٌ ... وَأَنتَ امرُؤٌ عافي إِناؤكَ واحِدُ

أُقَسِّمُ جِسمي في جُسومٍ كَثيرَةٍ ... وَأَحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

نعم كان يُقسّم جسمه في جسوم كثيرة، إذ يُطعم هذا، ويُقدّم لهذا، ويدس في (حافة هذا).

إنه يتصور ما مضى مع كل لقمة يرفعها إلى فمه، يمضغ فمه الطعام، والخيال سارح في من كان يُجالسهم حول مائدة مضت، وإنه ليستطيب الآن ما افتقده من عبث الصغار حول الطعام.

أقبل على طعامه متحسسًا شيئًا من الاغتراب.. فاستدعى الشعر ليؤانسه، وغنى بصوته الذي يعجبه ويدري أنه لا يعجب الآخرين:

وَما أَنا بِالساعي بِفَضلِ مطيتي لِتَشرَبَ ماء الحَوضِ قَبلَ الرَكائِبِ

إِذا كُنتَ رَبًّا لِلقُلوصِ فَلا تَدَع رَفيقَكَ يَمشي خَلفَها غَيرَ راكِبِ

أَنِخها فَأَردِفهُ فَإِن حَمَلَتكُما فَذاكَ وَإِن كانَ العِقابُ فَعاقِبِ!

أذان العصر يبثّ على الغرف بصوت ابن ماجد، الصوت الذي يألفه ويحبه، وكيف لا يحبه، وهو ينادي بالفلاح؟

لكنه يفقد الرغبة في سماعه كلما تقدمت به الأيام، ليصبح مرتبطًا ارتباطًا نفسيًا شرطيًا بالوحدة والغربة والقلق..

آن الأوان إذًا أن يُخاطب نفسه ويُهامسها: «ما المرء إلا ما يُفكر فيه طوال اليوم».

ويبقى اجتياز العقبات هو الاختيار الأمثل، وفي مثل هذه الحالات يكون بالتفاؤل الذي يُحسن الصحة، ويمنح العمر الأطول، وعليه الآن أن يُنقّي روحه من الشوائب العالقة ويمنح عقله وروحه فسحة أوسع.. إنه يتعمد صرفها عن الواقع المر ويهرب إلى طرق مختلفة وقد يسترخي مغمضًا عينيه وسابحًا في الأفلاك يتفاعل مع الصورة في مخيلته، وتتعارك ألوان الطيف أمامه، يرى البرتقالي الذي يرمز إلى الفخر، والأصفر؛ حيث يكمن التفاؤل، يُدافعها الأحمر الزاهي؛ حيث الطاقة العالية والغضب، تتلاشى الألوان بأزرق محبب إلى الفؤاد، إنها الروحانية والهدوء، ومعها يطل التفاؤل بوجهه الجميل، فيتوارى وجه

التشاؤم القبيح، وعقله المرتبك، ويهمس:

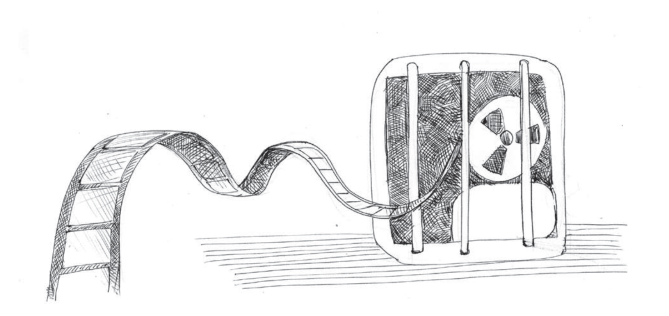
أيهـــــا المهموم مهـــــــــلا إن هـــــذا لا يـــــــدوم!

◆◆◆

54

محاضر رؤيا

◆



هو والجدار وجهًا لوجه..

لم يبق معبر يتصل به خارج هذا الإطار سوى التحليق والانعتاق عندما تعرج الروح ويغشاه المنام.

كان يومًا يردد أبيات علي بن الجهم، السجين:

خَرَجنا مِنَ الدُنيا وَنَحنُ مِنَ اهلِها	فَلَسنا مِنَ الأَحياءِ فيها وَلا المَوتى
إِذا جاءَنا السَجّانُ يَومًا لِحاجَةٍ	عَجِبنا وَقُلنا: جاءَ هذا مِنَ الدُنيا!
وَنَفرَحُ بِالرُؤيا؛ فَجُلَّ حَديثِنا	إِذا نَحنُ أَصبَحنا الحَديثُ عَنِ الرُؤيا

ثم يتلو في المصحف قصة الفتيين مع يوسف الصديق ورؤياهما..

إنها الروح إذ تتمرد على القيد، وتنطلق إلى العالم الآخر بعيدًا عن سطوة المادة وثقلة الجسد.

ذهبت السكرة، وجاءت الفكرة، وجدّ الجد، وحزب الأمر، والمخاوف تنتعش، وتزعج نومه!

لم تُفتح ملفاته بعد، ولا هو يدري ما أمامه.. منكر ونكير لم يدخلا عالمه، إنما هي مقدّمات واستشفاف وتحرّ.

ممّ يخاف؟ وهل ثمة ما يخشاه؟

ولم لا؟

ففي وضع كهذا الذي تعيشه تختلف الموازين، وقد يبدو العمل الذي كان عاديًّا في رؤيتك، أو غير ذي بال، محتملًا لأكثر من تفسير، أو متصلًا بغيره لتصبح الحلقة منظومة من الأعمال التي يزيد بعضها بعضًا خطورة.

الناس لا يعلمون الغيب، وليس عليك أن تفترض لنفسك حسن الظن في كل ما تعمل، ولكي تقنع الآخرين بسلامة موقفك، أو براءتك، أو محدودية قصدك فهذا يقتضي منك وقتًا أطول، وعليك الانتظار..

وحتى الانتظار قد لا يبدد الشكوك.

لم يكن متوجسًا من محاضرة ألقاها، أو درس أعدّه، أو مقال كتبه، فهي أشياء تجري تحت الشمس، ولابد أن يكون أعدّ للأمر عدته.. وليس يؤذيه أن يسأله سائل: ماذا تقصد بهذا الكلام؟ ومن المراد بهذا التلميح؟ وما هي الوثائق التي تمتكلها حيال قضية أثرتها، لأنه كان يتوقع مثل هذا السؤال.. واللسان العربي حمّال أوجه، ومن عادته أن يستعمل ما يسمى «بحافة الهاوية » فهو لا يباشر المحظور ولا يلامسه، لكن يدور حوله.

وحتى الخطأ الصرف على منبرٍ أو في تسجيل موثّق ليس هو المشكلة، «فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»!

نحن نخطئ، حين نتوقع من شباب يعيش في ظل ظروف مضطربة، أو

حتى ظروف عادية، ألا يخطئ!

إن هامشًا من الخطأ الصرف الذي لا يحتمل التأويل.. لهو حق للإنسان على والديه أو أستاذه أو مجتمعه أو سلطته.. فضلًا عن الخطأ الذي يحدث دون تقصد، وكما قال الشافعي رضي الله عنه: «ليس من أراد الحق فأخطأه، كمن أراد الباطل فأصابه».

في ثنايا نفسه وأعماقها موقفان خاصان أو ثلاثة، تمنى أن لو كان بمنجاة منها، ورب «حماسة» عابرة.. تقول لصاحبها: دعني!

الشرفاء يعملون ويخطئون، ويتحملون عواقب ما يعملون وما يخطئون، إنهم لا ينطلقون من مكايد يدبّرونها، ولا مؤامرات يحيكونها، بل من أحاسيس الحياة والتجديد وأحلام النهوض والإصلاح، وربما افتقرت هذه الأحاسيس والأحلام إلى خبرة القائد أو حنكة المجرب، فحاولت أن تصنع الخبرة مرورًا بالعديد من تجارب العمل ومحاولاته.. بخطئها وصوابها.

لم يكن قلِقًا مما يقوله عنه الآخرون من شركائه في النُزل، بل هو يصدّقهم فيما ينسبونه إليه مما شاركهم فيه أو سبقهم إليه أو أمرهم به، فليس من المروءة والنبل أن يحمّلهم أوزار صحبته ويتخلى عنهم، ولعلّه أشد منهم ظهرًا وأقوى جانبًا، فليضف إلى حِمله الخاص، ما ناءوا هم به، أو تخففوا عنه من تبعات..، وهكذا كان.

لم يكن قلقًا مما سيتطوع به آخرون احتسابًا، فهي فرصة لا تعوّض أن يكون خصمًا لدودًا، فيما يقدرون، بوضع كهذا وكما قيل «إذا سقط الجمل كثرت سكاكينه»!

وهو في ذلك المضيق، لا يزال يصرّ على عذر المخالف ويتفهّم الدوافع، ويدري أن الصورة المثالية التي نرسمها للناس أحيانًا ليست هي الصورة القائمة، إنها الصورة التي يتعيّن علينا أن نحاولها ونترسّم معالمها ونقهر

نفوسنا عليها، دون أن تصرفنا عنها الصدمات والكدمات، كم هو رائع وجميل أن تستشعر أن قدرك هو أن تحاول أن تكون جزءًا من أنموذج عملي لفكرة أخلاقية تتحدث عنها وتحلم أن يكون الناس عليها..

« لحى طويلة كلحاكم هي من يقول هذا »! هكذا يرددون عليه إثر كل تهمة.

فليكن.. عدالة المرء ليست في لحيته، وعلى القائل أن يعزز ما يقول بالتوثيق، «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لاَدَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ».

سِجل طويل متعرج، يمر بأحداث الخليج، وتوتر النفوس إبان الحرب، وتداعيات الأزمة، ويتخلل الأوضاع الداخلية، والعرائض الإصلاحية، وتصاعد الخطاب، واحتدام المعارضة، ولكنه ينأى عن منزلقين خطرين:

أولهما: العنف، فهو يرفضه ويدينه أيًا كان مصدره، ولا يجد له تسويغًا في الشريعة، ولا اعتبارًا في المصلحة.

وثانيهما: التطرف والغلو، فهو يحاربه عقيدة وسلوكًا.

أرشيف سنوات حافلة يتعرض للفحص والتدقيق في ضوء المصابيح الكاشفة والقلق يتزايد، والأصوات التي يسمعها تؤكد أن كل الأطراف حاضرة هنا، فما من خفايا ولا أسرار!!

تعلّم درسًا لن ينساه؛ إنه مستعد للتضحية في سبيل مشروع واضح يعرفه الجميع إذا كان مقتنعًا به، لكنه لن يفعل ذلك لصالح قضية خاصة غامضة، حسنٌ أن تضحّي من أجل كلمة آمنت بها وقلتها على الملأ، لكن ليس من أجل كلمة هامسة متعجلة ألقيتها في أذن صديق.

التساؤلات تطوّق عقله، واسترجاعٌ الأيام السالفة خطوة خطوة، الجلسات الليلية، الأفكار، المنشورات، التبرعات، العلاقات، الآراء..

لا يكسر هذا الطوق إلا المصحف، الكتاب الوحيد الذي يجده، لكنه يكفي عن الكتب كلها، وكلمة «الله» هي مفردة واحدة، ولكنها المعجم كله، الجدران المصمتة تسوقه إلى روحانية عالية، وابتهال دائم، واستحضار أخّاذ، ودعاء المنقطع المضطر..

لم يجد نفسه في لحظة كما وجدها الآن إيمانًا بالفيض الشعري الذي طالما ردده في دروسه عن الدعاء:

وَسارِيَةٍ لَم تَسرِ في الأَرضِ تَبتَغي	مَحَلًا وَلَم يَقطَع بِها البيدَ قاطِعُ
سَرَت حيث لَم تَسرِ الركابُ وَلَم تُنخ	لِورِدٍ، وَلَم يَقصُر لَهَا القَيدَ مانِعُ
تَمُرُّ وَراءَ اللَيلِ وَاللَيلُ ضارِبٌ	بِجُثمانِهِ فيهِ سَميرٌ وَهاجِعُ
إِذا وَرَدَت لَم يَردُدِ اللَّهُ وفدَها	عَلى أَهلِها، وَاللَّهُ راءٍ وَسامِعُ
تَفَتَّحُ أَبوابُ السَمَواتِ دونَها	إِذا قَرَعَ الأَبوابَ مِنهُنَّ قارِعُ
وَإِنّي لَأَرجو الله، حَتّى كَأَنَّني	أَرى بِجَميلِ الظَّنِّ ما اللَّهُ صانِعُ

يجد نفسه بين خيارين؛ إما أن يمسك القلم ويبوح، فيساعد الناس على العودة إلى أهليهم، ويرى أشعة الشمس، ويستمتع بالكتاب، ويبدأ في مطالعة الجريدة، ويطمئن على الأهل والأم والزوج والصبية، وإما الصمت.. وهو الحرمان!

بعد عشرين يومًا يجد نفسه مرتاحًا لأن يتحدث.. فيتحدث.. والرؤيا كانت تساعده، مع الندرة من الناس..!

يرى نفسه في مكتبه القديم، وثمة كيابل ثلاثة تحت الأرض تحترق وتحرق معها شيئًا من (الفرشة) تأولها على مسائل كان يخشاها، وهكذا كان.

لقد بدا له بعدُ أن ثمة قلقًا ساوره على وثائق وأوراق ومراسلات لم يكن في محله، فهي ليست أكثر من عمل قانوني في بلاد الله كلها، وإن كان

ثمة من يحظرها أو يستريب في أمرها، لكن انكشاف الأوراق كلها دون استثناء منح الرقيب طمأنينة، ووضع حدًا لظنونه وتوقعاته، وهكذا كان أقصى ما يخشاه المرء هو بداية الانفراج.. صاحبنا كان يردد:

لا تـــدبّر لــك أمـــرًا فأولـــو التدبير هلكـــى
سلّـــم الأمـــر تجـدنا نحن أولى بك منكـــا!

ما كان يكرهه كان تأسيسًا قسريًا لمرحلة جديدة أنضج وأكثر شفافية وأبعد تأثيرًا، اختار العمل في رابعة النهار وتحت أشعة الشمس مُعرضًا عما سوى ذلك، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، والرؤى لغريب معزول كانت تعويضًا جميلًا عن حشد الأخبار والشائعات والتقولات التي كان الناس يفيضون فيها دون أن يصل شيء منها إلى مسمعه..
مئة وخمس وثلاثون شمسًا طلعت وغابت عليه في محطته الأولى، ذات الأمتار الثلاثة طولًا، والمترين عرضًا، دون أن يراها في أفقها شارقة أو غاربة، كان يسمع صوتًا شجيًا لجاره الشاعر عبد الله المحيميد الذي يصيح من وراء الباب:

وليلةِ سجنٍ بتُّ أرقب فجرها وماذا عسى يغني صباح سجينِ؟!
أبيت أراعي البرق من خلف كوةٍ تجـــدد آمـــالًا ذوت لرهينِ

الملفات طويت أو كادت، والقلق لا يزال، وعامة الأصوات خفتت، لقد ذهب جل الناس إذًا إلى بيوتهم «وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ» [التوبة: من الآية ١٠٦].

أراك جميلًا حين ترضى وتغضب وحين تمني بالوصـــال وتعتب
وحين تعافيني من الهم والضنى وحين دمائي من جراحي تثعب
وإن يك جسمي ملءُ عطفيه صحة وإن تكن الأسقام تضوي وتعطب

وإن غمرتني منك حسنى تسرني وإن هُدَّ مني للمصائب منكب

وفي الضر والنعمى وفي المنع والعطا وفي الأمن والأحزان تأتي وتذهب

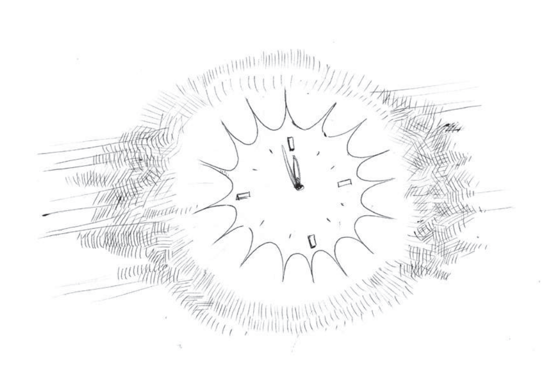
أراك جميلًا في فعالك كلها فهل أنت راضٍ أم ترى أنت مغضب؟!

ولكن ظني فيك أنك معتقي وأنك تدنيني ولست تعذب!



55

موعد في رابعة النهار



«افرح بما في يدك ولو كان صغيرًا، فقد تنظر يومًا خلفك فتراه ضخمًا هائلًا»؛ كما يقول الحكيم.

لقد اشتاق إليها كثيرًا، اشتاق إلى لمساتها الدافئة في برد الشتاء، واشتاق إلى حرارتها، عندما تلج في منعطفات جسده، أوقاتٌ دافئة، وأخرى حارة، سعادة بين يديه؛ لم يكن يراها.

اشتاق إلى رؤيتها عندما تضعف عند الرحيل، وتكتسي حمرة الفراق.

اشتاق لقوّة اندفاعها عند القدوم، بالرغم من أنه لم يقف يومًا يتأملها أثناء مقدمها، لقد كان مشغولًا عن حبها والسعادة بها، بينما كانت بالقرب منه هادئة أو صاخبة، روتينية أو مختلفة، لقد صاحبته زمنًا طويلًا..

لا شك أنها تبحث عنه بين الوجوه، ولعلها تتسلل إليه عبر الثغرات في محاولة للوصول إليه والأنس بقربه؛ فربما اشتاقت إليه هي أيضًا.

وأخيرًا جاء اللقاء الأول، بعد طول غياب وفراق.
ولأن هذا اليوم لن يكون كأي يوم قبله أو بعده؛ أراد أن يستمتع بيومه، ويتذوق رحيق اللقاء، نعم لن يستعير أي ألم ماضٍ، أو خوف قادم، لامست جسده بحرارة محببة، بعثت قشعريرة في داخله تفور نشوة، عجزت عيناه أن تنظر إليها مباشرة؛ إذ كيف يقابل الضياء من قبع حينًا في الظلماء.
دفؤها يملؤه بالامتنان؛ فيفتح عينيه شيئًا فشيئًا، حتى يتناغم معها، بلا تهور أو تدهور؛ إنها الرؤية الأولى بعد الحرمان الطويل.
تذكر قول (كونتا كنتي):
«الحياة لحظات متواليات، وأن تعيش كل لحظة منها يعني أنك ناجح».
حدّث نفسه أنه يجب أن يعيش هذا اللقاء الأول بكل جزئياته، ويرى دقيق تفصيلاته.
عاد لأحاسيسه مرة أخرى، وشعر بالمحبة تجاهها؛ فأيقن عندئذٍ أن الحنين لا يكون للأوطان فقط، وأن الشوق يتعدى الأبدان التي كانت تصاحبه إلى أشياء لم تكن يومًا تستوقفه، ناداها قلبُه بصمت، وأرسل لها شفرات ودية وإشارات ضمنيّة.
تذكر المثل القائل:
«عندما تشرق الشمس؛ قدّم لها التحية».
تطلع إليها وقد توسطت كبد السماء الصافية، وامتدت خطوطها الذهبية تصافح كل من تحتها، لقد صار بمقدوره أن يخرج إليها يومًا في الأسبوع في وقت «التشميس»..
وفي التشميس الأول كان يتفحص الأشياء الصغيرة؛ لأنه وجد نفسه حيالها في غربته، لاحظ العصافير الحرّة تحلّق في الجو، وتطير خارج

السور العملاق، إنه قادر على أن يرى العالم في ريشة عصفور، فالسور يحيط بالجسد، أما العقل فهو كان وما زال حرًا طليقًا.

كانت روحه تطير مع العصافير على دروب الخيال والأمنيات، ولم يكن السائح الوحيد في تلك الدروب.

لاحظ الحشرات الصغيرة وهي في احتفالية حقيقية بموسم تكاثرها، وهو يتأمل دقّة الصنع وإحاطته وحكمته، وشمول العلم الإلهي لحركاتها وحاجاتها وأحوالها.

ظِلّ أشجار الصحراء القوية المناضلة، المنحازة للبقاء، المقاومة للجفاف والعطش.

انحناءات الضوء، وتفيؤ الظلال؛ كان محط تدقيق وانكسار أمام عظمة الخالق الجبار.

يتفاعل مع كل ذلك باغتباط؛ فلقد كانت هبة ربانية لنُتَفٍ من السعادة.

كم قد مرّ على هذا المكان من أناس، ثم تصرفت بهم سُبل الحياة من انتقال إلى خروج إلى موت.. إلى صعود أو نسيان، واللحظة الراهنة تلقي بثقلها عليه، وتشتد وطأتها، ويتثاقل الزمان حتى كأنه يتوقف.

أمام السور العملاق وأعمدته الحديدية؛ يُركز بصره، فيقرأ حروفًا لا يدري بأي مداد كتبت، ولكنها كتبت على عجل، تؤكد أنه شخصيًا أصيب بالفشل الكلوي، ونُقل إلى المستشفى، وأن حالته المرضية الخطيرة لم تشفع له.

لم يكن يدري أن الشائعات حوله تسري كما النار في الهشيم، وتذكي لواعج الحزن لدى من يسمعونها تتردد، ولا يملكون لها نفيًا ولا إثباتًا، لقد تجلى ذلك في أهله لما زاروه بعدُ، وحدثوه عن انتشار الشائعة، وأيديهم على قلوبهم..

(أحد الثقات) كان يقول: إنه رآه في المستشفى، متنكرًا ببدلة رياضة خضراء!

(ثقة آخر) يؤكد أنه خرج بسيارة عادية في شوارع مدينة الرياض، وحين سأله أحدهم من قال لك هذا؟!

قال: قالته عيناي!

تذكّر المغص الكلوي الذي عصف به، وهو يصلي المغرب قبل عشر سنوات، ثم صار يعاوده بين الحين والآخر، على أنه إذ أوى إلى الكهف لم يجد لهذه المعاناة أثرًا.

أحد جيرانه يصرخ به: هل صحيح أن لديه «كلى»؟

فيجيب: نعم، وكبد، وقلب، أيضًا، والحمد لله!

هذه «الشمس» هي إحدى بركات الاستجابة للمساءلة.

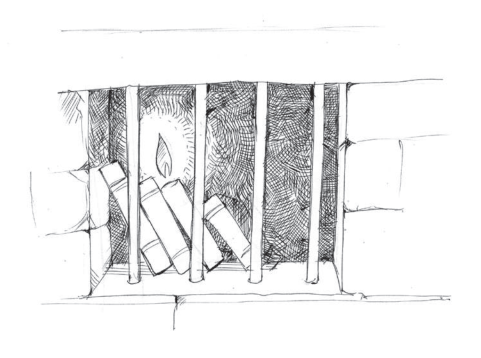
بدأ يتردد بصفة دورية على تلك المساحة الجرداء، يشاهد تربتها الرملية الصلبة، ويشم هواءها المتجدد، ويستقبل أشعة شمسها الحارة حتى في وطأة الظهيرة بتلذذ وارتياح.



56

شمس المعارف

◆



رياح القلق تذرو مشاعره كلّما تحرّكت هذه الكتلة الضخمة التي يطلق عليها «الباب» باتجاه الداخل مؤذنة باستدعاء، وتتأرجح انفعالاته بين ارتياح عابرٍ لهواءٍ جديد، ووجهٍ إنساني يراه حيالَه، يرى فيه الإنسان:

هو طيبُ الأخلاقِ مثلُك يَا أبي ... لم يبدُ في ظمأٍ إلى العدوانِ

لكنّه إنِ نامَ عنّي لحظةً ... ذاقَ العيالُ مرارةَ الحرمانِ

فلربما وَهو المروّع سحنةً ... لو كانَ مثلي شاعرًا لرثاني

أو عَادَ -مَن يَدْري-! إِلى أَوْلَادِه ... يَومًا تَذَكّر صُورَتي فَبَكَاني

إنسان يكرّس مفهوم الانتماء للحياة ولو في صورتها الذابلة، سياق يؤرجحه في تخوفٍ مثقل بما بعد اللحظة.. ماذا عسى أن ينتظره هناك! اعتاد أن يقطع ذلك الطريق الموحش من غرفته الصغيرة، مرورًا بعددٍ

غير قليل من الأبواب الفولاذية المصمتة، والأخرى ذات الأعمدة الحديدية المتراصّة، وهذه وتلك تفتح آليًا، وبصفة مركزية، ليصل في نهاية الطريق القصير -والطويل في ذات الوقت- إلى درجات السلّم التي تَغَيَّرَ لونها الأبيض، وبدا باهتًا يعبّر عن الأقدام التي سحلته بمرورها عبر السنين، ولم يبق منها إلا أثرها الواهي على ذلك الدَّرَج.. طريق طويل بذكرياته، قصير بعبوره، يحمل رائحة التوجّس الإنساني والترقّب الفضولي للجار والصاحب بالجنب وابن السبيل، في محاولة لتكهّن الأحداث من خلال الصمت الصاخب!

يسير بخطواته المتثاقلة، وكأنه يحمل عِبء السنين على ظهره؛ فيحسّ بالوهن والانكسار، وتتحرك يده النحيلة بتلقائية لتتكئ على (الدرابزين) الحديدي في جانب السلّم..

أهي حركة ديناميكية؛ تنبعث من الشعور الفطري بثقل التبعة ووطأتها، أم تراها فعلًا روتينيًّا أَلِفَه، فأصبح يلتحم تلقائيًا مع هذا الكائن لكثرة ما يَمُرّ به صاعدًا يتوقع المزيد من الأسئلة، أو نازلًا يحسّ بأنه تخلص من بعض أحماله.

الذي يدريه أن مشهد ذلك الدَّرَج، وحركته عليه بدءًا وانتهاءً لم تكن شيئًا عفويًّا عاديًّا يُنسى في لحظته، كانت بوطأتها الشديدة، وذكرياتها الحزينة محفورة في حنايا النفس، وأطواء الضمير.

تلك الغرفة الواسعة التي أصبح يتردد عليها بصفةٍ دائمة، هي أشبه بغرفة اجتماعات، تتوسطها طاولة ممتدة، حولها عدد من الكراسي، خُصصت فيما بدا له لجلسات طويلة من اللقاء، ما بين استجواب، وبين حديث ومؤانسة، وبين استفتاءات وأسئلة شرعية..

السؤال الملح عليه دومًا هو: متى يُلقي أثقالَه القسْرية ويَفْرَغُ منها، ليحمل أثقاله الاختيارية، التي يؤمن بها وَيُخْلِص لها؟

لم يكن محاربًا، بل محبًّا تدفعه قِيَمُه إلى مواقفه، وتصقله التجربة، ولو كانت مُرّة.. والتي أراد فيها أن يجرّب صوته ولو لمرّة.
صرير الأبواب هو الآخر كصوت المنشار في حركته، وما أكثرَ ما يسمعه حين يُفتح أو يُغلق لدخول نزيل، أو خروج آخر، أو تغيير «وردية»، أو إعاشة، أو تنظيف، وهو يوازن بين منطقه وحدسه؛ ليفكَّ شفرة الرعب التي تتسلل من وراء الجدران السميكة إلى أذنيه.
الغموض يلفّ الموقف، والخبرة معدومة بما يجري من حوله، ويزيد الأمر رهبة أن العزلة محكمة، والطرف الآخر مفتوح على المصادر والعلاقات والأوراق والهواتف والأشخاص والأحداث... والقرارات.
لا يعصم من الانكسار إلا الإيمان بالله الواحد، والإحساس المفعم برحمته وقربه، وضراعة النفس إليه حين تحسّ بالاضطرار وتتفلّت يدها من كل قوى المادة.
من أروع هباته وعطاياه: العقل، تلك القدرة الخارقة التي تسانده في ظروفه الصعبة؛ ليحظى بأنوار الحكمة، ويُنشط حركة التأمل، ويعيد قراءة التاريخ والأحداث، فليس الأمر متعلقًا بزوال الضغوط؛ بل بكيفية التعامل معها، والتحكم فيها، بدلًا من التحكم فينا.
يتذكر المَلِك الذي اقتحم على سجين عزلته، وقال له: إن أمامك طريقًا للخروج، لكن عليك أن تبحث عنه حتى تجده..، لم يجد السجين طريقه، لكنه عرف بعدُ أن الباب كان مواربًا غير مغلق..
الباب الذي يُفتح مرّة، يمكن أن يُفتح مرات، ويمكن أن يفتح إلى الأبد!
عندما تسيطر مثل هذه الأفكار تستشفى الروح ذاتيًا، ويشعر بأنه أصبح أكثر مرونة، وأصبر على الشدائد!
ليس شرطًا أن تكون لديه استراتيجية مدونة ومدروسة للخروج من

اليأس، المهم أن يترجم ذلك في أفعالٍ تمنحه طاقةً ودافعية وانتماءً للحياة، والمعرفة هي أول ما يحتاج إليه من شروط الحياة، فالقراءة هي الأمر الأول الذي جاء باسم الخالق «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ» [العلق: ١ - ٢].

ربط راسخ بين المعرفة والحياة.

الجزء الأول من كتاب (زاد المسير في علم التفسير) لابن الجوزي، يدخل عالمه الصغير في احتفاليّة صامتة، لكن أطياف الفرح الطفولي تملأ المكان.. ليس مهماً إن كان الإذن بالكتاب تقديرًا، أو تحفيزًا على مواصلة الحديث، المهم أنه يمنحه رؤية طويلة المدى، وإيمانًا لا يشوبه تردد، ويذكره بقول أرسطو: «التعليم زينة في الرخاء، وملاذ عند المحن».

حين بدأ يقرأ.. صار يحسّ بطعم الحروف في فمه؛ فهي مهمة كبيرة أن تمارس شغلًا علميًا في أقصى حالات التركيز العقلية، وأشدها صفاءً من العلائق.. على أن ذلك بدا سلوةً في الخلوة.. وأنيسًا في الجلوة.

السماء تمطر أحيانًا كتبًا، والمجلدات تتوالى واحدًا بعد آخر، حتى تكتمل المجلدات التسعة بالتناوب.. يقرأ فيه:

الله يعلم أنَّا في تلفُّتنا ... يوم الوداع إِلَى جيراننا صُورُ

وأنَّني حَيْثُمَا يلوي الهوى بَصري ... من حَيْثُمَا سلكوا أدنو فَأَنْظورُ

أبيات لا يعكر صفوها إلا هذا «الإشباع» في «أَنْظورُ» الذي وافى على حين مجاعة..! ليست في نظره من غُرر الشعر.

بلا وعي أصبح يتغنى بهذه الأبيات، ويقف عند كلماتها: الوداع. التلفّت. الجيران. الهوى.. ويتذكر قول الشريف:

وَتَلَفَّتَت عَيني فَمُذ خَفِيَت ... عَنها الطُلولُ تَلَفَّتَ القَلبُ

في مواقف كهذه؛ يعود الناس إلى طبيعتهم، يفرحون كما الأطفال بالأشياء الصغيرة، ويتعاملون معها باهتمام، ويحزنون لفقدها، ويتقاتلون عليها إن اقتضى الأمر.

هو يستمع إلى جاره يصيح، مطالبًا بكوب آخر من الشاي حتى يعيا، ولكن هيهات، فكل شيء هنا بحسبان.

وحين يجتمع العديد في مكانٍ واحد تبدو الأثرة أحيانًا على أشياء لا تستحق، لولا أنها الطبيعة البشرية تأبى إلا أن تفصح عن ذاتها، ولو من بعض الناس، وفي بعض الوقت.. فالطفولة البشرية تكرّ على الكبار وتفضح ذواتهم.

(نَفْح الطِّيب من غُصن الأندلس الرَّطِيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) للمقري؛ من عيون المؤلفات الأندلسية وهو قسمان: الأول في وصف الأندلس وأعلامها والخلافة الأموية فيها، والثاني خصصه لابن الخطيب الوزير وحياته.

هو الأنيس الثاني له، وكأن (المقري) الأندلسي أصبح محشورًا معه في معتكفه.

نسخة مهلهلة، كأنها تقول لصاحبها دعني، أكل الدهر -وربما السجين- عليها، وشرب، ونام!

يقرأ منسجمًا مع رواية منحها كل اهتمامه؛ فيجد ارتباكًا في السّياق، ليكتشف أن نزيلًا ما مَزّق أوراقًا هنا، وأوراقًا هناك، أتراه كان محتسبًا لم تتحمل ذمتُه في عزلته أن يطلع غيره على استطرادات غزلية فاضحة، خاصة في ظل الحرمان والعزلة والبعد عن الأنيس، أم احتاج إلى الورق يكتب عليه رسالة تتسلل إلى صديق أو زائر.. حين يكون النزيل أسير لحظته فإن الأشياء الثمينة عند الآخرين قد تتحول إلى وسائل بسيطة تحمل داخلها أسطر الحياة له.

هذا ليس مهمًا؛ فهو كالبحّار لا يشتكي الريح أبدًا، بل يرفع أشرعته بما يتناسب معها..، يكفي ما بقي من الكتاب للمتعة والفائدة.
ها هو يعيد قراءة الكتاب، ويقف عند مواعظه في مصارع الغابرين، فتدمع عينه، ويحفظ أشعاره في المدائح النبوية المتضمنة لأسماء السور القرآنية:

في كل "فاتحة" للقول معتبرهْ	حق الثناء على المبعوث بـ"البقرْة"
في "آل عمران" قِدْمًا شاع مبعثه	رجالهم و"النساء" استوضحوا خَبَرَهْ
من مدّ للناس من نعماه "مائدةً"	عمت؛ فليست على "الأنعام" مقتصرهْ

عندما لا يكون لديك الكثير من الأشياء، فليس عليك أن تبالغ في الانتقاء!
هكذا يردد مرة أخرى، في وجه وسوسةٍ نقدية، تستهدف تلك القصائد، وما تنطوي عليه من تكلّف.
على أن هذا التوظيف الأدبي، وافى قلبًا متعطشًا لحب محمد -صلى الله عليه وسلم-، ونفسًا تستشعر رحمته ورأفته، ودعاءً يتلمس مواطن الإجابة، ويتوسل بالأسماء الحسنى، ودعوات الضرورات، وبالكلمات التي دعا بها عليه السلام في مواقفه كلها، ويحيل على سؤاله يوم العرض حين يحمد ربه بمحامد لم يكن يعلمها من قبل، فيقال له: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطه، واشفع تُشفع.
حين تكون طليقًا تمر بأشياء مهمة دون توقف، وحين يعتقلك المرض أو القيد؛ تبدأ في تذوق قيمة تلك الأشياء من حولك، والغوص في معانيها..، تذكر هذا وهو يقارن ذلك المجلد في غرفته لا يزيد، بمكتبته الحافلة التي أصبحت تعاني ما يعاني!
تلك المجلدات.. في الرفوف العليا من المكتبة الحافلة، كانت تغازلك

بكل دلال، تقرؤك قبل أن تقرأها، وتمد يدها إليك قبل أن تفعل أنت، ومع أن الكتاب واحدٌ، إلا أن إنسان الحرية يعرف من نفسه السعة والفسحة، وإنسان القيد يعرف الحرمان والضيق.

إنسان الحرية.. ينشغل عن مكتبته، وقد يتوسد الأحافير التي يجريها ليبحث عن كتاب فيما تقع عليه يده، غير أن إنسان القيد يتوسد مجلده، ويتلمس كعب ذلك المجلد ويقلّبه تقليب الخبير.

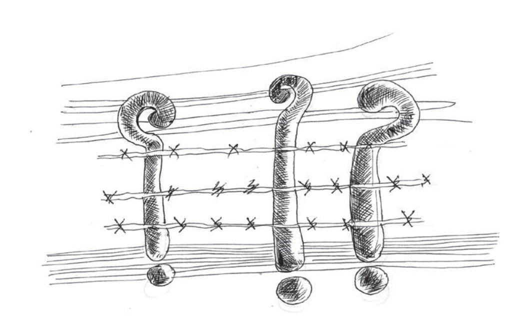
هما حالان: امتداد أفقي يسمح بالتعاطي مع الأشياء بكميّتها، بكل سعة في المكان، غير أنه يضيق في الزمان، وآخر رأسي يحيل على الكيف.. ويتدرب كيف يستمتع بالأشياء الممنوحة ولو قلّت.

والإنسان في كلتا حالتيه هو هو.. غير أن الزمان والمكان يصنعانه شيئًا.. مختلف اللون والطعم والرائحة!



57

حصار الأسئلة



تتردد في حناياه كلمة الشيرازي: «كُن كشجرة الصندل؛ تعطّر الفأس التي تقطعها».

يحاول أن يقول لنفسه: أن عليه التعامل مع كل موقف مثير، كما لو أنّ أناسًا يرونه من حيث لا يراهم، أو أن (كاميرا خفية) ترصده، ويريد أن يسجّل إزاءه درسًا في الصبر والحلم والتفوّق، فكان صديق نفسه حين تَصَالَح معها، وصار يسمع همسها البعيد بكل إصغاء، ويردد صداها بكل أمانة.

ومرّة بعد مرّة يفشل في ضبط النفس، ويستسلم لردّة الفعل، يا لهذا الطبع السيئ، يأخذ بتلابيبنا دون أن ننفك منه. لا بأس، علينا أن نحاول، وألا نزيد الطين بلّة باعتقاد أنه لا فائدة.

يحدوه هذا الشعور الجميل، وهو يردد «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» [العنكبوت: ٦٩].

حين تنظر في عينيه، ترى مساحات تمتد ملء فكره وفؤاده، وقد أزالت كل حواجز الزمن، تحمل ألوانًا كألوان قوس الرحمة!

لم يكن فيها مجرد سائح أو مشاهد، إنه جزء من المشهد، بل هو أساسه، هو -هنا- المشاهد الوحيد وصانع الحدث (الخصم والحكم) -حسب تعبير المتنبي-.

الأفكار تتقافز في عقله الحالم، والحوارات الصاخبة والهادئة تدور في ذهنه، ومن بين أوتار الحلم يأتيه صوت يخترق المسافة:

«وددت أن هذه الطاولة ليست بيني وبينك».

انتزعته الكلمات من خياله السارح إلى واقعه المرّ، جال بعينيه متفرّسًا من جديد مصدرَ الكلمات المشوبة بالإنسانية.

ابتسامة حزينة على ذلك الوجه الأسمر الملوح بالشمس، تلك هي العلامة التي منحته الجواب.

حدّثَ نفسه أنه يجب أن نبحث عن جانب الطيبة في الناس، وليس عن جانب الخبث، كما قال تولستوي.

وسنجدها إذا أردنا، وكنا نحن طيبين أيضًا.

هكذا هي المحن، لا تصنع الأشخاص، بل تكشف عن قيمهم، ومعادنهم الكامنة في قاع ذواتهم.

من المحن أن تجد نفسك في الطرف الآخر لمواجهة شخص، والحقيقة أنكما في صف واحد.

أعاد المحقق العبارة؛ ليستيقن أنها وصلت إلى حيث يريد.

قد كان الشاب أفلح في استنطاقه أوّل مرّة، بكلماته الشفافة، وشخصيته السهلة المباشرة، وظل يستدعيه أحيانًا بدوافع إنسانية.. الآن في حنجرته معلومة من نوع جديد.

تَمرّ المعلومة بسلام، ولا مفاجأة؛ فهو يدري ما القصة، وإذا كان السائل

مُحرَجًا من السؤال، فهو لم يجد ذلك الحرج في الإجابة، لقد أعدّ للأمر عدّته.. هل هي الرؤيا؟ أم الحدس؟ أم «رجال الله» كما كانوا يستطرفون في تسميتهم؟!

كان هادئ الأعصاب، والهدوء خير كله، لم يظهر عليه ارتباك، أسوأ ما تلقاه هنا أن تكون في مواجهة سؤال لم يخطر على بالك، وشركاؤك فيه أبعد ما يكونون عنك.

يعود أدراجه إلى غرفته المحكمة، والجوع يلوي أمعاءه، ويمدّ يده إلى صينية الأرز الذي تلوّت حباته من فرط برودته؛ ليلتهمه بغير استعجال، فليس هنا شيء يفوت!

المغص يهجم على قلبه، فالقصّة لم تنته بعدُ، والسؤال نفسه يكرر مرات ومرات، وقد يقول غيرك شيئًا مختلفًا عما تقوله أنت، فلا زال باب التوقعات والاحتمالات مفتوحًا إذًا.

نوع من الحزن لم يكن يعرفه من قبل، لكن ما الحيلة؟!

ما لا سبيل إلى تغييره عليك أن تتكيّف معه، وعليك أن تصنع من سهام الألم سلالم الأمل:

وإذا مـــا أظل رأسك همٌّ	قصِّر البحث فيه كيلا يطــولا

علي عزت بيغوفتش يقول:

« لا تقتل البعوض، وإنما جفف المستنقعات »!.

هو كان يتلقّن دروسًا للمستقبل، دروسًا محفورة في أعماقه، ينقذه صوت ينبعث من غرفة مجاورة، شاب في مصيدة، سمعه يقنت مغرب الأمس ويطيل، ها هو يسمع الصوت ذاته بنبرته المفعمة بالحزن؛ يتغنى:

إِذا اشتَمَلَت عَلى اليَأسِ القُلوبُ	وَضاقَ لِما بِهِ الصدرُ الرَّحيبُ
وَأَوطَـنَـتِ المَكارِهُ وَاطمَأَنَّت	وَأَرسَـت في أَماكِنِها الخُطوبُ

وَلَم تَرَ لِانكِشافِ الضُرِّ وَجهًا وَلا أَغـنـى بِـحيلَتِهِ الأَريبُ
أَتـاكَ عَلى قُنوطٍ مِنكَ غَوثٌ يَـمُـنُّ بِهِ اللَّطيفُ المُستَجيبُ
وَكُـلُّ الـحادِثاتِ إِذا تَناهَت فَـمَـوصولٌ بِها فَرَجٌ قَريبُ

يشفق عليه، فالصوت يعبّر عن معاناة، والناس في تعاملهم مع الألم ألوان شتى، ليس كل أحد يمتلك الدواء السحري، وهو لا يستطيع أن يكون موضوعيًا محايدًا؛ لأنه يرى ألم ذاك الشاب مرتبطًا به شخصيًا؛ كما هو مرتبط بالشاب ذاته.

ما دام جزءًا من المشكلة؛ فعليه أن يكون جزءًا من الحل، ومن تولى قارّها يتولى حارّها.

ينادي الشابَّ سائلًا عن اسمه، فيسمع الجواب، ثم يرتد عليه السؤال ذاته: من قبل الشاب هذه المرة من تكون؟

يخبره، فيستنكر الجار، ثم يصدّق بصعوبة:

- صوتك فعلاً يدل عليك، لكن الشائعات تقول إنك في فلّة فاخرة، ولست هنا، الشائعات يا صديقي أسرع من الضوء، وأخفّ من العهن المنفوش، وأكذب من مسيلمة.

يقطع المحادثة صوت ينادي بأن الغرفة تحتاج إلى تنظيف، أسلوب ملطف لقطع الحديث.

إلى الغرفة في جوار (الحلاق)؛ حيث يجلس منتظرًا، يتفحص الأشياء من حوله بدقّة، يندهش لقطعة من جريدة تقع عليها عينه لأول مرة، يختطفها بتردد..، يقرأ فلا يجد إلا الإعلانات، يقلبها فلا يجد إلا الإعلانات، يستكمل عملية الفحص للسقف، للأرض، للجدران، للباب في ذلك الظرف المحدود، كل شيء محل بحث ومجال اكتشاف، وكل صغيرة قوم هي كبيرة قوم آخرين، في ركن

من الغرفة يقرأ بخط صغير رسالة موجهة إليه، يا للمفاجأة!

كـلّ القبائل تابعوك على الَّذي	تـدعـو إليه وأيدوك وسارُوا
حـتَّى إذا حَمِيَ الوغَى وتركتهم	نـصْبَ الأسنَّةِ أسْلموك وطارُوا
إنْ يسجنوك فإنَّ سجنك لم يكن	عارًا عليك، ورُبَّ سجن عارُ!

يعيد القراءة، وكأنه يشعر بالعزاء، يتذوّق المعنى الجميل، دعم على غير انتظار، تنجلي الظلمة حينما يبتسم الفؤاد، وأجمل العزاء ما كان على غير ميعاد.

حين قرأ كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، عثر على الأبيات ذاتها، وعرف أنها لشاعر يدعى (ثابت قطنة العتكي) قالها في يزيد بن المهلب لما انهزم عنه أصحابه وخذلوه!

هل كان يشعر بإحساس كهذا؟ قد يبدو غريبًا أنه لم يكلف نفسه عناء السؤال أصلاً، فضلًا عن البحث في الإجابة، ربما كان يشيح بوجهه، ويتحاشى مجرد التفكير في الأمر، كان يتصرف بعفوية، ويضحك في أعماقه من التحليلات التي يقرؤها عن نفسه.

وجه جديد أمامه وراء الطاولة العريضة، شعر بغربة أول الأمر، هل يتراجع ويلوذ بالصمت؟ لا يبدو ذلك مناسبًا، أو متفقًا مع قواعده وطرائقه، هو الآخر كان لبقًا، يحترمه، يسأله في الشرعيات، يتجنب التدخين أمامه، ويبدو بخلفية شرعية دراسية جيدة.

تذكر كلمة جون جراي: «عندما يكون معك أناس جدد ومختلفون، يظهر جزء جديد من شخصيتك»!

جولة أخرى من السؤال والجواب، يعود ذات مساء ليجد أوراقًا من جريدة (المسلمون)، ومقابلات تعصر قلبه، وَثَمّ كتب لم يطلبها.. يتصفح فيجد (معاملة الحكام في ضوء الإسلام) للدكتور عبد السلام

البرجس، والذي عرفه بعدُ في جلسات الحوار، وسمع على لسانه ثناءً لم يتوقعه، وصحبه في سفر؛ فوجد روحًا جميلة، وشعر بدفء الصداقة، وعرف أنه إنسان يملك الاستعداد للتسامي وتجاوز الموقف العابر.

على مدى أربعة شهور، أنجز مخطوطة من خمسة دفاتر، تزيد على أربعمائة صفحة، وتغطي المساحة المنظورة من عمره، والمختصر المفيد في ثلاث صفحات يكتبها بخط يده في أربع عشرة فقرة، ثم يجد نفسه بالطاقية والغترة أمام الكاميرا لأول مرة!

سؤال يقلق كل من وقف هذا الموقف؛ هل سيرى نفسه يومًا على الشاشة، هو لم يظن ذلك، فالجو أصبح أقرب إلى الاعتدال، والشهور الأربعة كانت كافية للتهدئة، والحقيقة دائمًا تبدو أصغر من الأوهام التي تغلفها وتدور حولها، تذكّر كلمـة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- العلم قطرة كثّرها الجهّال.

حين تقف على المعلومات لن تجد نفسك مأخوذًا بالوشايات والظنون، وليس يجد فيما قال وكتب ما يدعو إلى التخوف.

على النقيض فإن الأيام تخبئ له مفاجأة جميلة لم يكن يتصورها، ولكن بعد عهد طويل، وليس الآن، وسيشاهد نفسه فعلًا، ولكن بحال أخرى.

ذروة المعاناة، كانت بداية الانفراج نحو أفق أوسع من العطاء والإيجابية والبناء والمشاركة، والمآسي يمكن أن تكون أبوابًا مشرعة للنضج والتغيير، واكتشاف الذات، بدلًا من الانشغال باكتشاف الآخرين.

العادة أن يتمّ توثيق الأوراق قضائيًا، وهذا ما حدث للآخرين قبل أن يغادروا إلى أهليهم، أو إلى محكومياتهم، أما هو وثلاثة من زملائه الذين ارتبطت أسماؤهم إعلاميًا، فلم يحدث هذا بشأنهم، وكأنّ هذا كان نوعًا من التكريم أو المعاملة الخاصة.

أيًا يكن، هذا ما حدث: كان قدرهم أن يكونوا أربعةً لم تدوّن أسماؤهم قضائيًا، وبقوا تحت حالة مختلفة، يقضي فيها أحدٌ آخر خارج المحكمة، وتبقى تلك الأسماء في رعاية مختلفة، لا يعرف أحدٌ نهايتها إلا مؤلف تلك الرواية وحده.

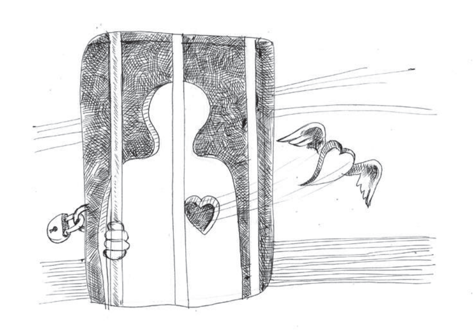
مؤلف الرواية هو الذي أدار الأحداث، وأراد أن يبقى هؤلاء في شخوص الرواية دون تدوين ليعرف كيف يكتب الفصل التالي «وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [التكوير: ٢٩].



58

الزيارة الأولى

◆



على ضفاف قلبه تختلج الصور، وعقله يعجز عن اللحاق بها، صورٌ تشبه شعيرات وردة القطن في رقتها ونقائها، تتزاحم تلك الصور بمجرد أن يسمع من محققه أن ثمة زيارة قادمة له.

شعور يشبه المغص ألَمّ بقلبه.. مَنْ زائري يا ترى؟ أهو صاحب سلطة على جسده؟ أم صاحب سلطة على قلبه؟

أتراها الأم الثكلى؛ تقاوم العجز والشيخوخة والمرض؛ لتأتي فترى حبيبها الذي قارب الأربعين، وهي لا زالت تسميه (جنيني)؟!

أم عائلته وإخوانه وأعمامه الذين يعتزون به، ويعدّونه شيخ العائلة؟

أم هي عروسه، التي غادرها دون أن يستكمل معها ستة أشهر منذ التقيا، وتركها خائفة قلقة على مستقبلها، دون أن يتمكن من منحها لحظة وداع تناسب الموقف؟

أم هي تلك الأخرى القوية الصابرة المصابرة الصامتة، والمحاطة بالوجوه البريئة والأقدام الصغيرة لذريته، والتي واجهت الوضع الصعب عيانًا، وعانت الحصار مِن حولها، وكانت تعدّه جزءًا من مهمات الطريق، وتتعهد بأن تسد الغيبة، وتواصل السير، وتحفظ الميثاق، في مواقف عديدة حفظها وسجلها وظل قلمه يتوثب لحكاياتها ورواياتها وتدوينها.

وبدأ شلال الحب يتدفق بقوة؛ ليغذّي ويُنمي ما تركه زمنًا، بلا سقاية أو رعاية في داخله.

أم كل أولئك هي أحلام لصوت بداخله يعلو ويعلو، وهو يُحبّذ ويجيد الإنصات إليه، وأن الزيارة قد لا تكون إلا لمسؤول خارج نطاق الأسوار التي تحيط به..

لم تُرِد نفسه الاعتقاد بذلك؛ فعاودت أدراجها إلى أمانيها الأُوَل؛ فهي أبهى تكوينًا وأكثر تشويقًا وألذ طعمًا، ومناخ الحقيقة سيمطره عاجلاً أو آجلاً؛ فلا ضير أن تغمض عيناه على رؤى معطرة، وإنّ غدًا لناظره قريب.

أيًا يكن ذلك الزائر ففي كلٍّ خير، ولينكسر الروتين بأي زائر.

خُذِ الحَيَاةَ كما جاءتْكَ مبتسما	في كفِّها الغارُ أَو في كفِّها العَدَمُ
وارقصْ على الوردِ والأَشواكِ متَّئِدًا	غنَّتْ لكَ الطَّيرُ أَو غنَّتْ لكَ الرُّجُمُ

يناديه المنطق أن لكل يوم عطاياه، فليتئد؛ ولكن الحنين أقوى والشوق أعتى.

كان حريصًا على النوم مبكرًا استعدادًا لغده، إلا أن القلق والتساؤل أحاط به، واستولى عليه واقتطع جزءًا كبيرًا من ليله، نام نومًا تقطّعه الرؤى، واستيقظ باكرًا لهفًا، بالغ في الاستحمام والعناية بالهندام،

وظل يقطع المسافة القصيرة جيئة وذهابًا، وينظر في ساعته التي بقيت برفقته؛ ليعرف بها أوقات الصلوات، حتى سمع الخطوات تقترب من باب زنزانته، سار مع رقيبه في صمت بعد أن أعياه السؤال الذي لم يظفر له بجواب سوى عبارة « لا أدري » لا يمل صاحبه تكرارها، سار مع طريق يعرفه إلى آخر يجهله مرورًا بوجوه جديدة، لم يرها من قبل، وركب سيارة مكشوفة صغيرة، أشبه بسيارات المقاولين؛ تسير في سرداب طويل صامت، وبدأ يرى ما لم يكن يراه من قبل، أو لعله رآه بشكل آخر مختلف، ومع كل خطوة تزيد خفقات قلبه رجفة، ويتردد السؤال؛ مَن زائري؟!

وبدأ العد التنازلي؛ لمعرفة الزائر، اللغز يقترب ويقترب حتى أصبح نبض قلبه رجفًا يعلو على كل صوت آخر.

الحرّاس يقلّون، والساحات تتسع، والأبواب تتغيّر، والوعد يقترب، ولم يعد يفصله عن زائره سوى جدار يمتد لثلاثة أمتار، بنهايتها باب...

بدأ صبره في النفاد، وتركزت عيناه على الباب.

لم يتوقع – قطّ – أن يجرّب مشاعر كهذه، لقد تنامت بشكل مفرط لتكون عملاقًا لا يُقاوم، حينما أصبح بمحاذاة الباب استدار ليلج الغرفة؛ فكان أول ما رآه ذاك الموظف بلباسه المدني، يجلس وحده إلى مكتبه الرمادي في طرف الغرفة، وفي مواجهة الباب، بحيث تراه قبل كل شيء.

ما لبث أن نهض بمجرد رؤيته مصافحًا، ورغمًا عنه أحسّ صاحبنا أن قلبه زجاج سقط وتحطم بشدة.

تمالك نفسه ومد يده هو الآخر، وداری إحساسًا داخليًا بخيبة الأمل.

وقبل أن يقرأ إحداثيات ذاك الهبوط المفاجئ لأمله، ناداه مُرحّبًا من آخر الغرفة صوت أليف، يختلف قليلًا في لكنته عن معهوده، يصيح

بابتسام مرحبًا، إذًا هو زائره!

الوقت الذي يمر بين المثير والاستجابة يبلغ نصف ثانية، والإدراك يزيد بمقدار نصف ثانية أخرى، وهذا هو الوقت الذي يُعتبر الصبر فيه خيارًا قابلًا للتطبيق!

التفت بسرعة نحو الصوت، ومن حيث لا يعلم أصبح معانقًا لذاك الشاب كيف ومتى حملته قدماه؟ أم طار به الشوق؟ وهل ذابت المسافة الزمانية والمكانية ما بين الصوت والعناق؟

بآمال الحب العريضة بحث عن زائر آخر، بل زائرة أخرى، إنها فتاته التي ودَّعها وهي تحمل جنينه ذا الأربعة أشهر آنذاك، وبمجرد رؤيته لدموعها، كانت دموعه هي الأخرى تبلل عينيه بخجل واستحياء، أطال النظر ويده ترتعش في يدها، وكأنها كائن يهبط من النجوم!

تاهت النظرات في ذلك اللقاء المقيّد، وشرِقا بفرح اللقيا، وتضاءلت صحراء الفراق؛ لتتكوّر في حبة رمل وسطَ ساعة الزمن.

في اللحظة التي تملك فيها داخل قلبك الإحساس بالحب، سوف تكتشف أن العالم قد تغير بالكامل.

منظوره الخاص يلون تجربته، فهل لها هي الأخرى تجربتها ومنظورها الخاص، أم إنها تتأمل في تجربته فحسب؟

تفاعلات اللقاء الكيميائية والفيزيائية فرضت صمتًا ليس بالقصير، صمتًا أبلغ من الكلام.

فالأحداث العظيمة لا تتجلى في ساعات الضجيج، وإنما في ساعات الصمت!

الذكريات المخبوءة بدأت تظهر، وأشياء غير متوقعة صارت تحدث، دروس تضاف إلى درسه، وحتى القرارات الصعبة قد تبدو في لحظات الضعف العاطفي غير منطقية، مما حدا به أن شكك في وضوح رؤيته للأمور.

طال الوقوف، مع أن ثمة صفين من المقاعد المتقابلة في انتظارهم، لم تكن أقل منه لهفة للقاء، وفي حرارة اللحظة لم يستطع قراءتها لأول وهلة، كما كان يفعل من قبل، كل ما هو متأكد منه أنها أمام رؤيته رأت ما عقد لسانها مما حدا به أن بدأ يتحسس وجهه ويتفقد هندامه، يخشى أن يكون ثمة ما فاته تداركه، لكنه الفرح الذي يكاد يكون أشد تدميرًا من الخوف.

مقابل نظرته الأولى القصيرة، وهبها الآن نظرة عالية التركيز، متعددة اللغات، حملها بكلمات لم تُنطق، ومعان لم تسبق، وعقود ومعاهدات بين القلوب على الصبر والوفاء قد وقعت، وكان الحب والحنان خير جابر لتصدع القلوب بلوعة الفراق: في هذه اللحظة لا يهم أي شيء آخر سوى قلب استهات في هواك، وسعى لاهثًا ليراك.

إعجاز الحب يحدث تواصلًا غير منطوق بالعيون، أو الابتسامة، رابطة صامتة، ولكنها حقيقية ووثيقة، كلاهما يدركها ويشعر بها وبقوتها.

طال الوقوف وناداهما من خلفهما صوت الموظف؛ أن الجلوس أفضل، وكأنه ينتزعهم من ذهولهم وشرودهم!

أظهر جَلدًا وصبرًا وروحًا مرحة؛ لتقر عينها ويمتلئَ فؤادها الفارغ؛ كانت الأسئلة تتقاتل على شفاههما؛ كُلٌّ يريد أن يُطرح أولًا.. كيف..، وهل.. ومتى ولعل وأنّى..

تفوّها بنفس الكلمات، وبنفس اللهفة، وفي ذات الوقت، وبلا اتفاق مسبق، وقرأها وقرأته، سمع همس روحها، ولامست جوهره، ورقصت بينهما المشاعر على إيقاعات متنوعة، تساءل عن كيفية اقتحامها للأسوار؟ فأجابت بأنه يستحق كل جهد مبذول، وكل إرهاق نفسي وجسدي لأجل رؤيته، داعبها بدروس بسيطة، لم تسنح له الفرصة لتعلمها إلا في الغربة، كان ذلك حينما ذكر حيرته في الحفاظ

على الرغيف طريًا؟ كم تجربة خاضها ليعرف أنه بمجرد وضعه في كيس نايلون سيبقى طريًا، هو يتعلم كيف يحافظ على الحب والوفاء أيضًا! وكيف يحافظ على صبره وثقته وإيمانه.
تساءل في حنان عن جنينها وعن جنسه، فأجابت بأنه ذكر، وأن خروجه أصبح وشيكًا، ألهمه ذلك الجنين بحلم جديد؛ فمنحها إياه صادقًا موقنًا بأنه سيكون من يذهب بها إلى المشفى، ويستقبل مولودهما، ستكون الغربة المباغتة مجرد ذكريات وحكايات نحكيها لصغيرنا.
بدءا يختاران الاسم للوليد المنتظر، ويطلبان معونة الخال حينًا، والموظف مجاملةً، واتفقا على (البراء).
بدأت الغربة التي خبت تطفو من جديد، وبدأ الحزن يكسب الجولة لما ذكّره الموظف بأن الزيارة نصف ساعة، وهي الآن توشك على الانتهاء، ولم يستطع استقطاع دقائق إضافية.
تتقاطع دوائرنا مع دوائر من نحتك بهم، وتكاد تذوب حدود الدائرة حينما تتقاطع مع دائرة شريك الحياة؛ فقطرة الماء تثقب الحجر، لا بالعنف، ولكن بتواصل السقوط.
ولكلٍّ منا دائرته الخاصة، ولو كانت ضبابية يضعها حوله، قد تكون من أجله، أو من أجل من يحب، وهكذا فعل هو حينما رأى انكسارها لانتهاء الزيارة، وخوفها عليه وقلقها، ورحى الفراق مرة أخرى توشك أن تطحنها..
لغة جسدها تخبره بأنها تود أن يتوقف عمرها ها هنا بين يديه، وفي عينيه.
حدثها بأن العيش داخل الأسوار عادي جدًا، بل لا يكاد الاختلاف يبين لولا فقد من يحب، كان لسانه ينطق، وعقله يصرخ بها أن لا تصدق كل ما تراه، ولا نصف ما تسمعه!

صبّرها وصبّر نفسه، أخبرها أنها تعيش في داخله لم يتركها قط، وظل يسمع صوتها ويشعر بها، حتى كان يراها في قنان الماء، ويسمع همسها في هدآت الليل، لقطات حقيقية وتخيلية تجود بها ذاكرته.

طلب منها أن لا تنظر إلى الجزء الفارغ من الكأس، ولا تتساءل عمن أفرغه، بل عليها أن تنظر إلى النصف الملآن، قرر لها أن المملوء هو ثلثا الكأس وليس نصفه، وأسعفه وعيه الشرعي فتلا عليها «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» [الشرح: ٥- ٦].فلدينا إذًا يسران وعسر واحد! من كان يتصور أنهما سيحظيان بلقاء كهذا، فلا بد إذًا من زيارة أخرى قادمة، وأول السيل قطرة، والحياة مليئة بالمفاجآت..

تَفَارقا؛ وقد منح كل منهما طعمًا مختلفًا للحياة ووقودًا لصبره، ريثما تأتي قطفة أخرى من ثمار العطايا الربانية، بزيارة أشد إيقاعًا وأبطأ سيرًا، وأكثر طمأنينة، فلقد كانت أول زائر يخترق أسوار العزلة.

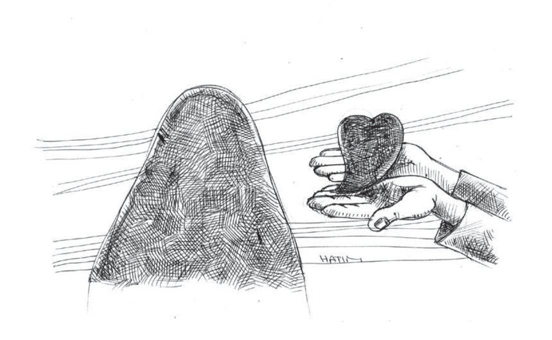
عاد إلى غرفته وهو يكاد يحدث الجدران بفرحته، فهذا اليوم كان مختلفًا، كان طويلًا جدًا، وقصيرًا جدًا، لما أسدل الليل ستاره؛ بدأ تأثير الزيارة يربك عقله وقلبه، فهل زادته صبرًا، أم ثقبت جدار الصبر لديه؟

وبدأ يترقب الزيارة الأخرى بفارغ الصبر، ويترقب الزائرين الذين لم يرهم بعد.

◆◆◆

59

المنزل الأول



تذكَّر شجن أبي تمام حين صاغ مقولتَه عن الحب التاريخي، الذي هو كشجر الصنوبر؛ كلما كَبُر كبرت عروقه وأجزاؤه، وامتدّ في أعماق الأرض، برياضها وفياضها وحياضها؛ حيث المرتع الخصب، والجمال الألِق.. فكان يقول:

نَقِّل فُؤادَكَ حيث شِئتَ مِنَ الهَوى ... ما الحُبُّ إلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ

كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَألَفُهُ الفَتى ... وَحَنينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنزِلِ

فكان هذا التاريخ لحظات وفاء، وتجليات صفاء، يقيمها ميثاق غليظ، وتلاقٍ على المودة عريق، صانته قداسة الحب الحلال المشروع.
كان يترقّب الزيارة الأخرى، ويحلم أن يجمعه مكان واحد بها وبهم؛ حيث عاشوا تفاصيل الأحداث، واكتووا بنارها، وأحاطت بهم

مخاوفها، وغدا خروجهم ودخولهم إلى المنزل أمرًا محفوفًا بالقلق، سيارات تتحرك، ورجال يستوقفون، من أنت، ومن تكون؟
بيت دفع الثمن، وسجّل صموده؛ كما سجّل بقاءه على العهد وإخلاصه، قامت به سيدة البيت، وشريكة الملمات الصعبة؛ فكأن لم يحل بينهم قائم الظهيرة، بل وقائم الليل، وكأن جدران الجب تنقل الإشارات الخاصة:

إِنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُنا	أُنسًا بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا
لَم نَعتَقِد بَعدَكُم إِلّا الوَفاءَ لَكُم	رَأيًا وَلَم نَتَقَلَّد غَيرَهُ دينا

كانت رمزًا للصلابة والصبر، والثبات واليقين، وتبادل المودة والإلف، هذا هو الطريق، امض أمامك ولا تلتفت وراءك، دع البيت والأولاد لي، فهي مُهمتي المقدسة..
كيف وهي قد أفضت إليه يومًا برؤياها، وطالما صَدَقَت رؤاها؛ بأنها رأته يحمل أربعة ثياب، يقبضهن بيده، ويسلمهن لها، ثم يدخل إلى غرفة مظلمة في الأسفل، ورأت مرة أخرى بأنها تقود سيارته الخاصة بكل مهارة وإتقان، فكان ما كان، وبالفعل سلمها هؤلاء الأولاد الأربعة، وقادت بيته الخاص، فكانت نعم الصاحب من قبل، ونعم الأمين..
جرت أحاسيسه أن يتحدث عنها كشريك؛ يشاطره الضراء والسراء، منذ فتح عينيه أول مرة على بيت الزوجية، وسكنها لأنسها، وتلقّى معها دروسه الأولى.. فعرفها أول ما عرف شراكة الحياة ونبضها، حين يكون القلب قلبين، وتهجّى فيها أول ما بدأ يقرأ خبرة الحياة الزوجية، وخَطا في ذلك خطواته الأولى الجديدة.. فطفق يقلّب صفحاتها، ويكتشف حروفها؛ فيشم فيها الكتاب حديث الصدور يقرأ غلافه ثم يخطف

بصره إلى جوّاه ويعرف منه ما يعرف من طيب العشرة وحسن المأخذ.
تبدّلت في حياته أشياء كثيرة، أما هي فكانت إحدى الثوابت الراسخة.

بدأت معه الطريق، وعايشت عنفوان الشباب وصلفه وحدته، وسايرت التحكم في التفصيلات الحياتية، والتشرط والإصرار.

احتملت العيش ضمن أسرة واسعة ممتدة، تملك ضمن هذا المنزل الطيني الواسع غرفة علوية تسمى (الروشن)، وتضع في حسبانها رضاه، ورضى أبويه، ولابد من قدر من المجاملة والتكيف مع أفراد الأسرة الآخرين.

وهنا يبدو الاسترسال مع مقتضيات الحياة الزوجية محدودًا، فالناس شركاء في ثلاث: النار (المطبخ)، والكلأ (الطعام)، والماء (دورات المياه)، وهم شركاء السكن ومحدودية الحرية الشخصية فيه، والاستثناء قد يبدو بلا معنى، والسفر الخاص نادر، إذ هو منهمك في شغله وعلاقاته ودعوته، وهي مرتبطة بالأسرة واستحقاقاتها العديدة، فالنظافة والطبخ وسائر الأعمال هي نوبات بين فتيات الأسرة.

تسافر معه أول مرة إلى الرياض؛ حيث الرياض الأولى، في دراسته التمهيدية للمرحلة العليا، تحمل بين يديها طفلها البكر، وتحمل في أحشائها جنينها الآخر، وتنوء بتبعات منزلها الخاص، الذي استقلت به بحكم الغربة والسفر، ولا تتذمر من انصرافه الطويل لعلاقاته الدعوية والعلمية، ولا من صحبته للكتاب، ويضربها المخاض، وهي تصنع الطعام له ولأضيافه، وحين يكلّ -أيام رسالته للماجستير- من القراءة؛ يرتاح فتقرأ له وتعينه، وحين انتهى من رسالته طفقت تصورها صفحة صفحة حتى نسختها جميعًا.. فكانت حلقة من سلسلة الوفاء.

يعودون أدراجهم إلى مدينتهم، وتغدو الفرصة ملائمة لسكن مستقل،

أهم وأوسع ما فيه مكتبته التي أنفق عليها جهده وماله، واضطر إلى أن يقتطع من المجلس ما يستوعب الفائض منها، وبذا غدت مقرًا لإعداد أطروحته العلمية عن الغربة وأحكامها، واستقبال أصدقائه بما فيهم أولئك المنهمكون مثله في رسائلهم، وأقداح الشاي والقهوة مع تمر السكري لا تفارقهم، وأشهى الوجبات ما شاركوه فيها، وهو يردد لها دومًا: خير الزاد ما كثرت عليه الأيدي!

وحين جاءه ضيوف على غير ميعاد؛ أخبرها بأن تستعد كل يوم لقهوة بعد العصر، وعَشاء للضيوف، فكان هذا دأبه ودأبها.

تزنرت بالصبر الجميل حيث لا معين إلا الله، ولا سند إلا بوصية النبي -صلى الله عليه وسلم- لفاطمة: «أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ، إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ».

الاثنان غدَوا أربعة، والأعمال تشتد وتمتد، وهي خلفه بجلد لا يكلّ ولا يملّ ولا يتذمّر.

تتسع دائرته، وينتقل إلى مسكنه الجديد إلى جوار التخصصي، بحي الصفراء، ليتكون المكتب الخاص، الذي يشغل قسمًا مستقلًا، يفصل بينه وبين المنزل فناء واسع، زرعت فيه أشجار النخيل التي ترمز للصبر ومقاومة التصحر والجفاف، «الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل».

والأعباء تأخذ طابعًا جديدًا؛ حيث الدوام اليومي للعاملين، وتكاثر الزوار والضيوف، والتفنن في صناعة شاي الزنجبيل والقهوة العربية، والمشروبات الموافقة للأذواق المتنوعة، والوجبات اليومية، والصغار يترددون بين دارهم وبين مكتب والدهم في تقديم الخدمة، وتلبية نداء الكرم والمروءة والضيافة على أتم وجه.

كثيرون مروا من هنا، منهم رفاق الدرب الذين لا يزالون، ومنهم من غاب وجهه في الزحام، ومنهم من قضى نحبه.

(آسية) البنت الصغرى كانت تسمي أحدهم ابن عثيمين بمجرد الاشتباه!.. بابا ابن عثيمين عند الباب! وكان على الحقيقة صديقه الأثير عبد الله الجعيثن.

هذا المكان شهد احتدام الأحداث، وتلبد الأجواء بالغيوم، وعلى ناصيته الشمالية المدرسة التي سكنها أهل الكويت، عندما غدر بهم الجار، وتكررت ضيافتهم في صالة منزله، والاستماع إلى مشكلاتهم وشكواهم في مكتبه الشخصي، ومواساتهم بحق الأخوة والجوار والإسلام، بلا منٍّ ولا أذى.

هي كانت الجندي الحاضر المتنكر لذاته، يعمل ولا يحتج..

هنا كانت ضيافة ابن عثيمين، ومبيت ابن جبرين، ومرور أبي عبد الرحمن بن عقيل، وجلسة سعيد بن زعير، ومسامرات سفر الحوالي وناصر العمر، ومؤانسات عبد الوهاب وعايض، وبدايات الصداقة مع سليمان العلوان، واجتماعات الأصدقاء الدائمين والذين غدوا زملاء المحنة..

لو نطق هذا المكان؛ لجرت دموع الوجد والصبابة، لأرواح تعارفت وتآلفت وصفت، وعاشت أحلى أيامها، وتطلعت لأجمل أحلامها.

شيئًا فشيئًا تضيق الدائرة، والسكن لم يعد سكنًا بما يكفي، والصغار يتساءلون، والأم الصابرة تعض على جراحها، وتناضل لتحفظ روح الطفولة الحزينة، وروح الشيخوخة المكتئبة في والدته العجوز، التي فرض عليها الموقف أن تظل إلى جوارهم، ريثما يعود غائبهم، أو يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

احتمالها لا يطيقه الكثير من أشداء الرجال، ولطالما قال بعض الرجال

الذين يعرفون البيت بأنها بمقام ثلة من الرجال، في حكمة المرأة التي تعيش في الظروف، وتصنع منها فرصًا للحياة والأمل. ولا غرابة أن تمكنت من إعادة وضع المنزل إلى حالته الاعتيادية بعد وقت ليس بالطويل، فاتّصَلَتْ بالشيوخ، وهاتفَتْ المسؤولين، وباشَرَتْ المهمة دون تردد، ونجحت أخيرًا في موعدٍ للزيارة.

الركب الصغير (أم وأطفالها الأربعة) يشدّ الرحيل لزيارة محفوفة بالشوق والقلق والأسئلة، كيف سنراه؟ وأين؟ وما عسانا نقول؟ وماذا لديه من الحديث والخبر؟ ما حجم المعاناة؟ هل هي الزيارة الأولى والأخيرة أم سيطول به المقام؟!

نَحنُ أَدرى وَقَد سَأَلنا بِنَجدٍ	أَقَصيرٌ طَريقُنا أَم يَطولُ
وَكَثيرٌ مِنَ السؤالِ اشتِياقٌ	وَكَثيرٌ مِن رَدِّهِ تَعليلُ

فؤاده يدق، وحدسه يصدق، ودموع قلبه تنزف.. فيهتف لسانه وقلبه شعورًا صاغه شعرًا:

هذا النشيج الذي يرتد في أذني	لحن يحطم في نجواه أوتارا
ودمعة الحزن يحموم كوى كبدي	فضج منها فؤادي: أطفئوا النارا!

أما هي وصغارها فالدمع أقوى لغة، إحساس عميق بالانتماء، وليس الزوجية أو الأبوة فحسب.. ما أسعد أن تجد روحك في أجساد أخرى، وفي جسدك أرواحها!

غادة.. الصبية ذات الثمان سنوات، تنشده مما حفظت من شعرٍ صاحَبَ الحدث:

كلامك كالسحب الغميمة يمطر	يغيّر أحوالًا، وحالًا يغيرُ!
تغادرنا والصمت ينطق حولنا	وأحرفك البيضاء في القلب تسهرُ!

أتأذن يا شيخي العزيز لمسلم | فيبكي لما قد حل فينا فيكثرُ
رأيتك إنسانًا تفيض دموعُه | إذا غاب معروف أو ازورّ منكرُ
رأيتك خلف الناس تحمي ظهورهم | رأيتك قبل الناس تمشي وتخطرُ
تعددت الأصوات بعدك في الهدى | وصوتك في الأسماع ينهى ويأمرُ!

والنشيد يتحول إلى نشيج، وينقطع الصوت ليمسح أحزانه ويغطي وجهه الباكي، ثم يعود من جديد.

كانت مهمته أن يتجلّد دون بادرة اضطراب.. أن يريهم أن الأيام لم تنهكه، وأن السنين لم تأخذ من عزمه شيئًا؛ ليبدو لهم تمثالًا من الصلابة لا يكسر، وجبلًا لا يثلم..:

وآسية الصغيرة بحلاوة الأطفال وبراءتهم تحفظ (رسالة في ليلة التنفيذ) لتشنّف بها مسامعه..

قلقه الأعظم كان على هؤلاء الصغار «زُغْب الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ» كما يقول الحطيئة، هم امتداده، لكن لِمَ يخاف عليهمَ؟! هي تعاتبه وتسدده، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحِمين، دراستهم كأحسن ما يكون، وها قد شرعوا في حفظ القرآن ومدارسته، وجماعة الحي يحتفون بهم، وأسرتهم وأهلهم وأخوالهم يتسابقون إلى قضاء حوائجهم.. أنت لست لهم وحدهم!

كلمات تعزية وتثبيت يحتاجها الفؤاد المكلوم بفراق زوجه وفراخه، وسكنه، لا يدري ما يطرقهم بعده، يتفرس تلك الملامح الطفولية البريئة فتغشاه لواعج الحزن، ويحس بلوعة الفراق، وتحين منه التفاتة إلى شريكته ورفيقة دربه؛ فيهدأ ويطمئن.

روحه تحلّق حولهم ليلًا، وأورادهم تحوطهم بكرة وعشيًا.

تحولات إيجابية شتى، تطرأ على حياتهم، توحي له بأن تكون هديته إليهم

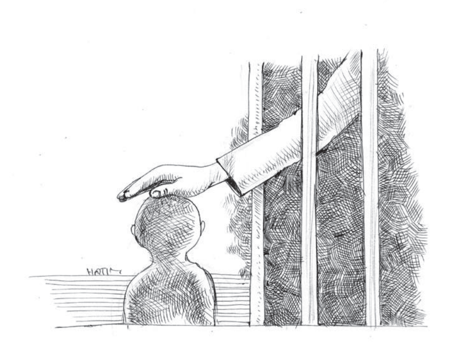
في زيارة قادمة مقطوعة معبرة، تحمل أسماءهم وملامحهم، وتحدوهم إلى إشراقة الأمل، وتفاؤل المستقبل، لبث يسعى بها حرفًا حرفًا، ويكتبها على مهل ومكث، ويستمتع بأن يرى بهجة الصبيان تتلقفها، فتحيلها إلى حديث اليوم.

رفيقة دربه الطويل تودّعه، وتواعده بإنجاز تربوي، وتزرع في ضميره جرعة جديدة من الرضا واليقين، ما كدرت صفوه بعتاب، ولا لامته على غياب، ولا شكت حَرّ الهجير، صنعت بيديها المجهدتين بيتًا من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.



60

الزائر الصغير



نقط الزيارات بدأت تتابع، وتُحقق فلسفته البسيطة للحياة؛ املأ ما هو فارغ، وأفرغ ما هو ملآن، ومعها توسّعت دائرة الأماني لديه، وأصبحت أكثر إغراء، وأشد تشويقًا لتلك التي لم يكن نبض القلب لولاها.. أمه!

كبر سنها، ومرضها، وقلبها المرهف.. كلها أعذار كافية لتأجيل قرار الزيارة، عينها لا تريد أن ترى جنينها مغلوبًا على أمره، على أنها كانت ترسل مع كل زائر قطعة من قلبها، وزفرة من زفراتها، شعرًا يقطر دمعًا وحرقة، وكأنها أصيبت بـ (فوبيا) الغياب.

مع هذا كله كانت ينبوع الصبر الذي يشرب منه كلما أظمأه الفراق، وهو يتذكر قول هيلين كيلر المرأة المعجزة « إننا لا نستطيع أن نتعلم الشجاعة والصبر إذا كان كل شيء من حولنا مرحًا ».

كان يستمدّ صبره من صبرها، مستعينًا بربه، متوقعًا أفضل النتائج، وإن لم يكن لديه أسباب كافية في عالم المادة.

الجنين المنتظر جاء إلى الدنيا في رمضان محمّلًا بالبراءة، ولهذا اشتق له منها اسمًا أحاطت به الشائعات.

كان (البراء) في الطريق إليه كأصغر زائر، عمره عشرة أيام.

تلهّف للرؤية، واحتار ماذا عساه أن يقدم أمام تلك المنحة الربانية، لقد شعر أن هدية العيد سبقت أوانها، المركز العاطفي في جسده فتح أبوابه، وغردت على أغصانه عصافير المودة، والعقل كعادته يعمل بصمت، ويرسل للقلب لوحات ملونة بذكريات عذبة عن رجاله الذين كانوا أطفالًا سابقين، كما يحبّ أن يسميهم.

تعانقه الخيالات؛ فيسمع أجراس الطفولة، وقهقهات البراءة تخترق حصون الزمان والمكان.

يتعجب؛ كيف سرقه الانشغال عن متعة كهذه، إنها صور ذات متعة سحرية، وإيقاع مميز، والألم وإن كان حتميًا في مثل حاله، إلا أن الشقاء وتكبيل الروح فيه هو شأن اختياري.

زيارة مختلفة، فالشهر رمضان، والوقت بعد صلاة التراويح، والجهد للحصول عليها عظيم، ولكن الثمرة تُنسي الفلاح التعب، الظلام يضرب رواقه فيما حوله، والوحشة تلف المكان، أما هو فليله حالم.

في طريق أصبح مألوفًا، وأصبحت أقدامه أكثر ثباتًا فيه، اقترب من الغرفة المخصصة، على أن محاولته لتهدئة نفسه باءت بالفشل، اقتحم الغرفة بلهفة وحماس، وقلّب نظره بين المقاعد الخاوية.. لا أحد!

انتظر هنا قليلًا!

لا بأس.. فمن صبر كثيرًا يصبر قليلًا، وبدأ يسمع همهمات العاملين.. أحدهم يفتح عليه الباب مبتسمًا:

زائروك على وشك الوصول.
العروس أصبحت أمًّا، والجنين تنسّم أنفاس الحياة، ها هو ملفوف بثوب تقليدي تعبيرًا عن رجولة مبكرة..
صافح الخال بحرارة، وهو يهتف:

حييت يا خـــــال البراء وحبه طــود أشم وجبهة غــــــراء

وتسلم الوليد بيدين مرتجفتين، وهزته شحنات عاطفية سلبته ذاته هي لحظات اللقاء التي تفوقت على الحلم!
إن ميلاد طفل لك يجعلك ترى أحلامك وآمالك بشكل مختلف..
غمره الحنان، وتلبسته الشفقة، وأدرك بشعوره الواعي ظروف الميلاد، وتساءل بألم.. كيف سينمو في خضمّ هذه الأحداث؟ وهل سيعي ويعيش مرارة الحرمان؟
ضمّه بعمق، وأحسّ بأنه يحمل قلبه بين يديه، ويشتم منه رائحة الجنة وعبير الطهر، وهو يتغنى..

نم يا صغيري.. إن هذا المهد يحرسه الرجاءْ
من مقلة سهرت لآلام تثور مع المساءْ
أشدو بأغنيتي الحزينة ثم يغلبني البكاءْ..
وأمد كفي للسماءْ..
لأستحث خُطا السماء!
نم لا تشاركني المرارة والحزنْ..
فلسوف ترتضع الجراح مع اللبنْ..
ستمر أعوام طوال في الأنينْ.. وفي العذابْ..
وأراك يا ولدي قوي الخطو موفور الشبابْ..
تأوي إلى أم محطمة مغضنة الإهابْ..
وهناك تسألني كثيرًا عن أبيك وكيف غابْ

يا الله! ما أروع هذه المخلوقات الصغيرة، إنها تفعل بنا ما لا يفعله أي سلاح أو جبروت!

حلم وانقضى.. وفتح عينيه على الحقيقة.. وانصرف إلى معتزله.. وهو يشعر بأنه مشطور إلى نصفين، نصف ينتمي إلى الفرح، والآخر يمثل الإحساس بالمعاناة.. بيد أن اليأس علاج ناجح.

توالت الزيارات، وأصبح يستغرق في لحظاتها، ويلتقط منها كل معنى جميل، ويضخّ فيها بسخاء حبًا وتحنانًا، فما الحياة سوى لحظات، واللحظة الحالية هي ما يملكه منها، وكما قيل:

«مكتوب على باب الفرص كلمة: ادفع»!

الرضيع ينمو جسدًا وعقلًا، والأسئلة تكبر.

الخطوة الأولى من رحلة الصغير بدأت من هذا المكان الموحش، عليه ألا ينتظر خروجه للحياة ليقوم بدور الأب المحبّ المربي، بل سيفعل ذلك الآن، وعندما تكون في الحدث ستفعل ما يتوجب عليك فعله.

اجتهد ليحافظ على قلبه خاليًا من الكُره، وعلى عقله خاليًا من القلق، فشعاعه يسقط على من حوله.

الصغير ينتظر الزيارة تلو الزيارة بشوق عارم، والمؤثرات التي تنبعث من والده تحمل رسالة من نوع خاص، نبرة الصوت، وتعبيرات الوجه، ورقّة العبارات، واحتكاكات الجسد..

كانت تلك الروح البريئة تتفاعل بضحكات كأعذب الأنغام يتردد صداها في المساحات الفارغة.

يداه الصغيرتان وأنامله الرقيقة تعبث بوجه والده، يحاول أخذ عينه، فإذا لم يفلح فشعيرات من وجهه، وتارة يلجأ إلى العض حين نبتت سناه.

عندما أصبح يستعدّ قبل أمه للزيارة، ويسبقها إلى مكان اللقاء بخطواته

التي لا تكاد تلامس الأرض إلا وتقفز، يتخللها عثرات خفيفة، ليقذف بنفسه في النهاية بلا خوف في حضن والده..

كان يعتقد أن المكان حيث يجد أباه، ويرى والديه مجتمعين معًا، هو منزله الحقيقي، وما سواه فهو مزار!

يكبر فتتطوّر الأسئلة.. «أين بابا»؟ «متى نروح لبابا»؟ «لماذا لا يأتي معنا»؟ في كل لقاء جديد أصبح يبكي بحرقة؛ طالبًا منه أن يخرج معهم إلى السيارة، ويتبلل بقطرات المطر المنعشة في الخارج..

الوالد يفر من التعليق بتشتيت انتباه الصغير بقطعة حلوى، أو لعبة، أو دغدغة، أو ملاعبة.

نظام التواصل بين العقل والجسد يتسم بالوضوح، و « الجسم السليم في العقل السليم » وليس العكس، لذا بدأ الصغير يعاف الطعام، وبان عليه الهزال، احتجاجًا على غياب والده، وأنه لا يشاركهما الطعام والخروج من المنزل والأفراح والأسفار، واحتاج إلى طبيب يشخّص له الحالة ويساعده على استرجاع الشهية.

الأمر يبدو جادًا، والصورة لابد أن توضّح، ومن الخطأ أن يستهان بما يعتمل في فكره، المهمّ هو ماذا سيضعان داخل عقله الصغير؟، لأن ما يوضع داخله سيتدفق إلى الخارج متفاعلًا مع الأحداث المستقبلية لحياته.

أمام دموعه الغزيرة اعتراضًا على انصرافهم بدونه، كان والده يشعر بجرح عميق لعاطفته، ويحس بداخله بحرًا يهيج، يحاول أن يركن إلى التأمل، وهو عملية رائعة لتهدئة العقل وانسجام مكوناته.

ذات مرة قرر أن الزيارة ستكون خاصة لـ«المحقق الصغير»، وسيحظى بإجابات عن كل تساؤلاته التي تفوق عمره، وقد قارب الثلاث سنوات.

سؤال يجر سؤالًا، وجواب يفجر إشكالًا.. وبين السؤال والسؤال

سؤال: «لماذا لا تخرج معنا»؟!
مرة باستفهام، وأخرى باستعطاف، وثالثة بيأس، ورابعة بعتب وغضب.
يظل الطفل طفلاً يعالج جرحه ببكاء حار، وهو بغريزته يعرف فوائد البكاء، وأنه أقوى وسيلة للإقناع..
«إذا كان بابا ما يقدر يطلع.. أبغى أقعد عنده»!
يحاول إقناعه بالعدول عن رأيه فيرفض، وبعد محاولات مضنية ينجح جزئيًا؛ فيخرجه من غرفة الزيارة إلى صالة الاستقبال.
العويل يشتدّ، والأب ينصهر مع البكاء، وليس مسموحًا له أن يصل إلى تلك المنطقة.
يضرب بقدميه الأرض الرخامية ليردد الصدى صوت القهر، تحاول الأم ولا فائدة، والخال صاحب المكان الكبير في القلب الصغير ولا فائدة، يلتف حوله العاملون يهدؤونه ويقنعونه ويعطونه الحلوى فيرميها، وهو يردد:
- «بابا»!
يعطونه اللعبة فيقذفها ويصرخ:
- «ما أبغاها.. أبغى بابا».
يكاد الجميع يبكي.. ويحمله خاله وهو يتشبث بأرجل المقاعد وانحناءات الجدار، ويرفس بيديه ورجليه.. تحمّل شيئًا من معاناة البكاء، وحمّل أبويه أضعافه، ثم نام بعد طول إجهاد!
أسعد الناس هم أولئك الذين ليس لديهم سبب محدد لسعادتهم فيما عدا أنهم سعداء فقط!
الأطفال هم من هذا الصنف، فهم سريعو البرمجة لذواتهم، سريعو التكيّف مع الظروف، سريعو التجاوز للمحن..
وهكذا كان..

أصبح يزور والده، ويغتنم لحظاته بالأنس معه، خاصة وقد جعل الأب من نفسه طفلًا ليذوب مع طفله في خلطة فريدة، وحينما يتغنى بأبياتٍ يداعبه فيها:

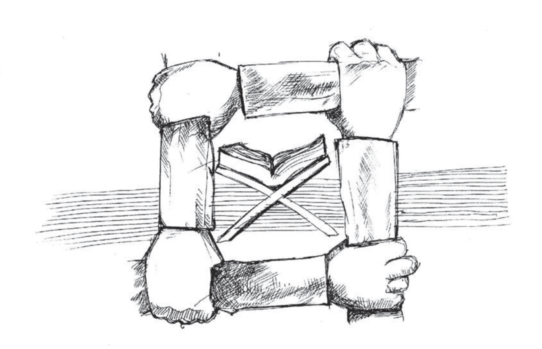
يا برائي.. وأين مني برائي لاعِجُ الشوق يا صغيري براني

يضحك الصغير طربًا، ويقهقه عاليًا لهذه الكلمات والنغمات، التي لا يفقه منها سوى اسمه، ولكنه يدرك أنها تعني شيئًا جميلًا يخصّه، فحتى جزيئات الماء تتأثر بها تسمعه، حسب تجارب العالم الياباني (إيموتو).



٦١

يوم الجماعة



الأصوات الدافئة المنبعثة من حناجرهم الملتهبة، والمنطلقة من كوات الأبواب الحديدية قد خفتت وتلاشت مِن حوله، ولم يعد يسمع الأذان يتسلل إلى أذنيه كما كان يحدث من قبل..

أين الناس؟!

سؤال طرحه عقله، واضطرب له وجدانه، وخزات تنغرس في أعماقه قلقًا على نفسه وعلى الآخرين من المصير المجهول.

يخاصم نفسه على أيّ خاطر متشائم، ربما عادوا إلى أهلهم، وبقي المخلّفون أمثاله، أو لعلّهم نُقلوا إلى مكان آخر أفضل وأوسع.

بقي السؤال حائرًا بلا جواب، وظل هو يردد أبياتًا طالما تغنى بها:

سَهِرَت أَعيُنٌ وَنامَت عُيون   في أُمورٍ تَكونُ أَو لا تَكونُ
فَادرَأِ الهَمَّ ما استَطَعتَ عَنِ النَّفـ   ـسِ فَحِملانُكَ الهُمومَ جُنونُ!
إِنَّ رَبًّا كَفاكَ بِالأَمسِ ما كا   نَ سَيَكفيكَ في غَدٍ ما يكونُ!

هذا دوره قد جاء بعد طول ترقّب، شعر بذلك عندما لامست وجهه وصدره هبات النسيم الصباحي عند فتح الباب.

ابتسامة الرضا والتطمين تعلو الوجه المعروف.

جهز حالك، ستأتي العربة بعد قليل!

إلى أين؟

واهتزت حروف السؤال في حنجرته، لا يدري أكان فرحًا أم قلقًا، حاول في الحالين أن يخفيه ليبدو عاديًا غير مهتم.

إلى الجماعي، الإخوان كلهم هناك، غرفة واسعة، وخدمة أفضل، وإن شاء الله عن قريب تعودون لأهلكم بالسلامة.

أسعفه بيت لشوقي طالما كان يستسخفه ويراه تحصيل حاصل:

وَكُلُّ مُسافِرٍ سَيَئوبُ يَومًا   إِذا رُزِقَ السلامَةَ وَالإِيابا!

طفق يردده، لا يدري هل كان ذلك لأنه منظوم، والعربي يرضع حب الشعر مع اللبن، أم لأن عقله الباطن تحمّل رجاءً.. واستشعر خوفًا.. واستمع صاحبه إلى البيت، ودون أن يفقه منه كثير معنى؛ هز رأسه وهتف:

- «الله أكبر.. أنتم العِلماء»!

العين المكسورة في (العلماء) بإزائها عين أخرى مكسورة بإحساس الهوان!

يقوم بتجهيز متاعه بنفسه، طوى فراشه المتواضع المصنوع من الإسفنج،

ووسادته التي ألفت خده وصفحة عنقه، ولحافه وشرشفه، ورتّب كتبه التي بقيت «عهدة» عنده للمكتبة، وسمع صرير العربة تقترب منه، فحمل عليها مقتنياته المتواضعة، وخطا خطواته مترددًا، وكأنه يختبر مشاعره وأحاسيسه، تأكد أن النشوة تغمره، فهو ميّال إلى التجدد والتغيير، يسأم الروتين وينفر من الرتابة، ولكنه ألوف واجتماعي حتى مع (الجغرافيا)، وإذا نطق لسانه ببيت شوقي تردد في أعماقه بيت آخر للمتنبي:

خُلِقتُ أَلوفًا لَو رَجعتُ إِلى الصِبا لَفارَقتُ شَيبي موجَعَ القَلبِ باكِيا

هزّ قلبه الحنين إلى هذه البقعة حتى قبل أن يغادرها، وجذب نَفَسًا عميقًا، وهو يلقي نظرة أخيرة على هذا المكان المكتظ بالأحداث، الغني بالأحلام، المليء بالدروس، المفعم بالأمل..

عربة دون ضجيج، رفقاء صامتون، ركْب صغير يمر بالعديد من النقاط، ويرى وجوهًا عرفها، وأخرى لم يعرفها، تلقي عليه تحية عابرة، وتقدّم له تهنئة بالنقلة، وأحيانًا تدعو له.

هو يدري أنهم كسائقي الباص ألفوا قومًا يصعدون، وآخرين ينزلون ويمضون لحال سبيلهم، ولكن الكلمات عنده تحمل معنى أبعد، وترن في أذنه، وتصنع الأسئلة!

خاطب نفسه بأن إعمال التفكير والتحليل في عبارات الآخرين، وتقليبها على وجوه الظن، وربطها بمفاصل الأحداث المحيطة يؤدي إلى شلل في الحكم، وعتمة في الرؤية، فهل ساء ظنه بهم وبالناس؟! ربما.

لكنه يعلم من جبلّته أنه إحساس عابر لا مقرّ له في ضميره، وأن من طبعه النسيان، وهو هنا أحوج ما يكون إليه، وهو يعدّه من نعم الله وعطاياه..

كَم نِعمَةٍ لا يُستَقَلُّ بِشُكرِها لِلَّهِ في طَيِّ المَكارِهِ كامِنَة

ينسى مشاريعه الفاشلة، وعلاقاته الفاشلة، والمواقف الصعبة والإحراجات.. بل المعلومات، ولذا كان مرهف الحساسية، ومع الزمن تمكن من تطبيع نفسه وحملها على التفويت والتجاوز الفوري، وخفف من حساسيته، ومع الزمن أيضًا أصبح يجد صعوبة في الاحتفاظ أو التدوين الجديد للمعلومات التي يظفر بها!

أما ما لم تمحه الذاكرة أبدًا فهو النظر الإيجابي، واستثمار الأوضاع بما يعود عليه بالأفضل، صار يعرف كيف يسوس ذاكرته.

استعاد ظنه الحسن بهم جميعًا، أو بالأكثرين منهم، ودرّب ذاكرته ألا تستحضر موقفًا سلبيًّا سبق، فالموقف الإيجابي الحاضر أقوى وأطيب.

حين تكون رقمًا فحسب، هذا لا يعني أن لا يعترف بإنسانيتك وجمالياتك وفضائلك! لكن هي سنة الحياة لأعداد كبيرة وجدت نفسها ورزقها ومستقبلها هنا، ولم تسمح لها قدراتها بأكثر من ذلك.. تذكر تلك المقولة: «أشد الناس قلقًا في السجن هو المأمور»!.

الرقم يحرمك من سماع اسمك، ويحرم الجار المستمع للهمس من تخمين القادم، ويخبرك بشكل نفسي طاغ أنك في النهاية رقم ما، يوم أن كنت تحسب نفسك شيئًا مذكورًا.

ثم عاد لحديث النفس المُعِين على التسامح، ومن لا يسامح الآخرين يعاقب نفسه، وسيعاني قبل أن يعاني الآخرون، فالسجن الحقيقي عندما تحبس نفسك في حقل القسوة والانتقام، وتتجاهل ظروف الآخرين ومعاذيرهم، وعاد ليتذكر أحد الحكماء حين قال «بأن الألم جهوري الصوت واللذة همس»، فحاول أن يجهر بلذته ويشارك فيها الرقيب.

إن التسامح مفتاح ذهبي لتلك القضبان الغليظة، وهو عملية تطهير

وطرد للأفكار السلبية التي تبني أعشاشها في منحنيات عقولنا وقلوبنا.

التسامح يجعل أعباء الحياة أقلّ ثقلًا مما هي عليه.

عبر الأسياب المتداخلة، وأبواب الشبابيك الحديدية، وصل إلى جناحه الجديد، ذي الشعب الثلاث، ومضى إلى نهايته، يداعب زوّاره ذات مرة.. ما الشيء الذي له أجنحة غير أنه لا يطير؟.. ربما كان يحلم بأن يطير يومًا، وربما كان يأنس بالطيران بعدُ، انتقامًا من ذلك الركود الطويل!

الأصوات تعلو ها هنا، وأطراف الأحاديث والتحية تبعث له من هذه البوابة، وآخر يصرّح باسمه، كيف تمّ له أن يشاهده؟!

أيدٍ مدورة حول الأُذن تسمح بتحقيق سماع أفضل.

الحاجة أم الاختراع، ولعل الجو هنا يسمح بقدر من الاسترخاء، فالجميع قد اكتملت أوراقهم، وانتهت تحقيقاتهم، والباب يحتوي على كوةٍ إذا لم يحكم الحارس إغلاقها من الخارج تمكن النزيل من رؤية ما حوله بعينه المتلصصة!

أحيانًا يغدو النزيل كالأعمى، شديد التيقظ لما يجري حوله، مرهف الإحساس «يسرق السمع بأذني فرس»!.

تفضل هذه غرفتك!

في نهاية الجناح وجدها، وإلى جانبها مستودع صغير أصبح ذا شأن فيما بعد؛ حيث يفيء إليه النزلاء حتى يتم تنظيف غرفهم، والهمسات تذكّر بدعاء يوسف عليه السلام «اللهم عطّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار!».

تتجول عينه في المنزل الجديد.. يا له من ميدان فسيح حقًا.. هل سيكون كل هذا له؟! لم يكن مستعجلًا، كان يعرف أنه سيكون لديه متسع من

الوقت، يمتد لسنوات كي يكتشف كل شبر، وتكون له ذكريات مع كل فتر.

وضع الحارس الأمتعة، وأحضر عبوة الماء، ثم استأذن ليغادر، وأغلق الباب من خلفه.

تفقّد منزله.. دورات ثلاث مستترة بأبواب خشبية قصيرة، ثلاث مغاسل يدوية حديدية معلّقة، مراوش بذات العدد تختبئ بنصف جدار، هذه الطاولة الممتدة من الإسمنت والمحاطة بعشرة كراسي مثبتة في الأرض، وُضعت كسفرة للطعام، والمسافة من حولها تمكنه من الحركة والدوران والرياضة، ليذرعها جيئة وذهابًا وهو يراجع حفظه الذي تمكن من إجادته، أو ليكرر قصيدة تعجبه؛ فيتغنى بها ويتفاعل معها، أو حتى ليقرأ كتابًا وهو يلف حول هذه الطاولة بحركة لا تعرف الملل.

يقسم الغرفة الكبيرة جدار فاصل من عائلة الجدران القصيرة؛ حيث تتمدد خلفه عشرة أسرّة إسمنتية، وبجوار كل سرير رفّ من المادة ذاتها لوضع الكتب والأدوات الأخرى.

شعر بالفسحة؛ وذلك لن يمنع طيور القلق وضغوط التساؤل أن تحلّق فوق رأسه، لكن كونه ممن يتعايش بلطافة مع نفسه، ويتحاور بعفوية مع ذاته، جعله قادرًا على مسايستها دون أن يخدعها، متمثلًا قول البحتري:

مـــا أَضعَفَ الإِنسانَ لولا هِمَّة   في نُبلِـــهِ أَو قُوَّةٌ في لُبِّهِ

المكان معدّ لعشرة، وقد اختار أقرب سرير إليه من الجهة اليمنى، اختار أن يجلس وينام تحت الكوة المفتوحة إلى السماء في السقف؛ حيث تتخلل أشعة الشمس ذلك العازل السميك، وعلى مقربة من نافذة الطعام، ومن البوابة، ومن أصوات البشر التي تشدّه دومًا إلى الحياة! ومن جهاز

التلفاز الذي هو شاشة في عرض الجدار على ارتفاع مترين ونصف تقريبًا.

انتظمت أموره، فالتشميس يتكرر مرتين أسبوعيًا، ولنصف ساعة، وأتيحت الألعاب كالتنس، وكرة القدم، والطائرة، وفناء المشي، لكن.. يا رباه.. يمارس كل ذلك بمفرده؛ فهو ما يزال وحيدًا مترددًا في قبول إضافة آخر.

المكتبة أصبحت في متناول اليد، مع السماح بإضافة الإهداءات الجديدة، مما جعلها تحفل بالعديد من المراجع المنوعة.

الطعام غدا أكثر انتظامًا وجودة.

طبيب المستوصف الداخلي لم يكد يخلو من مراجعين.

المسؤولون يترددون بانتظام: «تحتاجون شيء»؟

في لحظات يختلسها من برنامجه المزدحم؛ يتوقف أمام الجدران الصماء.. وكأنه يقرأ الذكريات.. كلمات مرقومة.. وحروف.. وأسماء.. وأبيات من الشعر: السارب بالنهار.. ترى من يكون؟ أحمد.. سعيد.. ترى كم مكثوا؟ وأين هم الآن؟ هل أَرْقُم كما رَقَموا ليذكرني أحد يومًا ما..؟

ثلاثة أشهر بعد تلك النقلة؛ قضاها في البدء بمفرده؛ مستفيدًا من ميزات الوحدة، في الحفاظ على الوقت كما يشاء، وهذا ما يعتبره قمة الحرية، ومن احترام الخصوصيات الشخصية؛ كالأكل والشرب والنوم والضروريات الحياتية.. راضيًا بما هو عليه، ولم يفاجأ بتلك الأبيات الشعبية من أحد جيرانه يصرخ بها، فهي لحظة انفعال، والنزيل هنا مهيأ للغضب والانفعال ما لم يحكم نفسه:

سيفونكـــم يزعجن دايـــم ... صوته يزجر ولهْ عـــجهْ
والعسكـــري واقف بالبـــاب ... مع المشمس لهم لجـــه
يقـــول: تجهّز ترى جينـــا ... ويعتذر منـــك بالسجــــة
لا تنزعج يا أخي بالحيـــل ... كـــم واحد ضاع بالسهجة
راع الإعاشة يصيح الصبـح ... ويويّقْ راسه مع الفرجـــة

نومة الصباح عنده لا يعدلها شيء، ولا يحب أن يحرم منها أحد لأي سبب كان، خاصة وقد اعتاد أن يسهر الليل إلى الفجر، ثم ينام إلى الظهيرة، لكن صوت: فطور.. فطور؛ مع طرقات خفيفة على أرضية النافذة كثيرًا ما يقطع عليه أحلامه.. وأخيرًا اتفق مع (المعشّي) على أن يضع الإفطار ويغلق النافذة دون طرق.. لكن طيبة ذلك الإنسان وإشفاقه تحمله على أن يطرق أحيانًا مسلّمًا، أو سائلًا، أو مبشرًا بخروج نزيل، أو داعيًا بخير.

صاحبنا يبالغ ويتضجر، ويقول:

لـــو (...) عوملت مثـــلي ... صـــارت على الوضع محتجة!

مع الوقت تفتحت أبواب، وتيسرت أسباب، واعتاد على الحياة الجديدة لا كوضع عابر مؤقت، بل كحياة مستديمة.. وطّن نفسه أنه سيدفن هنا.. ولم يسمح لنفسه؛ كلما سمع بخروج فردي أو جماعي، أو اقتراب موسم عيد الفطر المبارك؛ أن يتخيل أنه سيكون واحدًا من المشمولين الذين يسمع في الأخبار أنهم عادوا إلى أهليهم!

لم يكن هذا تشاؤمًا، بل تدريبًا للنفس على التكيّف واستثمار الوقت بمشاريع طويلة الأمد، تمكن من تنفيذها فعلًا بهذه الروح!

«الجماعي» قصة بدأ بها بمفرده.. غير أنه أقرب للجار الصاحب

الصاخب، يسمع الأحاديث و الأحلام والأبيات.. كان قريبًا على بعد:

وَإِن قَرُبَت دارًا بَكَيتُ وَإِن نَأَت كَلِفتُ فَلا لِلقُربِ أَسلو وَلا البُعدِ!
وَقَد زَعَمُوا أَنَّ المُحِبَّ إِذَا دَنَا يَمَلُّ وَأَنَّ النَّأيَ يَشفِي مِنَ الوَجدِ!
بِكُلٍّ تَدَاوَينَا فَلَم يُشفَ مَا بِنَا عَلَى أَنَّ قُربَ الدَّارِ خَيرٌ مِنَ البُعدِ
عَلى أَنَّ قُربَ الدارِ لَيسَ بِنافِعٍ إِذا كانَ مَن تَهواهُ لَيسَ بِذي وُدِّ!

◆◆◆

62

سفر الثنية



أمام المرآة التي صُنعت من الاستيل الخالص، وقف يتأمّل ملامحه، ولأوّل مرة يشعر أنّه غريب عن نفسه، ولم يطأ قط مطاراتها، أو يسافر في رحلاتها، لم يعد يحمل أيّ رغبة بأن يتغيّر في مظهره شيء مما كان قبلًا يزعجه.. حتى تلك الشعرات البيضاء التي ساقتها الأحداث إلى لحيته يرحب بها، ويداعبها بحنوّ ورفق..

لقد ساعدته المرآة أن ينظر في عيني نفسه، كما لم يكن يفعل من قبل:

«إنني أواجه نفسي

إنني أرى نفسي

إنني أعرف نفسي»

حدثته صورته أنك لن تستطيع أن تسمّي نفسك صابرًا إلاّ حينما تتحمل ما لا تريده. كم هو رائع أن يكون من يلامس جوهرك، ويرى

حقيقتك هو ذاتك!
في موقف مغاير لموقفه، ومكان مخالف لمكانه، ما كان للعزلة أن تكون حليفه، لقد جعلته وحدته مزدحمًا بشكل آخر، لقد أصبحت مركزًا للطاقة لديه، فالوحدة قد تكون امتيازًا ولو أُريد بها أن تكون عقابًا.. فمعظم الأفكار الرائعة، والنسمات الوادعة، واللحظات الصافية، والتأملات الروحانية تسير في أروقة الوحدة.
إن الأشياء الخفيّة قد تكون أشدّ فتكًا بنا من الأشياء الظاهرة، وهذا ما لم يسمح به من خلال إحكام صلته بالله تعالى وتكثيفها، مما يشعره بتوازن عجيب واستقلال مهيب لعالمه.
نعم.. أصبح يرى ما يفوق حجم زنزانته، وما خلف جدرانها الأربعة.. لم يعد يرى قبوعه في جوف شكل هندسي لبنيان معزول، قد يكون مربعًا أو سداسيًا أو مخروطيًا، بل أصبح يرى عالمًا يعيشه وعالمًا ينتظره، لم يقل قط إن العالم هو أنا، ولكنه ظل ممسكًا بشدة بالخيط الذي يربط عوالمه، ويقوده إلى حيث تكمن درره..
تلمَّس المنحة الربانية في طيات المحنة الإنسانية، بلّل عروقه بلطائف الله، ورطّب قلبه بخفايا حكمته، ثم غلّف ذلك كله بحسن ظنه بربه.
أدرك كل ذلك وأعلنه -لقد ربحت ولم تك قط خاسرًا-.
سبعة أشهر حافلة بالأحداث والمفاجآت والاكتشافات.. صغار أبدوا رجولة ومروءة وجلدًا لموقف لم ينتظروه، وكبار خارت قواهم، وقدموا ما يعتقدون أنه يعينهم على الخلاص من التفصيلات والمجريات.. والتي ربما كان بَوْحهم بها سرًا إيجابيًا لم يتوقعه الذين حزنوا لها وتألموا منها.
كان قصارى الأمر -حتى في اللقاءات الخاصة، والأحاديث البينية- شيئًا لا يحمل على الخوف، ولا يدعو للقلق، نعم. كانت النفوس تميل

إلى الحفاظ على سرّيته، أما وقد ظهر بجليته وممن تطوّع للبوح وقرر التعاون، ثم تواطأ عليه الآخرون بعد ذلك، فقد بدا أمرًا عاديًا، وليس ينطوي على ما يُعدّ مخالفة صريحة للقانون، فضلًا عما تتخيله بعض الأذهان، أو تتخوّفه، من المقاصد والأهداف والنوايا، أو ما تصوّره بعض التقارير الاحتسابية التي تميل إلى المبالغة، وتجنح للاتهام لأسباب تخصها!

بعد سبعة أشهر من الوحدة؛ آن لصاحبه ورفيق سفره أن ينضم إليه، يوم الأربعاء (١٤/ ١٠/ ١٤١٥هـ - ١٦/ ٣/ ١٩٩٥م) حفل بموقف مؤثر، لا يخلو من حرج!

خالد يدلف إليه، وقد خسر جزءًا من وزنه الجسدي، ولكنه صار أثقل، لقاء حميمي بعد فراق كانا أحوج ما يكونان إلى الاتصال بينهما؛ لمعرفة ما قيل وما لم يُقل!

الدموع كانت لغة التعبير، تختلط بها وفيها الابتسامات، ولو تركا الأمر للعواطف لتمادت؛ فلا بد من إلجامها، ويبقى المعدن الأصيل يتضح بجوهره، وكأن كلًا منهما يتغنى بأبيات البحتري:

دَنَوتَ تَواضُعًا وَعَلَوتَ مَجْدًا ... فَشَأناكَ انحِدارٌ وَارتِفاعُ
كَذاكَ الشَمسُ تَبعُدُ أَن تُسامى ... وَيَدنو الضَّوءُ مِنها وَالشُّعاعُ

كان يشعر أنه المضيف، وقد سبق إلى المسكن، وآنس ضيفه بوجهه الطلق، وقلبه المفتوح، وحديثه المسترسل، واحتوائه المعنوي، وبزاده المتواضع من سلطة الفواكه التي يصنعها بيديه، وتعلمه الحياة من تجاربها الصغيرة مالم يكن يعلم! ومن التناوب على الطعام لعمل (الرِّجيم) للضيف طلبًا لمزيد من الرشاقة، فيكتفي باللبن حينًا ليترك الباقي للمضيف، أو يكتفي بالفواكه، أو يكتفي باللحم، والنتيجة أن

الرِّجيم صار لهما معًا، وزاد النحيف رشاقةً دون الآخر!
أجنحة الفرح والسرور ترفرف في الأرجاء، وقد تكيّف مع الوضع الجديد، واستقر الضيف، وانتظم البرنامج، وبدأت الأسئلة الملحّة تتفلّت من قيودها، وتتسابق بلهفة وإشفاق.. وغدا خالد ثاني اثنين، وبدأ عهد من الاجتماع جديد.
منذ الأيام الأولى -بل الساعات- بدأ البرنامج السلوكي والعلمي؛
مراجعة القرآن يوميًا بمعدل سبعة أجزاء وزيادة في صلاة الليل، كما في التحزيب الوارد في مسند الإمام أحمد، عن أَوْسِ بْنِ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «سَأَلْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم:كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: نُحَزِّبُهُ ثَلَاثَ سُوَرٍ، وَخَمْسَ سُوَرٍ، وَسَبْعَ سُوَرٍ، وَتِسْعَ سُوَرٍ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ سُورَةً، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سُورَةً، وَحِزْبَ الْمُفَصَّلِ مِنْ (ق) حَتَّى يُخْتَمَ».
قراءة في صحيح مسلم، مع المقابلة والمطابقة مع مختصر المنذري الذي يحفظونه ويراجعونه، ويتمّ التعليق عليه.
قراءة في المطولات: فتاوى ابن تيمية - المغني - الإحسان - شرح العمدة لابن دقيق العيد - العقد الفريد - الأغاني -... الخ.
حفظ القصائد، وخاصة العاطفية وذوات الحكم.
ثَمَّ قدرة على صنع التوافق وتجاوز المواقف العابرة، مما أهّلهما للبقاء معًا طيلة الوقت، حتى خرج الضيف بعد أربع سنوات.
انضم إليه عدد آخر، أبو سهيل، أبو يوسف، عبد العزيز، والشيء ذاته تحقق، ظلوا هنا حتى خرجوا لأهليهم، دون مشكلة أو احتكاك..
في الأوقات الصعبة والمكث الطويل، تتكشف طبيعة النفس، وتنخلع الأقنعة والمجاملات والتكلف. يختلف صديقان عزيزان على وقت النوم، أو وجبة الطعام، أو وقت الرياضة، يختلفون على التوافه من

أشياء الحياة فتبقى في النفوس، وتتراكم المواقف، ويبدأ كل منهما بمراجعة علاقته مع الآخر، والتشكيك في صلاحيته للصحبة.

النفوس الضيقة تصنع هذا، وتكاد النفوس كلها تكون ضيقة ما لم يتعهدها صاحبها بالتمرين والتيقظ والتسامح، ومالم تكن قابلة للتجاوز عن الصغائر، وعدم الوقوف عندها.

هو يحب الجو الطبيعي ولو كان حارًا، وقلّما يحتاج المكيف إلاّ إذا كان هو خارج الغرفة ليلطّفها، مع وجود الجدران الإسمنتية العازلة، والجو الصحراوي اللافح، وأجسادهم تتعوّد على ذلك وتألفه حتى يقول الرقيب الداخل إليهم: كأنكم في صيف تهامة!

هذه صنعت مشكلة عند آخرين، بيد أن هذه الغرفةلم تشهد تنقلًا، ولا تبديلًا، ولا جدلًا حول التفصيلات اليومية..

البرنامج محكم وصارم، حتى الترفيه والمزاح مقنن، هم يشتركون هنا في كل شيء، وعلى مدى أربع وعشرين ساعة، ولفترة مفتوحة قد تطول، الصحو مبكرًا للتهجد، والذي يتثاقل يقرع بأبيات من الشعر من جنس أبيات المسحراتية:

يا نائمًا أغراه طيبُ المنامْ	قمْ واذكرِ الحيَّ الذي لا ينامْ
مولاك يدعوك إلى ذكرِه	وأنت مشغولٌ بطيب المنام

ويفزّ النائم إلى الورقة والقلم ليكتبها، وأنت لا تدري أفي يقظة هو أم لا يزال يحلم! يضحك وهو يردّد قصة ذكرها الذهبي في السير قال: انكسر قلم محمد بن سلام البيكندي –شيخ البخاري أثناء الطلب – في مجلس شيخه، فأمر أن يُنَادَى: قلم بدينار، فطارت إليه الأقلام.

يا نائمًا أغراه طيبُ الكرى	قمْ واذكرِ الرحمنَ ربَّ الورى..
يا نائمًا أغراه طيب الرقاد	قم واذكر الحشر ويوم التنادِ

يندفع الجميع في صنع أبيات على هذه الطريقة السهلة؛ كما لو كانوا في مهمة بناءٍ جماعية.. وهم كانوا على التحقيق كذلك، أو هكذا يظنون!
قراءة وتفسير، أنجزوا عبرها تفسير ابن كثير، وأضافوا التعليقات والفوائد.
إفطار يتخلّله حديث الذكريات والطرائف والضحكات الصافية.
انكباب على القراءة الفردية..
الزيارات، وقد حميت وتتابعت وبدأت تسرق الوقت، ثم رجع الصدى عن أخبار الزوّار، وما الذي يتم خارج هذا العالم الصغير: مَن سافر؟ ومَن تزوج؟ ومَن وُلد له؟ ومَن توفي؟ وماذا قال الناس..؟ وماذا قال الشيخ فلان؟ وماذا قال المسؤول...؟.
حديث يستفيض فيه من حوله، وهو يشاطرهم الاهتمام، إلاّ ما يخص قصة الخروج.
القوة النفسية يجب ألاّ تنكسر، ولا قوة إلاّ بالله، العزائم معها الغنائم، لا وقت للاسترخاء والتفكير والهواجس، الرحيل الرحيل.
برامج، يفصل بينها دروس، ودروس تتخللها مراجعات، يتمادى الأمر لاستثمار وقت الترويش في قراءة جهورية يسمعها المشغول، وحين يخلد إلى النوم يقرأ الآخر عليه حتى يغفو، وفي وقت الأكل، خاصة في رمضان، يقرأ هذا ليأكل الآخرون، ثم تصير النوبة إلى سواه ليفطر هو أو يتسحر!
ما كانوا يقرؤونه عن الإمام المجد بن تيمية؛ أنه كان يأمر من يقرأ عليه وهو في الخلاء شاهدوه ومارسوه.
أرادوا مرة ليتأكدوا من الوقت الذي لا يمكن ختم القرآن في أقل منه، وبصورة مستمرة، قراءة حدر بغير ترتيل، وظهر لهم أن الجزء الواحد يُقرأ في نحو عشرين دقيقة، وأن ختم المصحف في عشر ساعات، وقد

تقلّ لمن كان أسرع في القراءة.

برنامج للختم والاستذكار، وآخر للتدبر والتفكر، وثالث للتخشع ومعالجة القلب.

دورة مكثفة دخلها بغير اختياره، امتدت لأكثر من ألف وثمانمائة يوم متصلة، دون إجازة ولا فاصل، الأيام كلها متشابهة، الأعياد وأيام المآتم سواء بسواء، الاختيار فيها كان لله وحده.

يشعر بأنه مدين لتلك الأيام والليالي بالأثر الروحي الذي لامس قلبه، وشحنه بدفعة مهما شغلته عنها تصرفات الحياة، ما زال أثرها باقيًا، تجربة إيمانية غنية لا تعبّر عنها الكلمات، ولا تحتويها الحروف.

جرّب أن يردّد دون انقطاع: يا صمد.. وفي كل مرة يشعر بأنه يصعد درجة، ويتخفف من ثقلة الطين والجسد.

أدرك معنى الافتقار الذاتي، وكيف يتمّ تجاوزه بالالتجاء إلى صاحب الغنى المطلق..

كلّما أمعنَ الدجى وتحالكْ	شمتُ في غورِه الرهيب جلالكْ!
وتراءت لعين قلبي برايا	من جمالٍ آنستُ فيها جمالَكْ!
وتراءى لمسمعِ العقلِ همسٌ	من شفاه النجومِ يتلو الثنا لكْ
واعتراني تولُّهٌ وخشوعٌ	واحتواني الشعورُ: أني حيالكْ!
ما تمالكتُ أن يخرَّ كياني	ساجدًا عابدًا، ومن يتمالكْ؟!

جرّب أن يردّد دون انقطاع، وبغير عدّ: يا لطيف.. وهو يستشعر القدرة الظاهرة والخفية التي لا تحتاج إلى أسباب ومحاولات.

جرب أن يردّد: يا حيّ.. مستحضرًا ومضة الحياة السريعة الخاطفة التي يعيشها البشر هنا، وهو من بينهم طيف عابر ليس له قرار.. الحياة السرمدية تستمد من الحي الذي لا يموت:

منطرحًا أمام بابك الكبير

أصرخُ في الظلامِ أستجير

يا راعي النمالِ في الرمالِ

وسامعَ الحصاةِ في قرارةِ الغدير

هو مدين لتلك الأيام بالأثر المعرفي الناتج عن قراءات فاحصة ومنوعة لألوان المعارف والعلوم، قديمها وحديثها، الشرعي منها واللغوي والأدبي والتاريخي والفكري.. والذي فتحه على اهتمامات ورؤى ومفهومات جديدةلم تكن دراسته النظامية، ولا قراءته المتخصصة لتوصله إليها..

وهو مدين لتلك المرحلة بقدر معتبر لقيم وأخلاقيات تعلمها من دروس الحياة حين قابلها وجهًا لوجه، بعيدًا عن تحليلات الآخرين وإيحاءاتهم وإملاءاتهم وضغوطهم.. صار معتمدًا على نفسه في قراءة الأشياء والتعاطي معها وفهمها.

ليس يعدّ نفسه نشازًا عن المدرسة العلمية التي ترعرع فيها، ولكنه تخفف من الأثر الشخصي للمعلمين، وسمح لقدراته الذاتية أن تظهر وتساهم في تكوينه الأخلاقي والمعرفي والفكري، وأصبح يمتلك قدرًا من المعرفة بنفسه وبالناس من حوله، وقدرًا آخر من الشجاعة ليتحدث عن رؤيته الخاصة واجتهاده الشخصي المعبر عن ذاته، بما فيها من خطأ وصواب، ونجاح وفشل، وقوة وضعف، هو ليس مدرسة ولا منهجًا، بل قارئ عادي يحاول أن يفهم، وأن يصل، وأن يصحح لنفسه قبل أن يصحح للآخرين.

تعلم كيف يتخلص من الأبّهة ورؤية الذات، وكيف يتجرع بعض المواقف التي تبدو أحيانًا وكأنها مساس بالكرامة..

جرب أن يحاول اكتشاف نفسه قبل الآخرين، وأنه أقل مما يظنون،

ويخلو من أي شيء مميز، ومن هنا يبدأ بجدية وإصرار وثقة!

كثيرًا ما يسأل نفسه: لو لم يخض هذه الدورة القسرية هل كان سيكون شيئًا آخر؟!

يغلب على ظنه أنه سينكسر لضغوط ألفها واستسلم لها تقيد حركته، وتلجم تفكيره.. كثيرون ربما كانوا بحاجة إلى الخلاص من النمط المدرسي المحكم ليمارسوا ذاتهم، وليعيشوا حقيقتهم، وليحيوا بشخصياتهم المعبرة عن قابليتهم التكوينية وميولهم الفطرية، لا ليكونوا معبرين عن آخرين، أو ناطقين باسمهم.

تعلّم سعة العذر ما استطاع لمن يعبّرون عن أنفسهم، ولمن يعبّرون عن غيرهم، ليس من الجيد أن تحاسب الناس وفق تجربة عشتها، أو مرحلة وصلت إليها.

استفاض عن الرازي أنه كان يقول في آخر حياته: «مَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي».

أماَ هو فلا يقول هذا ولا يظن، كثيرون يخوضون تجربة واحدة، ويخرجون مخارج شتى.

وأن تتمثل الشجاعة في أن تعتقد كل ما تقول، وليس في أن تقول كل ما تعتقد!

لا يجب أن يكون ما تقوله ناسخًا لما يقوله سواك، يكفي أن تستطيع أن تقول ما تراه، أن تتحدث بصوت واضح ومسموع عما تريد.. لا تصرخ حيث يفزع الناس، و لاتهمس حيث يرتابون:

«وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» [الإسراء: ١١٠].

◆◆◆

63

كبرياء دمعة

◆



دمعة الحب في غيابة الجب يسر بها إلى صديقه:

قلبي إليك صفيَّ الروح مشتاقُ ... لذكركمْ فيه إحراقٌ وإشراقُ

سنون مرّتْ، ولا رؤيا، ولا خبرٌ ... كم مسّنا بكمُ ضرٌّ وإملاقُ

بيني وبينك أحداثٌ وأزمنةٌ ... ومهلكاتٌ وأبوابٌ وأغلاقُ

برغمها أنت في سمعي وفي بصري ... فالروحُ رغم سدودِ البغيِ سبّاقُ

أراك طودًا بوجه الريحِ منتصبًا ... ما عاد يثنيه إرعادٌ وإبراقُ

في رقةٍ تتناهى أنت ذو عجبٍ ... شعورُكَ العذبُ إغراقٌ وإغداقُ

يا رحمتاه لأهلِ الحبِّ.. كم دنفوا ... وكم أذاقوا من الويلاتِ أو ذاقوا!

(٢٦/ ١١/ ١٤١٧هـ - ٤/ ٤/ ١٩٩٧م الحاير).

بدا مخلصًا للعلاقة الإنسانية التي تبدأ بجيرة أو زمالة أو شراكة أو

تتلمذ، ولكنها تسمو لتصبح وصال روح بروح، وتمازج نفس بنفس، وتبقى حين تزول الأسباب التي صنعتها؛ فالحبّ لا يعرف المشارطة والمثنوية، هو إحساسٌ فوق الشروط والاستثناءات والأسباب.

سطّر مشاعره الحية في قصيدته التي يفضلها على معظم أخواتها؛ المعاناة جعلت للحروف والألفاظ معنى إضافيًا يتلبسه كلما مرّ على أبياتها، وتذكّر تنغيمه لها عبر كوة الباب بصوتٍ معبّر تتجاوب معه أرجاء المكان.. أو هكذا يحسب!

علاقة.. بدأت تسرق أنفاسها عبر اللقاء الأول؛ لتتعلق بأهداب اللقاءات التاليات، متوثقة مع كل ثانية تالية، فكانت أكبر من أخوّة إن كان ثمة أكبر، وأدوم من صداقة إن كان ثمة أدوم.. هي سطر في سجل الحب عجز المترجمون عن إعرابه، وكلمة في ديوان الصدق ثقل على القرّاء تصريفها!

مشاعر تكثفت ذات لحظة تجاه حبيب ما، بيد أن إحساسه كان يمتد، ويتجاوز الحالة الفردية ليعبر عن حرمانٍ عاطفي تجاه كثيرين.

جدّد لوعة الشوق ومرارة الحزن خبر يلقيه في أذنه همسًا أحد العارفين.. أن صديقك قد نُقل من جدة إلى هنا، وهو بخير، ويقرئك السلام، ويبلغك صالح دعواته! هو في الانفرادي!

هو منّي إذًا على بعد أمتار، في الموقع ذاته الذي أقبع فيه.. وكأن بيني وبينه آمادًا وأحقابًا ومسافات متطاولة.. يا للسخرية! ولِمَ هو هنا؟!

لا أدري، ربما ليلتقي مواجهة مع آخرين يشتبه أن بينه وبَينهم مسؤولية ملتبسة تجاه موضوع ما!

لا تهتم.. الخبر اليومً بمقابل، وغدًا مجانًا!

وهكذا حدث، قصيدة شعبية تمّ تداولها في قمة الحدث، ذات بعد لغوي متفوق، وإيقاع هادئ، ودلالات عاصفة شديدة الإثارة.. كانت

تقول لصاحبها دعني!

يا الله يا رحمن يا عالي الشان		يا عـــالمٍ بالبينة والخفيـــة

مطلع إيماني حسن!

طالبك تفتح لي من الحقّ بيانْ		أمضي ببعض الواجبْ اللي عليّهْ!

ثم اقتحام صعب في توظيف الأحداث يدري صاحبه أنه سيثير عليه الكثير، فيختم بهذه القفلة:

إن كان قولْ الحق يزعلْ فعيلان		مِلح البَحَرْ.. يا اللي زعلتوا عليّهْ!

«الزعل» لم يعثر فيما يبدو على الفاعل الحقيقي، فأخذ في طريقه ذاك الرجل الطيب الذي لا يعرف حتى قراءة الشعر النبطي!

قسوة لم يكن يستحقها، وعدوان على القيمة الإنسانية تمثل في تصرفات فرديّة غير مسؤولة صنعت لديه ردّ فعل لا يملك إزاءه دفعًا تجاه كل ما يمتّ لذلك المكان وذلك الزمان بصلة!

شهورٌ طوالٌ.. وهذى الجراح
تمزّقُ جنبيّ مثلَ المدى
ولا يهدأُ الحزنُ عند الصباح
ولا يمسحُ الليل أوجاعه بالردى

تَحَفُّظٌ يمتد لسنوات، والكبرياء تزيد المعاناة، الشَّعر الطويل يتمرد على موسى الحلاق، وهي قصة تتكرر مع آخرين مما يرشحها للتساؤل.. ما أبعادها النفسية؟ لماذا يفضلون أن تبقى شعورهم مرسلة؟!

هل كانت البداية تباطؤًا، استشرافًا للخروج.. ثم تتحول إلى تحدٍّ؟ أم رغبة في أن يكون هذا ضمن شعيرة حج أو عمرة؟ أم هو تسجيل

مادي يعبّر عن طول مدة المكث بطول الشعر؟
أيًّا ما كان فهو ينطوي على احتجاج مبطن، ولعله من صيغ الاحتجاج القليلة الممكنة المحتملة لأكثر من تفسير، والأوامر أحيانًا تقتضي الضغط للحلق أو التقصير..
يثار جدل فقهي حول سنيّة الإرسال، وحديث «لا توضع النواصي إلاّ في حج أو عمرة»، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له شعر يضرب إلى منكبيه، أو «إلى شحمتي أذنيه».
الزيارة تتم عادة في أجواء الضبط الأمني، وطبيعة هذا الصديق التكوينية لم تسمح له بتقبل ذلك، أن يمر الأهل عبر بوابات التفتيش، وأن يكون الرقيب حاضرًا بيننا.
يا أخي الضرورات لها أحكام، وإذا أنت صابر فأهلك وأولادك لهم حق، ويريدون رؤيتك والاطمئنان عليك.. هكذا يهمس أحدهم له، فيردّ بوضوح:
أعطني مكالمة هاتفية إذا كنت تشفق على أسرتي!
الاتصال الهاتفي يمكن أن يكون هو السبيل الوحيد لبقاء خيط العلاقة الرفيع قائمًا بينه وبينهم، لإيصال شحنة من دفء المشاعر ودفقات الشوق، وتبليغهم أنه ما زال بخير، والسعادة ملء إهابه، والرضا ملء قلبه، والصبر زاده!
لكن هيهات، حتى حينما همّ القاضي الطيب أن يمكّنه من ذلك بعفوية واجه الاعتراض، لابد من الإذن ومراجعة المختصين!
ملابسه لم يرض أن يغسلها غير أهل بيته، فتحمّل هذا، وأصرّ عليه إلى النهاية، أن يغسل ملابسه بنفسه.
الطعام الذي يقدم وهو منوّع وطيب، لا يلائمه، فلا غرابة أن يقضي سنتين وأسبوعًا على اللبن الزبادي والتمر الذي يُشترى له من جيبه..

الدفء الذي تبعثه الشمس صار حرامًا على جسده النحيل؛ إذ لم يرض أن يستفيد من أي خدمة أو تسهيل، وظل مصرًا على الغرفة الضيقة التي لا يشاركه فيها أحد، حتى لا يذهب للجماعي إلاّ على سبيل العقاب والتأديب.

حين اكتشف أن لديه قلمًا دفع الثمن غاليًا من راحته وسعادته وجسده وكرامته، ولكن تأبى أريحيّته وطباعه أن يتضرر بسببه آخرون.

دُعي ذات مرة، وظن أنه الفرج، سمح لنفسه أن يفرح، وإن كان الفرح متأخرًا، وودّع أصدقاءه، وعزّاهم بأن الدور آت إليهم، وقريبًا سيراهم في الهواء الطلق، وخرج ليدخل غرفة مضاءة وآلات تصوير جاهزة، يا للهول..!! هل سيكون مصيري كأولئك الذين رأيتهم على شاشة التلفاز قبل أيام! لكن كيف.. وأنا محكوم بسنتين فحسب؟

وحين جاءه الفرج الحقيقي طلب من أخيه أن يذهب لأهله، ويسمح له بوقت للتسوق!

(سوق حراء) مقصده، ليشتري ملابس جديدة وليفًا وصابونًا وشامبو وحذاء، ويضعها في كيس..

صاحب التاكسي ينظر باستغراب.. ما الخبر؟! من أين خرج هذا المخلوق؟ إنه يحملق في الأشياء وكأنه يراها لأول مرة، وشكله لا ينتمي إلى هذا العالم.. الشعر الكث المنفوش المنسدل إلى الكتفين على غير ترتيب، الثوب البالي الذي لا عهد له بالغسيل والكيّ، الحذاء (الشبشب) أسئلة لا جواب عنها..

- إلى أين نذهب؟!

- إلى فندق الشيراتون.

عجبًا!! ما علاقة هذا المنظر بفندق الشيراتون؟! ليذهب إذًا.

- لو سمحت هل لديكم غرفة؟

رفع الموظف رأسه في دهشة، وأجاب وهو يداري استغرابه:

- لا توجد غرفة. الفندق ملآن.

- أريد -تكفى- غرفة لمدة ساعتين فقط، وخذوا الأجرة كاملة!

يدرك الموظف أن أفضل طريقة هي أن يضعه أمام المستحيل.

- لا يوجد إلاّ جناح ملكيّ!

- كم أجرته؟

- ألفا ريال.

- أدفع ألفين عن ساعتين فقط؟!

- هذا راجع لك.

يخرج ألفين من جيبه ويدفعها، من أين له هذا المبلغ، وهو لا يجد ثوبًا نظيفًا يلبسه؟

يذهب للجناح، ويرمي كل ما يذكّره بتعاسة الماضي في صندوق القمامة، ويبدو حين يعرك جسده وشعره بالماء والصابون كأنه يريد أن يستخرج منها ما تسرّب إليها أثناء ذلك المكث الحزين ساعات ليخرج بشكل آخر، وثياب جديدة، ورائحة العطر تفوح من جسده المحمرّ..

الاستقبال بالأحضان.. هذه يغمى عليها، وهذا يكاد، والنحيب يعلو، والصغار يزغردون، والعجوز لا تتحامل على نفسها من السرور، ها هو الشمل يجتمع بعد سنتين من الغياب المطلق.

وَقَد يَجمَعُ اللهُ الشَّتِيتَينِ بَعدَما ... يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَن لاَ تَلاَقِيَا!

جوع سنتين هاجمه في لحظة واحدة، يختلس نظرة إلى صحن الأرز و فوقه الذبيحة، وهو يتساءل: كل هؤلاء سيشاركونني هذه الوجبة؟!

بعد أول لقمة أحسّ أنها كانت خنجرًا يتغلغل في أحشائه، اعتزل الطعام حتى يستطيع أن يتكيف مع النظام الغذائي الجديد.

سمع صوته لأول مرة في حياته قبل بضع سنوات من الأحداث التي عصفت بهم، وفرّقت بينهم، قبل أن يقابله، سمعه عبر أسلاك الهاتف ينساب كما الريّ البارد لظامئ عطشان.

كان مجبورًا أن يتعرف على اسمه (صالح المرزوقي)، وكان متعجبًا أن يتحدث بوضوح وشفافية عن نفسه، وعن وظيفته؛ حيث يعمل ضمن أعلى مراكز القرار، وإن كانت وظيفته عادية.

لا تخطئ ذاكرته تلك المكالمة الأولى، المتعلقة بطفل مصري معجزة، يحفظ القرآن ويتقنه، وهو ابن ست سنين.. ماذا يمكن أن نقدم لهذا الطفل ولأسرته؟

زاد عجبه حين علم أن صاحبه يتصل بعلاقة خؤولة مع الشخصية الأولى في (ديوان عمله) تلك الشخصيّة القوية المعمّرة والمؤثّرة والصارمة في الوقت ذاته، والتي لا تتردّد في اتخاذ القرار الحاسم، ولو مع أقرب قريب إذا اقتضى الأمر!

اتضح جيدًا أنه لم يكن يقيم وزنًا لتلك الاعتبارات، حين أقدم على محادثة صريحة مع داعية ناشئ تدور حوله الأسئلة، ويضيق الخناق، وحين تحدث بإسهاب عن مشاعره وحبه، وأنه يسعد بتقديم ما يملك لمشروع آمن به!

بعد الكلام يأتي الموعد، فالابتسامة، فاللقاء.

ذات محاضرة التقاه في (مسجد عائشة) بالتنعيم، جمهور يحتشد ليستمع إلى حديث عن (نظرات في منهج السلف) تم تعديله إلى (نظرات في المنهج).

الحديث يدور حول نقد المبالغة في استعمال المنهج، و «منهجة» التفاصيل والوسائل والمتغيرات والفرعيات مما يحضّر لانشقاقات مستقبلية تحت ذريعة المحافظة على المنهج، ويجعل المجموع شتيتًا ويوجه سهام النقد

والتجريح للأقربين، فهم «أولى بالمعروف»!
إنها النصيحة، وإن تحولت إلى فضيحة، والغيبة وإن كانت تحت ستار «الملاحظات»!.
شاب طويل، نحيل الجسم، كثّ الشعر، تكسو وجهه ابتسامة عريضة صادقة، يتحدث مباشرة دون مقدمات، من أسرته العريقة تلقى دروس الكرم والشجاعة والوفاء.
التدين الصادق يبحث عن ذاته، استمع إلى جماعة (التبليغ) في صباه، وانطبع بأخلاقهم، ولم يُطل المقام.
احتك بشباب ينتسب إلى السلفية الغالية من أتباع جهيمان، ولم يرق له طريقهم حتى قبل أن يتبين أمرهم.
تعرّف أخيرًا إلى ثلة من الشيوخ، كما يسميهم، فصار لا يطيق أن يمرّوا على جدة دون أن يكون هو أول من يستقبلهم في المطار، وآخر من يودّعهم فيه، وهو المضيف فيما بين ذلك.
تعارفت الأسر وتشابكت وشائجها، ورسخت لُحمتها، وتعرّف صاحبنا على الإخوة الستة، شركاء النسب والأم والتجارة، المتصافين في تقاسمهم الرخاء والشدة.
الأنس والسهر والحديث الممتع والمفاجآت الجميلة وسعة النفس قبل سعة الدار.
أضافهم مرة، وقدم لهم سمكًا ثمينًا ضخمًا بحجم الخروف، وداعبه أحدهم قائلًا:
«شكرًا، أحسن شيء أنك ما تكلفت».
التكلف عندهم هو في ذبح (الخراف) فحسب!
عبد الوهاب وعايض ومحمد التركي وسعد الزيد وآخرون في رحلة عمرة استثنائية، يفرض عليهم كرمه دون أن يمنحهم فرصة الاعتذار،

ويسكنهم في عمارة فيحاء تنتمي لتلك الأسرة ذات الخؤولة الكريمة، ويظل يتردّد عليهم بالألطاف والتحف والأطعمة، ويخدمهم بتفانٍ قلّ نظيره.

اعتكاف رمضان في الحرم فرصة لن يفوّتها، ولن يسمح لأحدٍ أن ينافسه فيها، إعداد السحور والفطور، تنّوع الوجبات، والتحايل على حراس الأبواب لإدخاله..

ماذا يضير أن يضع الشوربة في (ترمس) الشاي حتى يمر؟!

البنات الصغيرات: مها ونورة (التوأم) ضمن فريق مع (أم عمار) لتسهيل تمرير الطعام إلى داخل الحرم بكرةً وعشيًا؛ حيث يشتركن مع الوالدة في عباءة واحدة بخلاف (ليلى) المستقلة بكابها الصغير!

ليلى التي بدأت تلبس (الكاب) تركها أبوها في الحرم ليرد على اتصال جاءه بـ(البيجر)، وانشغل مع صديقه عنها لساعات.. وحين تتصل به زوجه لتسأل عن الصغيرة يفاجأ بالسؤال، ويركض باحثًا عنها ليجد الطفولة تغط في نوم عميق!

الشيخ العثيمين، والشيخ الألباني، والشيخ ابن جبرين، مروا هنا ودخلوا منزله العامر، وتضاعفت معهم لذة الطعام، وتعزّز بهم طيب الكلام.

(١٨/ ١١/ ١٤١٣هـ - ١٠/ ٥/ ١٩٩٣م) كان يومًا مفصليًا، عشرون من القصيم، من بريدة وعنيزة والرس والبكيرية والشقة ينطلقون في زيارة على خلفية احتجاز أحد طلبة العلم، ويلتقون بكبار رجال الحكم، ويَسمعون ويُسمعون، ويقابلهم رئيس الديوان، ويجلس إليهم الشيخ عبد العزيز التويجري قبل لقاء ولي العهد، ويوحي إليهم بما يقترح أن يكون عليه اللقاء، ثم يشاطرهم اللقاء، ويستضيفهم غدًا في منزله العامر.

يجدون الشاب ذاته بحكم عمله قد سافر إلى حيث هم، وسعى في تسهيل مهمة اللقاء، وقام بضيافتهم على طريقته الخاصة بحماس لا يسمح بالمراجعة! ويتحقق اللقاء مع رئيس الديوان وليس أكثر.

كان في غاية الاندفاع لترتيب الزيارة دون أن يلتفت إلى الظروف المحيطة!

(فندق المطلق) شهد صولات وجولات، وهو الوحيد الذي وافق على السكنى للأيام الثلاثة.

عادوا أدراجهم لتصلهم رسالة تعاتبهم وتدعوهم إلى عدم تكرار الزيارة، أو إرسال البرقيات، أو التدخل فيما لا يعنيهم!

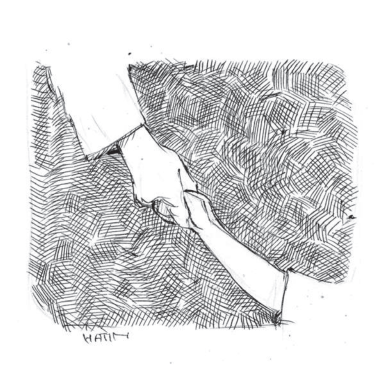
خسر عمله بعد خروجه من المعتقل، ولكنه كسب نفسه، وفتح الله له باب الخير والرزق والتوفيق، ليظل صديق الأبد، حب لا يزيده القرب، ولا ينقصه البعد، وعاطفة مشبوبة اليوم كما هي بالأمس.

فِدًا لَكَ مَن يُقَصِّرُ عَن مَداكا	فَلا شهمٌ إِذَن إِلّا فَداكا
أَروحُ وَقَد خَتَمْتَ عَلى فُؤادي	بِحُبِّكَ أَن يَحِلَّ بِهِ سِواكا
وَقَد حَمَّلتَني شُكرًا طَويلا	ثَقيلًا لا أُطيقُ بِهِ حَراكا
وَكَيفَ الصَّبرُ عَنكَ وَقَد كَفاني	نَداكَ المُستَفيضُ وَما كَفاكا؟!
إِذا اشتبكت دُموعٌ في خُدودٍ	تَبَيَّنَ مَن بَكى مِمَّن تَباكى!



64

خريف العصافير



كان الجوّ ذلك المساء لطيفًا وهادئًا، والسماء صافية، تتألق فيها النجوم، الليل يخيم ويلف الساحة الصغيرة في المنزل، ويحيط الوجهين المستديرين بهالةٍ ملائكيّة عذبة.

يتساءل في سرّه، وهو يهمّ بالمغادرة:

هل هي المرّة الأخيرة التي يرى فيها نجومَ السماء؟!

يكنّ لهما في أعماقه شعورًا استثنائيًا، كونهما الأصغر والأكثر حاجة للعطف والاحتواء.

كلما تغرق نفسه في أشغاله ولقاءاته كان ينتشلها بهذه الطفولة الجميلة في عيونهما، فيجلس إليهما ويتعلم كيف يكون.

جرت عادتُه أن يصحبهما في مركبته، أو في مجلسه العامر بالزوّار، وهما يجدان الجرأة لتخطي الحضور للوصول إليه، والقعود على فخذيه بكل

حبور.. غير عابئين بوشوشة الكبار.. وتحذيرات الآخرين، فقربهما منه لا يحتاج بطاقة دخول.

وعندما يغدو إلى مسجده على بعد أمتارٍ من منزله؛ يركضان وراءه، ويقعدان حيث يشير إليهما خلف الصفوفً في المكان الذي يقيم دروسه الصباحية فيه، ريثما ينصرف من صلاته ليتسللا إليه بخفّة، في سباق لا يكترث لمن حوله.

حين يهمّ أحد كبار السن بزجرهما؛ يجد من يهمس له ليدع الأمر على طبيعته! فيهمهم الرجل العجوز ويمضي لحال سبيله.

تفصل بينهما سنة واحدة لم تكتمل، فالأول ولد في (١٧/ ١٢/ ١٤١٠هـ- ١٠/ ٧/ ١٩٩٠م) وسمّاه: عبد الرحمن؛ التماسًا لبركة الاسم، واتباعًا لحديث «إن أحبَّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن».

صبي.. ذكيّ جدًا، وهادئ، يستوعب المعلومة ويحفظها بسرعة، جدته لأمّه الطيّبة (منيرة) تفضّله على جميع الصغار، والثاني ولد في (٢٥/ ١١/ ١٤١١هـ- ٩/ ٦/ ١٩٩١م)، وكانت تسميته (محمّدًا) تأسيًا باسم النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم-، لا يقل ذكاءً عن شقيقه، ولكنه عنيد، والعراك ينتهي غالبًا لصالحه، مع كونه الأصغر؛ لأنه يخوض الحرب مع مسالم مهضوم الحقوق!

يتعاركان على اللعبة، والحلْوى، على كتفي الأب الذي اعتادا أن يرتحلاه، وكالعادة فالحرب أوّلها كلام، وتمتدّ لتكون تشابكًا بالأيدي الغضّة، ثم صراخًا واستنجادًا، وتنتهي بالعضّ قبل التدخّل لفض النزاع.

وجد دقائق قبل المغادرة ليحضنهما، ويمطرهما بسيل من القبلات المفعمة بشعور استثنائي؛ حيث مراكز الإحساس في العقل والروح والجسد تنفذ إليهما عن طريق الشفتين، وهو يضمهما كما يفعل الطائر بفراخه، وكأنه يريد أن يعوّضهما عن غياب طويل محتمل في المستقبل،

وعن انشغال مؤكد في الماضي.

يتذكر جيدًا ردّة الفعل العفوية حتى كأنها أمامه؛ ابتسامات بريئة محبورة، وتأوّهات من ألم الشعرات التي توشك أن تنغرز في وجناتهم، وكأنها لا تريد أن تفارقهم، وهم يمررون أناملهم الرقيقة على مواضعها كان يلوّح لهم بقلبه وهو يغادر..

لا يعرفون كيف غاب، ولا إلى أين؟ ولا متى يؤوب؟ بيد أن القلق وفقد الشهية والرغبة في البكاء هي خير تعبير عن الإحساس بوطأة الحدث عليهم.

يمضي أدراجه، يختلس التفاتات إلى حيث ترك قطعًا من قلبه.

السلطان على الجسد، أما الروح فتسبح في الخيال، وتناجي الأطلال، وتمرّ على الديار، وتقبل الجدار بعد الجدار، وحين يفقد سلطانه على الروح؛ تذهب إلى مساكن ألفتها وعرفتها، وتعلقت بساكنيها.

يصحو ذات يوم على وقع أقدام الحارس: «استعد.. تَلبّس.. لديك زيارة».

المجلس ذو صبغة رسمية، وصلوا إليه بعد تحقيق وتدقيق، وانتظروا بشوق يلفّه الخوف، أو خوف يلفّه الشوق، خوف الصغار حين يرون البدلة الرسمية والوجوه الغريبة.

طمأنهم قدومه سريعًا مبتسمًا، العناق يتحول إلى التزام وتضامّ، والقلوب على القلوب تحكي آلام الغياب والحرمان، والعيون تتحدث بلغتها الصامتة، ودموعها المخزونة التي آن لها أن تفيض، والخال يقول: دعهم! فلا خير في الدمع إن لم يسعف في مثل هذا الموقف.

الأخوال الذين كانوا مثال المروءة والصبر والخلق الكريم، والذين واسوهم بصغارهم، يرقبون المشهد بغبطة وارتياح، ويدعون الفرصة للطفولة أن تعبّر عن ذاتها، وأن تدرك ثأرها من الفراق الطويل.

بدا وكأن لا شيء يشغله غير هذه السحنات المكتنِزة بالبراءة والصدق، البعيدة عن الرياء والخداع، وكأنه يسابق صوت المنادي بنهاية اللقاء، ذلك الصوت الذي لا يحتمل المراجعة، ها هو ينهض سريعًا حريصًا على أن يبدو متجلدًا، وهو يقدم لصغاره ما حضّره لهم من هدايا وألعاب.

زيارة أخرى، فثالثة..

كان الجو مشحونًا بالغموض، والمصافحة الأولى مع الخال تكشف السر!

معانقة حارة يصحبها همسة سريعة، أن حدثًا جللًا وقع في (العليّا)!

إذًا هذا الذي حال بين الجنّ وبين خبر التلفاز والصحيفة، لقد أصيب التلفاز بسكتة قلبية مفاجئة بسبب «عطل فني» طيلة الأسبوع، وأصاب «عطل آخر» سيارة الحارس الذي يحضر الصحف، وصادف في الوقت ذاته أن ترميمات وصيانة ظهرت فجأة في غرف الزيارة، وأدت إلى تأجيل الزيارات!

حقًا.. إن المصائب لا تأتي فرادى..!

ها هو العطل الحقيقي يظهر، إنه إرهاص مبكر بسلسلة من الأحداث الأليمة التي حصدت أرواح شباب في عمر الزهور، في عمل منحرف، يعوق التنمية، ويشل الدعوة، ويذهب بخط البوصلة إلى غير هدى.

جاره يحدّثه برؤياه البارحة، رأى أن أربعة من الشباب لا يعرفهم، دخلوا إلى الحلاق، وجلسوا على الكراسي، وبدأ يحلق رؤوسهم بطريقة غريبة؛ حيث يضرب شعورهم بموسى طويلة، فيتساقط الشعر المجزوز؛ أجابه على الفور أن أربعة سيعدمون، ربما على خلفية ذلك الحادث.

لا يطول ترقّبهم حتى يروا الاعترافات على التلفاز، ثم يتم تنفيذ الحكم في الأربعة.

الجو لا يزال ملبدًا بالغيوم، والزيارة تتعرض لارتباك، ويعود عصفوراه أدراجهما دون أن يظفرا بتلك الدقائق التي هي كقطرات الماء للصادي.

محمد الحضيف يكسر المستحيل، ويبعث له على قرطاسة (نسكافة) بقلم يشبه الرصاص..

«أحسست بالشجى في حديثك، ولم يكن صعبًا أن أدرك عمق الأسى في وجدانك، لأنني أفهم هذه اللغة جيدًا.

إنني مندوب جرح لا يساوم.

هذا كان حالي؛ لأن بطاقة هديل (١٣ سنة) حيل بينها وبين الدخول، فكيف الحال لو كانت هديل نفسها؟!

لا أظنني نجحت في التعبير عما في قلبي تجاهك.

إنك مقيم في أحلامي!».

يتجدد اللقاء في شعبان (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، ويقعد عبد الرحمن في حجره، يناجيه ويناغيه، ويداعبه ويتلمّس تقاسيم وجهه، وهو يطوّق رقبته بذراعيه الصغيرتين، ويضع فمه في فمه، كما تعوّد أن يفعل.. وقبل الانصراف يتلو عليه «سورة العصر» بصوت جميل، تزينه لثغة تقلب الصاد والسين إلى « ثاء ».

الابتسامة لا تعني أنه لم يعِ الدرس، وكأن مَلَكًا ألقاها على لسانه، إنها آخر كلمة سمعها منه، فهِي صورة لا تفارق خياله أبدًا، خاصة عندما يمرّ بهذه السورة، وما أكثر ما يمرّ بها..

في رمضان يكتفي بسماع الأخبار من جيرانه؛ حيث يوقف الزيارة متفرغًا للصيام والمراجعة.

هذا هو العيد السعيد:

عيد تُعَاوِدُنَا في الجُبِّ يا عِيدُ وقد مضى زمنٌ فيك الأغاريدُ

استيقظ والدموع تبلل مقلتيه، لا يدري لماذا؟!
هل رأى فراخه في المنام؟ هل هو الإحساس عن بعد؟ ربما.. وبين تلك القضبان يتساوى الحلم باليقظة، جسد هنا وقلب هناك، غير أن تباشير الصباح المنسابة من الكوّة الصغيرة في أعلى السقف، فوق رأسه- حيث اعتاد أن ينام-، أعادته إلى طبعه الميال إلى الابتهاج!
استبشر بالأفق الساحر، وهو يتخيّله وراء الجدران السميكة.
وتذكر سيل الزيارات القادم.. ترى من أول من يعايدني؟!
وتمتم بدعائه المعتاد الذي يجمع قلبه عليه.
أنسباؤه في زيارة عاجلة، والحزن على ملامحهم، وعيناه تنتقلان بسرعة تبحثان عن سرّ، ودقات القلب تهبط ثم تعلو.. هل أصاب العصافير سوء؟
- أبدًا نبشرك أن محمدًا بخير..
- وعبد الرحمن؟!
- هو في المستشفى.. لقد عادت الأسرة بعد شهر من الصيام والعبادة في جوار البيت الحرام، وانفجر إطار السيارة الخلفي، وعجز أبو طارق عن التحكم فيها، فتدحرجت ذات اليسار، وتقلّبت مرات، وتناثر الصغار على جانب الطريق، وقضى أبو طارق نحبه، وأمّه، الطيبة منيرة، وزوجه، وعفاف، وعبد الملك، يا الله! ما أوجع أن يكثر حرف عطف في سياق الموت!. عليهم رحمة الله..
ثم لحق بهم طارق وريّان، بعد أن مكثوا وقتًا يسيرًا في مستشفى (عفيف)، ما بين (ظلم) و(عفيف)، وبعد الواحدة ظهرًا، وفي ذات المكان الذي قضى فيه جدّهم (عبد الله) وبعض عائلته، في حادث مشابه قبل سنوات؛ فغدا رقمهم صعبًا لا ينسى (ثمانية زهر كما الأنجم الزهر).

يغالبه الحياء أن يلحّ في السؤال عن عبد الرحمن، وهو أمام موكب جنائزي يصطف فيه ثمانية من أفراد الأسرة.

أحد الأخوال يدرك الموقف، ويعيد:

محمد بخير، ولديه كسر في الفخذ، وضربات بسيطة، وعبد الرحمن في العناية المركّزة، ولم يتمّ تشخيص حالته جيدًا، ونحن وهو تحت رحمة الله!

يعرف من نفسه أنه لا يستوعب أبعاد الحدث للوهلة الأولى، وقد تبدو مشاعره متجمدة إزاء موقف يتطلّب الانفعال، وعزاؤه دومًا أن «الصبر عند الصدمة الأولى».

عاد إلى معتكفه، وظلال الحزن على وجهه، والخبر قد سبقه إلى أصحاب الحجرات، وهم يتحدثون عن « موت سريري » وهو يقدّر أن الأمر كذلك، وأن الخبر يُعطى له بجرعات الألم.

أصابه التيهُ، وبدا عاجزًا تجاه الموقف الصعب، والجوّ في حالة حداد لم ترها العين.

الزيارة التالية خلال أسبوع، يذهب مشطورًا بين الأمل والحزن، وتحدّثه النفس بلعلّ وعسى، الابتسامة المنقوصة على الشفاه اليابسة، والتأكيدات تتوالى أن محمدًا بخير!

– وعبد الرحمن.. أين ستدفنونه؟ يقولها، وهو يبتلع ريقه.

– الأطباء يقولون إنها حالة موت دماغي، لقد مكث فترة طويلة بعد الحادث دون أكسجين، كان في حجر والدته، يحتمي بحنانها حين وقع القدر، وحين تساقط الصغار على وقع الارتطام، تعلق ثوبه الجديد بحديد السيارة فخنقه، لقد نقل إلى المستشفى دون ضربات في جسده، أراد أن يحمي بياض ثوبه من انثعاب الجروح؛ فانفجرت داكنة في داخله، وظل يومين بمستشفى عفيف، قبل أن تنقله طائرة الإخلاء

الطبي إلى مستشفى الملك خالد الجامعي..
يعيش على الأجهزة، والأطباء يسلمون عليك، ويطلبون رأيك في رفع الأجهزة!
- ليس لي رأي، هُم من يقف على التفصيلات ويقدّر الاحتمالات، وأُفضّل ألا تُرفع الأجهزة إلا إذا دعت الحاجة لذلك، لإنقاذ مريض له حظوظ في احتمال الحياة.
ينصرف الجميع، دون أن يلحظوا عليه الانكسار، فالانكسار عكّازة الآخرين للمرور بترفّع على جراحك، لكن تيار الحزن والرحمة يدمدم في صدره، هو منه على بعد أميال.. ماذا لو.. ألقى عليه نظرة الوداع قبل أن ترفع عنه الأجهزة.
الجواب.. هو لا جواب!
في الخامس عشر من شوال يأتي الأخوال، أحمد وإخوانه، يسلمون ويعزّون..
إنا لله وإنا إليه راجعون، شهيد إن شاء الله.
ليتك رأيت الجمع الذي صلى عليه أمس في جامع الشيخ صالح الونيّان، كانت جنازة مشهودة.
أستاذته في الروضة، تقول لأمه: منذ رأيت وجهه، أحسست أنه من أهل الآخرة!
تماسك ولم تدمع عينه، وتذكر قول ابن الرومي:

وليس البُكا أن تسفحَ العينُ إنما ... أحرُّ البكاءينِ البكاءُ الموَلَّجُ

لم يتبين مدى تعلّقه به جيدًا إلا في غيابه!
ينقلب إلى غرفته وفي خياله صورة الجسد الذابل ممددًا على السرير، ملفوفًا بالقماش الأخضر، مُغمض العينين، يتردد نفسه بدعم الأجهزة

الطبية، وأشباح الموت تطيف به فيقول:

تَرَاءَاكَ عَـيْنِي فِي السَّرِيرِ مُوَسَّدًا عَلَى وَجْهِكَ المَكْدُودِ أَوْسِمَةُ الطُّهْرِ
بَرَاءَةُ عَيْنَيْكَ استَثَارَتْ مَشَاعِرِي وَفَاضَتْ بِأَنْهَارٍ مِنَ الدَّمْعِ فِي شِعْرِي

يستعيد جلسته الأخيرة التي لم يره بعدها وحينما تذهب روحه لزيارة قبره التائه بين القبور، يجد زغب الكف الصغيرة تحوَّلت لنبتات خضراء على قبره، فيسجّل هذا المشهد:

وَكَفَّاكَ حِينًا تَعْبَثَانِ بِعَارِضِي وَحِينًا عَلَى كَتْفِي وَحِينًا عَلَى صَدْرِي
أَرَى فَمَكَ الحلْوَ المعَطَّرَ فِي فَمِي كَمَا اعتَدتُ هَذَا الحُبَ مِنْ أَوّلِ البِرِّ
وَتُفْرِحُنِي أَطْيَافُكَ الخُضْرُ إِنْ بَدَتْ مُضَمَّخَةً، أَهْلًا بِأَطْيَافِكَ الخُضْرِ

يستعيد نغمته، وهو يتلو عليه سورة العصر، إنها آخر كلماتٍ سمعها من ذلك الفم الطهور:

حَبِيبِيَ فِي شَعْبَانَ أَلفيت زائرًا طَروبًا إِلَى لُقْيَاي مُبْتَسِمَ الثّغرِ
قَعَدتَ بِحِجْرِي وَالسُّرُورُ يَلفّنِي وَشَنَّفْتَ سَمْعِي تَالِيًا سُورةَ العَصْرِ
أَرَاكَ تُعَزِّينِي بِهَا وَتَلُومُنِي عَلَى جَزَعٍ تَخْشَاهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ

أحسّ بشعور اليُتم، وتذكّر من يقاسمه الإحساس، غير والدته الثاكل؛ ألعابه المهشّمة، الدرَّاجة ذات الثلاث عجلات، قضمة حلوى لم يكملها، ثيابه التي أضربت عن النمو، وقررت البقاء في مرحلة الطفولة دون تحول، أراد أن يدخل مع بوابة عصافير الجنة!

وَأَلْعَابُكَ اشْتَاقَتْ إِلَيكَ وَهَالَهَا غِيَابُكَ عَنْهَا.. مَيّتٌ وَهْيَ لَا تَدْرِي
يَتَامَى يُكَسِّرْنَ القُلُوبَ هَوَامِدٌ وَلَمّا يَصِلْ أَسْمَاعَهَا فَاجِعُ السّرِ

سريره وهو مُسجّى، لفافته البيضاء، أنفاسه اللاهثة المبهورة، جنازته

الصغيرة محمولة من الرياض إلى بريدة؛ حيث يُوارى في مدفنه.. مشاهد متعاقبة، لم تدركها عينه؛ فصوّرها خياله، وصار يستعيدها كلما أوى إلى فراشه، وانفرد عمن حوله، وإذا حُبس الجسد اتسعت العين:

تَمَنَّيْتُ لَوْ تُغْنِي الْأَمَانِيُّ نَظْرَة ... إِلَى جَسَدٍ ذَاوٍ يُغَرْغِرُ بالبهْرِ

تَمَنّيتُ حَتّى وَقْفَةً عِنْدَ نَعْشِهِ ... تَرُدُ إِلَى نَفْسِي الّذِي ضَاعَ مِنْ صَبْرِي

تَمَنّيتُ مَا نَالَتْ أُلُوفٌ تَوَجَّهَتْ ... إِلَى رَبِّهَا صَلّتْ عَلَيكَ مَعَ العَصْرِ

تَمَنّيتُ كَفًّا مِن تُرَابٍ أَسُنُّهَا ... عَلَى قَبْرِكَ الميمُونِ، طُيِّبَ مِن قبرِ!

تعتريه حالة وجد وغضب على وسيط لم يشاطره الألم، ولم يُخلص في نقل الرسالة في إلقاء النظرة الأخيرة على فقيده، فيرمي بالحفنة إليه..

فَإِنْ لَم يُحالِفْني الزَّمَانُ فَإِنَّهَا ... عَلَى أَوْجهِ الْمُستلئِمينَ عَلَى الْغَدْرِ

وَفِي أَعْينِ السَّاعِينَ بِالضر وَالْأَذَى ... .

عَتب عابر وقرر حذفه من القصيدة مع أبيات تشبهه.

يأتي محمد طيّب النفس، عليل الجسد، وأخواله يتندرون على عناده وصلابته، الذي يرفض بإصرار أن يتفحّص الطبيب أو الممرضة الجبس الذي على فخذه، وهناك في ركن الغرفة كرسي فارغ في حالة إجهاش وانتحاب.

يشيح بوجهه، ويقرر أن يفرح بهذا الوجه الصبوح الذي أبقاه الله له، وانتزعه من بين براثن الموت، ليكون هو الدفء والحنان والحميمية لأب يرى وجه فقيده في وجوه كل الأطفال.

المخدّة وحدها شاركته حزنه الصامت، وخرائط الأحزان فوقها وجه عبد الرحمن، وعلى نار الحزن تنضج الحكمة.

صورة الطفولة المبكّرة تعتاده، وتبعثر صبره، يغوص في التفاصيل،

القماط الذي كان يُلفّ به، والفراش الذي كانت الطفولة تبلله، والملحفة التي كان يتدثر بها ويتعلق بها، الخطوات الأولى المتعثّرة، نظرات العيون، الذكريات الساخرة، عامل البقالة البنغالي الذي يعطف عليهم حينًا، ويتبرم بهم أحيانًا ويصرخ:

«أنتم بزارين»!

تهجم عليه القصيدة بغتة ذات مساء، فينهض من وسادته؛ حيث لا قلم، إلا البطارية، يعمدون إلى مكينة الحلاقة، ويستخرجون شيئًا كقلم الرصاص، ويدونون الأبيات.

أحدهم رأى في منامه أن دمعة خرجت من عين الوالد المكلوم، فأخبره المعبّر أنه سيقول قصيدة في وداع ولده.

يخرج المخطوط متنكرًا مع أخته (منيرة)، ليدخل غرفته علانية، عبر إحدى الصحف المحلية «بحسن نية»، ويشاركه صاحبه د.سفر الحوالي أحزانه في قصيدة معارضة، يذكر فيها:

ثلاثون ألفًا في جنازة يافعٍ   طريرٍ حديث العهد بالمهد والثغرِ

يستعيدها منه رفاقه وحرّاسه، وهو يتغنى بها بصوت شجي، والدموع تترقرق من عيونهم.

ليس شاعرًا، ولا حزينًا، ولكنها الدمعة التي لا يؤاخذ الله بها.. كانت تلك القصيدة الدمعة مناحة شعرية لكثير من المحبين، الذين تلوها وحفظوها وغنوها وأبكى لأجلها آخرين.

عندما قابل الدكتور غازي القصيبي -وهو الشاعر الناقد- وجده معجبًا بالقصيدة، فردّ على إعجابه بأنها من شعر الفقهاء!

أجاب الدكتور: ليس فيها من شعر الفقهاء سوى قولك:

قَعَدتَ بِحِجْرِي وَالسُّرُورُ يَلفّني   وَشَنَّفْتَ سَمْعِي تَالِيًا سُورةَ العَصْرِ

يكفي عنده مسوغًا للعناية بالطفولة أن عبد الرحمن مقيم فيها لا يبرح:

فيا رب من أجل الطفولة وحدها ... أفض بركات السلم شرقًا ومغربا

وصن ضحكةَ الأطفالِ يا ربّ إنها ... إذا غرّدتْ في موحش الرمل أعشبا

ويا ربّ حببْ كلّ طفل، فلا يرى ... وإن لَجّ في الإعنات وجهًا مقطّبا

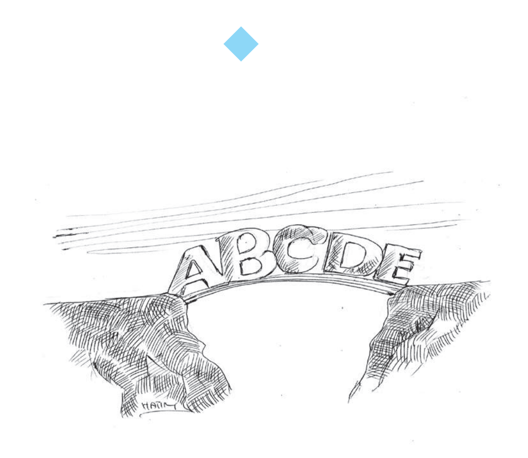
وهيّيء له في كل أمرٍ صبابةً ... وفي كلّ لُقيا مرحبًا ثم مرحبا!



65

CLOSE THE GAP, PLEASE..!

◆



اللهم ارزقنا القوة على تغيير ما يمكن تغييره من عيوبنا، وارزقنا الصبر على ما لا يمكن تغييره، وارزقنا الحكمة التي نميّز بها بين هذا وذاك».

أعجبه هذا الدعاء وظلّ يردده، فانشغالاته صنعت ثغراتٍ طالما تمنى أن يسدّها، ونقائص طالما حلم برحيلها.

إتقان القرآن وضبطه، أولوية حياتية لا تنقشع عن فؤاده، وها هو القرآن يصاحبه في عزلته من أول وهلة، ولا يفارقه أبدًا، ويتعمق الاتصال، ويترسخ الحفظ بقدر ما تسمح ذاكرته، ويتخلل النص القرآني عقله وقلبه، ويضيء ظلمات نفسه بإشعاعات ربانية تكشف داخله كما تكشف ما حوله، ويتذكر قول ابن تيمية في آخر حياته في ذات المكان والسياق «وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»..

السباحة والصيد وركوب الخيل المثلث العُمَري؛ حيث كان الفاروق

يأمر بتعلّمها وتعليمها، في حزمة من المهارات الجسدية التي لم يفلح في اكتسابها، بعد أول إخفاق؛ صادر بموجبه أحد الفلاحين بندقيته الجديدة التي ملأته حبورًا، ثم أمضّته حزنًا حين انتزعت من يده بغير وجه حق، وبعد إحساس بالريبة داخله بشأن صبيةٍ يكبرونه، ويحشدون غيرهم للسباحة في آبارٍ القرية، فعزفت نفسه عن ذلك.

أتاحت له سويعات التشميس أن يعود لجسده ببعض الحق، وإن لم يكن من نوع الرياضة التي يأمل ويريد.

حين درس في المعهد العلمي لم يكن ثمة تدريس للغة الإنجليزية، ومع رغبته في العلم الشرعي، أحب أن يشارك طلاب المدارس الأخرى تميّزهم، واستطاع أن يسجل نفسه كمنتسب في المتوسطة العامة، وأن يذاكر دروسها، بيد أن وقوع الامتحان في ذات الوقت حرمه من الجمع بين الدراستين، وبذاك فاتت عليه فرصة التزود في الصغر من أساسيات هذه المادة.

وحتى بعد تقرير المادة في المعاهد العلمية لم يتمكن الطلاب من الانتفاع بها.

كان العابثون في الفصل -في معهد بريدة- يصدرون الأصوات الغريبة والجلجلة والصلصلة حين يحين وقتها؛ فهي بالذات مادة إضحاك وعبث.. يستغلّها الكبار الملثمون القابعون في زاوية الفصل؛ حيث يديرون الفوضى، إذا صح للفوضى أن تدار، ويدبرون العبث إذا صح للعبث أن يدبر.. فيفوت الطالب الجاد أن يعطي شيئًا من تركيزه على تلك المادة آنذاك.. فالفصل صخب لا يطاق!

هذا إلى جوار فتاوى هامسة من بعض الشيوخ، تجيز الغش في مادة الإنجليزي.

سبح خياله في تصوّر الفرص القائمة واصطيادها، فلن تجد نفسك في

وضع أفضل مما أنت عليه الآن؛ لتفكّ رموز اللغة الأخرى، وتقتحم أسوارها، وتستكشف أسرارها.. فاللغة الأخرى تعطيك نظامًا لغويًا وفكريًا جديدًا تفكر به وتعيشه وتطور مفاهيمك من خلاله وتطور آليات الاتصال من خلاله، فالمعارف اللغوية هي القطار العالمي للحديث إلى جمهور أكبر وأكثر والاستماع إليهم.

كان أبو المنذر يتقدمهم يومًا في صلاة الظهر، وهو خريج المدرسة البريطانية في اللغة الإنجليزية، التفت إلى المأمومين، وعوضًا عن «تراصّوا وسدوا الفُرَج» قال بصوته الهادئ جدًا، والحزين جدًا «كلوس ذا قاب بليز»، تلقّف المأمومون ذلك بابتسامات بعددهم، أما هو فكأنما مدّ إليه خيطًا يمسك به لتحقيق حلمه القديم.

اختار بسعادة أن يعود تلميذًا، واختار د. محمد الحضيف أستاذًا له.

أن تكون تلميذًا من جديد ليس بالأمر الهين على النفس، خاصة حين تبدأ من الألف باء، على أن مما شد من أزره أنه لم يكن وحيدًا في الأمر، فهناك الشيخ سفر الحوالي ومجموعته الذين اختاروا د. محسن العواجي أستاذًا لهم، وكان يسكن بجوارهم، والدكتور محسن هو خريج المدرسة الأمريكية.

العراك بين الآكسنت الأمريكي، ونظيره البريطاني على أشدّه في حقول التعليم، والأصحاب يشبهونه بالخلاف التاريخي بين مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة في النحو العربي!

يتميز الأول الأمريكي بالسرعة والاختصار وأكل بعض الحروف، إلى إطلاقات وتعبيرات ينفرد بها عن نظيره البريطاني الذي يفخر بعراقته ورصانته، ويجعل اللهجة الأمريكية محل سخرية وتندر.

اللهجة البريطانية تتميز بالراء العجيبة في آخر الكلمات؛ حيث تصبح ألفًا مفخمة.. واللهجة الأمريكية تتميز بالتاء في وسط الكلمات؛ حيث

تبدو دالًا مخففة..

وبين التخفيف الأمريكي الذي يبدو كأنه يحدث رجل الشارع..

وبين الثقل البريطاني الذي يبدو كأنه مذيع في نشرة الأخبار.. يكون العراك.

أما هو فظل عاجزًا عن تجاوز (الآكسنت القصيمي)، وعاجزًا عن تحديد نقاط الاختلاف بينه وبين الآخرين، وإن كان سمعه ينبو عن نطق لم يألفه.

أدواته في الدرس عديدة؛ بعد أن كانت محتويات العُلَب هي التي تعنيه، بدا له اهتمام جديد بملصقاتها الخارجية وأغلفتها، إذ كان يتفحّص ما يُكتب عليها من العبارات الإنجليزية، ويربطها بسياقها في محاولة للترجمة الذاتية قبل أن ينتظم مع معلمه في دروسه.

ثم ظفر بمجاميع من الكتب المدرسية، التي طلبها من المكتبات، وتعاطى معها بمفرده دون مرشد أو دليل، وملأها بالتعليقات والإجابات والأسئلة، إضافة إلى قصص قصيرة هي من المشترك الثقافي البشري، إذ وجد نفسه يقرأ بلغة أخرى قصة السندباد، أو ألف ليلة وليلة، أو سندريلا، أو العنز والذئب!

ها قد عدت طفلًا تقرأ قصص الصغار ورسم الكارتون!

وعرف أن المرء كلما بدأ عالمًا معرفيًا جديدًا بدأت طفولته وكبر صغره..

وعاد يكتب الدرس، ويعكف على الحفظ والتهجي.

وعجب ألا يجد القوم من ثقافته العربية إلا هذه الأحدوثات لينقلوها.

وحيث إنه كان يقرأ الكلمات نحتًا، كان يظن أن بعض الأحداث لم تكن موجودة داخل النسخة العربية للقصة.

ثم تطورت إلى جهاز معجم إنجليزي - عربي، بصوت آلي، تسلل إلى

غرفته بطريقة خاصة، كان يخبئه عند تركه الغرفة، إلا أنه لا يتخلص من القلق لتركه؛ ففضّل أن يحمله في ذهابه وإيابه؛ خشية أن يقع في أيدي مسؤولي التنظيف والرقابة، ولا يزال يحتفظ به كذكرى عزيزة على نفسه.

ثم توسعت دائرة الممنوعات إلى اقتناء المذياع، والذي أصبح موجودًا في أكثر الغرف، وتفنن الناس في إخفائه، حتى تفتقت حيلة أحدهم عن حفر داخل كتاب ضخم، وإخفاء المذياع وسط صفحاته، ثم صفّه بين الكتب بطريقة لا تخطر على بال الرقيب..

لم يكن هو من المبادرين بهذه المغامرة غير محسوبة العواقب، حتى اقتربت أن تكون عرفًا جاريًا، فاقتنى منه جهازًا صغيرًا، ثم أخذ الإذن فيه بعد.

ثبت المؤشر على الـ « BBC».

رحلة إلى مركز الأرض.

عبارة في دقيقة.

حصة في كمبرج.

حصة في إجازة.

ما قلَّ ودلَّ.

(Step By Step).

يوم في حياة امرأة فلسطينية.

مغتربون في إنجلترا.

قصة الولد التائه (The lost boy).

لغة الأخبار.

تايم تو سبيك (Time to speak)

لغة الأعمال.

ستوري أوف ثري برذرز (The story of three brothers)
ميك يور بريك (Make your break)
ذ نيوز: سبشل انغلش (The news: special English)
هكذا رقمها في أوراقه السرية، التي هي إحدى أهم أدواته في التعلم، والتي كانت هي الأخرى واقعة ضمن نظام «نصف محظور» أو محظور المجاهرة!
كتب أسماء هذه البرامج الإذاعية بحروف إنجليزية حينًا، وحينًا آخر بحروف عربية، وبعضها مترجم بكلمات عربية، وحينًا ثالثًا يكتب الكلمة بالإنجليزي ثم نطقها ثم ترجمتها.. لا يدري لماذا فعل هذا؟
كان يستمع، ويسجل المواعيد، ويدون الكلمات، وربما شوش البث أو انقطع فيكتب «.. يخلف الله، ما حصلنا شيء!»
ويكتب ما لم يفهمه، ثم يبحث عن معناه بواسطة الجهاز اليدوي الصغير (المعجم).
وقد يُعَلِّق متأففًا من بعض الجمل والعبارات.. ويكتب:
.(He drinks a bottle of wine)
(نعوذ بالله منكم ومما تشربون).
سيت (seat).
قت (get)
(يا كثرها.. يا كثرها).
هذه العادة هي ماكان يسميها المهتمون بالكتب في التراث بالتسويد.. وهو التعليق على ما تقرأ، وملؤه بالحواشي والمعلومات والرأي الشخصي.. حتى كان أحدهم يقول: «لا يبيضّ الكتاب حتى يسودّ» ويقصد من كثرة التعليقات والحواشي.
وكعادة الطلبة يشخمطون في دفاترهم ويخربشون، ويكتبون ما لا علاقة

له بالموضوع، فهو يقتبس هنا خبرًا من المذياع يوم الثلاثاء، الثانية ظهرًا عن افتتاح نادي القمار في أريحا تحت مسمى (كازينو الواحة)، والممول شركات فلسطينية وإسرائيلية وعالمية، ويعلق: أن القمار ممنوع داخل إسرائيل! فلماذا هو من الأولويات للشعب الفلسطيني المقهور؟

مرة أخرى يلتقط أن أمريكا معنيّة بتوفير خمسين ألف وظيفة ليشغلها علماء الذرة الروس؛ محافظة على السلاح النووي وأسراره بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.. ويتساءل: أين العالم العربي والإسلامي من هذه الثروة التي يتقاسمها الأمريكان والصهاينة؟

وثالثة يكتب عن تفتيش مقر منظمة الرحمة في إفريقيا، ومصادرة أجهزتها على خلفية أحداث تفجير السفارة الأمريكية في كينيا التي لا تزال طرية، ورابعة.. وخامسة..

ثلاثة دفاتر بمئات الصفحات ملأها بالمفردات المكتوبة بخط متزاحم أفقيًا ورأسيًا، ومعانيها وتصريفاتها، منقولة من الإذاعة أو من الكتب المدرسية أو القصص القصيرة، يعتبرها ثروة مهمة، وجزءًا من شخصه وتاريخه، فضلًا عن احتوائها على حكايات وطرائف وخطوط ومناسبات؛ ليصبح الدفتر وعاء شموليًا، يستوعب الدراسة والأخبار والأحداث والتواريخ والمواعيد والأمنيات، وحتى الأفكار؛ فقد أحس -مع أحداث السفارة في كينيا- بأن انحرافًا في بوصلة بعض المتحمسين سيقود إلى صدام غير محسوب وغير متكافئ.

في سجل ذكرياته:

-اليوم زارت الوالدة -حفظها الله- ومعها أبو ياسر ونجلاء وهيلة وأولادها.

-هذا الصباح دخل عمي إلى العناية المركزة شفاه الله وعافاه.

-اليوم استدعي فلان ليكتب اعتذارًا تمهيدًا لخروجه.

من طريف ما في الدفاتر أنه سجل بعض محفوظه المختلط (عربي- إنجليزي) كقول أحدهم:

برق شعق من ورا الطايف	"ميبي" على ديارهم "ميبي".
يا طول شوقي على الـ"وايف"	للساع ما جابت الـ"بيبي"!

يقول أينشتاين: «ينبغي أن نبسّط كل شيء بقدر الإمكان، ولكن دون أن نفرط في تبسيطه».

لقد فعل ذلك حينما حاول أن ينظم بعض الكلمات ومعانيها بطريقته العربية التي لم يسأل فيها المتخصصين، وإنما سأل ذاكرته التي يَسهُل عليها حفظ النظم، واعتذر لقلة خبرته في الميدان، فطفق يكتب نظماً ما يسمعه من المذيع نثرا:

"ابلـــتــــي" مقــــــــدرةٌ	و "هومْ لانْدْ" فالوطــــــن
"اَدلْتْ" تعني بالـــــغًا	و"يوثْ فُلْ" حديث ســـــن!
"اَدِلْتْرِيْ" فهــــــو الزنــــا	فعذ بذي الجلال مـــــن..
و"الكُنْ فِدِنْتْ" واثــــــقٌ	وهــــــو ائتمان مؤتمــــــن
"سكيــــــوُرتي أوفيســــــر"	العاملون في الأمــــــن
"دَمـــجْ" يضرُّ ضـــــررًا	و"هاو إفرْ" مهـــــما يكن
"جِنِــــــرَل سِــكْــرِتَري"	فمثلــــــه كــــــوفي عَنَنَ!

لم يكتبها للناس فيؤنقها، كتبها لنفسه فتسمّح فيها، وإلى جوارها بدا وكأنه يحافظ على ملكته الشعرية بتدوين بعض الأبيات التي لا تخلو من مسحة جمال، وكأنه يتخيل صغيره وقد جافاه النوم:

أراكَ صغيري في الفراش تململ | كأنك همًا من همومي تحملُ!
تناجي نجوم الليل إذ هنُ طُلَّعٌ | وتبكي نجوم الصبح إذ هنّ أُفَّلُ
عجلتَ حبيبي.. عِشْ زمانَك هانئًا | غريرًا، فما تُعنى به الآن.. مقبلُ
وغنِّ أهازيج الطفولة حالمًا | فمِنْ مِثلك القلب المغفل يجمل!

بداية درسه مع أستاذه أبي المنذر كانت -كما دوَّن في طرّة الدفتر- يوم عيد الفطر المبارك، بعد صلاة الظهر، الساعة الواحدة، من عام (١٤١٨هـ-٣٠/ ١/ ١٩٩٨م) لا يزال يتذكر مشاعره وأحاسيسه أن الناس في العيد وفرحه ولهوه واجتماعاته وهو قابع مع صديقه في جوف جب! ولا تزال الكثير من العبارات مكتوبة بخط جميل ينتمي إلى محمد الحضيف.

شروحات تخص (grammar) تشبه الآجرومية، وكأنها منها.

تدريبات على الكتابة ورسم الحروف، وما يسمى (Alphabet Cool) وكأنها ألف باء تاء.. الخ.

بعضهم مهووس بالبحث عن كلمات إنجليزية ذات أصل عربي، وكأنها تمنحنا وثيقة النجاح!

اللغة الإنجليزية خليط من اللغات، فيها من اللاتيني، ومن اللغات الأوروبية، ومن الهندية والصينية والعربية والتركية والعبرية وغيرها.

تفصيل لمشكلة متعلمي ودارسي اللغة الإنجليزية فيما يتعلق بالأزمنة، من المضارع البسيط، إلى الماضي التام، إلى المستمر، .. الخ.

وكلمات هي حِكم جميلة وتفاؤلات إيجابية يستقبل بها المؤمن عواصف الأحداث بقلب لا يعرف اليأس:

اجتز العاصفة بسلام (Pass the storm in peace)

اجعل العالم مكانًا أفضل إن استطعت (Make the world a better)

(place if you can)

أعطني الحرية (Give me the freedom)

الله يدافع عن المظلومين(Allah defends the oppressed)

وإلى جوارها أخوات لها لا تحمل تشاؤمًا..

«لا جديد تحت الشمس» (Nothing new under the sun)

كلمات.. قد يقولها بلحظة استبطاء

باب النجار مخلوع (The carpenters door is broken)

هو يتحدث عن نفسه أحيانًا كذلك!

يتعامل مع هذه المسألة بإصرار، فهو لا يزال يعشق أن يبدو متعلمًا دائمًا، ويتردد بين إحساس بضياع الوقت، وأن الأمر متأخر، ويمازح نفسه قائلًا: بعد ما شاب ودوه الكتَّاب!

بيد أن ثَمَّ من سبقوه فتعلموا لغات مختلفة بعد الأربعين مثل الشيخ محمد عبده.. الذين دفعتهم الأيام إلى لغات أخرى وألسن مختلفة، فعالجوها وأخذوا منها القليل والكثير.. وبقوا على واد غزير من العلم.

ويدعم ذلك بأن العلم ليس له سن، وأن تفوقه في العربية أدبًا ونحوًا يعني أن الملكة اللغوية لديه جيدة، فهو إذًا قادر مع العزيمة على أن يحل عقدها، إلى ما يمنحه التعلم من البساطة واطراح التكلف، فهو على مقعد الدرس، يكتب ويحاول ويخجل ويتردد ويخطئ ويستثير ضحك الآخرين، بمواقف وكلمات معوجة، ويمسح السبورة، ويحل الواجب المنزلي..

لقد تقمص شخصية التلميذ بحق، وأنس بها هذه المرة كما لم يكن من قبل.

في إحدى تردداته -وقد حُلّت قيوده وضرب في أرض الله- التفت إلى شخص بجواره، ضعيف الحفظ ضعيف الفهم ثقيل السمع.. وسأله

عن بلده فكان الهند، ثم سأله عن عمره فكان في الثانية والسبعين.. فكأنما جاء هذا الرجل قدرًا في طريقه ليمنحه دفعة إلى المواصلة والصبر.

وكلما تذكر « كلوس ذا قاب، بليز» ابتسم وكأنه في اللحظة، وَعَرَفَ أن ثم ثغرات ونقائص تحتاج إلى إغلاق ومعالجة، وعليه أن يواصل حتى النهاية مستعينًا بسؤال الله الذي علَّم آدم الأسماء كلها، واختصه بذلك، وميزه حتى عن الملائكة، مرددًا: «سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» [البقرة: من الآية ٣٢]، يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني.

زاره وفد من إحدى الجامعات الأمريكية، وخاطبهم مداعبًا: إنكم في الزيارة القادمة قد لا تحتاجون إلى مترجم!

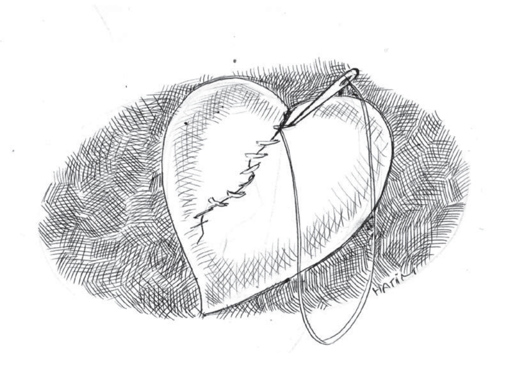
اللغة عنده انفساح في التفكير واتصال وفهم ووعي، وإذا كانت حاجة ضرورية لرجال المال والأعمال والسياسة، فهي أشد حاجة وضرورة للدعاة والمتحدثين والمعنيين بالخطاب الشرعي والثقافي، ليس ليعطوا الآخرين فحسب، بل ليأخذوا منهم أيضًا، فهي مسألة تفاعل متبادل؛ ليقربوا الفجوة بين الناس وبين دين الله (الإسلام)، وبين العالمين في لغاتهم المختلفة وبين كتاب الله العربي المبين.. ولأجل ذلك صدق أبو المنذر:

Close the gap, Please..!

◆◆◆

66

يوسف



يوسف..!
السجن والرؤيا والغياب.

في ذمّة الله من أهوى وإن بانا   وإن أسر لي الغدر الذي بانا
وفي سبيل الهوى عهدًا تحمله   قلب يرى حفظه "الأيمان" إيمانا
يا ظاعنًا لم أكن من قبل فرقته   أهوى ربوعًا ولا أشتاق أوطانا
لم يُبقِ بينُك عندي يا منى أملي   للشوق قلبًا ولا للدمع أجفانا

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام، مرحبًا وأهلًا يا أبا!
- أبو سلمان..
هذه كنيتي، سوف أسمي ابني عليك، وسوف يتبعني في طريقك، اسمي (ع).

- ما شاء الله. من بريدة؟!

- من قلب بريدة.

- مشكور، وما قصرت، حفظ الله نفسك وما تملك، وأبقاك لي.

- أمنيتي أن أكون عندك ومعك، أدرس على يديك، أصحبك في سفرك، أعمل مع الشباب في مكتبك، حتى لو تريدني «صباب قهوة» فهذا يكفيني!

- أنت أكبر من ذلك، ومرحبًا بك بقلبي قبل مكتبي.

هذا اللقاء السريع كان الورقة الأولى في علاقة روحية؛ تأخذ طولًا من أيام الاحتساب الارتجالي والحماس الشبابي، مرورًا بسني يوسف.. وأيام الحرية.. وتمتد عرضًا من المسجد المكتظ بشباب في مثل عمره أو يزيدون ليستمعوا إلى شيخهم، إلى البيت الذي فاض فأغرق الشوارع المجاورة بالناس في أحاديث الربيع، وكان صاحب السني السبع عشرة هذا أحدهم.. إلى غرفة لا تركض فيها الخيل.. وحتى لقاء حديث يجمعهما كما هو الميعاد في «جلسة» مجهور بها غير خلسة!

يغيب الوجه الغض في الزحام، ولكنه لًا يغيب عن الذاكرة، فتى كثّ الشَّعر فاحمه، في عزّ المراهقة، بهي الطلعة، عذب القسمات، صافي الابتسامة، شديد الملاحة، خفيف الظل، مألوف، يتحدث بيديه قبل شفتيه، يتوقد حماسًا، يمتاز بالذكاء والجراءة، ويمتلك روح المغامرة.

تذكر كل تلك الأوصاف واللقاءات والأحاديث والمشاعر الانطباعية الإيجابية والتوقعات المستقبلية التي برقت في خياله حيال شاب يلفت الأنظار كهذا، وتداعت في وجدانه أحاسيس هي مزيج من الاغتباط والحزن، وهو يسمع الصوت ذاته غير أنه ازداد عامًا مع أعوامه السبعة عشر يصيح من بوابة إحدى الغرف في جناح (٢)، وينادي شيخه:

يا مَن وَهَبتُ لَهُ روحي تملكها	وَرُمتُ تَخليصَها مِنهُ فَلَم أُطِقِ
أَدرك بَقيةَ روحٍ منك قَد تَلِفَت	قَبل المَماتِ؛ فَهذا آخر الرَمَقِ!
وَلَو مَضى الكُلُّ مِنها لَم يَكُن عَجَبًا	وَاِنَّما عَجَبي لِلبَعضِ.. كَيفَ بَقي!

فيجيبه بصوت مرتل بالتحية والشوق، بينما الرقيب يشير إلى فمه بالصمت!

مع حداثة سنّه، تمكن من توطيد العلاقة مع العلماء الكبار، فجلس إلى ابن باز، وتحدث مع صالح اللحيدان وجادله، وامتدت صلاته مع المشايخ والدعاة والناشطين في أنحاء البلاد، يمنحونه بالًا واهتمامًا؛ فحضوره في المجلس مميز، وليس رقمًا عاديًا.

قائد ميداني مبكر يحشد حوله العديد من أقرانه ونظرائه، ويتبادل معهم المهمات، في جولات على جوامع القرى والأطراف، وحملات لجمع التبرعات، وتحريك للرأي العام تجاه بعض المتغيرات.

كل ما يحيط به أصبح يساعده على تحقيق دوره، فهو شديد الجاذبية، سريع التأثير؛ هيئته تدل على الانتماء لعائلة عريقة منعّمة، ومراهقته متجهة صوب الدعوة والمسجد والحلقة والمحاضرة.. وكل تلك السمات عوامل جذب، ووسائط متعددة تتقدم بين يديه لتقدمه بشكل أقرب للتأثير على المتحدثين إليه.

لا غرابة حين وقعت أحداث الكويت وما تلاها، وبدأت سخونة الأجواء في بلده أن يكون مشاركًا فعالًا بكوكبته المختارة من الرفاق تحت العشرين!

ها هو الآن وجهًا لوجه أمام سجل حافل، وأسئلة محددة لا يستطيع الخلاص منها؛ لأنها لم تكن تتم في الخفاء، ولا تحدث على انفراد.

سنّه وشكله تشفع له في التخفيف، ويظل القيد حرمانًا وعذابًا لا يحتمله

إلا القلة، لا يطيق أن يسمع من أحدهم حديثًا غير إيجابي عن شيخه، وإذا حدث هذا فلا يتردد في التفنيد والدفاع المستميت، أو ينطوي على نفسه مرددًا بصوت مسموع:

وَإِذا أَتَتكَ مَذَمَّتي مِن ناقِصٍ فَهِيَ الشهادَةُ لي بِأَنِّيَ كامِلُ

إعجابٌ لحد الانبهار، وعاطفةٌ متوقدة متفلتة تزداد مع البعد اشتعالًا، حين يلتقي به مصادفة في أحد الممرات أو المعابر يهجم بعناق حار، ودموع غزار، وينسى نفسه ومن حوله، ويصر على اغتنام الفرصة السريعة كأحسن ما يكون، بعد فاصل زمني صعب تجاوز الشهور إلى السنوات.

يبعث إليه شيخه برسالة تثبيت وسلوان، ويبثّه بعض مشاعر الحب والعرفان، ويواعده ومن معه على صحبة الأبد:

«إن الذي تنطوي عليه الجوانح، وتكنه القلوب منذ أمدٍ ليس بالقصير أن يكون هذا المضيق الزماني والمكاني والنفسي شاهدًا على عقد الأخوة الصادقة، وموقعًا على ميثاق الصحبة الأبدية، تتصافح فيه القلوب والعيون والأيدي، لغتها واحدة، تقول:

نعم. الصحبة الصحبة، لا نقيل ولا نستقيل..».

وقعت الكلمات وقوع المطر على الأرض الظمأى، فاهتزت وربت وأنبتت جميل العبارات، وطيب التحيات، رزمة من الأوراق المخفية تنيف على الثلاث عشرة بخطها الدقيق، وألفاظها التي تكاد تضيء، ولو لم تمسسها نار، قطعة أدبية جميلة، مزدانة بغرر القصائد المنتقاة من الشعر الفصيح، ودرر النثر المتأنق الرقيق ممتنة من كتابك الذي جاء ليجلي أحزاني، ويسلي جناني، فقرأته عشرًا حتى حفظته، وكيف لا.. وهو من.. غالٍ وعزيز على قلبي:

وافى الكتاب فأوجب الشكرا	فـضمـمته ولثمتُـه عشـــــرا
وفضضتُــه وقــرأتـــه فــإِذَا	أغلى كتابٍ في الورى يُقْرَا
فمحـــاه دمعـــي مـــن تحدُّرِه	شوقًا إليك فلم يدع سطـــرا!

«مشاعرك الفياضة، وعواطفك الجياشة، وأحاسيسك المرهفة قد حلقت بي فوق الغمام..».

« لقد غابت بعدكم بهجة القلب، وغاضت مسرة النفس، وانعدم بهاء الأيام، ولن ينتزع أشواك الحزن من قلبي إلا الاجتماع بكم..».

« في اليوم الذي أسمع فيه صوتك الندي الشجي أطير فرحًا، وأظل سعيدًا يومي ذاك كله..».

« هل رأيت إنسانًا تخلى عن قلبه النابض أو روحه المتوقدة؟ أنت قلبي وروحي، والتخلي عنك تخلٍّ عن الحياة ذاتها، واستسلام للموت الناجز البغيض..».

لن تطمر الأحداث في ذاكرته ذلك اليوم: (السبت، الأول من شوال، لسنة ١٤١٧هـ- ٩/ ٢/ ١٩٩٧م)، في العاشرة وتسع وثلاثين دقيقة من صباح عيد الفطر، كان كل ما يحلم به ذاك الفتى هو النقلة إلى غرفة (١١٥) في الجناح الثاني؛ حيث يكون الشيخ، لقد تجمعت فيها كل أمانيه.

ويعزز هذا حلم منامي رأى صاحبه أن شيخه أجازه برواية الحديث النبوي عنه بإسناده على طريقة العلماء المسندين، وكتب له الإجازة بالحنّاء!

-تفاءل بالرؤيا حسنًا.. وتساءل في أعماقه عن سر الحنّاء.. هل هو رمز خفي عليه فهمه؟ أم هو الرائحة الطيبة.. والاستخدام صديق البيئة!

يتسلل ثانية عبر رسالة قصيرة تحكي سلام الوالدين والزوار، و(رقية)

الصغيرة ورؤيا رآها في شيخه « رأيتك في أحسن صورة، النور يشع من وجهك، والابتسامة تعلو محياك، وقد زرتنا في منزل جميل وواسع، وفرشنا السجاد الجديد، واحتفلنا بمقدمك السعيد، ثم حانت منك التفاتة لأخي الأصغر (ع) فابتسمت وقلت:
والله إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم»!
يجتمعون بعد فراق طويل، ونزف العواطف لا يتوقف، وكأنه ينتقم من أيام الصد والبعد، ويعجز اللسان أحيانًا أو يخجل، فتنوب الرسائل المسطورة في نقل المشاعر.
والقصيد هذه المرة مبتكر، وليس بالمنقول المستطر:

حبي تلبسني فليس مفارقي ... ما بيننا هوت المعالم والصُّوى
هومسمعي،هوأضلعي،هوأدمعي ... هو مصرعي، لا أبتغي منه الدوا!
سيقول عني الخدن: ضل سبيله ... ما ضل صاحبك السبيل وما غوى
كل الذي أشكوه أني مرةً ... أحسست أن بخافقي جمرًا كوى
فذهبت طالب طبّه من حبه ... مسترحمًا، ولكل قلبٍ ما نوى!
ففقدت بين يديه قلبي كله ... فلديه ضيعت الفؤاد وما حوى
فأنا أعيش بلا فؤادٍ طاويًا ... وحدي،أبِيتُ،وإنأَبَيتُ،علىالطوى
فاشفع إليه يرد بعض حشاشة ... مستدركًا روحًا بعهدته ذوى!

(الخميس ١٧/ ١٢/ ١٤١٧هـ - ٢٥/ ٤/ ١٩٩٧م) الحاير.
يُتمّ يوسفُه حفظ القرآن، ويقرأ المطولات، ويراجع ألفية ابن مالك في توثب وطموح وهمة، لا يضعفها إلا أقاويل الإفراج، وحكايات الخروج، وشائعات العفو التي تحققت أخيرًا؛ ليجد طريقه إلى الحرية والأسرة والحياة الجديدة بعد أربع سنوات مثقلات!

المشاريع المؤجلة يجب أن تجد طريقها للتنفيذ، التجارة التي يرضعها الأطفال هنا مع لبن أمهاتهم، في محاولات دؤوبة يتأخر فيها النجاح ولكنها لا تمل، والتجربة الفاشلة هي تلك التي عملناها ولم نستفد منها درسًا، والتجربة الناجحة هي تلك التي صنعت لنا الخبرة، ومن سار على الدرب وصل «قصيمي في سفينة ألقى نفسه في البحر حين رأى لوحة كتب عليها: تكثر القروش هنا!».

استقر المقام بـ(ع) بالزواج والبيت الصغير في (جدة) والإنجاب، ورؤية قطعة منه تتشكل في هيئة مصغرة من ذاته ليمتد من خلالها اسماً ورسماً، كلما اقترب منها زادته شوقًا إليه حين تمشي أمام ناظريه، وتحن إليه، وتقعد في حجره، وتبكي حين لا تجده هذه هي تحولات الحياة وسنتها الجميلة.

يُفرَض على شيخه مرة أن يتدخل غير راغب، فيتكلم بلغة الأب القاسية معتمدًا على الثقة و»الميانة» دون أن يراعي مشاعر الابن فتكون القاضية، وينسكب الماء على عهود الصحبة ومواثيقها المدونة!

هل كان شيخه مخطئًا؟ ربما كما حكى الله عن داود حين قال « لَقَدْ ظَلَمَكَ..» [ص: من الآية: ٢٤] قبل أن يسمع من الطرف الآخر! «وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» [ص: من الآية٢٤].

ويغيب الوجه الصبوح، ولكنه لا يغيب عن الذاكرة، وتكبر الأسئلة ولكن لا سبيل إلى الجواب.

ينتظر الناس كثيرًا في معظم الأحيان حتى يصفحوا عن الآخرين، يجب أن تقدم الصفح كاملاً وسريعًا.

هل تعرف كيف تموت منتصرًا؟ توقّف عن تسجيل الأخطاء والمظالم التي وقعت لك، وإذا كنت في خلاف مع شخص ما؛ فاتخذ المبادرة، وواجه المشكلة، واطلب الصفح.

في روايته (عاصمة العالم) كتب (آرنست همنجواي) قصة الابن (باكو) مع والده.
عاشا في إسبانيا، وتوترت علاقاتهما، ثم تحطمت، وغادر الابن المنزل، الأب يبحث طويلاً.
أخيرًا وضع الأب إعلانًا في الجريدة: «ابني.. قابلْني غدًا ظهرًا أمام مكتب الجريدة، لقد صفحت عن كل شيء، إنني أَحبك»!
في اليوم التالي كان هناك (٨٠٠) شاب، كلهم يحمل اسم (باكو) مصطفين أمام مكتب الجريدة يطلبون الصفح.
السؤال يكبر عن (ع) وعن أخيه الأصغر الذي تنبأ في المنام أن سيكون له شأن، أي شأن.
هو لا يريد من فتيان يحملون ذات الرموز والأسماء أن يصطفوا لطلب الصفح، بل يجب أن يعلن عن حبه، ويقف مع خط ممتد من الآباء يطلبون الصفح ونسيان الماضي والعودة من جديد إلى حيث كانوا.. يجب أن يطمئن على أرواح عرفها وعايشها وأكل معها وتنفس حبها.. أنها ما زالت بخير..

يطل من خاطري المكسور غُيّاب	كأنجم في مسامِ الليل تنسابُ!
يا للخُطَا.. كيف لم تقلق دروبك يا	حُلمًا ً يُهدهد روحي كلما آبوا
هم لقنوا الكرم سر الخمر وانصرفوا	فعاتبتهم عناقيـــد وأنخـــابُ!
خطوا ملامحهم في الماء واكتشفوا	أنا كما تَدَّعِينا الكَرمُ أحبابُ!
يا غيثهم كيف لم تطفئ لظى ظمئي	لم يَعذُب الماء لولا أنهم ذابوا!
أبكي وأَطْرُقُ باب الذكريات سُدى	لم يفتحوا.. فاستحَى من دمعيَ البابُ!

«يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» [يوسف:٨٧].

67

بين خيّان الأثل



صحبه حين كان طفلًا في السادسة، يذهب في حاجة أمه من قرية (البُصُر) إلى جارتها (المنسي) ثم (النخلات)، يقطع مسافة الرمل الماثلة أمامه، ويمضي بين (خِيَّان) ، ويرتاع لنباح الكلاب المرعب..

طفل يمضي وحيدًا، يفزع إلى مخزونه، ويهمهم بما لقنته أمه لمثل تلك المواقف:

«وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا» [طه: ١١١- ١١٢].

يعي الآن جيدًا الثقة التي كانت تمنحها له تلك الكلمات، ليمضي في طريقه غير آبهٍ بنباح الكلاب، ولا بقربها منه، وهي تعدو وراءه فيطيق ألا يهرب منها، بل يلتفت زاجرًا، وهو مثقل بطريق طويل، عليه أن

يقطعه حتى يغشى تلك البيوت الطينية، أو المزارع الممتدة حيث انطلق، أو حيث قصد.

وصحبه حين تعلق بيد والده، وأصر على أن يذهب معه للمسجد الجامع في القرية، ويصفّ إلى جواره في صلاة العصر، ولا تثريب عليه أن يثني رقبته ووجهه وهو ساجد ليتفقد والده ويراه كيف يفعل، ثم يعود بوجهه إلى الأرض، ويتمّ صلاته، ويضع يديه على فخذيه منشغلاً بالعدّ، واحد، اثنين، ثلاثة.. ومع كل رقم يطوي إصبعًا.. كما يرى الناس من حوله يفعلون، وخاصة من إلى جواره، ويعود إلى منزله مفاخرًا أمام والده بأنه عدّ إلى مائة.. ويضحك الأب الحنون، ويحضن صغيره بحبور، ويلقي إليه أن الأمر لا يتعلق بعملية حسابية، بل هو عدّ التسبيح «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، ويظل هذا دأبه من يومئذٍ، فهي عادة محفورة، وعبادة مسطورة، قد تبدو شيئًا عاديًا، ولكنها تبني في القلب إيمانًا حين تكتنزه الحياة، وتنفخ في الروح حياة حين يميتها الحدثان.

وصحبه حين ناهز البلوغ، أواخر الدراسة الابتدائية؛ فهجمت عليه الشكوك، وتغشاه الوسواس الخناس في طهارته وصلاته، وفي وقت البرد يتشقق جلده من تكرار الوضوء والاغتسال، ويظل شاكًّا، ويبادر أن يدرك الفريضة مع الإمام حتى يخلص من الشك، وأنى له ذلك، وهو يبقى طويلًا في بيت الماء، فيعيد الصلاة، ثم يعيد التي أعاد، ثم ينصرف شاعرًا بالتأنيب والتوبيخ على صلاة لم تطب بها النفس، ولا يكترث لشيخ عامي يعاتبه «يا وليدي لا توسوس، هذا من الشيطان..».

طالب علم يكبره يساعده ليساعد نفسه، جلسة واحدة فحسب، وِردٌ يوميّ في الصباح وفي المساء، وحماس منقطع النظير تمثل في اقتناء (الأذكار للنووي، الكلم الطيّب، الوابل الصّيّب، المأثورات..)

وانتقى منها ورده الذي ظل يقرؤه نظرًا لبضعة أيام، ثم حفظه، وحفظه الله به، فهو زاده ورفيقه وأنيسه ومصدر طمأنينته منذ تلك الأيام، أيام الطفولة المتأخرة، إلى صباحاته وأماسيه الحاضرة، يطوّلها الفراغ، ويقصّرها الشغل، ولا يقطعها قاطع، يحاكي فيها خلة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: إِنَّ فَاطِمَةَ -عَلَيْهَا السَّلاَمُ- أَتَتِ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَقَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ، تُسَبِّحِينَ اللَّهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللَّهَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ. فَمَا تَرَكْتُهَا بَعْدُ، قِيلَ: وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ: وَلاَ لَيْلَةَ صِفِّينَ».

صحبةُ حياةٍ امتدت لما يربو على أربعين عامًا؛ منحته ثقة جميلة، واطمئنانًا عاطفيًا وتفاؤلًا إيجابيًا مهما كانت المعطيات غير إيجابية.

وصحبه حين توجه للدراسة الشرعية في معهد ديني، متنقلًا بين درس قرآن إلى تفسير إلى سيرة نبوية، حديث، فقه، عقيدة، معزّزًا بأدواتها من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب، فظفر بمحفوظ لا بأس به من أصول العلوم وقواعدها ونصوصها.

درس العقيدة الذي انتظره؛ ليعزز إيمانه كان طعامًا لم يسغه، وضاع بين الشبهات والردود، وأعيته الفنقلة «فإن قيل كذا.. فالجواب..».

وكدر نقع الشبهات والردود نقاء الإيمان الفطري البسيط..

مساجلات ومناظرات تاريخية؛ كانت جوابًا مبتكرًا لمشكلة قائمة، ثم ظلت دوائر التعليم تعيد إنتاجها، وجعلتها أساسًا لعرض العقيدة، وصارت النصوص لا تمرّ إلا لمامًا، وبأسلوب مجتزأ، حتى إن القارئ يمرّ بالآية فلا يخطر في ذهنه إلا الجدل الكلامي والحوار المنطقي المجرّد، وصار عوضًا عن انتظار الدرس ليزداد إيمانًا، يفرح بخلاصه منه،

محاولًا نسيانه، وهو يسأل نفسه عن الفرق بينه وبين درس الرياضيات؟ ويجيب بأن الثاني محايد لا يخاطب منطقة الإيمان، بينما الأول يخاطبها بما لا يناسبها عمرًا ولا عصرًا.

وفي نهاية مرحلته الثانوية؛ يكون على موعد مع ثورة العقل وحركة الفكر وطوفان الأسئلة الوجودية.

حزم أمره صوب الإيمان، وبحث عن دعمه المعرفي، وعكف على مدونات حديثة، غربية وعربية، (قصة الإيمان)، (الله يتجلى في عصر العلم)، (العلم يدعو للإيمان)، (الطب محراب الإيمان)، وأدمن الدعاء والتضرع واللجوء والابتهال، وظل يدافع الأسئلة التي أعياه جوابها حتى هدأت نفسه، وصارت معاني الإيمان مستقرة في ضميره؛ مما أتاح له أن يداوي تلك الشكوك والخطرات لدى آخرين من أصحابه أو طلابه، مداواة الخبير العارف المجرّب.

فكان اعتقاده يقينًا لا تلقينًا، وكلما عرف منطق الشكّ عرف منطق الإيمان، «قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» [البقرة: من الآية ٢٦٠]، وفي المأثور النبوي: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ».

وصحبه حين قارب الرجولة، وكاد أن يدلف إلى الجامعة، وساورته الشكوك في علة جسدية ظن فيها عطبه، وارتقب رسول الموت كلّ لحظة، وتهرب من إجراء التقرير الطبي لنهاية الدراسة، وأحسّ دبيب الفناء يسري في جسده، يرسّخ هذا الإحساس إقبال الليل، وامتداد الظلام والخلوة بالنفس، ودار في خياله حال والديه وأهله من بعده، فساقه الإحساس إلى حالٍ أكثر إمعانًا في اللجوء والتضرع، وصار وهو يلتحف فراشه، يناديه ويناجيه ويسأله، ودموعه تبلل وسادته، وهو يطلب ربه ويواعده على الخير!

وصحبه حين وجد نفسه بين فتية صالحين، رجى من رفقتهم طيب

المقام؛ فهم يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، ويحفظون حديث نبيهم، ويتواصون بالخير والحق والصبر والدعوة، فحفظ بينهم كتاب الله، وراجع تفاسيره الشهيرة، وحفظ قسطًا طيبًا من السنة النبوية، وسابق وسبق، فحفظه الله من كثير من نزق الشباب وطيشه وشرته، وجعله في نظر مَنْ حوله فتى في مسلاخ داعية، ينتقل بين زملائه يهدي هذا كتابًا، وهذا مجلة، ويصاحب ذاك على الخير ويزور ويُزار، ويرتب البرامج والمناشط والرحلات والأسفار بحماس واندفاع، مما ربّى فيه روح المبادرة والقيادة وأهّله لمواصلة الطريق وهو يدعو ربّه أن يجعله أفضل مما يقولون، وأن يغفر له ما لا يعلمون، وألّا يكله لنفسه طرفة عين.

وصحبه حين جلس إلى العلماء من أساتذته الذين أصبحوا زملاء ورفاق عمل، فاقتبس من هديهم، ونهل من معينهم، وانتسب إليهم، ثم امتدت صلته بآخرين من أصحاب المقامات الرفيعة في العلم والزهد والعبادة؛ فتردد على مجالسهم وأخذ عنهم، وحادثهم، وحظي بشيء من مبارك دعواتهم وطيب مجالسهم.

وصحبه حين تجلبب بالمشيخة، فقبلها في سويدائه وسُرّ بها، وتخلى عنها في علانيته تظاهرًا بالزهد فيها، وتكلفًا للتواضع.

وَكُلَّـــمَا بَاحَ لِسَــانِي كَـــارِهًا   نَادَى لِسَانُ الْقَلْبِ؛ أَنْ لَمْ تَصْدُقِ

فستره ربُّه عن عيون المحبين؛ لئلا تطيب نفوسهم منه، أو تخيب ظنونهم به، وعن عيون الكارهين لئلا يشمتوا، وصبر عليه، وأمهله، وأسمعه من طيب الثناء ممن أحسنوا الظنّ به ما لم يكن له في حساب، وألهمه من جميل الصبر ما تغلّب على طبعه الحسّاس المتألم، فمضى دون أن تعثره السهام:

فَصِرتُ إذا أَصابَتني سِهامٌ تَكَسَّرَتِ النصالُ عَلى النصالِ
وَهانَ فَمــا أُبالي بِالرزايا لِأَنّي ما انتَفَعــتُ بِأَن أُبالي

وصحبه حين ألفى نفسه في الجبّ وحيدًا، قد رأى العذاب، وتقطعت به الأسباب، فصاح يائسًا إلا من روح ربه، منقطعًا من الطمع إلا فيه، مرددًا دعوة ذي النون: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

مدمنًا دعوة موسى:

«اللهم لك الحمد، وأنت المستعان، وعليك التكلان، وإليك المشتكى، وبك المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

طار بجناحين، أحدهما مخضوب بالحب والثناء والتبجيل.. فهو يردد ميثاق الصحبة والحب:

إنِّي أُحبُّكَ سَيِّدِي..
أَشْتَاقُ رُؤْيَةَ وَجْهِكَ الْمَحْجُوبِ
أَشْتَاقُ مَجْلِسَ أُنْسِنَا وَحَدِيثِنَا
هَذَا لَعَمْرِي غَايَةُ الْمَطْلُوبِ
حُبِّيك شَيءٌ مِنْ وفاءٍ
خَافِقِي يُطْوَى عَلَيهِ
وَأَنْتَ رَبُّ قُلُوب
حُبِّيك كَالنَّفَسِ الّذِي أَقْتَاتُه..
حُبِّيك كَالدّم
كَالشُّعَاعِ بِنَاظِرِي..
نَفْسِي إِلَيْكَ جُؤارُهَا وَصُمُودُهَا
وَصَرِيخُهَا مِنْ دَمْعِيَ الْمَسْكُوبِ

والآخر جناح العجز المخضوب بالاعتراف؛ يسكب فحواه في شيء يشبه الشّعر:

وَلَا عَيْبَ لِي أَخْشَى يُفَرّقُ هِمَّتِي	سِوَى وَلَعِي بِالْكَاعِبَاتِ النَّوَاعِمِ
أَظَلّ نَهَارِي سَابِحًا فِي بِحَارِهَا	خَوَاطِرُ قَلْبٍ مِثْل أَحْلَامِ نَائِمِ
أَمَانٍ كَقَبْضِ الرِّيحِ تُدْنِيكَ لِلرَّدَى	وَمَا أَنْتَ مِنْهَا مَا حَيِيتَ بِسَالِمِ
تَلَذُّ لِعَيْنِي شَهْوَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ	وَلَو أَسَرَتْنِي بَالطَّوَى وَالْأَدَاهِمِ
وَلَا عَيْبَ لِي إِلّا الْحَيَاةُ أُحِبُّهَا	أُجَنُّ بِدُنْيا ظِلُّهَا غَيْرُ دَائِمِ
وَلَا خَوفَ مِن نَارٍ تَلَظَّى حَرِيقُهَا	وَلَا خَوفَ مِن رَبٍّ بِحوبَايَ عَالِمِ
وَمَا ذُقْتُ لِلإِخْلَاصِ طَعْمًا وَإِنّني	لِنَفْسِي فِيْمَا قُلْتُه غَيْرُ ظَالِمِ
وَإِنّي لَمُخْتَالٌ عَلَى سُوءِ حَالَتِي	أَتِيهُ غُرورًا، رُبَّ بَانٍ كَهَادِمِ!
مُرَاءٍ وَلَو أَني بِدَيجورِ ظُلْمَةٍ	لَبَاحَ لِسَانِي بِالْحَدِيثِ الْمُكَاتِمِ
فَهَلْ لِنَجَاتِي بَعدَ ذَلِكَ مَسْلَكٌ	أَسَائِلُ عَنْه كُلَّ شَيْخٍ وَعَالِمِ
إِلَهِي رَفَعْتُ الْكَفَّ نَحْوَكَ مُوقِنًا	بَأَنَّكَ يَا رَبَّ الْوَرَى خَيْرُ رَاحِمِ
وَأَنَّكَ تُحْيِي الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا	فَأَحْي فُؤَادِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ

وعلّق وقتها تحتها:

«الفرد المخادع لنفسه يتسلى بنقد الناس، ويمتعض من نقد ذاته!».

(١٥/ ٧/ ١٤١٨هـ - ١٦/ ١١/ ١٩٩٧م).

الصحبة آنست وحشته وطمأنت خوفه، ورأى بعينه أثرها الجميل، جعلت نار الوحدة بردًا وسلامًا، وأبدلت خوف الحياة أمنًا، وسترت أعظم ما كان يحاذره ويتقيه، وكأنه لم يكن، مع أنه بادٍ للعيان، منطوق به على أكثر من لسان، مكتوب مدون.

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم؛ فالمخاوف كلهن أمان

وكان أكثر ما يعرفه من نفسه جهلها، وأكثر ما يغريه من رحمة الله ستره، وأعظم ما يقدمه ألا شيء عنده كي يقدّمه؛ إلّا أن يقول: يا رب!

نعم. الصحبة..

« اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ».

اللهم اصحبنا بصحبة، واقلبنا بذمة، اللهم وارزقنا قفل الأرض..

اللهم اصحبنا بنصح، واطو لنا الأرض، وهون علينا السفر..



68

أراك جميلا..



بينما هو منهمك في مكتبه المتصل بالمتجر، يبيع الذهب والأحجار الكريمة، رنَّ جرس الهاتف ليسمع صوتًا يحييه.

- أجاب بلهفة: أهلًا، وعليكم السلام ورحمة الله.. «مين بالله؟»

- أبو معاذ!

- أبو معاذ؟! ما عرفت مين.. للساع.. ذكرني بالله!»

- سلمان!

- «سلمان العودة»؟!

- نعم بلحمه وشحمه، إن كان له شحم!

- «معقولة»؟

- «معقولة»!

- «يا الله، يا أهلًا ويا سهلًا ويا مرحبًا.. كيفكم سيدي؟ وكيف

أخباركم؟ وكيف أهلكم؟ وكيف المشايخ معاكم.. إن شاء الله تكونوا جميعًا بخير»؟

مكالمة لم يكن فعلًا يتوقعها بعد أربع سنوات عجاف.. فقد فيها صوته الذي شدّه لأول مرة عبر الشريط، ولم يفقد روحه التي ظلت تعيش معه لحظةً بلحظة.

جاءه الصوت على حين يأس، يُروي ظمأ السنين، ويَروي ملحمة الوفاء والحب.

مرور الزمن، جعل الأمر يخف على السجين تدريجيًا، وتتسع دائرة الزائرين أو المتصل بهم، تحت ذريعة القرابة والنسب والشراكة، حتى صار يحمل ورقة كتبت عليها أرقام شتى لمن يهمه أن يهاتفهم أو يتصل بهم خلال وجبة التواصل الموسمية، ثم الشهرية، ثم الأسبوعية، والتي غدت قبيل خروجهم أمرًا عاديًا متاحًا كلما دعت حاجة، أو حانت مناسبة!

حاول (جميل) منذ البداية أن يتصل بالأهل وهيهات فالهاتف مقطوع، كتب في أول رمضان بعد المحنة رسالة للابن البكر (معاذ) يرجوه فيها أن ينضم وشقيقه الصغير (عبد الله) إلى أبنائه في الحرم والصيام والإفطار، ولم يستجب الفاكس أبدًا، وفشلت كل محاولاته في التعرف على عنوان آخر يصل عبره إلى أهله ليمنحهم الكلمة الطيبة.

بعد شهور طويلة عاد الدفء إلى الهاتف، واتصل بأهل صاحبه ووالدته يقويّ عزائمهم ويشعرهم أن في الدنيا من يتجشم الخطر ولو ليقول: «السلام عليكم، نحن معكم»!

اتصل ووصل، غير هيّاب ولا وجل، ساحقًا كل أشكال الرهبة، معرضًا شخصه لأصبع الشك، و مقامرًا بموقعه التجاري في علاقة شخصية ووفاء جرته إليه أخلاق النبل الإنساني.. في حلكة أدبر فيها

قريبون، ووجل فيها ندماء كانوا يشاركونه النهار، فلما أقبل الليل أدبروا وتستروا باسم (فاعل خير).
مصدر الإعجاب أن يكون هذا من إنسان لا يتصل بقرابة النسب ولا الجيرة ولا الشراكة الدنيوية الباهتة، سوى نسب الإيمان وجيرة الحب وشراكة الفكر والرؤية والمصير!
أيام الامتحانات كان يدع مشاغله جانبًا ويتصل يوميًا بمتابعة أبوية يسأل عن أداء الصغار، ويزوّدهم بدعواته ووصاياه.
لم يكن ثمة علاقة قديمة، العلاقة بدأت بصدفة قذفت بشريط (أسباب سقوط الدول) إلى مقعد الراكب في سيارته، فظل يحدق في هذا الشيء إلى جواره ماذا عسى أن يقول؟.. كان يتأمله حتى قرأ عنوانه فجذبه للشريط أن عنوانه يوحي بصوت مختلف لا يؤدي دور الوعظ الديني التقليدي فحسب.. هاه، لم يكن يظن أن في السعودية نفسًا دينيًا يعالج في جزء من خطابه قضاياه التي أحب: الفساد السياسي، والمالي.
استمع (جميل) خلالها إلى مفاجأة قادته إلى اكتشاف ذلك الذي كان يحسّه صوتًا جريئًا في محيطٍ صامت.
ذهب بعدها إلى مكتبة (الموعظة السمعية) وطفق ينقّب حول كل ما يجد من أشرطة هذا الشيخ واستمع إليها.. وهو يضحك على نفسه، ويقول: أن أرى هذا المتحدث في «كان» الفرنسية سائحًا أقل غرابة عندي من أن يستمع (جميل) إلى أشرطة دينية من شيخ نجدي!
أول اتصال مباشر كان فاكسًا يسأله فيه عن فتوى د. عبد الله المَشَدّ في جواز بيع الذهب بالآجل، كانت حجة ليبدأ الاتصال، ولم لا يبحث موضوعًا كهذا، وهو شيخ الجواهرجية بجدة، ووالده من قبل كان كذلك.
تجمع لديه من الاستماع المتصل والاكتشاف المفاجئ الكثير من نقاط

التوافق والتطابق الفكري والشخصي، والتي صمدت فيما بعد أمام كل العوامل لتصنع علاقة راسخة متينة لا تبليها الأيام، ولا تغيرها الأحداث والمواقف.

كما تجمّعت لديه عدة مآخذ:

الحديث عن موقعة (تربة) وأن الفريق المهاجم كان يصلي ويقرأ القرآن، على حين أنك لا تسمع لدى الفريق الآخر إلا صوت الصحون والقدور!

محاضرة خاصة عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.. وعدَ بها ولا يدري ما هو قائل فيها، ويخشى أن تكون مفاصلة مع المذاهب والمدارس الأخرى التي لها مؤيدوها وأتباعها!

قال في جواب سؤال.. إن علاج التلفاز هو التحطيم، وهو جواب غير مدروس اقتصاديًا وعمليًا.

قطعيّة في مسألة غطاء الوجه دون إشارة إلى الخلاف.

سؤال عن التدخين أجاب عنه بأنه حرام، ولم يقرن ذلك بأدلة عقلية أو طبية أو مسوغات من شأنها أن تجعل السائل يقتنع بالإجابة أكثر.

رسالة مفاكسة أخرى تطلب تحديد موعد هذه المرة، وصاحبها يقول إنه يتفق مع صديقه الجديد بنحو ٩٠٪ مما يقول، ويختلف معه في ١٠٪ ويريد أن يحاوره حولها!

(فضيلة الشيخ.. هل أطمع أن أختص بربع ساعة من وقتكم؟ وإذا تكرمتم بالموافقة فآخر أيام الأسبوع أفضل؛ حيث فيها رحلات من جدة إلى القصيم مع عودة في نفس اليوم، أعلم أن وقتكم مستنزف في الخير، إلا أن شفيعي أن ما أود محادثتكم فيه ليس موضوعًا شخصيًا، بل ملاحظات في طريق الدعوة...).

(٢٦/ شوال/ ١٤١٣هـ - ١٩/ ٤/ ١٩٩٣م).

رسالة مشحونة بالحب، منقوعة بالجمال، موشّاة بالذوق.. هكذا قرأها صاحبه المتلقي!

الموعد: يوم (الجمعة / أواخر ذي القعدة ١٤١٣هـ - ٢١/ ٥/ ١٩٩٣م).

لقاء سريع في مكتبه بجوار التخصصي قبل الصلاة.

تحدث في أول اللقاء عن نسبة المتدينين لتكن ١٠٪ ونسبة الطرف الآخر مثل ذلك والنسبة العظمى (٨٠٪) من المسلمين العاديين، وعاتب الشيخ على تركيزه على الفئة الأولى، ودعا إلى العناية بالنسبة العريضة التي يسهل جذبها والتأثير عليها إذا أحسنت مخاطبتها، وعولجت همومها..

في الطريق إلى الاستراحة كان يقول: يكفي المشايخ لو علموا الناس تمثيلًا عمليًّا لحديث: «يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ.. وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»؛ فهذا سيصنع جيلًا مؤمنًا يقول كلمة الحق دون خوف!

شعر بأنه يتحدث مع صديق قديم، كيف لا وقد استمع إليه عشرات الساعات عبر الأشرطة الصوتية، وتبسط في الحديث، روحه المرحة ودعابته الموجهة جعلته يسوق قصة القصيمي الذي قال لصاحبه: «إن العالم في ضياع إلا هذه البلاد، وهذه البلاد لديها مشكلة عدا مدينته، وحتى مدينته دخلها الأجانب والغرباء».. وانتهى به المطاف إلى أن أدان الجميع واستثنى نفسه!

ثَمّ نماذج يصُدقُ عليها هذا، وكلاهما لا يذهب إلى التعميم، هي طرفة تؤخذ بعفويتها، وليست حكمًا قطعيًا على أناس متفاوتين في رؤاهم وأخلاقهم!

كان لقاء طيبًا جميلًا شعر كل منهما بأنه كسب صاحبه، وهكذا هي

الأعمال الناجحة، ليست كسبًا لطرف وخسارة لآخر، هي ربح للبائع والشاري معا.. «ربح البيع.. ربح البيع».

في رمضان يكون اللقاء الثاني في جدة على ضفاف رحلة العمرة المعتادة، والشرط أن يكون اللقاء خاصًا.. واقتصرت الدعوة على الدكتور الصَّدِيق (عدنان المزروع) جاءت الدعوة للدكتور عدنان على شرف « أحد رواد الفضاء! » ولم يعرّف له من يكون الضيف!

وجاء هو إلى الدعوة والتساؤلات تملأ عقله.. وكأن هذه الطرفة كانت إلهامًا؛ حيث تحققت جزئيًا في عصر الفضائيات والبرامج الإعلامية بصورة مختلفة، وبعد خمس عشرة سنة أو تزيد!

د.عدنان هو الشخص الملائم، هو ذو أصول قصيمية، وشخصية حجازية، فوجوده سيقضي على الأسئلة المستترة لدى الضيف حول مسوغ العلاقة مع أناس يضيفهم مجددًا لحياته، غير أولئك الذين عايشهم طويلًا من مشاكليه وأبناء بيئته.

نحتاج أن نتدبر كيف تتم العلاقة.. وكم يخسر المرء من صداقات رائعة لا يمنعه منها إلا أنها لم تكن مألوفة! وكم هو جميل أن نتمتع بالذكاء العاطفي الذي يمكننا من تأسيس العلاقات الإيجابية دون أن نسمح لجانب الهيبة أو الحذر أو الغرابة أو التردد أن يفسد جمالية الحياة التي لا تطيب إلا بالأرواح المتآلفة.

زيارة عائلية تحكم الروابط بين الأسرتين، يتعرف أهل القصيم على (حي البغدادية) ويرون (الشيش) التي ركنت في المستودعات، وتم الاستغناء عنها تحت تأثير الحديث عن حكم التدخين، وتعبيرًا عن روح الصفاء والجدية والاستعداد التي يحملها هذا الرجل الجميل.

يندمج الصديق الجديد في مشروع حفظ القرآن مع الشيخ التقي (فتحي المغازي) ويلح في الدعاء ألا يقبض الله والديه حتى يتم حفظ القرآن؛

ليكون شفيعًا لهما عند الله، ويحس بأن الله استجاب دعاءه، فصحة والديه في تحسن دائم، فليتباطأ في الحفظ إذًا، ويترك سورة الأنفال لفترة أطول استبقاءً لوالديه وشُحًّا بهما!

ثقة في التعامل مع الله، وإيمان فطري عميق، وحسن ظن، وأعجب ما يعجب هو القدرة على الإضافة والتطوير وتعديل أسلوب الحياة، والانخراط في مشروعات إيمانية أو ثقافية جديدة دون إذعان لخلفية خاصة، أو مرحلة عمرية!

أبناؤه: أحمد وناصر.. هل كان لأحد الاسمين علاقة بالراحل (جمال)؟!

لم لا.. والكثيرون كانوا يعيشون حلم النهضة، ويعتقدون أن (مصر) خليقة بقيادة العرب نحو المجد.. وهي كذلك لو أرادت.

الشهادة أن الرجل جميل كاسمه، بريء من التعصب، شديد الوضوح والشفافية مع نفسه، غير ملتزم بأي شرط إلا أن يكون شرط الحق والصدق والإخلاص.

تعرّف صاحبه النجدي جيدًا إلى العائلة: (ديمة وندى) وإلى والدتهم الدكتورة سعاد جابر، ووجد الأسرة النموذج في علاقتها العائلية الدافئة، الوصية بالدعاء لهم في كل مناسبة، الطيبة والصفاء والهدوء والإيمان هي القدر المشترك، وماذا عسى أن يكون الاختلاف بعد ذلك؟

امتدت المعرفة لأزواج البنات، وزوجات الأولاد، والأحفاد، علاقة راسخة ممتدة، أسر عديدة تجمعت في روح واحدة «وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ» [النور: من الآية ٢٦]، خلقوا من طينة واحدة، فتمازجت النفوس وتداخلت، وتشامت فتعارفت.

الظرف والنكتة حاضرة، كيف لا يصنعها وهو الذي يعالج أعقد قضايا الاقتصاد والتنمية عبر مقال في جريدة (المدينة) بواسطة حكايات

تستلقي معها ضاحكًا ودموعك تنهمر.. فهو ضحك كالبكاء.. وشر البلية ما يضحك!

قد يتندر على نفسه.. فارسي يتزوج امرأة ذات أصل وفصل (عتيبية من الأردن)!.. أين دعاوى الكفاءة والنسب.. لم لا تقام هنا؟!

أمّ أحمد نموذج حي للخلق الفذ، والأداء المتميز، والديانة والثقافة العالية.

في هذا المنزل تكتشف للتدين صيغة عالية، هي لا تنتمي إلى التصوف، وإن أخذت منه الرقة والصدق والصفاء، ولا تنتمي إلى الوهابية وإن كانت تشاطرها التوحيد والتجريد وازدراء الخرافة وتقديس الولي.. تتعامل مع التديّن من مصادره الأصلية دون حاجة إلى «تلوين» أو وسائط.

نمط من التدين الحجازي يتميز بالشدة والتحري في الأموال، فلا يقبل قليلًا ولا كثيرًا من المال تحت بند التوسع والاحتمال، والمحل التجاري المخصص لبيع الذهب يشهد يوميًا حالات من النقاء السلفي في التعامل مع الزبائن بغاية الوضوح والنصح، مع قابليتهم للاستغلال لعدم معرفتهم بنمط السلعة.

وفي حالات الجدل والبحث الفقهي المجرد يميل دومًا إلى الرأي المتشدد في الورع، واستبراء العرض والجيب دون أي استعداد لقبول «التأويل».

ومن هنا تأتي الحملة التي يدعو إليها على الفساد المالي في الأجهزة الحكومية متساوقة مع موقف شخصي يتسم بالانسجام التام مع المبادئ التي يؤمن بها ويصر عليها.

تدين يتميز بعفة صادقة في شأن المرأة، فمع الحضور العفوي لها في المجلس أو المائدة إلا أنك حين تصحبه ستجد إنسانًا تظن أنه لن

يحاسب على نظرة أو ما فوقها، أو حتى تعليقة عابرة، إذ لا شأن له بذلك كله.

في إحدى السفرات، اصطدمت سيارته في بيروت، وبالذات في (سن الفيل) بأخرى، ونزلت من السيارة المصدومة فتاة في ريعان صباها كانت هي القائدة.. ما جعل سعاد تصيح به.. ألم تجد غير هذه الفتاة لتصدمها!

ويتميز بموقف مبدئي معلن ومكشوف لا يقبل الجدل في رفض كل صور النهب والعدوان للأموال والعقار، والشجاعة هنا حاضرة للدعوة العلنية الدائمة للعدل الاجتماعي وردّ الحقوق لأهلها، ومقاطعة مهرجان المجاملة والإطراء حتى لتراه أحق بقول المتنبي:

وَلا عِفَّةٌ في سَيفِهِ وَسِنانِهِ   وَلَكِنَّها في الكَفِّ وَالفَرجِ وَالفَمِ

سأل ذات مرّة صاحبنا عن حديث الأعرابي وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- «لقد تحجرت واسعًا» وتبيّن أنه سيوظف اللفظ لمن يتحجرون أرض الله الواسعة بغير حق!

تقوى في المال، وأخرى في النساء، مزمومة بالخوف من الله، والاستعداد للمعاد، ومنزل عامر بالخير ومجالس الذكر وتلاوة آي الكتاب الحكيم خاصة في الهزيع الأخير من الليل.

على أنك ستجد التسامح في الصور والدمى الصغيرة المبثوثة ضمن زينة المنزل وجمالياته دون مبالغة مما يذكرك بأنك في جدة ولست في الرياض فضلًا عن بريدة!

وحين يحتفل من حوله بالميلاد النبوي كان هو يكتفي بأن يجمع أصحابه ويدعو الصديق (عبد الوهاب) ليمنحهم درسًا في السيرة النبوية بطريقته الفذة المؤثرة!

حين أوشكت سعاد على الغرق في رحلة غوص تايلاندية خاصة مع شريكها كان أهم ما يعنيها في ذلك الموقف ترديد النطق بالشهادتين تجديدًا للعهد مع الله، وختمًا للحياة بالكلمة التي يحبها، والوصية بأولادها توثيقًا لعهد الترابط الأسري المقدس الذي يظلل هذه الأسر الطيبة، وتنجو بأعجوبة من براثن الموت لتزداد إيمانًا مع إيمانها، وشكرًا للخالق العظيم على فرصة الحياة المتجددة!

ولتسجل تجربتها الفريدة في رواية فريدة (امرأة على الحافة).

أربعة هم، ذكران وأنثيان مع العناية بالتربية والتعليم، خفض في العدد، وتفوق في النوعية ما بين طبيب ومهندس ودكتورة وصاحبة دراسات عليا.

تعلّم صاحبنا أن حقيقة التدين واحدة في قيمها الجوهرية، وأخلاقياتها السامية، وصلتها بخالق الكون، وإن تفاوتت في بعض جزئياتها وتفصيلاتها وملامحها المستمدة من البيئة والثقافة السائدة والذوق الشخصي.

الأسفار تسفر عن الأخلاق. (شِعيبْ جرابْ) شهد واحدة من الخرجات البرية مما لم يكن يعهد في بيئته الحجازية، وبصحبة أصحاب المفاتيح، لم يكن يربطه بالصحراء ود أو ذكرى لكنها نشأت مع رجال الصحراء الذين عرفهم وأحبهم، وحتى الشعر الشعبي فهو عنده طلاسم وألغاز وكلمات جوفاء تستخدم للتكسب، ولكن عندما تلا عليه صاحبه أبيات (تركي بن حميد) وشرحها له وجد أنسًا وراحة واستحسانًا لها:

يَامَاحَلَا ياعبيدْ في وقت الاسفارْ   جَذْبْ الْفراشْ وشَبَّ ضَوّ المناره
مع دلةٍ تجذا على واهج النارْ   ونجرٍ اليا حرْك تزايـَدْ عَبَاره

واخير منها ركعتينٍ بالأسحارْ	لا طابْ نومْ اللي حياتِهْ خساره
تلـقاهْ في يومٍ يضِيْعنّ الأفكار	يومٍ على المخلوقْ ما اطولْ نهاره
قمْ في قصيرْ البيتْ حشمهْ ومقدارْ	لو جارْ فادمحْ لهْ ولوبهْ خساره
ترى النبي وصّى على الجارْ لو جارْ	خذ الحذر ياعبيدْ عقبَ النذاره

وصية جميلة بقيام الليل وإيقاد النار وصناعة القهوة، وركعتين في السحر، ودعوة إلى حفظ الجار (القصير) ولو تجاوز أو تعدى...

السفر إلى لبنان؛ حيث شقته في (حي النقاش) والتجول في جنوب لبنان وشماله..

أخرى إلى مصر؛ حيث شقته على النيل، وزيارة المتاحف والمواقع الأثرية، والرحلة إلى الإسكندرية، وزيارة عمه (أبو هاني) -ابن مدينة جدة وأمينها السابق- في منزله، برًا وصلة.. وعبد الوهاب الطريري ثالث الثلاثة في كل حركاتهم وسفراتهم ومجالسهم.

رجل يحسن التعايش وإقامة العلاقات، ويتجنب المشكلات، فيكافئ الحسنة بالحسنة، ويتجاوز عن السيئة.. أوليست عفة اللسان ثالثة الثلاث؟!

كان صلة الوصل مع أهل جدة، في منزله العامر قرب الكورنيش.

تم التعرف على كوكبة من الأسماء الشهيرة.

أخوه المهندس زكي فارسي في حوارات طويلة وثرية.

د. عاصم حمدان الغامدي العالم اللغوي الأديب.

صديقه محمد سعيد طيب صاحب القلب الطيب، المؤمن بمبدئه، الصابر عليه.

عصام مرداد، وعدنان مرداد؛ حيث تلتقي المصاهرة والصداقة.

ثلة من أساتذة الجامعات، وكتاب الصحافة البارزين، محمد صلاح الدين، محمد المختار الفال، قينان الغامدي، عبد المحسن هلال، سالم

سحاب..، والشعراء المبدعين عبد المحسن حليت، وبالذات عقيب قصيدته المشهورة في القضاة.

هذا الجميل كان أحد الموقعين على (بيان التعايش) الشهير، واختاره صاحبه ليكون متحدثًا ومدافعًا عن مضامينه في قناة (الجزيرة) في وجه طوفان المشهّرين. كان جميل قد وقّع على بيان التعايش ميدانيًا بسلوكه الفذ، وتعامله الراقي مع المخالفين، مع إيمانه الراسخ بمبادئه الشرعية وقيمه الدينية قبل أن يولد ذلك البيان.

وحين ولد البيان.. كان موقِّعًا مبادرًا.. يمثل المسلم الحر اللامنتمي، فكان طرفًا في حوار حول البيان.. يعطي طابعًا شموليًا لذلك الخطاب المثير للجدل.

مثله يعد جسرًا إيجابيًا لتجاوز الجغرافيا المحلية، وصناعة الروابط بين أبناء البلد الواحد، والتبادل المعرفي والأخلاقي الإيجابي؛ حيث لا يتطرق إليه وهم التعصب لشيء أو ضد شيء، هو أنموذج في التوسط الفطري، والاستعداد الصادق للاستماع، والحوار الذي يتفق أو يختلف مع حفظ الحق في الحديث، وتقدير المنزلة.

أراك جميلًا في فعالك كلها ... أراك جميلًا حين تنأى وتقرب

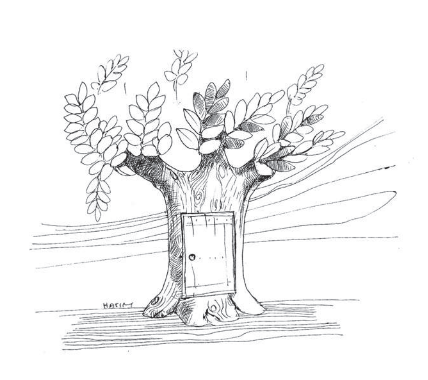
أراك كماء المزن صفوًا ونائلا ... بلى أنت من ماء الغمامة أعذب!



69

بيت [المجد]

◆



بعد «بضع سنين» قضاها في الجُبّ، وبعد الاغتراب الممعن في الحرمان حينًا.. والمتلئ بالصفاء حينًا، صار يحلم أن يظفر بصديق العمر في زورة استثنائية، تخيل نفسه يجلس إليه، والبسمة تعلو وجهه فتملأ محياه، واللسان ينساب في ذكريات ضاحكة جميلة، تستعيد الماضي في لحظات!

وإني لينسيني لقاؤك كلــــما   لقيتك يومًا أن أبثّك ما بيــا

ما أحلى تلك الأيام، بل ما أحلى تلك الأحلام!

وليس أحلى من الأيام الخالية إلا الأيام التالية؛ حيث يجب أن لا يكون الولع بالماضي والتاريخ سببًا في ازدراء جمال الحاضر، أو مصادرة الاستمتاع بأحلام الغد.. فلكل يوم غد.

لم يكن (حمد) غريبًا عنه، كان يلحظ محيّاه الجميل، وحركته الرشيقة كطفل مع والده أو جده ذاهبًا أو آيبًا، ويقرأ في عينيه التألق والذكاء.

في ذلك اليوم المميز، جمعته به جلسة عذبة محفورة في الذاكرتين معًا، كان «هو» في السنة الأولى للمرحلة الثانوية بالمعهد العلمي، بينما (حمد) كان في السنة الأولى من المرحلة المتوسطة.

اختار أن يأخذ معه فتى آخر في مثل سنه، (عبد العزيز الصمعاني)، في نفس المرحلة المتوسطة، يتوسم فيه حركة وذكاء وصفاء، وكأنه أراد أن يكون (طُعما) للتواصل مع الفتى الجديد، الذي خطط لضمه إلى مجموعة الأصدقاء أو الفريق؛ فهو كالصدقة بين يدي النجوى.

لم يكن فريقًا رياضيًا وإن كانت الرياضة إحدى مناشطه، كان تجمعًا تربويًا وأخلاقيًا وثقافيًا يتكون ببساطة.

لعب حمد الكرة مع فتيان الحي في ذات اليوم، حي الصناعة قرب مسجد الشيخ الجطيلي، وعاد إلى بيته منهك الجسد، منهك الروح، متبرمًا من عبارات نابية، وحركات طفولية، يتعاملون بها دون مبالاة، مع تفاوت في العمر الزمني، ومستوى الانضباط الأسري، ونوع التربية التي يتلقونها، إن كان ثم تربية يتلقون.. وكل ذلك لأمر قدري كأنه يهيّئ (حمد) لتلك العلاقة الممتدة.. ولطالما كانت الفرص الثمينة مبذورة في الطريق الذي نبحث فيه عن شيء آخر.

وقف في فناء المنزل الإسمنتي الذي يعد -آنذاك- علامة على الغنى، وحدّق في وجهه بالمرآة المغروسة في الجدار المحاذي للصالة، وأخذ كفًا من الماء يغسل به وجهه ودموع عينيه، متمتمًا:

رب.. هؤلاء لا يصلحون لي، اللهم ارزقني أصدقاء طاهرين!

كان مجيء الاثنين إليه على قدر، عبد العزيز يشبه (حمد) شكلًا وعمرًا، والآخر يبدو من ملامح وجهه وشعر لحيته القادم وسماته ومعرفته

السابقة به أنه يصلح لأن يكون رفيقًا ومعلمًا، وإن كان يكبره ببضع سنوات!

الصلة تم ترسيمها في ذلك المساء، أما بدايتها فقبل ذلك بكثير.

الأسرتان تجاورتا في (البصر)، والآباء والأجداد تشاركوا في شرب مائه الذي كانوا يقولون إنه (يسحر) من شرب منه، ومَنْ تنفس هواءه في العشيات.

يَسْحَرْ عطاهُ النجم من شِرب ماه   يا حِلو مِسْهَاجَ العْشَا في سَوَافيه

كما تشاركوا في حياة البساطة والرضا التي كان يعيشها الناس في الريف..

متجران صغيران في القرية يعودان للأسرتين، وهذا سبب كافٍ للتنافس الذي وصل مرة لحد التماسك بالأيدي بين (الآباء).

الرجال الذين كان الأولاد بالنسبة لهم مثل البقل في أصول النخل الطوال المغروسة في مزارع القرية، كانوا يرفعون رؤوسهم حين يحدقون فيهم كما يفعلون مع النخل؛ صغار يدلفون للحياة وينظرون من عيونهم الصغيرة، ويظنون آباءهم قد تجاوزوا سن الكهولة، ثم أدركوا بعد أنهم كانوا شبابًا في عز الشباب، في بحر الثلاثين وما حولها.

في ذلك الخبّ، سرعان ما تعود العلاقة الحميمة ويعود الضحك، وتصبح معركة الأمس نكتة يتندرون بها.. فالدنيا ليست طويلة، كما كانوا يظنون.

المصاهرة تزيد اللحمة بين (العودة) و(الغماس)، والتناسب قبل االزواج كان بالتشابه في الأخلاق والسمات والطبع السمح.

ثم شبه آخر يتعلق بنسيجهم النفسي الميال إلى الابتهاج والإحساس بالسعادة والاستمتاع بطيبات الحياة المتاحة دون الوقوع في أسرها.

وكان هذا سببًا في طول أعمارهم، ربما.

كنا نسمع من أهلنا أن الصبي فلانًا يقول: «يا جدّي، هات جدّك وتعال»!

وهذا معناه أن جدّ الجدّ يظل حيًا يعايشه أحفاد الأحفاد، بل نشطًا متحركًا غير مستسلم للشيخوخة.

فالشيخوخة إذن قرار يتخذه المرء، قبل أن يكون مرحلة عمرية، وبإمكان أصحاب القلوب الخُضْر أن يظلوا متمتعين بحياتهم متى توقفوا عن ترديد عبارات اليأس، وتوديع الحياة!

بعض الظرفاء يتندر على أسر معروفة بمثل هذا فيقول: «آل فلان لا يموتون إلا رميًا أو دعسًا»!

هل للجينات والخلايا أثر في تحقيق السعادة، أو في إطالة الأعمار؟

كل شيء مُخبِت لربه، وكل شيء عنده بمقدار، ولكل شيء سبب، والأثر موجود وقائم، بيد أنه ليس السبب الوحيد، وقد لا يكون هو السبب الأول.

انتقلوا من الريف إلى المدينة، ونقلوا حرفتهم «التجارة»، لم يكونوا أصحاب زرع، ويشاء الله أن تكون دكاكينهم متجاورة في (الجردة)، الوسط التجاري ببريدة، كما كانوا من قبل جيرانًا في (جَرَدَة فاطمة) في البصر.

هل كان الحامل على هذا الجوار هو التنافس؟ والشركاء في ميدان واحد يتنافسون بحماس، بينما لا يفكرون في منافسة من سبقهم إلى ميادين أخرى، فالداعية يغار من زميله الذي يحشد عشرات الآلاف من المستمعين والمشاهدين، ولا يغار من جمهور عريق يحتشد للرياضة أو الغناء!

والتاجر يغار من جاره الذي يبيع المسامير، ولا يغار من الملياردير الشهير!

أو كان الأمر اتفاقيًا؛ فأهل القرى الغربية يؤثرون السُكْنىَ في غرب المدينة حين ينزحون إليها، وأهل القرى الشرقية يفضلون الشرق غالبًا.

والد الفتى حمد هو أكبر إخوته، صوته لا يزال في الأذن؛ يتلو القرآن ويتغنى به على الطريقة النجدية من مصحف كبير في يديه في المنزل الطيني القديم.

وفي المتجر كان هو القوي الأمين الذي ضمن التفوق على الأقران والجيران، فالدكان من فتحتين، ويحتل زاوية مهمة، ويحتفظ بعملاء متميزين.. ليس كل أهل المتاجر يملكون قدرة ولباقةَ (محمد الغماس).

جاره ومنافسه (فهد) يتحدث عنه بإعجاب، إنه إنسان «صامل»!

درجة عليا في التوثيق، لا تطلق إلا على الجاد الصبور المخلص في عمله.

أولاده: حمد، أحمد، فهد، عبد الرحمن.. جاءوا على النمط ذاته، طيبة وكرمًا ورجولة وإنجازًا!

أصبح الشاب (حمد) بعد عِشْرة السنوات الطوال، شريكًا في الأسفار والرحلات البرية، والمبيتات الليلية، والمخيمات؛ ولأنه منضبط ولامع تم ترشيحه لرحلة الحج الجماعية، ووالده منح هذه المجموعة الثقة التي ساعدتهم على المواصلة.

بعد الثانوية يلتحق بفرع جامعة الإمام على مقربة من والديه، فالغربة لم يحن وقتها بَعدُ.

المدينة المنورة وجهة الدراسة العليا والمعهد العالي هو المقصد، و(منهج معاذ بن جبل في الدعوة) هو الرسالة، إنه ينسجم مع عقلية الرجل وشخصيته في الهدوء، والتدرج والفقه المغموس في نسغ الحياة.

قد يكون ذلك فرارًا من العمل التجاري، ولكن (ابن الوز عوام)! والموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم!

في المدينة يجد نفسه مولعًا باختيار الكفاءات من الطلاب الأفارقة، ويدعمهم ليكوّنوا أنفسهم تجاريًا، ويندمجوا في مشروعات صغيرة تحتاجها بلدانهم، ويكسبون رزقهم بواسطتها.

وهذا كان واحدًا من أوجه التعاون بينه وبين شيخه الذي قدّر أن التجارة وراثة، وأن هذا الشاب الذكي الفطن المشرق كأهله، سيكون تاجرًا يومًا، وإذا طرد التجارة من الباب فإنها تدخل عليه من النافذة!

حين تكتظ المجالس بالمتحدثين عن إخفاقات المشروعات الاقتصادية؛ كان يلتفت إلى صاحبه مفاخرًا به، مزهوًا بقدرته وذكائه الاقتصادي، بيد أن ما لم يقدّره هو أنه سيكون إعلاميًا أيضًا.

في فترة مبكرة (١٤١٢هـ - ١٩٩١م) قدَّم (الشيخ حمد) -كما صار يُعرف بعد فهو الحاصل على شهادة أصول الدين، المناقش للماجستير، ومحقق (الجمع بين الصحيحين) للحميدي- قدَّم فكرة البث الفضائي، وسافر إلى السودان، ثم تركيا، ثم فرنسا للبحث عن الترددات المتاحة، ودرس عرضًا لشراء إذاعة (مونت كارلو) التي كانت معروضة للبيع آنذاك بـ(٢٠) مليون دولار.

النواة الصغيرة؛ صارت فيما بعد مشروع شبكة إعلامية، تخاطب الملايين بأكثر من لغة!

وضع الأساس الأول؛ حيث (الفكرة) السبّاقة، ولم يشأ أن يكون نقص التمويل سببًا في العزوف عن التفكير، فالفكرة الصائبة تأتي بأسباب نجاحها معها.

الإحساس المبكر بالهمّ الإعلامي، كان جزءًا من موهبة حدسية عرفها عنه أصدقاؤه فيما بعد في مواقف متعددة، صغيرة و كبيرة، خاصة

وعامة، أحيانًا يداعبونه ويقولون: ماذا قال لك «الجني»؟!

إنها منحة إلهية خاصة؛ تسعف الإنسان في مواقف الإحجام أو الإقدام أو التريث، وهي خير عون وسند لدراسات الجدوى التي تعتمد على الأرقام والإحصاءات والمعطيات المادية، وهي توسمٌ يقرأ نمطًا خاصًا من الأحداث قبل وقوعها دون أن يملك تفسيرًا. هو لا يقبل أبدًا ولا يطيق أن يقال إنها من أكل الحلال وغض البصر فهو سيئ الظن بنفسه، حسن الظن بربه.

أيام (الحائر) الأولى كانت حائرةً لا تعطي سببًا للحضور، كل شيء يوحي بأن الأبواب موصدة، فليكن في تعاهد الأهل والأولاد، وخلافة الغُيَّاب في أسرهم ما يعبر عن أخلاق النبل والكرم والشهامة لدى صديق وفي.

ورث عن أسرته كرم النفس وزكّاه وطوّره، ليكون ميراثًا لابنه الكبير (هاني)، الكبير في قدره وعقله وصمته الحكيم، الكبير في سداده وتفوقه، والكبير لأنه الابن البكر لوالديه.

وإذ ترى وجه (محمد الحمد) تقرأ ملامح الأب وقسماته، وتقرأ شخصية الجد وقوته وظرفه ومقالبه.

لم يكن أبو هاني يجهل طبيعة الأرض التي يتحرك عليها، ولا الظروف التي يعمل فيها، كان يعرف أن ثمة من يفضّل أن يبقى على مسافة كافية حتى تنجلي الغمرات ولكنه شمّر ومضى، وما لا يدركه بنفسه فليكن ساعيًا فيه بجهده وجاهه وعلاقته وتحريكه للطاقات الكامنة المذخورة.

«أبو هاني يسلم عليك» كل يوم يمرّ المنزل، ويتعاهد الصغار ويوصل الأخبار ويتابع الجديد، ويحلم بالزيارة!

سلموا عليه، وأخبروه أنني أحتاجه.. يحتاجه قلبي الذي أرهقه البعد،

وأضناه الحنين، كما يحتاجه عقلي في المشورة واستطلاع أخباره ونتاج أعماله!

قالوا: خُراسانُ أَقصى ما يُرادُ بِنا ... ثُمَّ القُفولُ، فَقَد جِئنا خُراسانَا
ما أَقدَرَ اللَهَ أَن يُدني عَلى شَحَطٍ ... جيرانَ دِجلَةَ مِن جيرانِ جَيجانَا
يا لَيتَ مَن نَتَمَنّى عِندَ خَلوَتِنا ... إِذا خَلا خَلوَةً يَوماً تَمَنّانَا

موعد جديد للزيارة.. الزائر هذه المرة (حمد) خال بنتك!
يداري ابتسامة في داخله، ويقدر أنها من حركات أبي هاني.
الفرحة مضاعفة.. لقد رأى الوجه الدائري القمري الذي يعشقه، وجه بنته (نورة) الصغيرة التي طالما تغنى بها وقال:

نُورةَ القَلْبِ يَا قُمَيرَ اللَيَالي ... مَا أُحَيلَاهُ حُسْنُكِ الرُّوحَانِي!

(نورة) تدلف إليه بعد طول غياب، وفي عينيها دموع، وعلى ثغرها ابتسامة، إنه امتزاج الفرح بالحزن في لحظة رائعة.
لم يكن بمقدورها أن تعي الكثير مما حولها، فقط تريد أن ترى أباها بطريقة مختلفة، وبعيدًا عن الإجراءات والرسميات والأشخاص الغريبين، وأن يدوم لها حبه وحنانه واحتضانه!
يرى الوجه النوراني الذي يحكي وجه أمه على حين ظمأ وتعطش، فيسمح لعينيه بالتعبير، ويدس في اليد الصغيرة الناعمة ميثاق الحب، وهو يتخيلها تسائله عن غيابه وأسبابه!

تسألني نورة.. هل تحبني؟
قلت لها: لا تسألي!
أنا أحب الشمس في سمائها
أنا أحب البدر في اكتماله

وأعشق النجوم

أشتاق للورود في آكامها

وقطرات الطل في أكمامها

وللشذى الفواح

تشمه الأرواح

وأنت يا نورة كل هذا

وفوق كل هذا

حين أقول: أنت أنا

فإنني لا أرسم الحروف

هي التي ترسمني!

وهذا هو «الخال الجديد» أبو هاني يتسلل عبر الأسلاك الشائكة بصفة قانونية، ويحمل «صك الرضاعة» بيده، رضاعة الصغيرة نورة من (بدرية الغماس)، أخت حمد، وزوج خالد القفاري.

صاحبنا يهتف بامتنان: (بدرية) الجارة البارّة، والثمرة الطيبة لتلك الشجرة الطيبة، ما هي بأول بركات أم عبد الله، وقضى الله ألا تكون آخرها؛ فالدعم الذي قدمته بصبرها واحتمالها لغياب زوجها، ورعايتها لولدها ليس شيئًا عاديًا، ولا إنجازًا عابرًا، هو حالة مستديمة تمر دون سخط ولا شكوى ولا تذمر!

لم يكن غريبًا على صاحب الوجه الصبوح، والقلب العامر بالحب والإيمان؛ الشيخ عبد الرحمن العجلان أن ينشط ويتحرك بكل ما يستطيع، وأن يوظف موقعه كرئيس للمحاكم وخبرته في القضاء والأنظمة في استصدار الصك الفريد، وأن يواصل بعث التحايا والحب والدعوات الخالصات، فهو معدن كريم نادر المثال.

زار أبو هاني يحمل صك الرضاعة بيد، وبيده الأخرى صك الإخاء الأبدي الذي يتغير الزمان وهو باق لا تزيده الأيام والليالي إلا شدة، ولا تزيده الشدة إلا تماسكًا وثباتًا:

العناق الحار، وحديث العيون، والشوق الذي فاض به الفؤاد، كان حديثًا أبلغ من كل الحروف، ساعة من الوصل الحميم، أشرق معها الوجه العذب، الذي زادته الفرحة حسنًا وبهاءً.

الطريق غدت سالكة، والعلاقة التي تم توثيقها حديثًا آتت أكلها بإذن ربها، والدائرة تتسع للأخوال الآخرين الذين هم من صميم الروح، أحمد وفهد..، لم يعد يناديهم بعد إلا بـ(أخوالي)!

كان (أبو هاني) جزءًا من مشاورات الخروج، إنه شريك أساس في خطوات الحياة الجوهرية، فهو الناصح الأمين، والمحب المشفق، والذكي اللماح.

يختار الحجاز سكنًا، ويُفتح عليه، ويظل قلبه الوفي، ووجهه البشوش يفرح بك، وكأنه لم يرك منذ سنين، ويظل بيت (أم هاني) في مكة وجدة والطائف مرتادًا للضيفان، لا يتبرم ولا يضجر، ولا يمل من الترحاب، وهكذا المعادن الكريمة لا يزيدها الطرقُ إلا صفاءً ولموعًا وتألقًا وسطوعًا.

أَنَا مَنْ أَهْوى، وَمَنْ أَهْوى أَنَا ... نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَا
نَحْنُ مُذْ كُنّا عَلَى عَهْدِ الوَفَا ... تُضْرَبُ الأَمْثَالُ لِلنّاسِ بِنَا
فَـإِذَا أَبْصَـرْتَه أَبْصَـرْتَنِي ... وَإِذَا أَبْصَـرْتِنِي أَبْصَـرْتَنَا

يختار الحجاز وتأتيه الدنيا فيعرض عنها ويشيح بوجهه، ويجد روحه وقرة عينه في لحظات يقضيها في المسجد الحرام، يحتسب ركعة يصليها، أو تسبيحة أو استغفارة، أو برًا بوالديه وقرابته، أو صلة لمعارفه أو حثًّا

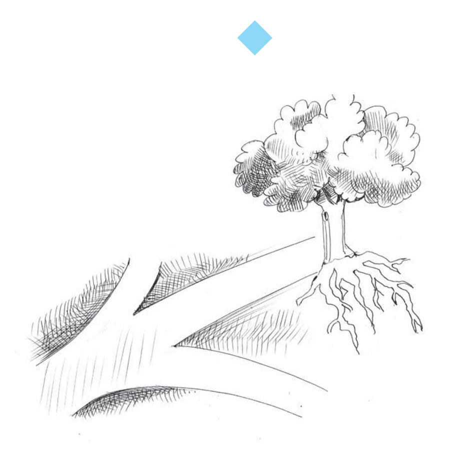
على الإنفاق والبذل والوقف في أعمال الخير... أما الدنيا فيكفيه منها ما حصّل، وحسبه أن يعبّ من المتاع الحلال الطيب.. ولسان حاله يقول:

«كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» [سبأ: من الآية ٥١].



70

الزيارة الأخيرة



خرج الثلاثة الصغار من منزلهم البسيط الذي ألفوه إلى منزل طيني آخر، أصبح يُسمى (مدرسة البصر).. كانت مغامرة جديدة يفغر الصبيان لها أفواههم في شيء أشبه بالنقلة الحضارية.

الثياب السوداء الثقيلة تحميهم من البرد القارس، والخفاف التي على أقدامهم أصبحت مثار تندّر وتضاحك فيما بينهم، بعدما وصفها كبيرهم (عبد الله) بأنها تشبه القطط!

لقد اشتراها الأب منقّطةً بطريقة ملفتة على غير ذوق الصغار، وربما لأنها كسدت في المتجر؛ أصبح محتّمًا أن يستعملها الأولاد!

الأزقّة الضيقة تُسْلمُهم إلى المدرسة، وكل الأزقة ضيقة؛ حيث لا سيارة تقتحم سكون القرية.

افتتاح المدرسة كان حدثًا غير معتاد، احتفلت به القرية وتفوّقتْ على

منافسيها، فلا (المنسي) ولا (النخلات) ولا (العاقول) حازت أسبقية أن تكون حاضنة لمدرسة الأولاد، أما مدرسة البنات؛ فهذه لم تكن مستحيلة فحسب، كانت شيئًا خارج نطاق التفكير أصلًا، ولم يسمع به أهل القرية من قبل!

بيت الغمّاس، أمام مزرعة السويد، مقرّ هذه المنشأة التي فتحت القرية على الدنيا، ووضعت تلك القرية الوادعة على ماكان يظنه الفلاحون فوهة بركان التقدم الذي لم يكونوا على علاقة متوترة معه.

ومن هنا بدأت الحداثة، فمكينة السويد (البلاكستون) بصوتها المدوي، الذي يشق سكون القرية؛ كانت تعزف أعذب الألحان في مسامع الناس الذين يحسّون بأن تغيّرًا إيجابيًا يقتحم حياتهم، وأمامها الحقل التعليمي الذي يحضّر الأطفال لمستقبل أفضل، ويرفع عنهم عار الجهل والأمية.

(١٣٧٤هـ -١٩٥٤م) هو تاريخ الافتتاح، والمدرسون ستة، ومنذ اليوم الأول كانت الدروس والفُسَح منضبطة في مواقيتها، والحماس سيد الموقف، حصتان، ثم فسحة طويلة، يذهب الأولاد لأهليهم، ربما وجد الثلاثة كأسًا من الشاي مع شيء من الكعك، أما الغالبية فشيء من التمر ولبن المعز؛ حيث تقاسمهم المعز المنزل والطعام!

هذا هو المتغير الاقتصادي الهادئ ينقل الأسرة من الاعتماد على منتجها الذاتي إلى حالة استهلاكية صغيرة مستحدثة.

الضرب على إناءٍ معدني مع صوت المراقب؛ هو ما يعيد الأطفال إلى مدرستهم، قبل أن يتطور الأمر إلى الصافرة ثم الجرس.

حين يَقلّ عدد الطلاب في سنة دراسية؛ تلغى الدراسة في ذلك المستوى، ولهذا اضطر الصبي الأكبر (عبد الله) إلى أن يتردد في السنة الخامسة على قرية مجاورة هي (ضِراس)، وأن يتردد في السنة السادسة على قرية (الغمّاس).

توجّعُ الأم وحنينها، وخوفها على الصبي؛ يجعلك تنطبع بأن ثمّ معاناةً ضخمة ترهق هذه الأسرة الصغيرة الناشئة، ويجعل الصبيان الصغار يظنون أن تلك المسافة التافهة مسيرة شهر!

هو يتذكر تلك القصة الوداعية الحزينة في أمٍّ تندب حظ ابنتها تلك التي تزوجت ثم كان قدرها أن ترحل من (البصر) لـ(القويع)، وتلك رحلة في موازين الغابرين دونها المفازات.. بيد أن ما بين تلك القريتين بضعة كيلو مترات!

نغمة أم الصبية الحزينة على عبدالله كانت شبيهة بتلك.. نغمة واضحة يسمعها الجميع، وتصنع لهم شجوًا لم يصنعه لهم الحدث ذاته.

وحتى الذين يتذمّرون من أخ أكبر؛ يصرخ عليهم لا يملكون إلا أن يشاطروا الأم أحزانها!

في سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م انتظم الثلاثة كلهم في المدرسة، عبد الله ومحمد وسلمان، لم يكن ثمّ تدقيق في المستويات العمرية، فيمكن لصبي في الخامسة من عمره أن يلتحق بالمدرسة.

الكبير في سنّه، والمتقدّم في مستواه الدراسي هو القائد الخبير المتمرس في شؤون الحياة، والمسؤول عن حماية أخويه الآخرين من العدوان الأجنبي؛ حيث تضمّ المدرسة أعمارًا شديدة التفاوت، وحيث ملتقيات الأولاد في الطريق تكون سببًا للاحتكاك والتصارع، فهو يرشد أخويه إلى ما يتوجب عليهم عمله تجاه المواقف والمستجدات، ولأن (الغُنْم بالغُرم) فمن حقه أن يَسْخَرَ بهم ويتندّر عليهم، ويضحك من وصوصة أحدهم في لسانه أو لثغته، أو أن يفتعل بعض المواقف، ويضع الآخر في إطارها، دون أن يمنحه فرصة التنصّل أو الاعتذار!

ومن المعتاد أن يتفوّق عليهم في المعارك الحامية التي تدور رحاها في (حوش) المنزل، أو في الشارع الضيّق المسدود المتصل بفناء الدار؛

حيث تلاحقهم الأم متذمّرة حزينة خائفة من تطور العراك، آخذة تهديداتهم المتبادلة مأخذ الجد، متناسيةً أن الذي يعمل لا يهدد، متسائلة عمّا ستكون عليه علاقتهم في مستقبل الأيام!

أساتذة المدرسة الثلاثة كأنهم هبطوا من كوكب آخر، هذا من (البكيرية)، وهذا من (بريدة) وهذا من (مصر)، وهم الفئة الوحيدة التي تسكن بالإيجار، ولا غرابة أن يتحدث أهل القرية عن رواتب عالية يحصلون عليها، تصل إلى «ستمية» ريال، وأن يتساءلوا عن تفصيلات حياتهم وطبيعة معيشتهم، إلى حد أن الهمسات بدأت تتعالى في أن بعضهم يمتلك جهاز رادو، وتؤكد بعض النسوة أنها سمعت همهماته، ويقال -والله أعلم- أنه لا يلتقط إلا الأذان والقرآن!

هَمّ هو ذات مرة أن يسترق السمع لأنه سمع حسًّا غريبًا، وحين اقترب وجد صاحب المنزل، الأستاذ الذي هو ابن عمه في الوقت ذاته (محمد الصالح)، مسترخيًا يتغنى بأبيات القاضي التي مطلعها:

يا محلّ العفو عفوكْ يا كريم ناوِشَنْ برحمتكْ باب السلامْ

الصغار عادة ما يتحدثون بإعجاب عن أساتذتهم، ويقلدونهم، ويغبطونهم كيف يجلسون على الكراسي الحديدية، ويكتبون بالطباشير، ويحملون الدفاتر، ويلبسون الثياب الجميلة، والغتر البيضاء، وربما العقال.

كانت ملابس الأساتذة مصنوعة من (التترو) الثمين، وعلى أكمامهم الكبكات، بينما كان الصغار وأهل القرية عامة يلبسون ثياب (الخام) الزهيد الثمن، ثم تطور الأمر إلى (البفت) و(الدوبلين).

ثمة خاصية لهؤلاء الأساتذة الثلاثة، إذ يقضي بعضهم مساءاتهم الهادئة المتشابهة أمام (دكان فهد)، ويتحدثون، ويشربون شيئًا من القهوة،

وبهذا ترسّخت العلاقة مع والدهم ذي الطبيعة الاجتماعية الدمثة.. فكان دكان (فهد) صالونًا اجتماعيًّا يفد إليه الأصدقاء والغرباء، فيدعوهم؛ حيث يشاركه الناس قهوته وطعامه.

أبرزهم وأعرفهم أستاذه الذي أصبح بعد تلميذًا نجيبًا متواضعًا، وجلس قبالته في شرح بلوغ المرام، وفي الدرس العلمي العام، وصحبه في أسفاره الدعوية وفي حجه وعمرته، ثم ناب عنه فترة طويلة في الرد على جواله الرديف؛ ذلك الشيخ التلميذ هو أبو أحمد محمد بن عبد الله الحسون.

(أبو محمود) أستاذ من مصر يحضر، وتحضر معه الصبية (فاطمة) ذات الخمس سنين، والتي طالما تحدث إلى الجلساء أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو الذي سمّاها بهذا الاسم الجميل!

وذات مرة غضب عليها «ولعنها»؛ عاتبه فهد ضاحكًا:

-هداك الله أبا محمود، كيف تلعن صبية سماها محمد -صلى الله عليه وسلم-؟

فأجاب فورًا بأنه كان يدعو الله أن «ينعلها» أي: يلبسها النعل! وهذا تعبير عن الغنى والرفاه والإسعاد في مصر!

وانتهى الموقف بضحكة لا تخلو من خبث.

العلاقة بين المدرسة والقرية حميمية، والأساتذة يشاطرون أهل القرية صلواتهم ومناسباتهم التي تكاد تختصر في عشاءات الأعراس التي عادة ما تكون بعد صلاة العصر، ولا غرابة أن ينادي المدرسون صبيان القرية بالألقاب والمعايير الساخرة التي تعارفوا عليها، وليس بالأسماء الرسمية الحقيقية، وأن يحتوي الأساتذة مشكلات الصغار التي هي بطبيعتها صغيرة، مثل أن يأتي أحدهم إلى المدرسة وقد لبس ثوبه بالمقلوب؛ فيقوم الأستاذ الذي لا يعرفونه إلا بلقبه الساخر الذي

اخترعوه له بإعادة تلبيسه بالطريقة الصحيحة! أو أن يعيد ترتيب الحذاء.

افتتاح المدرسة لم يُحدِث أي انطباع سلبي في القرية، حتى (المطوع) إمام المسجد، و (النائب) المحتسب الذي ينفّذ العقوبات على المتخلفين عن الصلاة أو المشتبهين بالتدخين، أدخلوا أبناءهم المدرسة، وتعاملوا مع هذه المؤسسة الجديدة بدفء ورضا وثقة، كانت العفوية تحكم الموقف، خلافًا لما حدث في أوقات أخرى ومناطق أخرى؛ أصبحت فيها الشكوك تغلّف كل جديد، والرفض هو الموقف المبدئي حتى يألف الناس الأمر ويقبلوه، ويسكت بعضهم على مضض، أو يتخذوا موقفًا ذاتيًا يفرضونه على أسرهم ولا يبشرون به في الأوساط العامة!

تلك الذكريات الجميلة والتفصيلات الدقيقة، كانت مثار ضحك وتراشق في جلسة أَرْيَحيّة مسترخية من أواخر زيارات الشركاء في صناعة الأحداث إلى حيث يقيم شريكهم في (الحاير)!

لا يدري لماذا تداعت كل تلك الأحداث الصغيرة إلى الأذهان في غرفة الزيارة الحائرية، بيد أن وجود الأطراف كلها وغياب القلق هذه المرة إذ يتشبع الجو العام في النُّزُل الإجباري بأن ثم انفراجًا وشيكًا يتم التحضير له!

وجود الأمّ التي هي محور تلك المرحلة، وكل مرحلة، وهي شاهد وثيق قوي الذاكرة على أدق التفصيلات، والمرء يرى نفسه صغيرًا مادام بحضور أمّه، فإذا فقدها هَرِمَ فجأة.

كان حديثًا مستفيضًا عن المدرسة الأولى، يتلبّس به حديث غامض عن مدرسة ثانية يوشك أن يتخرّج منها.. وحين كانت المدرسة الأولى تعليمية نظرية كانت المدرسة الثانية عملية تجريبية.. كانت الأولى دون حِبس(البصر) والثانية دون حَبس (الحائر).

ذهب للأولى راضيًا مجبورًا، وذهب للثانية مكرهًا مأسورًا.
وتخلّل الأولى فُسَح وإجازات، وامتدت الثانية لخمس سنوات دون انقطاع.
تعلّم في الأولى حروف اللغة ومبادئ المعرفة، وتعلّم في الثانية لغة الحياة وطبائع النفوس، وغاص في أعماق نفسه ونفوس الآخرين.
وفي الأولى كان يذاكر دروسه ليدخل الاختبار، بينما في الثانية يدخل الاختبار أولًا ليأخذ (الدرس) بعد ذلك!
غياب الرقيب هذه المرة سمح بالاسترخاء.
ليس من عادته أن يركن للشائعات في (مدرسة) الحائر، ولا أن يذعن لتفسير رؤيا تبشر بخروج، هو متفائل بطبعه في أحلك الظروف، ولكنه يرى أن تبقى نفسه عازفة عن حديث كهذا، محتفظة بما اعتادت عليه من عدم انتظار الأشياء التي لا يملكها هو، إنما يملكها الآخرون، وهذا منحه قوة ذاتية نفسية عالية، وقدرة على التأقلم والتكيف والمرونة مع الظروف القاسية، كان يفسّر البوادر الإيجابية لصالح شركاء محنته ولا يمنّي نفسه بشيء ما لم يقف عليه بنفسه، أو يتحقق من صدقه، بمجرد أن يكتشف أن في الخبر إسنادًا أو رواية فلان عن فلان؛ فإنه يعزف عنه، ولا يبدو مكترثًا للأمر.
الأم تغالب اكتئاب الشيخوخة وجراحات الأحداث بابتسامة صادقة؛ حيث سمعت من حبيبها السجين لغة أشعرتها للمرة الأولى بالسعادة والابتهاج، وأن ثمّ شيئًا في الأيام القادمة يستحقّ الانتظار قبل الرحيل!
الأختان (منيرة) و (هيلة) المشاركتان جزئيًا بذكريات الماضي الجميل، شريكتان في هذه الزيارة الاستثنائية المبشرة الواعدة، مغمورتان بفرح، تعبّر عنه دموع خجلة، تريد أن تتظاهر بالقوة والعفوية، فتغلبها الطبيعة

المسكونة بالحب!

(شريفة) التي تصغره وترتبط معه برباط عاطفي وثيق، لم تكن تطيق فراقه لأيام، فإذ هي تُبتلى بمرارة فراق طويل مخيف، تمنّي النفس بأن تراه قريبًا خارج الأسوار!

(خالد) أصغر الإخوة، وأقربهم إلى قلب الأم؛ حيث هو آخر العنقود، وكما كانت الأم تعتذر لهم جميعًا عن تخصيصه بالمزيد من الحنان وتقول: « القِعدة حبُّه رِعدة »! تلك المقولة التي بدت وكأنها معنى لا يحتمل المراجعة؛ اهتزت أمام حادث الغياب الذي استنطق كوامنها الشعرية، وحفزها لإغداق عاطفي لا يجارى على جنينها الغائب!

(خالد) كان شريك هذا النزيل في ذات المحاضن التربوية، وأحد الذين تَربّوا على يديه، وتوثقت بينهما بعد أخوة النسب علائق الحب والاتصال النفسي، الذي يصل لحد الاندماج، فهما روح تقاسمها جسدان، تقارب في الفكر والرؤية، وحتى في الملامح والشكل الظاهر.

أخي أنت مني، أو أنا منك صورة ... لآماليَ الأخرى التي لم تحققِ

وفي ذات العلائق.. كان أبو عاصم د. سليمان العودة، ابن العم والنسيب، الشريك القديم المتجدد، نموذج الصبر والاستفتاح بالخير الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا ييأس، المؤمن بالإيجابية والفعل؛ مهما اعتقد الآخرون أن حظوظ الفوز والنجاح قليلة، يبذل ويحاول، وهو يردد:

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ للأبوابِ أَنْ يَلِجَا

يساعده حسه التاريخي، واتصاله الاجتماعي على تلمس الفرص، وتكرار المحاولة.

جهود مضنية بذلوها تصطدم دومًا بأبواب موصدة، ودعوات صادقة رفعوها تلقى أبوابًا مفتوحة، وتصنع -بإذن ربها- الحل الذي تعيا دونه

الأسباب، وتغلق دونه الأبواب.

استلهام روح القرابة والصلة الوثقى الراسخة، والمرسومة في أحرف الجينات، واستدعاء الذكريات القديمة كان يمهّد لدعوة يبوح لهم بها لأول مرة:

يستطلع رأيهم عن مستجدات تشي بضوءٍ حقيقي في آخر النفق، ماذا عساه أن يفعل؟ كيف يوفق بين أشواق الحرية التي تشتعل في سويدائه، وبين تبعاتها التي لا يكاد يستبينها؟

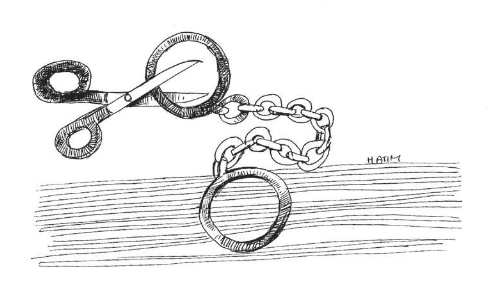
حديث إيجابي، وتفاؤل مؤمن.. الزيارة القادمة يجب ألا تتأخر، ربما تكون المعطيات أكثر وضوحًا!

بعد رحلة طويلة مع أحلام وأمنيات وأخبار انتهت إلى المربع الأول، ولم تتمخض عن انفراج، ها هي الآمال تنتعش من جديد، ومن داخل الأسوار هذه المرة، فالفجر ينبلج في أشد اللحظات حلكة!



٧١

ومضى كلٌّ إلى غايته



الحياة هنا رتيبة رتابة الهدوء وطمأنينة الجمال، يركض صاحبنا فيها كما يفعل في غرفته محاولًا ممارسة الرياضة اليومية.. وفي الأفق القريب يبدو أن المستقبل على عجلة من أمره.

الأحلام خفتت، ومَلَك الرؤيا لم يعد يمرّ على الغرفات إلا لِمامًا، لذا تبدو المشاهد الملتقطة معبّرة وسريعة ومكتظّة!

الواقع كافٍ للحديث؛ إذ تبدو الأيام سراعًا لاهثة حين يعيش المرء ما كان يريد.. وتبدو بطيئة كليلة حين ينتظره.

الأخبار تباطأت كأنها تتمنع، وكأنّ تطاول الأيام الماضية كان كافيًا ليثبت ضعف قيمتها الواقعية، وهشاشة مضمونها.

النزلاء غادروا إلا قليلًا

أنا لا أقرأُ في سِفر الخروج	ها هنا الأرواحُ تاقتْ للعروجْ
ربما أقضي هنا في عزلتي	دون دمعٍ أو صياحٍ أو ضجيجْ
لستُ في الصحراء رملًا تائهًا	بل أراني في بروجٍ ومروجْ!

بعدد أصابع اليد الواحدة كانت الحجرات المسكونة في الجناح، قد استقلّ كلّ نزيل بغرفة من تلك الزنزانات الواسعة المعدة في الأصل لعشرة في الحالات العادية.

غرفة متوسطة الموقع خُصصت لتكون مصلّى جماعة.

الخمسة يخرجون للشمس متى شاءوا فرادى أو مجموعات، وينتظمون في برامج علمية أو تعبّدية، قراءة القرآن وتسميعه ومراجعته، حفظ الأحاديث، مراجعات، مباحثات ميدانية وفكرية، تحليل للمجريات وتعليق على الأحداث.

حادثة ضرب مصنع الشفاء في السودان، ضربات أمريكية على بغداد في مواقع مختارة تستدر دموعه فيهتف:

لم يبق من يبكيك يا بغـــداد	إلا القبور وهـــــذه الأعـــواد

حيرة قاتلة بين حكم محليّ فاسد، وغزو خارجي حاقد!

الضربات على الصرب وحماية كوسوفا تهدّئ اللوعة مهما تكن دوافعها..

أوضاع داخلية؛ منها توزير الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في طرفة لها دلالتها.

دخل صاحبنا على زميله ورفيق دربه أبي بدر، وقال له ضاحكًا:

- تمّ توزير فلان!

- عجيب! وقد أُعلن؟!

- كلا، ولكنه سيُعلَن.
- كيف عرفت؟!
- كانوا في حفل، وقد تمّ النّطق من قِبَل مسؤول كبير باسم الوزير المحتمل للشؤون الإسلامية رباعيًّا، بينما طوى سلفه، واقتصر فيه على اسمه واسم عائلته، وهي إشارة لها معناها!
-الله يكتب الخير.

الصلوات الخمس تجمعهم، والموعد دقيق؛ فأبو بدر لا يقبل المساومة على المواعيد ولو بدقيقة!

ذات مرة كان سعيد ينتظر ليقيم الصلاة، ونظر في ساعته، فوجد أن الإمام تأخر دقيقة، كان مسرورًا بأن يتخلف الشخص الذي طالما «أنّـبنا» في مسألة المواعيد، سارع بإقامة الصلاة وأمَّ المصلين.

بعد السلام؛ تساءل أبو بدر عن السبب، فأُجيب بأنك تأخرت دقيقة، وبعد المقارنة تبين أن ساعة سعيد تقدمت دقيقة، وأن أبا بدر جاء في موعده؛ فقال سعيد:

-لا أماريك بعدها أبدًا.

لكل وقت إمام؛ خروجًا من التدافع والتواضع، وصار أبو بدر يسمى (إمام العصر).

ذات مساء خرج صاحبنا من زاويته إلى المصلى وقت الإقامة، وشاهد إمام العصر يخرج من غرفته صوب المسجد، فهتف للمؤذن:

-أقم الصلاة!
-لن أقيم حتى يحضر الإمام، لن أقيم حتى تأتي «الساعة»!
- أقم، فإن لم تر الساعة، فأنا من أشراطها!

شعبان (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) الشهر القصير كما تسميه العرب، لعلهم كانوا يرونه كذلك بالنظر إلى شهر الصيام والصبر بعده، أما هنا فهو

الطويل، فالجماعة اعتادوا على هدءات الأسحار، واسترواح التعبّد، وسجدات التهجد، والختمات المتتابعة دون تكدير ومشاغلة. الزيارات تتوقف أو تكاد، والوقت صاف بلا مشارك والخلوة مستديمة.

حدث مفاجئ جاء على غير توقُّع ودون انتظار في أواخر الشهر، وأشد ما يكون الليل ظلمة هو مطلع الفجر.

دعوة الجميع إلى غرف التحقيق، واللقاء بالوجوه القديمة التي انقطعت منذ حين.

تفضّل واقرأ هذا الخطاب.

يقرأ كلمات من مصدر القرار؛ تطلب إليه أن يكتب بحرية مطلقة ويقول ما لديه، دون خوف من مساءلة حاضرة أو مستقبلة، وأنه سيتم إيصال المكتوب مباشرة.

مبادرة إيجابية معبرّة.

هتف في داخله دون تردد: هذا بشير الفَرَج!

الأبيات التي يستشهد بها في محاضراته؛ ظهرت أمامه، وكأنما كتبت في لوح:

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَها الفَتى ... ذَرعًا وَعِندَ اللهِ مِنها المَخرَجُ

ضاقَت فَلَمّا استَحكَمَت حَلقاتُها ... فُرِجَت، وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

أحد الخمسة كتب لتوّه شارحًا ظروفه ورحل.

والآخر كتب لتوّه أن لا جديد لديه، وما يريد أن يقوله فهو موجود في المحاضر والدفاتر، ولم يلتفت للمبادرة.

الثلاثة اتفقوا دون تنسيق على الاستمهال، وحصلوا على المزيد من الوقت للتفكير.

للمرة الأولى يحصلون على الأقلام رسميًا، والأوراق، ويُمنَحون بضعة أيام للتفكير والرد.

لقاءات متكررة، وحوارات جماعية، وثنائية، وتساؤلات، وتوقعات.
استعانة بالزوّار من الأهل والأصحاب في تسديد الرأي والمشورة والوصول إلى القرار المناسب.
صلوات واستخارة ودعاء وتضرّع..
يكتب كل فرد ما يناسبه بعد الاتفاق على الإطار العام، ويتم تسليم الخطابات في شهر رمضان.
أشار هو إلى مبدأ السمع والطاعة بالمعروف، وثنّى بالأمن وأهميته وضرورته للفرد والجماعة.
وأكد على مبدأ نبذ العنف الذي كان -ولا يزال- يؤكد عليه ويدعو إليه، وضمّن حديثه أهمية الدعوة ونشر الفكر الصحيح والتطلع إلى تمكينه من أداء هذا الدور والقيام به على أكمل وجه، والمشاركة في التأثير على الشباب بالدرس والمحاضرة والخطبة والندوة وغيرها.
أيام ويأتي خطاب جوابي؛ يعاتب على هذا الطلب الذي لم يتعين عليكم، ويوجد من يقوم به من طلبة العلم، وأنكم وإن كنتم من طلبة العلم الذين تتلمذوا على مشايخ هذه البلاد، فإن ما لديكم من العلم الشرعي والفقهي مما يضاعف مسؤوليتكم تجاه الأخطاء الصادرة منكم، مع الإشارة إلى عدم اتّهام النيات، ولكن المؤاخذة تكون على الفعل، وليس على المقصد فحسب.
لابد إذًا من لغة أكثر وضوحًا؛ تعبر عن الالتزام بالتوقّف عن المناشط الفكرية والعلمية العامة إلا بعد الإذن والموافقة.
ولابد من حديثٍ ما عن الأخطاء والرجوع عنها سواءً كانت قوليَّة أو فعليَّة، وهكذا كان.
قيَّد بوضوح العديد مما أُخذ عليه؛ كتجاوز حدود الوعظ والإرشاد في الدروس والمحاضرات إلى موضوعات خارجة عن هذا الإطار،

والمشاركة في بعض التجمعات العامة غير المرخصة من الجهات المختصة..
المحصّلة للخطابات الثلاثة واحدة، والصيغة مختلفة، المضمون كان كافيًا، ولذا كانت علامات الانفراج تتزايد يومًا عن يوم.
عام هجري جديد.
رحيل الرجل الصالح، بقية السلف، عبد العزيز بن باز.. كم تمنوا أن لو كان لهم أجنحة يطيرون بها إلى حيث جسده الطاهر المسجى.
باح بهذه الأمنية لشاب تكفيري كان يجادله.. فصرخ:
أمّا أنا؛ فلو كنت ثَمّ لما صليت عليه!
يا لَغلظة الأكباد وقسوة القلوب وخارجية المعتقد!
ساعة الصفر تقترب؛ والثلاثة يُنقلون إلى فلّة ضيافة، دخلوها ذات عيد، وأجروا منها اتصالات مفتوحة مع قرابتهم وأهليهم.
ترتيبات غير عادية لنقلهم إلى جدة، طائرة خاصة تقلّهم، وسكن ينتظرهم، في فندق (الإنتركونتننتال).
بضعة أيام، كان يمارس فيها رياضته المعتادة في غرفته، ويتعاهد نفسه أنه سيحافظ على المكاسب التي حصل عليها خلال فترة الاعتكاف، ويقرر في داخله أن المستجدات مهما يكن حجمها لن تحرمه أن يواصل الخط الذي بدأه مع نفسه، ولن يسمح لزحام الناس أن يصرفه عن ذاته، مهما كلف الأمر.
لقاء مع الرأس التنفيذي القائم على الجهاز كان مشحونًا بالتقدير والثناء والاعتبار.
في المساء يذهبون إلى المبنى الذي دخلوه قبل سنوات في وضع مختلف، لقاء انفرادي مع المسؤول الأول الممسك بالملف، يسبقه آخر مع ابنه الذي عُيِّن قبل سنوات في منصب مساعد.

لقاءات تبشِّر بخير، وتعد بالتواصل، وتريد الاطمئنان على ما بعد الخروج.
صباح الغد الرحلة إلى الرياض بصمت، أصدقاء يُعدّون على أصابع اليد الواحدة كانوا في الانتظار.
أخوه الدكتور خالد من الأسرة ومعاذ بكره من أسرته الخاصة وصفيه عبد الوهاب، وخالد القفاري، وصالح المرزوقي.
لديه بيت في الرياض لم تطأه قدمه، شوقه إلى حميمية الأسرة عظيم، فلْيعرّج عليه لِماما قبل أن يغادر إلى بريدة.
مجموعات من الشباب تتجمع وتتخابر؛ فيسلم عليهم ويفسح لهم قليلًا، ثم يأخذ بالرخصة فيصلي في منزله.
يأوي إلى منزله الصغير المؤجّر، كل شيء هنا جميل ورائع، يا لها من عذوبة حين تلاعب صبيك دون رقيب يحسب عليك الوقت، حين تفتح مزلاج الباب بيدك ولا يوجد رجل أمن يتقدمك ليقوم بذلك، وحين تتعامل مع الحنفيات العادية، وتمسك الأكواب بيدك حتى لو كانت من زجاج، أنت هنا أهل للثقة! المفتاح هذه المرة طيع.. الشبابيك مبتسمة، يعرف الآن معنى أن تُعْطَى الحواس حرية الاختيار، يجرب فتحَ الأنوار وإغلاقها، فتحَ الغرف وإغلاقها.. لا شعوريًّا فتح كلَّ شيء مغلق، كان يهب للهواء حريته فأشرع الأبواب، وللأنوار ضوءها فأشعلها، وللماء دورته فحرَّكه وللعاطفة فأرسلها على سجيتها. كان يدرك أنَّ الحرية صباحٌ لكلِّ الأشياء، يتوضأ الصباح، ويغسل أشياءه البسيطة معطَّرة بهذا الصباح. أدرك المقربون منه سرَّ تركه للأبواب مشرعة. كان يعرف مرارة ظهور الأبواب حينما لا يُمنح حرية الاختيار في فتحها.. عَبَرَ ذات مساء بالقرب من أحدهم وهو يبيع عصافير صغيرة في أقفاص.. تأمَّلها، دفع له ثمنها ليهديها الحرية. ومنذ ذلك

الحين لم يدخل بيته قفصٌ واحد حتى لو بكى الصغير. تعلَّم أنَّ القفص يعطيه مساحة الاعتراف بالأشياء البسيطة، والحريَّة تهبه الرفاهية عنها، تعلَّم أنَّ الأقفال تعطيه التأمل بدورة الأشياء الاعتياديَّة، والحرَّية تهبه المرور فوقها بأنفة. لوعةٌ أن يتوقَّف قلبُه عندما يضع يده على يد الباب العادي لفتحه.

حين دلف أولى خطواته نحو الحرية، تلمس الأشياء حوله وغرق في تفكيره: كيف تغيرت ملامح الأشياء بعده.. وكيف تبدلت السحنات؟! فكلما نظر إلى شيء قاسه فيما يذكر ويعرف فهذا أصبح أكبر.. وهذا بناء جديد.. وهذا طفل لم يشهد ولادته.. وذلك موضع لم يقف عليه..

يا لَروعة الحديث والذكريات الجميلة تتزاحم على ذاكرتك، والعبارات تتدافع من شفتيك، والروح المتوقدة تعلن عن نفسها بوضوح.

حين نفقد الأشياء نحسّ بأهميتها.

كيف يدرّب نفسه على الحفاظ على هذا الإحساس الجميل بالأشياء الصغيرة والعادية والمألوفة، دون أن يفقده الوجدان روعة الامتنان للرب العظيم المنان.

المريض المحروم من المشي والأكل والحياة العادية يعرف معنى الحصول عليها، ويؤنّب نفسه بعمق على غياب هذا الشعور وقت العافية.

فجوة المتغيّر الاجتماعي.. التلفاز صار جزءًا من أثاث المنزل، بعد أن كان المجتمع المحلي يرفض الفكرة من أساسها للناس العاديين فضلاً عن (المشايخ).

فجوة المتغيّر التقني، فها هو الجوال الذي ظل يسمع عنه في أيامه الأخيرة دون أن يراه بالعين المجردة.. وها هو الرقم الذي اختاره له صديقه العزيز أبو فيصل السابر ليكون لزيمه وغريمه الذي لا يفارقه في سفر ولا في حضر، وصار يستنزف من وقته اليومي ما يزيد على أربع

ساعات، ما بين اتصال أو رد أو رسالة، ويشكل جزءًا مهمًا من رسالته التواصلية مع الناس.

وها هو تلميذه (عبد الرحمن النصيان)، الذي أدخل الكمبيوتر للمكتب أول مرة، يحضر له جهازًا محمولا، ويشرح له كيف يمكنه الاتصال بالإنترنت، ودخول المواقع.. إنه سحر المعرفة ووهلة المفاجأة لمنتج سمع اسمه قبل أن يدخل المعتكف في إذاعه الـ(بي بي سي)، ولم يضبط الاسم آنذاك، إنما التقط الفكرة، وتحدّث قبيل اعتكافه عنها في جلسات المنزل، وأنها متغيّر يوشك أن يفتح آفاقًا ويمنح فرصًا، ويلغي حدودًا طالما ألفها الناس هنا.

مع طفرة التقنيات يبدو وكأنه يتحدث عما قبل التاريخ!

شاهد موقعًا مخصصًا له، وباسمه، وقد احتوى على دروسه ومحاضراته وخطبه، وسجّل لنفسه إيميلًا للتواصل، وظل يستقبل الآلاف من الرسائل اليومية، ويجيب عنها حسب وسعه، حتى انشغل عنها، وصار لا يلتفت إليها إلا في الحالات الخاصة، أو المسائل الشخصية.

استغرق في ركض حماسي، ولعب لا يريد أن ينتهي مع طفله الذي تغير مزاجه تمامًا، ولم يصدق ما تراه عيناه.

ضمّه دون خوف من طرقات الباب، مسح شعر رأسه، وكأنه يعدّ الشعرات واحدة واحدة، تطلع إلى ملامحه البريئة وتمثال الفرحة يختال في عينيه الجريئتين.. وكأنه يريد أن يستوثق مما تراه عيناه.

عاد هو طفلًا تغرق عيناه بالدموع، يعتصر صبيه بين ذراعيه، ويريد أن يقتصّ من أيام الغربة والفراق.

الصغير يستأذن مسرعًا ويؤكد على والده ألا يغادر المكان، وأن ينتظره فسيعود فورًا، وبعد لحظات يسمع الأب وقع الأقدام الصغيرة المسرعة تتراكض على البلاط.. ها هو الصبي يقترب، وفمه يكاد يتشقق من

الابتسامة العريضة، وهو يشير بسبابته الصغيرة إلى والده ويحدث أولاد خاله، ويخلط ضحكته بالدموع التي تنساب على وجنتيه:

«هاه.. شفتو.. قايل لكم إن أبوي صار عندنا مهو بالسجن!»

يصحو الصبي باكرًا، وتنزف ذاكرته الصور الجميلة ويستعيد مشاعر الفرحة الضخمة، يهب من فراشه على عجل يبحث عن حبيبه الذي كان قد غادر المكان.. يتلفت يمنة ويسرة، وينتقل بين الغرف، ويطرق أبواب دورات المياه، والأم ترقبه بصمت.. عملية تفتيش دقيق وبحثٍ وتحرٍ صامت دامت لدقائق، الفراش الذي ينبئ عن نوم شخص ما يتم تقليبه والتوقف عنده، ينفد صبره، وترتفع وتيرة مخاوفه، وتطفر الأسئلة من جديد من عينيه التائهتين وفمه المشدوه.. يذهب لحضن أمه ويقعد فيه.. يتجرأ على سؤال يخاف من جوابه: ماما.. بابا طلع من السجن ولا أنا كنت أحلم!

السيارة تقلّهم إلى بريدة، يحدّق في الطريق ومعالمه وتفاصيله وكأنه يراها لأول مرة.

يكتشف الأشياء من جديد، ويتعامل معها بدهشة، الذاكرة في حالة احتفالية غير عادية، تستعيد ملفاتها القديمة، وتستذكر الروح التي كان ينظر بها إلى الأشياء.. وتربطها بمشاعره وأحاسيسه الآن..

طريق الرياض - القصيم؛ أصبح سريعًا محفوفًا بالمدن والأرياف على جانبيه، كل مدينة وقرية هنا زارها من قبل، وتعرّف إلى شبابها، وألقى فيها درسًا أو أكثر، وضافه أهلها، أصدقاؤه وتلاميذه منثورون هنا وهناك.

المجمعة - جلاجل - الغاط - الزلفي - الشماسية.. ها هو يقترب من بيته.

الخبر يسري كالنار في الهشيم، رسائل الجوال تتناقله بين المحبين،

وأسلاك الهاتف، والصحف ووسائل الإعلام الخارجية، وقناة الجزيرة تغطي الخبر، أما الإعلام المحلي فكان لا يزال محجما مترددًا!

وحسنًا فعل، فماذا عساه أن يقول لو قال.. سيكون إعادة على خلفية الخبر لما ردده منذ البدء.. ولذا كان الصمت حكمة!

لبس غترته كيفما اتفق، فلم يعد يذكر آخر مرة لبسها.. فكان يعلق على نفسه قائلًا: «صرتُ مثل المتعاقد الجديد في السعودية الذي يلبس الغترة بغير عناية..».

أحس لفترة أنها حمولة زائدة، وداعب صديقه بأنها ضرب من «الحجاب»، وتمنى أن لو أطبق الناس على التخفف من أعبائها، وأخيرًا عادت إلى موقعها على رأسه باهتمام.. فالعرف الثابت أقوى من الإحساس العابر!

لم يشأ أن يكدّر صفو سعادته وأنسه بهواجس المستقبل وأسئلته وتحدياته، كان واثقًا أنّ ثمّ طريقًا ينكشف مع الصبر والتفكير والإيمان.

عادته النفسية أن يفرح بلحظته الحاضرة، ويتفاءل بأختها القادمة.

لم يعتد أن يُمنّي نفسه الأماني؛ فالوقت أنفس من ذلك، فقد تعلم أنه ليس هناك وقت ضائع إذا كان ثم خبرة مستفادة أو علم نافع.

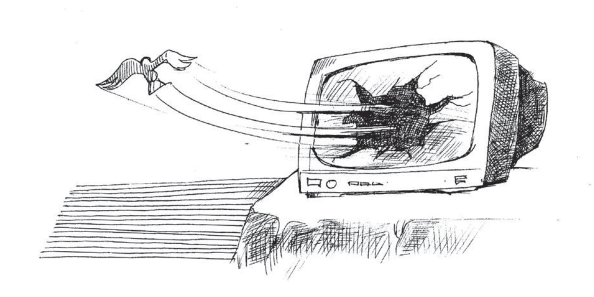
العديد من الناس يضيعون أوقاتهم في تمني أشياء، يستطيعون الحصول عليها لو صرفوا وقت التمني لتحقيقها!

◆◆◆

72

من المحبس إلى الشاشة

◆



مشاعر الأبوَّة كانت حاضرة في مطار الرياض، والدموع أيضًا. أبو إبراهيم سليمان العمر لم يتمالك حين رأى قرة عينه أبا بدر يسير حرًّا طليقًا؛ فانهمرت دموعه كالمطر، وخارت قواه فاستند إلى جدار بقربه، ثم هوى إلى الأرض وهو يجهش محاولًا أن يخفي تأثّره.

الصَّديق عبد الوهاب بعاطفته القوية بدا مأخوذًا بالموقف محاولًا إظهار التماسك، وحين شاهد الشيخ يتهاوى لم يتمالك نفسه هو الآخر؛ فانفجر إلى جواره في نشيج مكتوم، كان يحاول الإمساك بالشيخ على قاعدة: وحزين يتأسى بحزينِ!

بيد أن قوَّته خانَته في هذا، موقف إنساني معبر.

المسافرون حولهم يشعرون أنَّ أمرًا ما يحدث، يتلفتون ويحدّقون، بعضهم يتعرف إلى سحنات قديمة يعرفها، ويهمّ بالسلام، ثم يعيد

حساباته فينصرف، وبعضهم يمضي والتساؤل يدور في داخله، والقليل يتجرؤون ويهامسون بعض الرفقة..

هذا فلان ؟! هذا فلان ؟!

نعم إنه هو!

ما شاء الله..، الحمد لله على سلامة الخروج، ممكن نسلِّم عليهم؟

خلها فيما بعد أخشى أن يجتمع عدد أكبر.

على بركة الله، والله ليس غير محبة في الله.

الطريق إلى بريدة ثلاثمائة كيلو، وسيارة (الفورد) الصغيرة تقلّهم بقيادة خالد، كانت ذاكرته حافلة بالمشاعر والتساؤلات.. آثر أن يرجئها ولا يشغل رأسه بها، بعض الأسئلة يحلها الزمن كتلك التي تدور في رأسه! جرّب أن العفوية والاسترخاء تعين على تفكيك بعض القضايا المعقّدة.

كان يتسمع شريطًا قديماً يعود به إلى الوراء سنوات.. عمل درامي متواضع، ضمن مجموعة نصوص قام هو بإعدادها من وحي الثقافة التي يتلقاها في محيطه الدعوي، وضمن ثقافته الخاصة، مرة عن الغلام المؤمن، وقصة أصحاب الأخدود، ذلك النص الذي تمّ تمثيله على المسرح، لقد أصبح ذلك العمل حديث الناس إعجابًا في الأغلب، ونقدًا من جيوب متشددة تشكك في مشروعية العمل، وأنه لم يؤثر عن السلف السابقين، ولا وجدنا عليه أئمتنا وعلماءنا المهتدين!

ومرة عن ثورة تميم بن أوس، وإخفاقه وعفو الخليفة عنه، وثالثة عن حروب الصليبيين، ورابعة...

كان يسمع واحدة منها تم تسجيلها، ليعود طالبًا في السنة الثالثة من كلية الشريعة.

والتعليقات والضحكات تستدعي المشهد كله، وتستذكر الشخوص

والملابسات، وتتساءل عن المآلات.. أين فلان؟ هذا يذكر دائماً بالخير ويثني ويدعو، ذاك قد انقطع فلا تحس من أحد ولا تسمع ركزا، والثالث انتقل إلى الضفة الأخرى، كانت خير وسيلة ليضمن نجاته أن ينحاز ويكون ملكيًّا أكثر من الملك!

ذاك الذي أصرّ على عزيمتك وضيافتك، وجمع لك جيرانه وقرابته، وتحدّث عنك بثناء مفرط سرعان ما كتب معروض البراءة، وحشد عليه توقيعات.. وبالغ حتى عابه المسؤول ذاته!

حين وصل إلى بريدة قرر ألا يبدأ بشيء قبل والدته التي أضناها الحزن وحطمتها الأيام، ذهب إلى منزل أخيه الأكبر عبد الله في حي مشعل؛ حيث تقيم، قبّل رأسها ويديها، وقعد كطفل صغير حيالها يسمع همسها ويرى دموعها، تهنئ بالسلامة، وتدعو، وتحمد، وتردد:

ما بقي من عمري إلا القليل.. ترفق بي يا ولدي.. لا تبعد عني، ذكريات الأيام الأولى والغياب واللوعة والأسى والدموع حديثها الذي لا ينقطع، تنفجر بعده باكية وكأنها تسمع الخبر الآن!

حين افتقدته أول مرة، وحين أخذوا مكتبته كانت لحظتان عصيتان على النسيان في ذاكرتها.. حدثان سبَّبا لها الخوف الدائم وهاجس الرعب من طارق الليل، فغدت بعد ذلك تفحص الأبواب بنفسها وبخطواتها الكليلة كل ليلة.. والاكتئاب غدا رفيقًا لا يفارقها فهو حديثها الدائم، ورؤى مناماتها، ومعاناتها التي تهون عندها آلامها الأخرى.

جو مشحون بالمشاعر المتراوحة بين الآلام الماضية والفرح والاغتباط بحاضر يبدو حافلًا بالبشريات، الإخوة والأخوات والأولاد والأحفاد والأنساب والأصهار.

البيت يضيق بزوّاره، والناس تتسامع فتهب للمبادرة والسلام، إنه يوم مشهود لم يسمح له تكاثر الناس بأن يطول، فلا بد من الانتقال

إلى مكان سكنه وإقامته في (حي البشر)؛ حيث أهله وأسرته وأولاده وبناته، والمكان المعدّ لاستقبال الناس.

يدلف إلى المنزل لأول مرة، تتعانق الأرواح، أنين مكتوم، وابتسامات واسعة، ها هو الشمل يجتمع من جديد ودعوات الطفلة غادة تتردد على الألسن:

فأسأل الله الذي رد معاذًا للحمى
يرجع لنا والدنا من سجنه مكرما

يدخل الدار فيرى القامات الممتدة تحتشد في المكان، وتملأ الوجدان؛ زوجه وأبناؤه وبناته الذين غادرهم، وأحس بلوعة الثّكل بعيدًا عنهم، وأرمضته الأشواق التي لا يزيدها الوصل القليل إلا اشتعالًا..

هم حاضره ومستقبله، وركن أحلامه الركين.

معاذ الذي فارقه طفلًا شقيًّا تلاحقه مخاوف والديه من جرأته الزائدة يراه الآن أمامه رجلًا مكتمل الرجولة، وقد تلقّن دروس الحياة مبكرًا، وتحمّل قدرًا من المسؤولية عن نفسه وأسرته.. فتى جاد وقت الجد، ضاحك مبتسم حاضر النكتة حين يقتضي الأمر ذلك، يداخله اغتباط ورضا حين يقود سيارته ووالده إلى جواره لأول مرة.. إنه قائد ماهر، وهو يشارك بفاعلية في استقبال الضيوف وخدمتهم وتوديعهم، وبسمة الفرح لا تفارق محيّاه.

عبد الله الصبي الألثغ.. حلو الملامح والقسمات، ذكي الفؤاد، متفوق في دراسته، يحصد الثناء وشهادات الشكر.. ها هو قد صار رجلًا، وحفظ القرآن كأخيه، وقطع شوطًا في الدرس والبحث، تتكامل شخصيته العفوية الواثقة، وبعمق إحساسه بوالده كمصدر لوجوده، وسبب لفخره واعتزازه، يريد أن يحقق الأبوة المعرفية فيصرّ من الأيام

الأولى أن يقتطع دقائق يحفظ فيها ويسمّع (عمدة الأحكام) للمقدسي، ويستمع من والده لتعليقات مقتضبة تقدح زناد فكره الحي وعقليته المتهيئة للانطلاق..

هو يجد فيه سرًّا من سره، وقبسًا من روحه، وامتدادًا فكريًّا يتجاوز الصلة البيولوجية إلى التثاقف والتجاوب المعرفي.

غادة، لقد أصبحت امرأة في جسدها وعقلها.. ومع هذا فلا شيء يمنع من دموع الفرح.. يستعيد والدها معها مواقف الطفولة المضحكة مع والد الجيران، والمقالب التي لا تخلو من خبث الصغار -إن كان للصغار خبث- يأنس باسترجاع صوتها العذب وهي تتغنى بين يديه بالشعبي.

قلبي إذا جابو ذِكِرْ نجد ينساق	ما لوم قلبي كلما زادْ شوقهْ
تطرب له النفس الحزينهْ بالاشواق	ودي بشوفه مير صعبٍ طروقه

ترسّخت هذه الكلمات من يوم تغنت بها ذات زيارة، ولا زالت، تبعث الشوق والحنين المتجدد، وليس يدري أهي تحلي الصوت أم الصوت هو الذي يحليها! بيد أنه كلما سمعها منها التاع وارتاع، وأخذته هزة، وانتقل بروحه وذاكرته إلى حيث سمعها أول مرة!

آسية الحبيبة، يرى فيها الذوق الرفيع المبكر، والثقة الكبيرة، والشخصية الجذابة القوية، جداول الحب والفرح تنساب في داخلها فتكتبها مرة، وتكبتها أخرى، وتظل هي الرقم الصعب المتميز..

وإذا كان الذكور سر أبيهم فهي سر أبيها وأمها في حيويتها الهادئة، وعطائها الموزون، وروحها العصيّة على الانكسار، كانت تمنحه الصبر والحب معًا!

هؤلاء الصغار الذين كان يقلق ويخاف عليهم، وينام ويصحو على

ملامح وجوههم البريئة الحزينة، ويذوب عجزًا حيال أسئلة لا يجدون لها جوابًا، يراهم الآن يؤدون مهامهم المنزلية، ويستقلُّون بغرفهم وكتبهم وأدواتهم وصداقاتهم كأحسن ما يتمنى.. وغرف المنزل أصبحت مكتبات تحفل بجديد المطبوع، فيردد: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [يوسف: من الآية ٦٤].

يختلس جلسة أسرية مكتظة بالحب والعاطفة، والكلمات تتلعثم، والخجل يجفف الدموع سريعًا، والروح تعبر بلمع العيون، وحركة الجسد، والجاهزية السريعة.

تحدثت أسرته الخاصة حوله ذات عشية عن الأوفياء والأصفياء؛ فارتاح، وهتف:

لن نعتب على قريب ولا بعيد، ولن نندم على جميل أسلفناه، سنكافئ أولئك الذين تضامنوا وقت الشدة، ولنكتب إذًا «سجل الوفاء» لوحة نعلّقها على جدار المنزل، نقرأ فيها تلك الأسماء الوفية كلما دلفنا إليه لنظل داعين لهم بالخير..

وهكذا كان..

وبدأ الصغار والكبار يعتصرون الذاكرة لتكتمل قائمة الأسماء.. كان (عبد الوهاب) يتقدم القائمة، ومنذ ذلك اليوم بقيت مسطورة في لوحة القلب بعد أن أدت الصحيفة دورها!

ظل الشاب(عبد الحكيم) هو اللغز الذي يتصدر القائمة بعد الكبار مباشرة، والتساؤل يكبر معه.. بقدر وفائه ومواقفه الكريمة وجهده الطيب.. واليوم: بعد أن انصرمت أيام الشدة، وعادت أيام الرخاء رغيدة.. أين اختفى ذلك الوجه الباسم ؟ ولماذا ؟!

البيت يعلن حالة الطوارئ، ثم المسجد، ثم الحي كله، على مدار الساعة الآلاف يتوافدون من أنحاء البلاد، والسلام لا يتوقف إلا لشرب الماء

بعد جفاف الريق، والشباب ينظّمون الدخول والانصراف، لا يقعد إلا الكبار والمعارف والشيوخ قليلًا للمباسطة والحديث، ثم ينصرفون ويدعون المكان لآخرين، وجبات الغداء والعشاء يوميًا للمئات، الشاي والقهوة يصنع بواسطة فريق متفانٍ مختص يقوده الرجل الطيب الوفي (سليمان الفهيد).

عشرات الشباب المتحمس نذروا أنفسهم لإنجاح المهمة وضبطها، يشرف عليهم الدكتور (أبو أحمد السلطان) الذي ظهرت قدراته وحزمه في هذا الموقف الصعب الذي يخشى فيه أن ينفلت الزمام، أو تسير الأمور على غير ما يرام!

مجموعة من الشباب قادمة من بعيد، ضمن هذه الباصات المتواصلة، تصرّ على جلسة خاصة خارج المنزل.. ماذا سيقال.. وكيف سيدار اللقاء، وما هي الأسئلة؟! كل شيء سيكون مسجلًا.. هذا لا يمكن أبدًا، ويتصدى أبو أحمد للمهمة بنجاح.

الفناء -الذي خصص للاستقبال واجتثت نخلاته وأشجاره ورُتّب- شهد الكثير من المواقف الصعبة والخاصة والمحرجة، دموع من أمثال الشيخ (عبد الرحمن العجلان)، زيارة الشيخ (إبراهيم الربيعان) السيد الكريم الذي أصرّ ألا يخرج إلا بوعد ضيافة.. وكعادته فعله فوق الكرم ودون الإسراف، وظل واصلاً وفيًا مسكونًا بالحب حتى آخر لحظة من حياته.

اتصالات هاتفية تبارك وتهنئ.. لأول مرة يسمع صوت الأستاذ عصام العطار الإنسان الداعية، الذي أحبه وتأدب بشعره منذ الطفولة.

سيدة المنزل.. تعتني بالأدوية الشعبية التي تحافظ على صحته ليتمكن من مواصلة المهمة الطارئة بعيدًا عن الأنفلونزا وعوارض الإجهاد؛ فتنجح في ذلك، وتساعدها خبرتها الطويلة في أداء الدور كأفضل ما يكون.

على مدى خمسة عشر يومًا لم يتوقف إلا لينام في ساعة متأخرة من الليل؛ ليعود في صباحه الباكر مرحِّبًا مبتسمًا، وصغيره (محمد) لا يفارق حجره كلما قعد، فإذا قام كان إلى جواره، إنه يصرّ على أخذ موقعه دون أن يسمح لأحد بمزاحمته.

هبَّة شعبية تصعب السيطرة عليها، وجلسات متصلة يتخللها حديث عابر عن مجريات الخروج، وإجابات مقتضبة عن أسئلة المستقبل، ووعود إيجابية، وحب ودعاء.

مسؤول الأمن يزور ويهمس أن الوضع غير مقبول، فيجيبه بأن الأمور سهلة، وكل شيء ينتهي في وقته، وليس ثمّ ما يدعو إلى التخوف.

مسؤول يتصل ليطلب رقم الحساب حتى يبعث بأعطية شهرية ريثما يتم ترتيب الأمور، فيبعث إليه بخطاب شكر ودعاء وإشادة بهذه المبادرة، ويؤكد له أنه بخير ولا يحتاج إلى مزيد.

جلسات خاصة قليلة على هامش الاستقبال، وفي ليل متأخر غالبًا، ومع ضيوف قادمين من بعيد، يهمهم أن يسمعوا ويسألوا.. كان يتحدث عن سهولة الخروج، وأنه ليس ثمّ معوقات دون العودة إلى العمل والنزول للميدان.

بدا أن بعض هذا الحديث نقل على غير وجهه، وكأن الموقف يعبر عن انتصار طرف أو هزيمة آخر، وأفلح الوسيط في إيضاح الصورة، وأن المقام لا يستدعي هذا إطلاقًا، والحديث عن خروج النزيل معززًا مكرمًا، هو امتداح للمسؤول عن ذلك التعزيز، وانتهى الأمر.

هفت نفسه إلى السفر الذي أحبه، وزادته القيود شوقًا إليه، وأحس بأنه الآن يتوقف عنه باختياره، آن له أن يكتب لوحة على الباب يعتذر فيها عن الاستقبال لدواعي السفر، وأن يرحل بأهله إلى مكة معتمرًا زائرًا البيت الذي انقطع عنه ما ينيف على خمس من السنين، ثم إلى

جدة سائحًا مبتعدًا عن زحمة الناس وضجيجهم، متصلًا بخاصته ممن لا يملك نفسه حيالهم.. التقى صالح المرزوقي، والتقى آخرين على رؤوس الأصابع.. عددًا، وعلى رؤوس الأصابع حذرًا، الرقيب حاضر ومدقق.. لست تدري ماذا يحاذر ؟!

ذات مرة دخل إلى الصلاة، ودخل وراءه الرقيب، تذكّر أنه على غير طهارة، فانفتل من صلاته وذهب إلى مكان الوضوء.. هل سيعدّها الرقيب خداعًا من (المطاوعة)!

صاحب الفندق رحّب وبالغ، بيد أنه تراجع حين عرف أن أجهزة للتنصت يجب أن توضع على الهاتف!

في المسجد وفي السوق التجاري وفي كل مكان تصادف وجوهًا تعرفها ولا تعرفها..

صديقه وتلميذه (عبد السلام) يصادفه في مسجد الشقق المفروشة ليسأله ماذا بعد؟! فيتحدث إليه بأمل ووعد إيجابي، لكنه يقرأ في عينه وملامحه تشكيكًا، وكأنه يقول: ما خرجتم لتعودوا من جديد، بل لتكونوا لأهلكم وأطفالكم فحسب!

القيود عادة هي تلك التي نصنعها من داخل النفس، نحن الذين نكبّل بها أرواحنا وعقولنا.. ليس غير! انطلاقة الفكر والإبداع لا تستسلم للمعوقات أبدًا أبدًا أبدًا.

استقل الركب سيارته عائدًا أدراجه من حيث جاء؛ مطارحة المحفوظ، القصص الجميلة، الأحاجي تدور حول شخصيات أو رموز غامضة، الشعر رفيق السفر، الذكريات تطل من جديد، والأنس يذكيها ويبعثها من رقادها، أجملها وأعذبها ذاك الذي كان عناءً وخوفًا وتوجسًا، والجو يحفز على الخوض في أدق التفصيلات، تحدث حتى أراك.

ليس جيدًا أن نبالغ في البحث عن أهمية ما سنقوله حينما تكون في حالة

استرخاء مع حبيب هو جزء من الذات! ما خلق اللسان إلا للكلام، ولا منحت الذاكرة إلا للاستحضار!

يعود إلى منزله ليحدد الاستقبال بثلاثة أيام أسبوعيًا بعد صلاة المغرب، ويتحول المجلس إلى دروس منزلية ومطارحات فكرية وأحاديث التجربة.. والكثيرون حوله لا يفهمون هذا؛ إنهم يسألون بإلحاح:

متى يبدأ درس بلوغ المرام ؟

الدرس يجب أن يبدأ دون تأخير.

الناس تتساءل وتلح.

اليأس بدأ يدب في نفوس الشباب!

أحدهم أراد أن يلحن في سؤاله لحنًا، وأراد للرقيب أن يفهم أنه سؤال فقهي فقال:

- «خسف القمر في أحد البلدان وطلع، غير أنه لا ضوء له، فماذا تفتيهم أن يفعلوا في مثل هذه الحالة»؟!

فأجاب:

-«لكل أجل كتاب.. ولكل خسوف جلاء! ».

كانت الرؤيا تساعده على شهود المستقبل في العديد من الحالات، أم معاذ تراه في المنام يقول لها: إنه وجد قلمه الذي ضاع منه! وبدأ يكتب به مجددًا.

يبتسم ويضع الرؤيا نافذة إيجابية، فالقلم صديقه ورفيقه الذي قاسى الغربة بفقده طوال تلك السنين، وهو يُعوّل على الكتابة كأداة للتعبير وتطوير الذات، وكجسر للتواصل مع الآخرين أكثر مما يُعوّل على الأدوات الشفاهية!

رسائل جوال، ومجموعة أخرى تحت الباب، وثالثة في جيب السيارة، وضغوط وتساؤلات.. كل ما يريده هؤلاء أن تعود الأمور التي اعتادوا

عليها، أن يروا ازدحام السيارات عند الجامع، أن يحدث اختلاط الأحذية عند الأبواب، وأن تعود حركة توزيع الإعلانات..

يجيب بأننا حيال تطورات إيجابية نتعامل معها بأدوات جديدة تحقق لنا الرسالة دون أن تعني للطرف الآخر أنه لم يكسب شيئًا، ليست القصة عنادًا أو تحديًا؛ إنها أبعد من ذلك.

هذه المرة يأتيه استدعاء، ويُبلّغ بأن ما تفعله ليس هو ما تم الاتفاق عليه!

يدرك بأن الخوف من تطور الأمور هو الحامل على مثل هذه التداخلات، وإلا فمجلس في المنزل لمئات، وحديث فكري وعلمي لا يعدّ مشكلة.

ينقل المجلس إلى مكتبه الجديد بحي الراجحي، ويؤطره بدروس محددة، في السيرة النبوية، وفي التفسير، وفي الفكر والثقافة، ويتزايد الحضور ليملأ الخيمة، ثم الفناء المحيط بها، والتسجيل المرئي حاضر للتوثيق.

يفضي الأمر إلى درس بلوغ المرام في الخيمة؛ ليكون ذلك تمهيدًا لأول محاضرة علنية تقام في جامع الراجحي المجاور لمكتبه، ويختار عنوانها (رسالة العصر).

حديث عن سورة العصر ومضامينها القيمية، وحديث عن الحقوق والحفاظ عليها، حاول أن يتوازن، فنجح في مخاطبة الجمع الذي احتشد له هنا من جديد، وأصرّ على حضور التصوير الذي لم يكن يمر بسهولة في مسجد من مساجد بريدة، وكان هناك ما يشبه التهديد بإفساد الجو لكنه أصر ولم يتراجع.

التصوير والمحاضرة مرّا بسلام، والرجل القوي سليمان الفهيد كان في طليعة الحاضرين الجاهزين لإجهاض أي صوت يحاول المساس بالهدوء العام، أعداد لا يحصيهم يشكرون على محاضرة شاهدوها عبر

شاشة التلفزيون السعودي تحت عنوان (رسالة العصر).
ما بين السجن إلى التلفاز الرسمي كانت مسافة طويلة؛ أخذت عددًا من السنين، وكانت انتقالاً تدريجيًّا وجريئًا في الوقت ذاته؛ لديه بعض الوعي عما يفعل، ويترك أكثر ذلك لقدر الله الحكيم.
من الواضح لديه أن مجموعة من الحضور تتحدث عن إجماع، وهي ذات روح انشقاقية، وتريده قائدًا شموليًا يعزز رؤيتها وإملاءَها، قد تكون مخلصة، ولكنها ليست المشهد كله، ولا جُلَّه، وتريد أن تقدم ذاتها على أنها وإن قل عديدها فهي الحق وهي الجماعة، ولا يضر أن تكون قليلة العلم والخبرة، فهي مخلصة، والمخلص يتلقى الحكمة، وهي غيورة والغيرة دليل الإيمان.
إنها تدقق في أحاديثه ومفرداته وتفحصها بمنظار مكبر.. ماذا قصدت حين عبرت بلفظ (الشيعة) دون (الرافضة)، هل نصرتك لمجاهدي الشيشان أن تقول إن هجومهم على داغستان مجازفة غير مدروسة؟
حديثك عن العولمة ومستجداتها وأهمية استثمار الفرص، وتقديم الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، وأن البناء أهم من الهدم. صبرك على الشبيبة المتعقلنة ممن كانوا حولك وعدم إصدار بيان بتسفيه منهجهم و «زندقتهم».
غبار كان يثار.
لم يكن راغبًا في صدام، ولا متشوقًا لإجماع، قرر بعد التردد أن يولي وجهه شطر ربه، ثم شطر نفسه وذاته.
التدين عنده شعور يلابسه حين يسجد لربه فيصغر عنده الناس وأولهم روحه التي بين جنبيه.
التجربة الحياتية والسن الذي بلغه جعله أكثر هدوءًا وتحملاً، كان يصارحهم أنه لا يريد أن يتابعوه، يريد أن يدعوه وشأنه، صوته أبلغ ما

يكون حين يعبر عن دينونته لله بما يؤمن به، دعوه ينفك قليلًا من غرم التابع القريب الذي يعتني بجزء من الصورة، أو يلحّ على ما تعوده فحسب.

ولّى وجهه أيضًا شطر السواد الأعظم الصامت من جمهور الناس المحتاج!! عاطفة صادقة وتدين عفوي غير مؤدلج وكلمة تحكي جوابًا على ما في نفسه.

ما اختاره هو خيار من طرق متعددة تتكامل لو شاءت، لا تتعاند ولا تتباعد ولا يجب أن تكون تحضيرًا لعراك داخل مدرسة أو تيار.

ها هو يرى السيارات تحتشد عند مضيق غير منظم فيحجز بعضها بعضًا، ويطول الصراخ وزعيق المنبهات دون جدوى، هي في مكان آخر، طرق سالكة تسير في اتجاهات متقابلة بأقصى سرعتها، وهنا نفق، وهنا جسر، ليست فقط الطرقات المتوازية هي التي لا تتقاطع، كل الطرق المنظمة والمدروسة هي كذلك!

أدرك أن انصياعه لهذه الشريحة ليس في صالحه؛ فهي تتغير وتنسحب دون أن يحاسبها أحد على موقف أو رأي؛ لأن مواقفها غير مسجلة عليها، أما هو فيظل رهين كلمة أو موقف يكتب ويحفظ، فليكن ناطقًا بقناعاته معبرًا عن ذاته.

ثلاثة جادلوه وجد أن أحدهم رحل في صراع داخلي لا يتمنى أن يكون قضى فيه، وآخر بعد ما وصل إلى نهاية الطريق عاد أدراجه ليكون مواطنًا عاديًا بعيدًا عن الزحام، والثالث لا يزال في طريقه واجتهاده ودعوته، وقد تكيف مع قدر من الاختلاف تقتضيه السنة الإلهية.

التساؤل الأهم لديه: إلى أي مدى سيقترب أو يبتعد عن سلطة تمسك بالزمام كله؟ ويجدها أمامه في كل الطرق، وهو يؤمن بأن الضبط جزء من ضرورة الحياة ومصلحة المجتمع، وأن الأمن مكسب للشعب والسلطة معًا.

كما يؤمن بأن مهمة السلطة هي تنظيم الجهود وليس إجهاضها.

قرر أن يتعامل وفق الحكمة التي تقول: «اجعلها كالنار.. إن ابتعدت عنها ضربك الصقيع، وإن اقتربت احترقت».. كلمة سهلة في نطقها، جميلة في صياغتها، عسيرة في تحويلها إلى برنامج أو مشروع، هو حاول وحاول وتحمّل أولئك الذين يريدون أن يفهموا رؤيته من موقف واحد يحاكمونه إليه ليصبح عندهم بوقًا، كما تحمّل آخرين أرادوا أن يفهموه من موقف واحد يحاكمونه إليه ليصبح عندهم خصماً أو معارضًا، أو صاحب رؤية (تكتيكية).

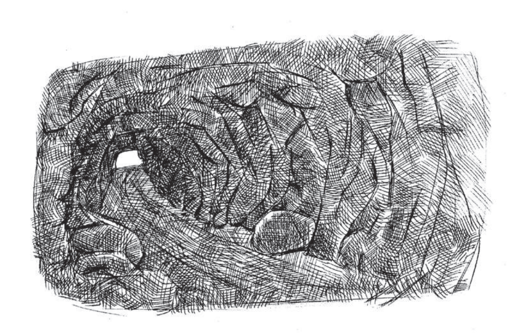
وفاتهم أن الحياة ليست مسرحًا، والناس ليسوا دائماً (ممثلين).

من يفقد مصداقيته مع نفسه يفقد قدرته على الاستمرار والعطاء، ومن يتصالح مع نفسه سيتجاوز عثرات المحيط.



73

المخبأ السريّ



يقف الساعة مدهوشًا أمام حجم التسريبات الهائل لوثائق سرية طريّة في موقع (ويكليكس) الذي أحدث ما يشبه حريق سبتمبر في السياسة الدولية -حسب بعضهم-، أما هو فيشبه التسريب الضخم بإعصار تسونامي لجهة اتساعه، ومفاجأته، ويعتقد أن آثاره لن تكون مشهودة بالحجم الذي يظن، فالعالم يتكيف سريعًا مع الأحداث، ويتساءل: هل ستبقى على المدى الطويل؟ وكيف يستوعب الجيران وشركاء الوعاء السياسي الواحد حديث بعضهم عن بعض، ونوايا بعضهم المخبوءة تجاه شريك لا يضمرون له خيرًا مما كشفت سريرته الأوراق؟

الوثائق التي يفرج عن بعضها بعد ثلاثين أو خمسين سنة بدت في متناول أيدي البسطاء قبل أن يجف مدادها.. يا للسخرية!

تداعى إلى ذهنه وهو يتابع الحديث المثير ما يعد ألعوبة طفولية سيطرت

على مشاعره ذات حين من الدهر، وصنعت له قلقًا حقيقيًا.. يبتسم كلما تذكره.

يستحضر حين كان طالبًا في المرحلة الثانوية وأرسل مع سائق تاكسي شريطًا عاديًا إلى صديقه في الرس، ووضع الشريط في مظروف.. كان سائق التاكسي يقلب المظروف لدى زملائه، ويضحك وهو يقول: ووترجيت!

كانت فضيحة ووترجيت تحرج السياسة الأمريكية، وتحمل المسؤولين الكبار على تقديم استقالاتهم، والإعلام العالمي مشغول بحديثها.

وفي حالة (ويكليكس) فالأمر لا يتعلق بدولة، بل بمجمل العلاقات العالمية، ويمتد من الأمني إلى العسكري والسياسي والاقتصادي.

جرت فصول تلك القصة الصغيرة عبر ما يربو على عشر سنوات من عمره، واحتلت زاوية ضيقة من زوايا حياته، وغدت تكبر بمرور الزمن عليها كما تكبر ذاكرة طفل غرير!

تصرّف بمقتضى الطبع البشري في الحرص والتحوّط، واتكأ على الأسباب العادية، وفي الوقت نفسه كان يقرأ عن العناية الإلهية، والحكمة والرحمة، ولا يهتدي إلى طريقة للتأليف بين ما يتوجب على المرء أن يفعله، وبين ما يحدث بعد ذلك من الأقدار والنتائج القريبة.. فترك سفنه تجري بماتشتهيه الرياح.

أدرك أن اعتياد القلب على التسليم والرضا وانتظار العطاء الإلهي وإن كان ظاهره مما تكره النفس هو الحقيقة التي تؤدي إليها تجارب الحياة، ومشاهداتها الملموسة، فضلًا عن قيمتها الأخروية، وبعدها النفسي المؤثر هدوءًا وسكينة ورضا وتفاؤلًا حتى في أحلك الظروف وأقسى النوازل.

عناية اللهِ أغنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عالٍ مِنَ الأُطُمِ

لأنه يبدو داعية معروفًا يُقصد من أماكن عدة، تجمع لديه عدد لا بأس به من الوثائق والأضابير والملفات التي تكومت حوله، فكان يحوطها كما تحوطه، ويوليها الاهتمام حتى أصبحت لديه مجموعات نادرة من الأوراق.

- مجلات ممنوعة من التداول.
- تقارير خاصة من مراكز أبحاث.
- نشرات يومية من جهات لها مواقف مختلفة مع أنظمة بلدانها.
- أشرطة صوتية أو مرئية لبرامج أو محاضرات محظورة، أو يخشى أن تصبح محظورة يومًا ما.
- ما يجود به الفاكس من بيانات ومعلومات فيها الغث والسمين.

يومها لم يكن الإنترنت في كل بيت، ولا كانت الشبكة تحوي معلومات تغطي وجه الكرة الأرضية سبع مرات لو بسطت عليها.

ولا كان حجم المعلومات يتضاعف بمعدل مرة كل ثلاثة أسابيع، ويشمل كل شيء بدون استثناء من «الفلفل» إلى صناعة القنبلة النووية.

ولم يكن ثمّ قنوات فضائية مفتوحة وحيّة على الهواء تعالج شتى الموضوعات بدون تحفظ، وتتحدى المحرمات الدينية والسياسية والاجتماعية، بل تعدها مادة للإثارة والمناقشة واستقطاب المشاهد.

وحده (الفاكس) أحدث وأفضل وأسرع وسيلة للحصول على المواد، وهو آمنها مع احتمال أن يبعث بأكثر من نسخةٍ في الوقت ذاته لأكثر من جهة.

كان التناول الشخصي، والتهريب عبر المنافذ الحدودية هو الوسيلة الأكثر استخدامًا على ما ينطوي عليه من مخاطر واحتمالات، أقلها مصادرة المادة ومحضر التحقيق.

يومًا ما سافر بكتاب في يده للقراءة، وحين عاد من سفره تحفظ مراقب المطار في جدة على الكتاب وصادره؛ بحجة أنه لابد أن يمر على وزارة الإعلام لإجازته.

جاءته ذات غداة فكرة أوحت له أن يصنع أرشيفًا خاصًا، ويضع فيه كل ما يخاف منه أو يخاف عليه، ويقوم بتصنيفه وتسهيل مراجعته عند الحاجة.. فصنع سردابه الذي غابت فيه الأوراق، وكهفه الذي نامت فيه الملفات ولبثت سنين عددا.

بدا له بعد ذلك أنه كمن يجمع الأموال ثم لا ينتفع بها إلا من جهة إحساسه بالغنى، وتلذذه بأنه يستطيع شراء الثمين، أو كمن يستمتع برائحة الشواء إلى جواره!

استأجر شقة خاصة من أحد المقربين، في (الصالحية)؛ الحي الشعبي البعيد، وأحال إليها كلَّ ما يهمه الحفاظ عليه من هذه المواد.

يا زمانًا في الصالحية سمحًا أين مني الغِوى وأين الفتونُ؟

بحسب شعوره الداخلي كان يعدّ هذه المقتنيات بمثابة مخزون مخيف من أسلحة الدمار الشامل يعطيه جرعة من الأمان، وجرعات من الخوف.

من ضروب المستحيل أن يخطر على باله بأنه سيكتب يومًا ما بحرية تامة عن هذا المستودع الخطير، لقد كان العثور على واحدٍ من تلك العنوانات لكتاب مطبوع في لندن، أو على شريط من برنامج مذاع على الـ (BBC) عن الوضع الداخلي يعد إدانة كافية ليس في نظر الآخرين فحسب، بل وحتى في نظره هو أحيانًا، إنها المخاطرة التي لا يقدم عليها أولئك الذين يتقنون حساب المستقبل. فكل ورقة عبارة عن مشروع حساس، وكل إضبارة كافية لولادة الأسئلة التي لا تنتهي أمام محقق

متوسط الذكاء!
والأهم من خطورة وجود المادة المحظورة عرفًا، وإن لم يكن ثمّ قانون بمنعها، هو تلك الأسئلة التي سوف تفجرها:
-لماذا الاحتفاظ بهذه المواد ؟
-كيف تم الحصول عليها ؟
-ما علاقتك بالجهة التي أصدرتها ؟
- ما معنى تخزينها وأرشفتها وإحاطتها بالسرية التامة ؟
- من؟ وماذا؟ ومتى...؟!
لقد كان ذلك المخبأ المكتظ بالملفات المستلقية بركانًا خامدًا من الشك والريبة والأسئلة.. فأخطر من كل تلك الأوراق.. نوع السرية التي تحيط بها، والطريقة التي تم إخفاء الأوراق بها، فما الحاجة لهذه (السرية) والتخفي إن كان كل شيء على مايرام؟! هكذا يمكن أن يقرأه صانعو الأسئلة حول ذلك الكهف الغريب.
ينظر إلى هذه النقطة وكأنها إصبع ديناميت يمكن أن يفجر الخارطة كلها، ويجعله في محل التهمة لدى الجهات المختلفة حتى العلمية منها.
نقص الخبرة التراكمية، وغياب التعاطي الثقافي المعرفي يجعل من التضييق على حرية الاطلاع والبحث -حتى على النطاق الشخصي- أمرًا عاديًا، لا يزيده الزمن والإجراءات إلا شدة واستحكامًا..
اليوميات التي ترد إلى مكتبه الخاص بجوار منزله، من كتب ومطبوعات ونشرات ومواد مرسلة، وأسرار باحت بها قلوب بعيدة لمأمن في عيونهم، تبقى لأسابيع قبل أن يتم فرزها ونقلها إلى حيث تستحق أن تبقى، وقد يذهب بعضها إلى ذلك المخبأ السري.
هل نحن نتكلف السرية أحيانًا حتى نشعر بالأهمية، وأن لدينا ما نخفيه، أو ما نخاف عليه ؟ أو نشعر الخاصة الذين نطلعهم على أسرارنا بأنهم

أهل للثقة، وأنهم قائمون على رصيد ضخم لا يدانيهم في ذلك أولئك (البسطاء) الذين يتعاملون مع الأشياء العادية، وفي الهواء الطلق ؟
هل نحن نريد أن نقول: إننا أكثر ذكاء مما يُظَن بنا؟!
إلى جوار اليوميات، ثمّ رصيد من الورق الشخصي من تحضيره للمحاضرات والدروس الأسبوعية، ورسائله العلمية، ونتاج قراءاته الطويلة في كتب التراث، وكتب الشريعة والحديث النبوي خاصة، ومسودات لمؤلفات، أو مشاريع قادمة، ومراسلات بينه وبين شخصيات علمية أو دعوية من داخل البلد أو من خارجه، وخطابات من جهات وأشخاص تتضمن مقترحات أو ثناءً أو نقدًا أو نصيحة أو خبرًا أو طلب مساعدة.. مرتبة في ملفات يكتب على كعوبها محتواها.
قبل أسابيع من رحيله الطويل، وقد بدت الإرهاصات تؤكد ما سيحدث قام بعض الذين أودعهم سره بإخراج تلك الحصيلة من المكتب الشخصي وتوزيعها على مواقع عدة في بيوتهم أو استراحاتهم.. فذلك المكتب ينبغي أن يكون فارغًا في عصر الغيبة.
ذهب إلى هناك وأسئلة «السرداب» تكبر في ذهنه، أين ذهبت تلك الأضابير ؟ وهل ستوضع اليد عليها يومًا أو تمس بسوء ؟ حتى صار الهاجس يعتاده في منامه.
يمشي متثاقلًا إلى مكتب المساءلة، فيلمح عربة تدفع وفوقها كتب وأوراق وصناديق فيجزم بأنها تخصه، ويحس بأن اليد قد وضعت على ما كان يخشى ويرهب!
وطفق يردد:

متى يكون الذي أرجو وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا!

العسكري إلى جواره لا يحس بأي شيء، أما هو فلمحة بصر، أضافت

عبئًا وهمًّا ثقيلًا إلى أعبائه.

الأسئلة تتكاثر.. بيد أن ما أدهشه أن القليل منها كان يدور حول تلك الأوراق.. رسالة بعث بها إلى سائلة من الجوف حول تعطيل مدرسة القرآن، أخرى أجاب فيها عن سؤال فتى من أبها، ثالثة كانت في طريقها إلى الشرقية.. كلها مطبوعة ومرسلة بالبريد.

حين اتصل بزواره أدرك أن المكتبة نقلت بقضها وقضيضها؛ حيث بقيت لسنوات قبل أن يُفرج عنها وتعود إلى رفوفها سالمة حتى من الغبار.

وأدرك أن الأوراق التي سربت من المكتبة تم العثور عليها وعلى من أخرجوها.. وقد انطبق عليها المثل القائل:

- الشيء إذا أُخفي كبر.

- وقوع الشر أهون من توقعه.

يسمع ذات مرة خبرًا يقلقه.. محتسب أبلغ جهة ذات علاقة بوجود مخبأ سري لمواد أرشيفية تعود لذلك المكتب المصادر..

لم يُداخله شك أن المعلومة صحيحة؛ لأنها محددة وصادقة ومتطابقة مع ما يعلم.. ولكن لم يجد لها أثرًا.

محفظته التي سُرقت في الحرم تم العثور عليها، وفيها دفتره الخاص بأسماء وهواتف أصدقائه، وملاحظاته الشخصية السريعة، وجرت الأسئلة حولها، ومن طريفها ذلك السؤال حول عبارة وردت في دفتره الصغير تقول «التواصل مع اليمن بموجب (اتفاقية مكة)».

هذا العنوان الصارخ، والمضحك في الوقت ذاته، مكتوب بخط يده، وهو لا يتذكر شيئًا، يظنّ أن شابًا لديه قدر من الادعاء والتزيد أملى هذه الكلمة بمناسبة الحرب اليمنية بين الشمال والجنوب..

كان يتعجب من أن المسروقين عادة يبحثون عن ضالتهم ولا يظفرون

بها، أما هو فلأنه يريد لها أن تبقى في لجة الضياع فقد أتيح لها من يهديها الطريق إلى حيث هو في معتكفه المقلق.

الأمر مرَّ بسلام.

حدث صغير كهذا كفيل بأن يضع حالة من التشاؤم لدى آخرين، ما معنى أن تقترب القذاة من فمك حينما تهم بشرب الماء الذي وقعت فيه، وتنتقل إلى الطرف الآخر حينما تهم بسكبها؟!

تعلّم ألا يرفع منسوب الحذر لكي لا تتعب جسور التوجس.

درس خرج به من تجربة عملية مريرة.

بعد خروجه بشهور التقى بالرجال الذين كان يأتمنهم على أرشيفه، وسأل عن ملفاته وأوراقه فعرف أن جزءًا منها وضع في مدفن، أقام عليه أحدهم بناءً يناطح الريح، وجزءًا آخر وضع في خزان أرضي، ومع الوقت والرطوبة تحول الورق إلى لبنات رطبة لا تصلح حتى للحرق، ويكفي أن ترمى أو تدفن، وجزءًا آخر لا يزال موجودًا ولكن بعد مراجعته تبين أنه لا قيمة له، لقد أفقده الزمن قيمته..المهم ألا يفقدنا الزمن قيمتنا!

آه.. يا للعجب! أوراق ظل يجمعها سنين طويلة، ويظن أنها ستسعفه في إجابات أو تحليلات، ثم يخسرها بسهولة.. وأحيانًا يقول.. أوراق ظل يداري عليها ويخشى من مغبة اقتنائها، ثم ينتهي أمرها دون سؤال أو عتاب.

هذه عادة الأشياء التي يتوقف الزمن عندها، وذاكرتنا مشحونة بأهميتها حتى إذا عدنا لها ذات يوم وجدناها خرائب وبقايا رميم.

-عادت الحياة إلى مكتبه شيئًا فشيئًا، وبدأ يرتب مكتبته، ويعيد تأهيل محتوياتها، ويجمع ما تفرق منها، وذات مساء طرقه اتصال من مسؤول..

بعد التحية والسلام..
-هل تريد شيئًا ؟ هل ينقصك شيء ؟
- نعم. لا زال بعضي لم يُفرج عنه بعد!
ضحكة استغراب.. يتابع:.. لا زال بعض مكتبي لديكم.
- ألم يتم تسليم المكتبة قبل خروجكم ؟
- بلى، ولكن أوراقي الخاصة وملفاتي الشخصية لا زالت رهن محبسها!
- أبشر.. تأتيك خلال الأسبوع.
أيام ويطرق بابه وجه غريب، شاب لطيف يحمل صندوقًا صغيرًا يسلمه له، ومعه ورقة طويلة بخط اليد كتبت على لسانه، فحواها أنني استلمت هذه المواد الممنوعة من باب ثقة ولي الأمر بي، واسترسال طويل بالشكر والعرفان!
فتح الصندوق فإذا كتب عائض القرني، وعبد الرحمن العشماوي، وكتاب في السياسة من منظور إسلامي، ومطويات عادية..
أعاد إليه الصندوق والورقة المرفقة المكتوبة وقال لضيفه بشيء من التبرم:
شكرًا لك، هذه الكتب لا أحتاجها لأني عندي منها ما يكفي، وهي ليست محظورة فقد طبعت في الرياض، وبترخيص من وزارة الإعلام.
يأتيه اتصال من المسؤول ذاته يستفسر عن القصة، فيشرح موقفه، وما هي الأوراق والملفات التي يريد.
بعد أسبوع يزوره شخصان من الرياض ومعهما (كراتين) ورقية ضخمة مليئة بما لذّ وطاب من كتاباته وخطاباته وأوراقه الشخصية وتحضيراته ومسودات كتبه ومشاريعه القادمة.. بيضاءَ كيوم كتبها.. لم يخرم منها ورقة واحدة!

كان مدهوشًا للغاية.. يا للحكمة الإلهية!

الأوراق التي داهمه الحزن حين أُخذت ها هي تعود إليه محفوظة دون نقص أو ضرر.. وفي أحسن حال، أما تلك التي وكل فيها إلى نفسه وجهده وبنى فيها سردابه الطويل المغيب وكهفه، فقد ذهبت أدراج الرياح ونامت «نومة أهل الكهف»..

درس لا ينساه.

ابذل قصارى جهدك وتحمل مسؤولياتك، فهذه تبعة فطرية، وتكلفة شرعية، وإياك أن تعتقد أن الأمر متوقف على ذلك المجهود الذي تقوم به، فهناك حكمة الله الحكيم، ورحمته التي هي فوق الأسباب وقبلها وبعدها..

افرح بإنجازك ولو كان صغيرًا، وإياك أن تصنع له تمثالًا بين عينك يمنعك من رؤية الفرصة الجديدة.

لكي تحصل على روح الأمل والسعادة والمتعة عليك أن تتحقق بالإنجاز الدائم، وألا تتحول إلى راوية يتحدث عن إنجاز مضى، وكأنه كل ما يجب أن يكون.

اتصف بالتجدد والتحديث، فالإضافة والحذف، وإعادة الترتيب، ليست خاصة بمكتبك أو غرفتك، يجب أن تعملها أولًا في عقلك وخياراتك الفكرية، ولن تفعل ذلك بجدارة ما لم تكن أسبابك موصولة بقراءة متنوعة وانفتاح موزون، فكما كانت القراءة هي البدء «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» [العلق: ١].

فهي المختتم «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» [الحجر:٩٩].



فاصلة



لا باب يملكه.. ليواريه!
تظل أشياؤه مشرعةً بالذاكرة؛ حيث هي معلقة بأشخاصها وشخوصها وزواريبها.. عمره ممتد كشاهد على حكايات لم تنتهِ..لم يدونها.. ولم تجأر بعدُ ضارعةً؛ كي تكون سطرًا ممتدًا أمام الذين وصلوا إلى (هنا).
التشهد الأخير هو الآخر لم يُكتب بعد... ونقطة النهاية لم يقترف خطيئتها.. وبقية الكلمات حبيسة في فمه..
في منتصف ذاكرته يتوقف هنا:
أي حرف يمكن أن يكون نافذةً لائقة لعيونهم؟!
أي جسر يمكن أن يكون آمنًا لعبورهم ؟!
أي سطر يمكن أن يكون سحابةَ الارتواء لهم ؟!
وتتوالى الأسئلة.. ملقاةً في جيب الذاكرة المثقل بالأشياء والأسماء!

وتنثال بقية الأشياء مبعثرة لم يرتبها الزمن بعد.. ولم تؤرشفها الأيام..

هناك يجلس؛ يبري بقية أقلامه..

منتظرًا آخر الأوراق...

...

..

.

◆◆◆